شرح جوهرة التوحيد

للإمام العلامة الشيخ ابراهيم الباجوري

نسّقه وخرّج أحاديثه

محمد أديب الكيلاني
دبلوم في التربية الإسلامية

عبد الكريم تتان
مجاز في اللغة العربية وآدابها

راجعه وقدّم له

فضيلة الأستاذ عبد الكريم الرفاعي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين . وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين وبعد : فإني لما اطلعت على كتاب (شرح جوهرة التوحيد) الذي اختصر من حاشية الباجوري على جوهرة التوحيد رأيت فيه اختصاراً ووضوحاً كما رأيت فيه حسن تصنيفه وقربه للأفهام . ونرجو الله سبحانه أن يحفه بتمام الاخلاص وأن ينفع قارئه ومقرئه والناظر فيه وأن يكون حفظاً منيعاً للعقيدة في نفوس الناشئة يفهمون فيه مبادىء العقيدة الاسلامية . ويصلون به إلى أصولها ويتلمسون السلوك الفكري الذي يطابق الكتاب والسنة .. جعله الله مقبولاً ومنتفعاً به

والحمد لله رب العالمين

دمشق في ١٦ شعبان سنة ١٣٩١ هـ

عبد الكريم الرفاعي

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد في ذاته وصفاته وأفعاله ، حمداً يوصلنا إلى حقيقة توحيده ، والشكر على إنعامه وإفضاله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النور المبين ، الداعي إلى توحيد الملك الخلاق والذي جاءنا بأتم مكارم الأخلاق وأزال الله بدعوته ظلمات الشرك وظلم الإنسان لأخيه ، وجمع الله عليه - بما منحه من التواضع وحسن السيرة - قلوب أصحابه وتابعيه ، ودعانا للإيمان بالله والرغبة فيه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، لنكون من الفائزين برضوانه وقربه في الدنيا والآخرة وعلى آله وأصحابه الذين آمنوا به وبإخوانه المرسلين ، وجاهدوا في سبيل الله لإعلاء كلمته ، رغبة في الآخرة بدخول جنته ، وسلم تسليماً .

أما بعد :

فإن رسوخ العقيدة الإسلامية في قلب المؤمن هي السعادة العظمى في الدنيا والآخرة ، لأنها مبنية على توحيد الخالق والإيمان به وبرسله الذين جاءوا منقذين للبشر من أهوائهم وضلالاتهم .

هذا وإن من أجل فوائد علم التوحيد نفيه الشكوك والشبه وما

ذهب إليه علماء الطبيعة والفلاسفة ، وبذلك يعطي النفس راحة واطمئناناً في الحياة ولدينا من الأدلة والبراهين على ما جاء به الاسلام من صحة العقيدة بوحدانية الله في ذاته وصفاته وأفعاله بما نراه من الاثار الكونية ونظامها البديع المتناسق ، الذي يدل على عظمة الخالق وقدرته ، فإن المتحقق بحقيقة التوحيد يدفعه تحققه إلى طاعة ربه وتقواه لأن التقوى هي سبب محبة الله لعبده فلا شك أن الله إذا أحبه يتولاه ويكلؤه بعنايته كما جاء في الحديث « ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به إلى آخر الحديث » وقال تعالى « ومن يتق الله يجعل له فرقاناً » يستبين به العبد طرق الهداية وسبل الرشاد وقال تعالى « ومن يتق الله يجعل له نوراً يمشي به في الناس » ومن ثمرة نور التقوى التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والايقان بما عند الله من الكرامة للموقنين ، وهل رأيت موقناً فاقداً لهذا النور ؟ وقال ابن عطاء الله « إذا أشرق عليك نور اليقين رأيت الآخرة أقرب إليك من أن ترحل إليها » ، ولا يحصل الإيقان باطلاق عنان العقل في هذا الملك والملكوت وصحبة أهل التقوى واليقين ، فان البيئة ليست ألا محصة ومطهرة للقلب من الأدواء والشهوات وتحت ظلال التمحيص والتطهير يتربى الإيمان ويترعرع ويثمر اليقين الذي لا يمكن أن يحل في هذا القلب مع وجود الشكوك والشهوات ، ولا شيء أحرق للشهوات من الشوق والحنين الى الله تعالى والخوف منه كما جاء في الحكم العطائية « لا يخرج الشهوة من القلب إلا خوف مزعج أو شوق مقلق » ولا خوف ولا شوق ولا حنين إلا بالمعرفة الصحيحة التي تنفتح بها البصيرة على الله

وبسقط كل حجاب ويغدو الكون مظهراً لتجلي أسماء الله تعالى وصفاته.

المعرفة التي تشهد معنى قوله تعالى « كل شيء هالك إلا وجهه » وتشهد أيضاً أنّ « الله نور السموات والأرض » وأنّه « الحي القيومُ » .

المعرفة التي عناها ابن عطاء الله حيث قال « الكون كله ظلمة وإنما أناره ظهور الحق فيه ، فمـن رأى الكون ولم يشهده عنده أو قبله أو بعده ، فقد أعوزه وجود الأنوار ، وحجبت عنه شموس المعارف بسحب الآثار » المعرفة التي استنارت بالعزوف عن اللذات وإسهار الليل وإظماء النهار وسقتها دموع الندامة على ما فات ، ودموع الشوق لما هو آت ، ورعتها بيئة هدر لسانها لذيذ التسبيح ، وأنين التوبة في محراب السحر حتى تلألأت أنوار التوبة على التائبين والعطاء للسائلين والإجابة للداعين مع ثمرات القبول .

ولعلك تقول وهل في الوجود مثل هذه البيئة التي ذكرتها ؟ نعم فإن طائفة الحق ظاهرة حتى الساعة ، فإن لم تعثر عليها فكن أنت أول وافد على الله ، مقبل عليه لائذ بجنابه وسيقفو إثرك ثان وثالث . . . حتى يجمع الله القلوب على توحيده وما ذلك على الله بعزيز .

وهذا الكتاب الذي بين أيدينا بحث العقيدة بحثاً فكرياً وأثبتها إثباتاً اعتمد على النقل والعقل ، وقد بذل ما في الوسع لإخراجه كتاباً مبسطاً سهلاً يستطيع المسلم به تعلم أمور العقيدة فيخرج من التقليد في الإيمان ويستطيع أن يرد ما يعترضه من شبهات تلقى من شياطين الانس والجن .

وقد بسطنا البحث في بعض مسائل الكتاب لشدة خطرها وعظيم شأنها وذكرنا الأحاديث مسندة إلى مخرجيها والآيات مرقمة ، واعتمدنا في

شرحنا على شرح شيخ الإسلام الشيخ ابراهيم الباجوري رحمه الله تعالى فحذفنا ما فيه من لغة ونحو وبلاغة ، وأضفنا إليه ما وجدناه مناسباً للبحث من كتب أخرى أشرنا اليها في أماكنها .

وقد تكرم فضيلة الشيخ عبد الكريم الرفاعي حفظه الله تعالى - على قلة فراغه وكثرة أعماله بمراجعة الكتاب والتقديم له مما يجعلنا مطمئنين الى أنه بات خالياً من الأوشاب والأخطاء ، ولئن ظهر - بعد كل هذا - خطأ غير متعمد فقد أبى الله أن يعصم منه إلا كتابه الكريم .

وختاماً نسأله سبحانه وتعالى أن يكلأنا بحفظه ورعايته ويرعانا من مضلات الفتن ومدلهماتها . وأن ينفعنا بما علمنا إنه سميع قريب مجيب . والحمد لله رب العالمين .

بسم الله الرحمن الرحيم

● وابتدأ المؤلف بالبسملة اقتداءً بالكتاب العزيز ، ولقوله ﷺ

« كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِبِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فَهُوَ أَبْتَرُ » (١)

أي ناقصٌ وقليلُ البركة ، فهو وإنْ تم حساً فلا يتم معنىً ، والأمر ذو البال هو مايُهتم به شرعاً شريطةَ ألا يكونَ من سفاسف الأمور (كلُبس النعل والبُصاق وهلمّ جرّا) وألا يكونَ محرّماً لذاته (كالسرقة والزنا) ولا مكروهاً لذاته ، ولا ذِكراً محضاً (كالهيللة والحمدلة والحوقلة) ولا مما جعل له الشارعُ مبدأً غيرَ البسملة (كالصلاة فإنَّ مفتاحَها التكبير) فتحرم التسميةُ في المُحرَّم لذاته وتُكره في المكروه ، ولا تسنُّ في السفاسف ولا في الذكر المحض أما غيرُ المحض (كتلاوة القرآن الكريم) فتسنّ ، لاشتمال القرآن على التشريع الناظم لشؤون الحياة في كافة ميادينها ، وغيرِه ، وأما غيرُ المحرّم لذاته (كالوضوء بماءٍ مغصوب) فلا تحرم ، وغيرُ المكروه لذاته (كأكل البصل) فلا تكره..

«١» في فيض القدير ج ٥ ص ١٣ برقم ٦٢٨٤ وفي عجزه روايات « أبتر أو أقطع أو أجزم وكلها بمعنى واحد دال على النقصان وقلة البركة ، رواه أبو هريرة .

● واعلم أنّ الابتداء على ضربين : حقيقي : وهو الابتداء بالشيء أمام المقصود بحيث لايتقدم على ذلك الشيء شيءٌ ما ، وإضافيٌّ : وهو الابتداء بالشيء أمام المقصود سواءٌ تقدم على ذلك الشيء شيءٌ آخرُ غيرُ المقصود أم لم يتقدم ، فحُملت البسملةُ على الابتداء الحقيقي كما حُملت الحمدلةُ في حديث ﷺ

« كُلُّ أَمرٍ ذي بالٍ لايُبدأُ فيهِ بالحمدُ للهِ فَهوَ أَبتَرُ » (١)

على الإضافي ، لذا قال الناظم بعد أنْ سمّى : « الحمدُ لله على صلاته » ، واستَنَدَ في حَمْلِهِ هذا على القرآن الكريم ، لأنه ابتدأ ابتداءً حقيقيـاً بالبسملة وإضافياً بالحمد لله .

● ولما كانت الباء (٢) من حروف المعاني اختلف العلماء في تحديد معناها ، فقيل هي المصاحبة على وجه التبرك ، ولا يَسوغُ جعلُهـا للاستعانة ، لأن الاستعانة َ إنما تكون بذات الله سبحانه وليس بأسمائه ، ولأن باء الاستعانة إنما تدخل على الآلة كما في « كَتبتُ بالقلم » فيكون اسمُ الله مقصوداً لغيره ، وفيه سوء أدب ● وقيل : هي للاستعانـة على وجه التبرك ، ورد القائلون بهـذا على ماورد : بأنه لامانعَ من

«١» في فيض القدير ج ٥ ص ١٣ برقم ٦٢٨٣ وهو حديث حسن ، قاله النووي بعد سوقه هذا الحديث والذي قبله .

«٢» أصح ما قيل في متعلق الباء أنه يقدر فعلا لا إسماً ، لأن الأصل في العمل للأفعال ، ويقدر متأخراً لكي لا يتقدم على اسم الله تعالى شيءٌ لا في اللفظ ولا في التقدير ، والتقدير هنا « بسم الله أؤلف » أي أؤلف مصاحباً أو مستعيناً باسم الله .

الاستعانة بالأسماء كما يستعان بالذات ، كيف وقد ورد في الحديث الشريف (وإذا استعَنْتَ فاستعِنْ بالله) (١)

وأن معنى الاستعانة باسمه تعالى أن الأمر المشروع فيه لايتم على وجهه الأكمل ، إلا باسمه تعالى ● والاسم هو مادل على مسمى ، فإن أريد به مدلوله كان عينَ مسماه ، وهو مشتق إمـا من السمو ، لعلوه على مسماه ، أو من السمة لكونه علامة على مسماه ● والله(٢) : علم على الذات الواجب الوجود المستحق لجميع المحامد ، وهو علم لا بالغلبة (٣) ، واختار الجمهور أنه اسم الله الأعظم ، وإنما تخلفت الإجابة عند الدعاء به من بعض الناس لتخلف شروط الإجابة التي من أجلها أكل الحلال ، واختار النووي أنه الحي القيوم (٤) .

«١» وهو قطعة من حديث رواه الترمذي عن عبد الله بن عباس ، وقال : عنه حديث حسن ـ صحيح .

«٢» ذكر ابن عابدين في حاشيته الشهيرة أنه لا ذكر عند العلماء لصاحب مقام فوق الذكر بالاسم المفرد « الله » ، وذكر العلامة الخادمي نحوه ثم قال « وقال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم « قل الله ثم ذرهم » .

«٣» العلم بالغلبة هو الاسم الغالب لبعض ما هو له في الأصل ، كغلبة البيت للكعبة والمدينة لطيبة .

«٤» عن أبي أمامة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب في ثلاث سور في القرآن ، في البقرة ، وآل عمران ، وطه . كنز العمال ص ٥١ ؛ ج ١ .

● الرحمن الرحيم : صفتان مشبهتان اشتُقتا من الرحمة ، لامعناها الأصلي الذي هو : رقةٌ في القلب تقتضي التفضلَ والإحسانَ ، لاستحالة ذلك في حقه سبحانه ، وإنما بمعنى الإحسان أو إرادته [١] ، فهما بمعنى المحسن أو مريد الإحسان ، لكن « الرحمنُ » بمعنى المحسن بجلائل النعم « والرحيمُ » بمعنى المحسن بدقائقها ، وإنّما جمع بينهما إشارةً إلى أنه لاينبغي أن تُطلب النعمُ إلا منه تعالى ، سواءٌ كانت بسيطة أو عظيمة ، فكلاهما منه وحده . ولقد كان الصحابة رضي الله عنهم يسألون اللهَ كلَّ شيء حتى شراكَ النعل .

«١» الإحسان صفة الفعل ،وهي عبارة عن تعلق القدرة التنجيزي الحادث وإرادته صفة ذات .

١ـ الحمدُ للهِ على صِلاتِه ... ثمَّ سلامُ اللهِ معْ صلاتِهِ

● الحمدُ لله : الحمدُ لغةً : وهو الثناء بالكلام على الجميل الاختياري على جهة التعظيم والتبجيل ، سواء كان في مقابلةِ نعمةٍ أم لا ● والمدح لغةً : هو الوصف بالجميل على الجميل مطلقاً ، لافرقَ في كونه اختيارياً أو اضطرارياً ، ولا فرقَ في كون الممدوح من ذوي العلم أو لا ، كما في مدح الجوهرة لصفاء لونها ، ولا فرقَ في كونه في مقـابَلةِ نعمةٍ أو لا ● والشكر لغةً : هو فعلٌ يُنبيءُ عن تعظيم المُنْعِم من حيثُ كونهُ مُنعِماً على الشاكر أو غيره سواءٌ كان ذلك قولاً أو إعتقاداً أو عملاً بالجوارح ، فهو أعم من سابقَيهِ لكونِهما لايتعديان الكلامَ ، وهو قولٌ وفعل واعتقـاد ، وأخصُ من سابِقَيه بأنه لايكونُ إلا مقابَلة نعمةٍ من المشكور ، سواء أعادتْ على الشاكر أو على غيره ، وهمـا يكونان في نعمة وغيرها .

● والثناء لغةً : هو فعلُ مايُشعرُ بتعظيم المُثنى عليـــه ، ولم يُشترط فيهِ كونُه في مقابلةِ نعمةٍ ، فهو أعمُ الجميع .

● وقد اشتُهِر أن الحمد عُرفاً : هو نفسُ الشكرِ لغةً ، والشكر عُرفاً هو : « صَرفُ العبدِ جميعَ ما أنعمَ اللهُ عليه به فيما خُلق من أجله » ● والحمد إما أن يكون قديـاً ، كحمده تعالى نفسه أو حمده تعالى رسله وعباده الصالحين ، أو يكون حادثاً ، كحمدنا لله سبحانه أو حمد بعضنا لبعض ● وأل في الحمـد إما للاستغراق [1] ، أو للجنس أو

«١» أل الجنسية إما لاستغراق الأفراد جنساً أو لاستغراقهم من جهة الخصائص ولو في واحدة ، وإما لتعريف الماهية . فالأول كقوله تعالى « وخلق الإنسان ضعيفاً » ـ

العهد . واللام في لله إما للاستحقاق [1] أو للاختصاص ، ويجوز للملك .
إن لم نجعل أل عهدية ، لئلا يترتب تمليك الحمد القديم ، وهو لايملك ،
فإن جعلنا المعهود حمد من يعتد بحمده ساغ .

● على صلاته : الصلاة جمع صلة ، وهي العطية ، والحمد على الصلات إما بمعنى العطايا فيكون حمداً على الصفة بواسطة ، أو بمعنى الاعطاء ، وهو أولى ، لأنه حمد على الصفة بلا واسطة .

ثم سلام الله : أي تحيته اللائقة به ﷺ بحسب ما عنده تعالى كما تشعر به إضافته له تعالى ، فالمطلوب تحية عظمى بلغت الدرجة القصوى وتكون أعظم التحيات لأنه ﷺ أعظم المخلوقات ● والمراد بالتحية أن يسمعه كلامه القديم الدال على رفعة مقامه العظيم . ولم يرتض بعضهم تفسير السلام بالأمان ، لأنه ربما أشعر بمظنة الخوف مع أن أتباعه « لاخوف عليهم ولا هم يحزنون » .
نعم يخاف ﷺ لكنه خوف مهابة وإجلال لذلك قال :

- والثاني كقوله تعالى « ذلك الكتاب لا ريب فيه » فقد نزل غيره منزلة العدم ، والثالث كقوله تعالى « وجعلنا من الماء كل شيء حي » . وأل العهدية إما أن يكون مصحوبها معهوداً ذكرياً كقوله تعالى « مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح في زجاجة » أو معهوداً ذهنياً كقوله تعالى « إذ هما في الغار » فلفظ الغار لم يذكر من قبل .

«١» لام الاستحقاق هي الواقعة بين معنى وذات كقوله تعالى « ولله العزة » أو « والأمر يومئذ لله » ولام الاختصاص هي الواقعة بين ذاتين لاتملك إحداهما الأخرى نحو « السرج للدابة أو الحصير للمسجد » ، ولام الملك هي الواقعة بين ذاتين تقبل إحداهما التمليك ، كقوله تعالى « له ما في السموات وما في الارض » .

« إني لأخوفكم من الله » [1] .

● مع « صلاته [2] » أي رحمته المقرونة بالتعظيم ، وهذا هو اللائق بالمقام ، وقيل : هي مطلق الرحمة سواء قرنت بالتعظيم أم لم تقرن ، وهذا بيان للصلاة مع قطع النظر عن المقام .

● وفسر الجمهور الصلاة ، بأنها من الله الرحمة ومن الملائكة الاستغفار ومن غيرهم - ولو حجراً أو مدراً أو شجراً - التضرع والدعـاء ، فقد ورد أنها صلت عليه ﷺ مع أن المشهور سلامها فقط ، وإن شئت قلت : هي من الله الرحمة ومن غيره الدعاء .

● واختلف العلماء في انتفاعه ﷺ بصلاتنا عليه ، فقيل : ينتفع كباقي الأنبياء ، لكن لا ينبغي التصريح بذلك إلا في مقام التعليم ، وقيل : المنفعة تعود للمصلي ، لأنه ﷺ أفرغت عليه جميع الكمالات ، ورد بأنه ما من كمال إلا وعند الله أكمل منه .

« ١ » وفي البخاري عن عائشة « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أمرهم أمرهم من الأعمال بما يطيقون، قالوا : إنا لسنا كهيأتك يارسول الله إن الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، فيغضب حتى يعرف الغضب في وجهه ثم يقول : إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا . وعن أبي « أنا أعرفكم بالله . كشف الخفاء ص ٦٠٧ ج ١ وعن أنس « أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له ، لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني » هداية الباري ص ١٢٧ ج ١ .

« ٢ » إنما قدم السلام على الصلاة خلافاً لعرف الاستعمال لضرورة النظم . وقد أشار إلى مقام الصلاة بإدخال « مع » عليها ، وهي تدخل على المتبوع دون التابع ، تقول حضر الوزير مع السلطان .

والكامل يقبل الزيادة في الكمال ● وغاية الأمر أنه لا ينبغي للمصلي أن يلاحظ انتفاعه ﷺ بل نلاحظ أنه يتقرب بالصلاة إلى الله تعالى .

● ملاحظة : قال النووي : يستحب الحمد في ابتداء الكتب المصنفة ودرس المدرسين وقراءة الطالبين بين يدي معلميهم ، وأحسن العبارات «الحمد لله رب العالمين»

● فائدة : إن إثبات الصلاة والسلام في صدر الكتب والرسائل حدث في ولاية بني هاشم ، ثم مضى العمل على استحبابه ، ومن العلماء من يختتم بها كتابه .

٣ - عَلى نَبيٍ جَاءَ بالتَّوحِيدِ وَقَدْ خَلا الدِّينُ عَنِ التَّوحِيدِ

● على نبي : (١)

النبي مشتق من النبأ أي الخبر ، فهو بمعنى مخبر عن الله إن كان مع نبوته رسولاً ، أو مخبر عن حال نفسه إن لم يكن رسولاً يحتوهمه الناس وفي كلا الحالين ينزل عليه ملك الوحي يخبره عن الله تعالى ، فعلى هذا هو مخبر ● أما لو قلنا : إنه مشتق من النبوة أي الارتفاع ، فبمعنى رافع ومرفوع ، لأنه رافع لشأن من اتبعه على غيره ممن لم يتبعه ، قال تعالى :

«وجاعِلُ الذينَ اتَّبعوكَ فَوقَ الذينَ كَفَرُوا» (٢)

ولأنه مرفوع المنزلة .

● وقد عبر المصنف بلفظ النبي ولم يعبر بالرسول للآية الكريمة :

«إنَّ اللهَ وملائكتَهُ يُصلُّون على النَّبيِّ» (٣)

وإشارة ألى أنه ﷺ يستحق الصلاة والسلام بعنوان النبوة التي هي أعم من الرسالة ، فيكون مستحقاً لها بعنوان الرسالة من باب أولى ، فإن الرسالة حيث وجدت وجدت النبوة ، ولا عكس ● وعرّفوا النبي بأنه : إنسان ذكر ، حر ، سليم عن منفر طبعا ، أوحي إليه بشرع يعمل به ، وإن لم يؤمر بتبليغه ، والرسول يعرف بهذا إلا أننا نقول : وأوحي إليه بشرع يعمل به ، وأمر بتبليغه .

● وبناء على التعريف السالف يخرج الجن والملائكة وبقية الحيوانات والإناث ، وكفر من قال : إن معنى قوله تعالى :

«١» الجار والمجرور متعلقان بخبر محذوف المبتدأ في البيت السابق والتقدير الصلاة والسلام كائنان على نبي .

«٢» آل عمران ٥٥ .

«٣» الأحزاب ٥٦ .

« وإن من أمة إلا خلا فيها نذير » (١)

أن في كل جماعة من الحيوانات رسولاً ● والقول بنبوة مريم وآسية وحواء وأم موسى وهاجر وسارة مرجوح ، قال صاحب « بدء الأمالي » وما كانت نبياً قط أنثى ● والقمان لم يكن نبياً بل تلميذ الأنبياء ● ومن كان فيه منفر كعمى وبرص وجذام فلا يكون نبياً ولا رسولاً ، وأما بلاء أيوب وعمى يعقوب فهما أمران ظاهريان ، أو أنهما حصلا بعد تقرر النبوة ، والكلام فيما قارنها ● وأما قوله تعالى :

« يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم » (٢)

فمعناه ألم يأتكم رسل من بعضكم أي الإنس ، وأما قوله تعالى :

« الله يصطفي من الملائكة رسلاً » (٣)

فمعناه يصطفي سفراء بينه وبين أنبيائه ليبلغوهم عنه سبحانه شرائعه وأحكامه ● وقد اختلف في عدد الأنبياء والرسل فقيل : مائة وأربعة وعشرون ألف نبي ، وثلاثمائة وثلاثة عشر رسولاً ، لكن الأسلم أن نمسك عن ذلك ، لقوله تعالى لنبيه ﷺ :

« منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك » (٤)

● جاء بالتوحيد : المراد بالمجيء الارسال ، والمراد بالنبي المرسل نبينا ﷺ ، والجملة المخصصة بأن نبينا هو المراد قوله : « وقد خلا الدين عن التوحيد » ، لأنه لم يأت نبي بالتوحيد في حال خلو الدين عنه إلا هو

«١» فاطر ٢٤ .
«٢» الأنعام ١٣٠ .
«٣» الحج ٧٥ .
«٤» غافر ٧٨ .

ﷺ • وقد أرسله الله تعالى على رأس الأربعين سنة إلى جميع المكلفين من الانس والجن ، أما الملائكة فقد أرسل إليهم إرسال تشريف ، لأن طاعتهم جبليَّة لا يكلفون بها ، هذا ما اعتمده الرملي في شرح المنهاج • وكونه ﷺ مرسلا لكافة الانس والجن مجمع عليه ، ومعلوم من الدين بالضرورة ، فيكفر منكره • والتعبير برأس الأربعين يفيد أنه بعث عند استكمالها من غير زيادة ولا نقصان ، وهو الصحيح الذي عليه الجمهور . والصحيح أن نبوته ورسالته ﷺ مقترنتان • وإنما كان الارسال على رأس الأربعين لأنه العادة المستمرة في معظم الأنبياء ، أو جميعهم ، كما جزم به كثيرون ، منهم شيخ الاسلام في حواشي البيضاوي . وإنما استدلوا بالعادة المستمرة ، ولم يستدلوا بحديث :

« ما نُبِّئَ نَبِيٌّ إلا على رأس الأربعين سنة » (١)

لعد ابن الجوزي له في الموضوعات . وذكر العلامة الشيخ الأمير والعلامة الشيخ الشنواني : أن الحق هو أن هذا السن غالب فقط في النبوة ، وإلا فقد نبيء عيسى ورفع إلى السماء وكان عمره ثلاثاً وثلاثين سنة ، ونبيء يحيى صبياً ، بناء على أن الحكم الذي أوتيه صبياً هو النبوة . لكن ذكر في حواشي التفسير نقلا عن المواهب : أن هذا خلاف التحقيق ،

«١» جزم ابن الجوزي بوضعه ، وقال القاري ويعارضه قوله تعالى في يحيى « وآتيناه الحكم صبياً » وفي يوسف « وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا » ولو ثبت يحمل على الغالب . انظر كشف الخفاء ص ٢٧١ ج ٢ رقم ٢٢٤٨ .

وقالوا : الصحيح أن عيسى ما رفع إلا بعد مضي ثمانين سنة من النبوة ، وبعد نزوله من السماء يعيش أربعين سنة [1] .

● أما قوله تعالى عن يحيى :

« وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا » [2] .

فالمراد بالحكم العلم والمعرفة لا النبوة ، وأما قوله عن عيسى :

« آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا » [3] .

فمعنى جعلني : سيجعلني ، ومعنى آتاني : سيؤتيني ، كما في قوله تعالى :

« أَتَى أَمْرُ اللَّهِ » [4] .

بمعنى سيأتي ● وقد أرسل النبي ﷺ بطلب التوحيد . والتوحيد لغة هو العلم بأن الشيء واحد وشرعاً هو إفراد المعبود بالعبادة مع اعتقاد وحدته والتصديق بها ذاتاً وصفات وأفعالاً فليس ثمة ذات تشبه ذاته تعالى ، إذ لا تقبل ذاته الانقسام لا فعلاً ولا وهماً ولا فرضاً مطابقاً للواقع ، ولا تشبه صفاته الصفات ، ولا تعددفيها من جنس واحد بأن يكون له تعالى قدرتان أو علمان مثلاً .

«١» روى أبو نعيم عن زيد بن أرقم « ما بعث الله نبياً إلا عاش نصف ما عاش النبي قبله ، قال العجلوني : وسنده حسن لاعتضاده . وأخرج الطبراني في الكبير بسند رجاله ثقات عن فاطمة بنت الحسين بن علي أن عائشة كانت تقول إن رسول الله قال في مرضه الذي قبض فيه لفاطمة : إن جبريل كان يعارضني القرآن في كل عام مرة ، وانه عارضني بالقرآن العام مرتين إلى أن قال : وأخبرني أن عيسى ابن مريم عاش عشرين ومائة سنة ولا أراني إلا ذاهباً على رأس الستين . فبكيت »انظر كشف الخفاء ص ٢٥٥ ج ١ برقم ٢١٩٢ .

«٢» مريم ١٢ . «٣» مريم ٣٠ . «٤» نحل ١ .

ولا يدخل في أفعاله الاشتراك ، إذ لا فعل لغيره سبحانه خلقاً أو إيجاداً ، وإن نسب إلى غيره كسبا واكتسابا ● وقيل: التوحيد هو إثبات ذات غير مشبهة للذوات ولا معطلة عن الصفات ● وخص الناظم التوحيد بالذكر ـ مع أنـه ﷺ أتى بنظام شامل للحياة كلها ـ لأنه أشرف العبادات ويليه الصلاة ● وله تعريف شرعي بأنه علم يقتدر به على إثبات العقائد الدينية من أدلتها اليقينية ● وموضوعه ذات الله تعالى من حيث ما يجب له وما يستحيل عليه وما يجوز في حقه وذات الرسل كذلك ، والممكنات من حيث إنه يتوصل بها إلى وجود صانعها ، والسمعيات من حيث اعتقادها ● وثمرته معرفة الله تعالى بالبراهين القطعية والفوز بالسعادة الأبدية ● وفضله أنه أشرف العلوم لكونه متعلقاً بذات الله تعالى وذوات رسله فهو أصل لما سواه ، والذي حرر أدلته وألف كتبه ورد الشبه عنه أبو الحسن الأشعري ومن تبعه وأبو منصور الماتريدي ومن تبعه . وقد أتى بالتوحيد كل نبي من لدن آدم عليه الصلاة والسلام ● وسمي علم التوحيد لأن مبحث الوحدانية أشهر مباحثه ، ويسمى علم الكلام أيضاً ● واستمد من الأدلة العقلية والنقلية ● وأما حكم الشارع فيه فالوجوب العيني على كل مكلف من ذكر أو انثى ● وأما مسائله فهي قضاياه الباحثة عن الواجبات والجائزات والمستحيلات .

● وعبارته « قد خلا الدين عن التوحيد » : تقتضي أن ما عليه عبدة الأصنام يسمى دينا ، وهو كذلك ، لأن الدين ما يتدين به ، ولو باطلا . كما يدل له قوله تعالى :

وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ، وهو في الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ » (١)

● ويطلق الدين لغة على عدة معان منها : الطاعة ، والعبـــادة ، والجزاء والحساب ، واصطلاحاً : هو ما شرعه الله تعالى على لسان نبيه من الأحكام ● وسمي ديناً : لأننا ندين له وننقاد ، وملة : من حيث إن الملك يمليه على الرسول وهو يمليه علينا ، وشرعاً وشريعة : من حيث إن الله قد شرعه لنا أي بينه على لسان نبيه ، فالله تعالى هو الشارع حقيقة في كل ما يأتينا به النبي ، « ولما كان القرآن الكريم منزلاً على النبي ﷺ كان النبي طريقاً في البيان فأسند إليه الشرع بمعنى تبيين الأحكام » (٢) .

● والأحكام الفقهية الاجتهادية : من الدين قطعاً ، وهي موضوع إلهي غاية الأمر أنه يخفى علينا ، والمجتهدون يعاونون إظهارها والاستدلال عليها بقواعد الشرع ، ولا دخل لهم في وضعها ألبتة .

---

(١) آل عمران ٨٥ .

(٢) من تقريرات الأجوري بتصرف ص ١٠ .

٣ـ فَأَرْشَدَ الخَلْقَ لِدِينِ الحَقِّ بِسَيْفِهِ وَهَدْيِهِ لِلْحَقِّ

● فأرشد الخلق : أي جاء بالتوحيد فأرشد الخلق بسيفه ، ويقتضي أنه أرشد بالسيف عقب الإرسال ، لأن الفاء تقتضي التعقيب مع أنه لم يشرع الجهاد إلا في صفر من السنة الثانية للهجرة ، كما نبه عليه في السيرة الحلبية . وأجيب بأن التعقيب في كل شيء بحسبه ، تقول : جاء فسلم ، وتزوج فولد له ولد ، أو يجاب بأن الفاء بمعنى ثم في تفيد الترتيب والتراخي كقوله تعالى :

• ﴿ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ﴾ (١)

● ومعنى الإرشاد إما تصييرهم راشدين ، فيكون خاصاً بن آمن ، أو بمعنى الدلالة لهم على الهداية ، فيكون عاماً بن آمن وبن لم يؤمن . والخلق : جميع الثقلين الانس والجن إجماعاً ، وكذا الملائكة بناء على أنه مرسل اليهم إرسال تكليف خلافاً للراجح من أنه إرسال تشريف .

● وانما استقام العموم في الخلق مع أنه ﷺ لم يرشد من لم يجتمع به لكون الارشاد أعم من أن يكون بنفسه أو بواسطة ، كمن جاء بعده أو كان في زمنه ولم يجتمع به ، وقد قال ﷺ

• لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ مِنْكُمُ الغَائِبَ فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ • (٢)

---

(١) سورة الأعلى ٤ - ٥ .

(٢) رواه الترمذي عن عبد الله بن مسعود ج ٧ برقم ٣٦٥٩ وج ٣ برقم ٨٠٩ .

● لدين الحق : الحق هنا : هو اسم الله تعالى ، ومعناه المتحقق وجوده دائماً وأبداً بحيث لا يسبقه عدم ولا يلحقه عدم .

● بسيفه [1] : السيف هو آلة الجهاد التي يباح قتال الحربيين بها حتى الحجارة ، فقد رمى ﷺ بالحجر يوم أحد . وقد كان له سيوف متعددة ، منها المأثورة ، وهو أول سيف ملكه إذ ورثه عن أبيه ، ومنها القضيب ، وذو الفقار ، وقد دفع لعكاشة جزل حطب حين انكسر سيفه يوم بدر ، وقال : اضرب به ، فعاد في يده سيفاً صارماً طويلاً أبيض شديد المتن فقاتل به [2] ● والمراد بالسيف هنا السيف الذي جاء بمشروعية مقاتلة أعداء الله ، سواء كان بيده ، أو بيد من تبعه ، ولو إلى يوم القيامة . وقد أرشد النبي الخلق لدين الله حال كونه متلبساً بسيفه ، لأن الارشاد والدلالة ليسا بالسيف قطعاً بل باللسان .

● وهديه الحق : حمل بعضهم الهدي على القرآن الكريم والسنة الشريفة ، فقد كان ﷺ يراسل الناس أولاً بالقرآن والدعوة للاسلام ،

---

(١) الجار والمجرور متعلقان بحال محذوفة من فاعل أرشد ، والتقدير أرشد الخلق حال كونه متلبساً بسيفه .

(٢) قال ابن إسحق وقاتل عكاشة بن محصن الأسدي يوم بدر بسيفه حتى انقطع في يده فأتى رسول الله فأعطاه جزلا من حطب فقال له قاتل به ، فهزه فعاد في يده سيفاً طويل القامة شديد المتن أبيض الحديد فقاتل به حتى فتح الله على المسلمين ، وكان يسمى ذلك السيف العون ، ثم لم يزل عنده يشهد به المشاهد مع الرسول صلى الله عليه وسلم حتى قتل « عن الأنوار المحمدية »

فإن أجابوا للاسلام فظاهر ، وإلا أعلمهم بالتهيؤ للجهاد . وهكذا خلفاؤه وأصحابه من بعده ● وقد قدم الناظم السيف على الهدي مع أن الهدي سابق على الجهاد – بل لم يتوان الرسول ﷺ لحظة واحدة عن أن يبلغ منذ ابتعثه الله سبحانه – لأن للجهاد أهمية عظمى ، ولأن ما جاء به لايظهر إلا بالجهاد خصوصاً في مبدأ دعوته [1] .

---

(1) عن ابن عمر قال صلى الله عليه وسلم : « بني الإسلام على خصال ، شهادة أن لا إله الا الله وأن محمداً رسول الله ، والإقرار بما جاء من عند الله ، والجهاد ماض منذ بعث رسله إلى آخر عصابة تكون من المسلمين يقاتلون الدجال لا ينقضهم جور من جار ولا عدل من عدل وأهل لا إله إلا الله فلا تكفروهم بذنب ، ولا تشهدوا عليهم بشرك والقدر خيره وشره من الله تعالى » كنز العمال ص ٢٩ جزء أول الحديث رقم ٣٠ .

٤ـ مُحَمَّدُ العَاقِبُ لِرُسْلِ رَبِّهِ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَحِزْبِهِ

● محمد : علم منقول من اسم مفعول الضعف ، (حمَّد) فهو أبلغ من محمود[(١)] ، والرسول ﷺ أجل من حمد وأعظم من حمد . وهذا الاسم أشرف أسمائه ، وهي توقيفية باتفاق ، أما أسماؤه تعالى ففيهـا خلاف ، والراجح أنها توقيفية ، والحكمة في ذلك أنه ﷺ بشر فربما تسوهل في شأنه فأطلق عليه مالا يليق ، فسدت الذريعة باتفاق ، وأما مقام الألوهية فلا يتجاسر عليه أحد ، فلذلك قيل بعدم التوقيف ● والمسمي له ﷺ بذلك الاسم جده على الصحيح ، وقيل : أمه ، وجمع بأنهـا أشارت عليه بالتسمية بسبب ماراته من أن شخصاً يقول لها : فاذا ولدتيه فسميه محمداً[(٢)] فلما أخبرته بذلك سماه محمداً رجاء أن يحمد في السماء والأرض ، وقد حقق الله تعالى رجاءه كما سبق في علمه تعالى ● والمسمي له به حقيقة هو الله تعالى لأنه أظهر اسمه قبل ولادته في الكتب السماوية ، فهو بتوقيف شرعي . قال تعالى على لسان السيد المسيح :

« وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ » [(٣)]

---

(١) محمود مشتق من حمد ، ولا يخفى ما في صيغه حمد من المبالغة . وأحمد يفيد المبالغة في الحامدية ومحمد يفيدها في المحمودية .

(٢) لم يسم بهذا الاسم قبله صلى الله عليه وسلم إلاثلاثة طمع آباؤهم حين سمعوا بذكر رسول قرب زمانه أن يكون ولداً لهم . وفي السيرة الحلبية ص ٨٧ ج ١ بحث مستفيض حول تسميته ، وفي تهذيب سيرة ابن هشام ص ٣٦ ج١ ذكر الهواتف التي سمعتها أمه وهي به حامل « إنك قد حملت بسيد هذه الأمة ، فإذا وقع إلى الأرض فقولي أعيذه بالواحد من شر كل حاسد ! ثم سميه محمداً » .

(٣) صورة الصف ٦

● العاقب [1] : انما كان ﷺ العاقب لرسل ربه ليكون شرعه ناسخاً الشرائع التي قبله ، ولأنه الثمرة العظمى ، إذ هو المقصود من هذا العالم ، والثمرة في الأشياء لاتأتي إلا آخرها ، ولا ينافي نزول السيد المسيح في آخر الزمن ، لانه سيحكم بالاسلام [2] .

● وكما أنه خاتم الرسل هو خاتم للانبياء ، وقد اقتصر المصنف على ذكر الرسل دون الأنبياء وهو يريد العاقب لرسل ربه وأنبيائه على حد قوله تعالى :

« سَرابِيلَ تَقيكُمُ الحرَّ » [3]

(١) قال صلى الله وسلم : إن لي أسماء : أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي محا الله بي الكفر وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي وأنا العاقب. في الشمائل ص ١٩٦ والترمذي برقم ٢٨٤٢ .

(٢) عن أبي هريرة أن النبي قال : ليس بيني وبينه نبي (يعني عيسى) ، وإنه نازل فإذا رأيتموه فاعرفوه : رجل مربوع إلى الحمرة والبياض ، بين ممصرتين ، كأن رأسه يقطر ، وإن لم يصبه بلل ، فيقاتل الناس على الاسلام ، فيدق الصليب ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ويهلك في الله في زمانه الملل إلا الإسلام ويهلك المسيح الدجال فيمكث في الأرض أربعين سنة ثم يتوفى فيصلي عليه المسلمون » رواه أبو داوود وابن أبي شيبة وأحمد وابن حبان وابن جرير ، وفي لفظ ابن جرير : (ويهلك الله في زمانه مسيح الضلالة الكذاب الدجال) وفي آخره (فيصلي عليه المسلمون ويدفنونه) وصححه الحافظ ابن حجر في فتح الباري .

(٣) النحل ٨١ .

أي والبرد ، واقتصر على ذكر الرسل – مع أنه لا يلزم من ختم الأخص الذين هم الرسل ختم الأعم الذين هم الأنبياء – حملاً على قول السعد من تساوي الرسول والنبي ● وإنما اختار التعبير بالرسل لأنه أمدح : فإن الرسالة أشرف من النبوة لجمعها بين الحق والخلق خلافاً للعز بن عبد السلام في قوله : إن النبوة أفضل لأن فيها انصرافاً من الخلق الى حضرة الحق ، والرسالة فيها انصراف من حضرة الحق إلى الخلق ، ورد هذا التفضيل بأن الرسالة فيها الجمع بينهما .

● ربه : أي خالقه أو مالكه أو نحو ذلك من معاني الرب[1] .

● وآله : أي وسلام الله مع صلاته على آله . والآل له معان باعتبار المقامات ، ففي الدعاء – كما هنا – كل مؤمن ولو عاصياً ، وفي المدح كل مؤمن تقي أخذاً بما ورد :

(آل محمد كلُّ تقيٍّ)[2]

وإن كان ضعيفاً ، وأما : « أنا جدُّ كلِّ تقيٍّ » . فلم يرد .

● وفي مقام الزكاة بنو هاشم وبنو المطلب عندنا معاشر الشافعية ، وبنو هاشم فقط عند السادة المالكية والحنابلة ، وخص الحنفية فرقاً خمساً

(١) في الصحاح « والرب اسم من أسماء الله تعالى ، ولا يقال في غيره – إلا إن أضيف أو جمع – خاصة إن عرف . وقال القرطبي معنى الرب : المالك والسيد والمصلح والمدبر والجابر والقائم والمعبود ، فعلى أنه مدبر لخلقه ومربيهم يكون صفة فعل وعلى أنه مالكهم وسيدهم يكون صفة ذات . وقال الهروي : يقال لمن قام بإصلاح شيء وإتمامه . وقال بعض العلماء إن هذا الاسم هو اسم الله الأعظم لما يشعر به هذا الوصف من الصلة بين الرب والمربوب .

(٢) في فيض القدير ص ٥٥ ج ١ عن أنس ، قال السخاوي : أسانيده كلها ضعيفة.

وآل علي وآل جعفر وآل عقيل وآل العباس وآل الحارث ، ● والصلاة على غير الأنبياء والملائكة تبعاً جائزة اتفاقاً ، بل مطلوبة للنبي عن الصلاة البتراء ، وهي التي لم يذكر فيها الآل ● اما الصلاة استقلالاً فقيل بمنعها ، وقيل بكراهتها ، وقيل بأنها خلاف الأولى والأصح الكراهة .

● وصحبه : خصهم مع دخولهم في الآل بالمعنى الأعم لمزيد الاهتمام . والصاحب لغة : من طالت عشرتك به ، والمراد هنا الصحابي وهو : من اجتمع بنبينا ﷺ مؤمناً به ، بعد البعثة ، في محل التعارف ، بأن يكون على وجه الأرض ، وإن لم يره ، أو لم يَروِ عنه شيئاً ، أو لم يميز على الصحيح ، وأما قولهم : « ومات على الاسلام » فهو شرط لدوام الصحبة لا لأصلها . فإن ارتد (والعياذ بالله) ومات مرتداً ، فليس بصحابي كعبد الله بن خطَل ، وأما من عاد إلى الايمان كعبد الله بن أبي سرح فتعود له الصحبة ، لكن مجردة من الثواب عندنا معاشر الشافعية ، واشهر أنها لاتعود عند المالكية ، لكن المصرح به في كتبهم التردد . وفائدة عودها التسمية والكفاءة ، فيسمى صحابياً ، ويكون كفؤاً لبنت الصحابي ● ويدخل في الصحابي عبد الله بن أم مكتوم أحد المؤذنين لرسول الله ﷺ ، ونحو ابن أم مكتوم من العميان ، وتدخل الملائكة الذين اجتمعوا بـه ﷺ في الأرض . وعيسى عليه الصلاة والسلام آخر الصحابة من البشر الظاهرين[1] ، وأما الملائكة فباقون إلى النفخة .

---

(١) عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ينزل عيسى بن مريم فيقتل الدجال ويمكث أربعين عاماً يعمل فيهم بكتاب الله وسنتي ، ويموت فيستخلفون بأمر عيسى رجلاً من بني تميم يقال له : المقعد فإذا مات المقعد لم يأت على الناس ثلاث سنين حتى يرفع القرآن من صدور الرجال ومصاحفهم أخرجه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب الفتن (انظر كتاب التصريح بما تواتر في نزول المسيح ص ٢٣٢) .

● وحزبه : أي جماعته . والحزب الجماعة الذين أمرهم واحد في خير أو في شر ، ومنه قوله تعالى :

« كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ » (١)

والظاهر أن المراد به هنا من غلبت ملازمتـــه له ﷺ لأنهم أخص من الصحب الذين هم أخص من الآل ، ويحتمل أن يراد به أتباعه مطلقاً ، سواء كانوا في عصره أم لا ، وهو الأولى ، لما فيه من التعميم ، ولا يغني عنه الآل لتخصيص بعضهم له بالأتقياء .

---

(١) الروم ٣٢ .

٥ـ وبعدُ فالعلمُ بأصلِ الدينِ محتّمٌ يحتـاجُ للتبيينِ

● وبعد فالعلم: أي وبعد البسملة والحمدلة والصلاة والسلام فأقول:

إن العلم بأصل الدين محتم ● والعلم هو إدراك الشيء بحقيقته ، كما قاله الراغب ، وهو كقول شيخ الإسلام : إدراك الشيء على ما هو بـه ، ويطلق حقيقة عرفية : أولاً ـ على القواعد المدونة . وثانياً ـ على الملكة التي يقتدر بها على إدراكات جزئية ، والمراد هنا الأول بدليل الحكم عليه بالتحتم ، فتكون حقيقة علم التوحيد على هذا : هي قواعده المدونة التي تشمل الإلهيات والنبويات والسمعيات ● ويقابله الجهـــل ، وهو بسيط ومركب ، أما البسيط فعدم العلم بالشيء عما من شأنه العلم ، والمركب: هو إدراك الشيء على خلاف ما هو عليه في الواقع ، وسمي مركبـاً لاستلزامه جهلين ، جهلاً بالشيء وجهلاً بجهله ● والتعبير بالعلم بأصل الدين يشعر بمدح هذا الفن لابتناء الدين عليه ، إذ كل أعمال الاسلام بمثابة الثمرة للتوحيد وقد حتم الشارع الحكيم هذا العلم وأوجبه ، ولم يرخص بتركه فقال تعالى :

﴿ فاعلمْ أنَّهُ لا إلهَ إلا اللهُ ﴾ (١)

فيجب على كل مكلف من ذكر أو أنثى وجوباً عينياً معرفة كل عقيدة

---

(١) سورة محمد ١٩ .

بدليل ، ولو إجمالياً ، وأما معرفتها بالدليل التفصيلي ففرض كفـــاية ، فيجب على أهل كل قطر يشق الوصول منه إلى غيره أن يكون فيهم من يعرفها بالدليل التفصيلي ، لأنه ربما طرأت الشبه فيدفعها ● وبعضهم أوجب الدليل التفصيلي وجوباً عيناً ، وفيه تضييق لرحمة الله الواسعة ، وجعل الجنة مختصة بطائفة يسيرة ، فالحق أن الواجب وجوباً عيناً إنما هو الدليل الاجمالي ، وهو المعجوز عن تقريره وحل شبهه ، أما الدليل التفصيلي فهو المقدور على تقريره وحل شبهه ● فإذا قيل لك (ماالدليل على وجود الله تعالى) فقلت : هذا العالم ، ولم تعرف جهة الدلالة فيه معرفة مصحوبة بذكرها على الوجه المعتبر عند المناطقة فهو دليل جملي ، وكذلك إذا عرفت جهة الدلالة فيه ، ولم تقدر على حل الشبه الواردة عليها ، أما إذا عرفت جهة الدلالة معرفة مصحوبة بتقريرها على الوجه المعتبر وقدرت على حل الشبه فهو دليل تفصيلي ● فإذا قيل لك ما الدليل على وجوده تعالى ؟ فقلت : هذا العالم ، وعرفت جهة الدلالة ، وهي الحدوث أو الإمكان ، وقدرت على حل الشبه فيها فهو دليل تفصيلي ، فتقول في تقريره : إما إن العالم حادث ، وكل حـــادث لابد له من محدث . أو إن العالم ممكن وجوده ، وعدمه ، وكل ممكن لابد له من مرجح يخرجه من العدم إلى الوجود ، أو بالعكس ، والمرجح هو الصانع ، إذاً فالعالم له صانع ● لأن العالم قد سبقه العدم ، وكل ماسبقه عدم فهو حادث ، مها تقادم عليه العهد ، وخروجه من العدم إلى الوجود

لايكون إلا بمخرج ، لأن العدم لاينتج شيئاً . وقد قال الله تعالى :

[هل أتى على الإنسان حينٌ من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً] .

وقال أيضاً :[أولا يذكرُ الانسان أنا خلقناه من قبلُ ولم يكُ شيئاً] .

وجاء في صحيح البخاري أنه ﷺ قال :

[كان اللهُ ولم يكن شيءٌ غيرُه] .

ففي كل هذا لفتٌ رائع إلى أن الأكوان كانت في ثنايا العدم ، غارقة في لجته ، ولم يكن إلا الله الواجب الوجود ، فياعجباً كيف يسوغ في العقول أن الكون لايحتاج لمحدث ، مع أن كل شيء فيه يشهد عليه ، ويرفض إلا الاشارة اليه ؟ ! بل كيف يسوغ في بعضها أن الله تعالى الذي لابداية لوجوده محتاج لموجد ؟! فترى بعضهم يتهافتون على السؤال : من خلق الله ؟ ! ويلجون فيه دون أن يسمحوا لأنفسهم بالسؤال عمن خلق الكون ، مع أن افتقار الكون للخالق إنما هو بديهي . ألا إنها وسوسة الشيطان نبهنا إليها الرسول ﷺ حيث قال :

«إنَّ الشيطانَ يأتي أحدكم فيقولُ: مَنْ خلقَ السماءَ؟ فيقولُ: اللهُ . فيقول : مَنْ خلقَ الأرضَ ؟ فيقولُ : اللهُ . فيقولُ : من خلقَ اللهَ ؟ ! فإذا وجدَ ذلك أحدُكم فليقلْ : آمنتُ باللهِ ورسوله » (١)

وهذا السؤال وإن كان خطأ من أساسه ، لأن الله تعالى واجب

(١) رواه الإمام مسلم ، وفي كنز العمال ١/ص ٢٤٧ .

الوجود ، بمعنى أنه لم يسبق وجوده عدم ، كما أنه لايعتور وجوده عدم ، ومَن كان كذلك فكيف يسأل فيه هذا السؤال ! إلا أنه لمّا كان يختلج بعض النفوس مثل هذا الخاطر أردنا أن نوضح الجواب بمثال يريح الضمير إن شاء الله تعالى فنقول :

إذا وضعت كتاباً على مكتبك ، ثم خرجت من الحجرة ، وعدت إليها بعد قليل فرأيت الكتاب الذي تركته على المكتب موضوعاً في الدرج ، فإنك تعتقد تماماً أنّ أحداً لابد قد وضعه في الدرج ، لأنك تعلم من صفات هذا الكتاب أنه لاينتقل بنفسه (إحفظ هذه النقطة وانتقل معي إلى نقطة أخرى) ● لو كان معك في حجرة مكتبك شخص جالس على الكرسي ، ثم خرجت وعدت إلى الحجرة فرأيته جالساً على البساط - مثلاً - فإنك لاتسأل عن كيفية انتقاله ، ولا يخطر لك أنّ أحداً نقله من موضعه ، لأنك تعلم من صفات هذا الشخص أنه ينتقل بنفسه ولا يحتاج إلى مَن ينقله (إحفظ هذه النقطة الثانية أيضاً ثم اسمع ما أقوله) نه لما كانت هذه المخلوقات محدثة ، ونحن نعلم من طبائعها وصفاتها أنها لاتوجد بذاتها ، بل لابد لها من موجد ، كما سبق وبيناه ، عرفنا أن موجدها هو الله تبارك وتعالى ● ولما كان كمال الالوهية يقتضي عدم احتياج الإله إلى غيره ، بل إن من صفاته قيامه بنفسه ، ومعناه عدم احتياجه لموجد ، عرفنا أن الله تعالى موجود بذاته أزلاً ، وأنه غير محتاج إلى مَن يوجده ● وإذا وضعت النقطتين السابقتين إلى جانب هذا الكلام ، اتضح لك هذا المقام ● ونعود إلى دليل

الإمكان بعد أن شرحنا دليل الحدوث ،فنقول : الممكن هو كل أمر قابل في حد ذاته للانتفاء والثبوت . أفرأيت كفتي الميزان ، وقبول كل منهما للارتفاع والانخفاض ؟ فهل يتصور رجحان إحداهما إلا بثقل ؟ والأكوان إنما هي ممكنة الوجود في ذاتها ، لأنه لو وجب وجودها لما سبقه العدم ، ولو استحال وجودها لما وجدت . فعليه لايمكن أن يرجح وجودها على عدمها إلا بمرجح ، وهذا المرجح إما أن يكون ممكناً ، أو مستحيلا ، أو واجب الوجود . إذ أن اقسام الحكم العقلي ثلاثة ، الواجب والجائز والمستحيل . والممكن عاجز عن إظهار نفسه فكيف يظهر غيره ؟! والمستحيل لايقبل الوجود أصلا ، فكيف يمنحه غيره ، فلم يبق من الأقسام الثلاثة إلا واجب الوجود ● كذلك كل ممكن تعتوره حالات شتى من الإمكان ، في الكم ((أي المقادير) والكيف (أي الأحوال) والزمان والمكان ، والجهة والصفات . فتخصيص كل ممكن على حالة مادون سائر ما يجوز عليه منها - مع قبوله لها قبولاً ذاتياً ، ودون أي تفاوت - لايتحصل إلا بمخصص ، يخصص هذه الحالة دون غيرها . وقد أشار الله سبحانه وتعالى إلى دلالة اختلاف الأحوال في الممكنات ، وأنها تدل على خالقها الذي خصصها ببعض مايجوز عليها فقال سبحانه :

« يَاأَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ، فِي أَيِّ صُورَةٍ مَاشَاءَ رَكَّبَكَ »

وقال أيضاً :

« وَهُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ »

وقال أيضاً :

« ومن آياته خلقُ السَّموات والأرض وإختلافُ ألسنتِكُم وألوانكُم » .

وقال :

« وما ذرأ لكُم في الأرض مُختلفاً ألوانُهُ » .

وقال :

« أفلم يَنظُروا إلى السَّماءِ فوقهُم كيفَ بَنَيْنَاها وزيّناها وما لها من فروجٍ ، والأرضَ مَددناها وألقينا فيها رواسيَ ، وأنبتنا فيها من كُلِّ زوجٍ بهيجٍ ، تَبصِرةً وذكرى لكُلِّ عبدٍ مُنيبٍ ، وأنزلنا مِنَ السَّماءِ ماءً مُباركاً فأنبتنا به جنَّاتٍ وحَبَّ الحصيدِ ، والنَّخلَ باسقاتٍ لها طَلعٌ نضيدٌ » .

ألا من مستبصر حكيم ، كبح جماح هواه ، والعتق من أسر الاستكبار وشهوة العلو في الأرض ، فيتدبر هذا ● ويقوم مقام معرفة كل عقيدة بدليل لو عرف العقائد بالكشف . أما من عرفها بالتقليد فقد اختلف فيه ،

والصحيح أنه مؤمن عاص ، إن قدر على النظر ، وغير عاص إن لم يقدر على النظر . وقيل : إنه كافر ، وجرى على هذا السنوسي في شرح الكبرى وشنع على القول بكفاية التقليد ، لكن حكي عنه أنه رجع إلى القول بكفايته .

● يحتاج للتبيين : إنما احتاج هذا الفن للتبيين لأنه لما حدثت المبتدعة وكثر جدالهم مع علماء الإسلام أوردوا شبهاً على ماقرره الأوائل ، وخلطوا تلك الشبه بكثير من القواعد الفلسفية ، فقصد المتأخرون إلى دفعها ، واحتاجوا إلى إدراجها في كلامهم ليتمكنوا من ردها ● وقد افترقت الأمة ثلاثاً وسبعين فرقة منهم فرقة ناجية ، وهي التي على ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه ، واثنان وسبعون في النار كما في حديث عبد الله بن عمر حيث قال :

• قال رسولُ الله ﷺ : لَيأتينَّ على أُمّتي ما أتى على بَني اسرائيل حَذْوَ النَّعل بالنَّعل ، حَتّى إنْ كانَ مِنهم مَن أتى أُمَّهُ عَلانيةً لَكانَ في أُمّتي مَن يَصْنعُ ذلكَ وإنَّ بَني إسرائيلَ تَفرَّقَتْ على ثِنتَيْنِ وَسَبْعينَ مِلةً وَتفترِقُ أُمّتي على ثَلاثٍ وَسَبعينَ مِلّةً ، كُلُّهُمْ في النّارِ إلا مِلَّةً واحِدَةً . قالوا : ومَنْ هي يارسولَ الله ؟

قَالَ ما أنا عَلَيْهِ وأَصْحَابِي » (١)

ومن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال :

« افْتَرَقَت اليَهودُ على إحدى وَسبْعينَ فِرْقَةً ، وتَفرَّقَت النَّصارَى على ، ثِنْتَيْن وسبْعينَ فِرْقَةً وتفرَّقتْ أمتي على ثلاث وسبْعين فرقة كلَّها في النَّار إلا واحدةً » (٢) .

---

(١) رواه الترمذي ٧ / ٢٦٤٣ .

(٢) رواه أبو داوود والترمذي والنسائي وابن ماجه وأحمد .

٦ـ لكنْ منَ التَّطويلِ كلَّتِ الهِمَمْ فصارَ فيهِ الاختصارُ مُلتزَمْ

● لكن من التطويل كلت الهمم : كأنه قال : هذا الفن وإن احتاج للتوضيح إلا أنه لاينبغي المبالغة معه في تطويل العبارة لأنها تؤدي إلى الملل والسآمة ، إذ أن الكلال لحق أصحاب الهمم .

والهمة ـ لغة ـ هي القوة والعزم ، وعرفاً : هي حالة للنفس يتبعها غلبة انبعاث إلى نيل مقصود ما ، ثم إن تعلقت بمعالي الأمور فعلية ، وإلا فدنية ، وإن لم تتعلق بواحد منهما فلا علية ولا دنية .

● فصار فيه الاختصار ملتزم : لكل ماءمر كان الاختصار في هذا الفن ملتزماً .

وقد كان الأستاذ أبو إسحاق الأسفراييني يقول : جميع ما قاله المتكلمون في التوحيد قد جمعه أهل الحقيقة في كلمتين ، الأولى : اعتقاد أن كل ماتصور في الأوهام فالله تعالى بخلافه ، والثانية : اعتقاد أن ذاته تعالى ليست مشبهة للذوات ولا معطلة عن الصفات .

٧ـ وَهذهِ أُرْجُوزَةٌ لَقَبْتُها   جَوْهَرَةَ التَّوْحِيدِ قَدْ هَذَّبْتُها

٨ـ واللهَ أرْجُو في القَبُولِ نَافِعاً   بِها مُرِيداً للثَّوابِ طَامِعاً

● وهذه ارجوزة :(١) إن هذه الأبيات المنظومة على بحر الرجز ملقبة بجوهرة التوحيد وقد صفيتها ونقحتها من الشبه والعقائد الفاسدة ، ومن الحشو والتطويل .

● ومدح الإنسان كتابه يخرج مخرج التحدث بالنعمة والنصح لمن يتعاطاه حتى يكون بنجاة من خطر التقليد ، مع أن مدح الإنسان نفسه جائز في عدة مواضع .

تنبيه : ينبغي اجتناب تسمية الكتب المصنفة بما يضاهي القرآن والوحي، كقول بعضهم (كتاب الاسراءات والمعاريج) أو (مفاتيح الغيب) أو (الآيات البينات) لأنها مزاحمة النبي ﷺ في الاسراء والمعراج ، ومشاركة الحق سبحانه في علم الغيب ، نقله بعضهم عن المنن لسيدي عبد الوهاب الشعراني ، لكن الراجح الجواز .

● والله أرجو : أي لا أرجو إلا الله .

والرجاء لغة : الأمل ، وعرفاً : تعلق القلب بمرغوب فيه مع الأخذ بالأسباب وإلا فهو طمع ، وهو مذموم (٢) ، فالممدوح كرجاء الجنة

(١) اسم الإشارة يعود على الألفاظ المستحضرة في الذهن .

(٢) قال سيدي ابن عطاء الله (الرجاء ما قارنه عمل وإلا فهو أمنيه، وما بسقت أغصان ذل إلا على بذر طمع) .

مع ترك المعاصي وفعل الطاعات [1] وقد ذكر الشيخ الخطيب في التفسير حديثاً قدسياً ، وهو أن الله تعالى قال :

(ما أقلَّ حياءَ مَنْ يَطْمَعُ في جَنّتي مِنْ غيرِ عملٍ ، كيفَ أجودُ برحمتي على مَنْ يَبْخَلُ بطاعتي !) .

● في القبول نافعاً : [2] معنى القبول الإثابة على العمل الصحيح ، والثواب مقدار من الجزاء يعلمه الله تعالى أعده لمن شاء من عباده في نظير أعمالهم الحسنة بمحض اختياره ، لا بالإيجاب - كما قال الفلاسفة ، وهو عندهم نشوء الثواب عن ذات الله سبحانه وتعالى قهراً كنشوء حركة الخاتم بتحريك الإصبع - ولا بالوجوب كما قال المعتزلة .

وإنما قال الفلاسفة بالثواب - مع أنهم ينكرون حشر الأجساد - لإثباتهم حشر الأرواح وأنها تثاب باللذات المعنوية .

بها مريداً للثواب طامعاً : [3] في كلامه هنا إشارة إلى أن العمل لله سبحانه وتعالى مع إرادة الثواب جائز ، وإن كان غيره أكمل ، فإن درجات الإخلاص ثلاث ، عليا : وهي أن يعمل العبد لله وحده امتثالاً للأمر وقياماً بحق العبودية ، ووسطى : وهي أن يعمل طالباً للثواب وهارباً

---

(1) قال تعالى (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً) كهف ١١٠ .

(2) نافعاً حال من الاسم الكريم (الله) . ومريداً مفعول لنافعاً أي ينفع بها مريداً .

(3) طامعاً حال من فاعل أرجو أي أرجو الله حال كوني طامعاً في ثوابه .

من العقاب ، ودنيا : وهي أن يعمل لإكرام الله له في الدنيا والسلامة من آفاتها ، وما عدا هذه الثلاثة رياء ، وإن تفاوتت أفراده ، ذكره شيخ الإسلام [1] في شرح الرسالة القشيرية ● والمعنى لا أرجو في حصول القبول مني للأرجوزة إلا الله تعالى حال كونه سبحانه نافعاً بها المريد ، وإني أرجو الله في القبول حال كوني طامعاً في الثواب في الآخرة .

---

(١) هو شيخ الاسلام زكريا الانصاري . ويتكرر ذكره في الرسالة بلقبه فقط .

٩ـ فَكُلُّ مَنْ كُلِّفَ شَرْعاً وَجَبا عَلَيْهِ أَنْ يَعْرِفَ مَا قَدْ وَجَبا
١٠ـ لِلّهِ والجَائِزَ والمُمتَنِعَا وَمِثْلَ ذا لِرُسْلِهِ فَاسْتَمِعا

● فكل (١) من كلف شرعاً : أي وجوب معرفة الله تعالى إنما هو بلسان الشرع ، وليس بلسان العقل كما ذهب المعتزلة . فكل فرد من المكلفين من الإنس والجن يجب عليه أن يعرف ما يجب لله تعالى وما يجوز وما يستحيل ، وكذلك الرسل عليهم الصلاة والسلام ، ذكراً كان المكلف أو أنثى ولو عاميا أو من العبيد أو النساء ، أو الخدم ، حتى يأجوج ومأجوج ، دون الملائكة ـ على القول بتكليفهم ـ لأن الخلاف في تكليفهم إنما هو في غير معرفة الله تعالى أما هي فجبلية لهم ، فليس فيهم من يجهل صفاته سبحانه كما في الجن ، قال تعالى :

« شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ والمَلائِكَةُ » (٢) .

● والتكليف إما الزام ما فيه كلفة ، وهو الراجح ، فيقتصر على الوجوب والحرمة ، أو هو طلب ما فيه كلفة ، فيشمل الندب والكراهة مع الوجوب والحرمة .

● وشروط التكليف ، البلوغ ، والعقل ، وبلوغ الدعوة ، وسلامة الحواس ، هذا في الإنس ، أما الجن فهم مكلفون من أصل الخلقة ، فلا يتوقف تكليفهم على البلوغ .

---

(١) كل : مبتدأ خبره جملة وجب الأولى أي كل مكلف واجب عليه المعرفة .
(٢) آل عمران ١٨ .

● والصبي ليس بمكلف ، فمن مات قبل البلوغ فهو ناج ، ولو من أولاد الكفار ، ولا يعاقب على كفر غيره ، خلافاً للحنفية حيث قالوا بتكليف الصبي العاقل بالإيمان لوجود العقل وهو كاف عندهم ، فإن اعتقد الإيمان أو الكفر فأمره ظاهر ، وإن لم يعتقد واحداً منها كان من أهل النار لوجوب الإيمان عليه بمجرد العقل .

● والمجنون ليس بمكلف ، لكن محل ذلك إن بلغ مجنوناً واستمر على ذلك حتى مات ، بخلاف ما لو بلغ عاقلا ثم جن وكان غير مؤمن ، ومات كذلك ، فهو غير ناج .

● والذي لم تبلغه الدعوة ليس بمكلف ، وذلك بأن نشأ في شاهق جبل ، على الأصح خلافاً لمن قال (بأنه مكلف) لوجود العقل الكافي لوجوب المعرفة عندهم ، وإن لم تبلغه الدعوة ● وعلى اشتراط بلوغ الدعوة فهل يكفي بلوغ دعوة أي نبي - ولو سيدنا آدم ؟ لأن التوحيد ليس أمراً خاصاً بهذه الأمة - أو لا بد من بلوغ دعوة الرسول الذي أرسل إليه ؟ والتحقيق كما نقله العلامة الملوي عن الأبي في شرح مسلم خلافاً للنووي « أنه لا بد من دعوة الرسول الذي أرسل إليه » .

● فالمذهب الحق أن أهل الفترة (وهم من كان في أزمنة الرسل ، أو في زمن الرسول الذي لم يرسل إليهم) ناجون ، وإن بدلوا وغيروا أو عبدوا الأصنام .

● فإن قيل « كيف هذا مع أن النبي ﷺ أخبر بأن جماعة من أهل الفترة في النار ، كامرىء القيس وحاتم الطائي ، وبعض آباء الصحابة ؟ فإن بعض الصحابة سأله ﷺ وهو يخطب فقال :

« أَيْنَ أَبِي ؟ فقال : في النَّار » (١) .

أجيب : بأن أحاديثهم أحاديث آحاد ، وهي لا تعارض القطعية ، وهو قوله تعالى :

« وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً » (٢)

وبأنه يجوز أن يكون تعذيب من صح تعذيبه منهم لأمر مختص به ، يعلمه الله تعالى ورسوله .

● وغير سليم الحواس ليس بمكلف ، ولهذا قال بعض أئمة الشافعية : « لو خلق الله إنساناً أعمى أصم لسقط عنه وجوب النظر والتكليف ، وهو صحيح كما في شرح المصنف .

● فائدة : إذا علمت أن أهل الفترة ناجون على الراجح علمت أن أبويه ﷺ ناجيان لكونهما من أهل الفترة ، بل جميع آبائه ﷺ وأمهاته ناجون ومحكوم بإيمانهم ، لم يدخلهم كفر ، ولا رجس ولا عيب ، ولا شيء مما كان عليه الجاهلية ، بأدلة نقلية كقوله تعالى :

« وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ » (٣)

وقوله ﷺ :

(١) رواه مسلم ، وذكره باختلاف رواياته صاحب السيرة الحلبية في مبحث وفاة والده صلى الله عليه وسلم ص ٥٦ الجزء الأول .

(٢) الإسراء ١٥ .

(٣) شعراء ٢١٩ . روى البزار وابن أبي حاتم من طريقين عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية : يعني تقلبه من صلب نبي إلى صلب نبي حتى أخرجه نبياً . ذكره ابن كثير في تفسيره .

«لم أزل أنتقل من الأصلاب الطاهرات إلى الأرحام الزاكيات»[1]

وغير ذلك من الأحاديث البالغة مبلغ التواتر ، وأما مانقل عن أبي حنيفة في الفقه الأكبر من أن والدي المصطفى ماتا على الكفر فمدسوس عليه ، وحاشاه أن يقول ذلك . وغلط ملا علي القاري - غفر الله له - في كلمة شنيعة قالها .

فالحق الذي تلقى الله عليه أن أبويه ﷺ ناجيان . على أنه قيل : إن الله تعالى أحياهما حتى آمنا به ثم أماتهما لحديث ورد في ذلك ، وهو ماروي عن عروة عن عائشة : (أن رسول الله ﷺ سأل ربه أن يحيي له أبويه فأحياهما ، فآمنا به ، ثم أماتهما)[2] قال السهيلي: والله قادر على كل شيء ، وله أن يخص نبيه بما شاء من فضله ، وينعم عليه بما شاء من كرامته . وقد أنشد بعضهم فقال :

---

(١) عن ابن عباس قال :قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لم يلتق أبواي قط على سفاح ولم يزل الله ينقلني من الاصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة مصفى مهذباً لا تتشعب شعبتان إلا كنت في خيرهما » ص ١٥ الأنوار المحمدية .

(٢) أورده الخطيب عن عائشة ، وفي المواهب « أحيا الله له أبويه حتى آمنا به » قال السهيلي : وفي إسناده مجاهيل ، وقال الحافظ ابن كثير : إنه حديث منكر جداً وسنده مجهول وقال ابن دحية : هو حديث موضوع ، ويرده القرآن والإجماع وعلى ثبوته يكون معارضاً لقوله صلى الله عليه وسلم وقد سأله رجل :أين أبي ؟ فقال في النار ، فلما قفا دعاه وقال له : إن أبي وأباك في النار ، وهذا رواه مسلم . قال صاحب السيرة الحلبية - بعد أن أورد ما =

فأحيا أمه وكذا أباه   لإيمـان به فضلا منيفاً
فسلم فالقديم بذا قدير   وإن كان الحديث به ضعيفاً

● شرعاً ، وجب عليه أن يعرف :[1] المقصود أن المعرفة وجبت بالشرع ، لا بالعقل ، وهذا مذهب الأشاعرة وجمع من غيرهم ، فمعرفة الله وجبت عندهم بالشرع ، وكذلك سائر الأحكام إذ لا حكم قبل الشرع لا أصليا ولا فرعيا .

تقدم – لم تتفق الرواة في حديث مسلم على قوله فيه (إن أبي وأباك في النار) ففي رواية أنه قال صلى الله عليه وسلم بدل ذلك « إذا مررت بقبر كافر فبشره بالنار » ونصوا على أن ناقل هذه الروايه أثبت من ناقل الأولى ، كذلك أخرج البزار والطبراني والبيهقي من حديث سعد بن أبي وقاص أن أعرابياً قال لرسول الله « أين أبي ؟ فقال : في النار ؛ قال فأين أبوك ؟ قال حيثما مررت بقبر كافر فبشره بالنار » وهذا الإسناد على شرط الشيخين والذي ينبغي أن يقال : يجوز أن يكون ما في الصحيح حاصلاً قبل سؤال الله تعالى أن يحييها له ، أو أنه قال ذلك لمصلحة إيمان ذلك السائل بدليل أنه لم يتدارك صلى الله عليه وسلم إلا بعد ما نفا ، فأتى له بما هو شبيه بالمشاكلة ، مريداً بأبيه عمه أبا طالب لا عبد الله . وفي القرطبي قد أحيا الله سبحانه وتعالى على يديه صلى الله عليه وسلم جماعة من الموتى وإذا ثبت ذلك فما يمنع إيمان أبويه بعد إحيائهما ؟ ويكون ذلك زيادة في كرامته وفضيلته ، ولو لم يكن إيمانهابعد الموت نافعاً لهما لما أحييا وروى الطبراني عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم نزل الحجون (جبل بمكة وهي مقبرة) كئيباً حزيناً ، فأقام به ما شاء الله عز وجل ، ثم رجع مروراً فقال : سألت ربي عز وجل فأحيا لي أمي فآمنت بي ثم ردها .

(١) شرعاً منصوب على التمييز . وجملة أن يعرف : في محل رفع فاعل لوجب والتقدير : كل مكلف واجب عليه معرفة الواجب والجائز والمستحيل بالنسبة لله تعالى ورسله الكرام .

● وذهبت المعتزلة إلى أن الأحكام كلها ثبتت بالعقل ، ولذلك قال في جمع الجوامع : وحكمت المعتزلة العقل ، وإن لم يرد الشرع . ويقولون : إن الشرع جاء مقوياً ومؤكداً للعقل ، فلا ينفون الشرع أصلاً ، وإلا كفروا قطعاً ويبنون كلامهم على التحسين والتقبيح العقليين ، فالحسن عندهم ما حسنه العقل ، والقبيح ما قبحه العقل ، فاذا أدرك أن هذا الفعل حسن بحيث يذم على تركه ويمدح على فعله حكم بوجوبه ، وهكذا .

وأما عند أهل السنة فالحسن ما حسنه الشرع ، والقبيح ماقبحه الشرع .

● ومذهب الماتريدية أن وجوب المعرفة بالعقل ، بمعنى أنه لو لم يرد به الشرع لأدركه العقل استقلالا لوضوحه لا بناء على التحسين العقلي كما قال المعتزلة .

● والحق أن العقل لا يستقل بشيء أصلا . فتلخص أن المذاهب ثلاثة أولاً : مذهب الأشاعرة ، وهو أن الأحكام كلها ثبتت بالشرع ، لكن بشرط العقل ، ثانياً : مذهب الماتريدية ، وهو أن وجوب المعرفة ثبت بالعقل دون سائر الأحكام ، ثالثاً : مذهب المعتزلة ، وهو أن الأحكام كلها ثبتت بالعقل ، .

● والمعرفة والعلم مترادفان على معنى واحد على التحقيق ، وهذا المعنى الواحد ، هو الجزم القاطع المطابق للواقع عن دليل ولو جملياً ● فالظن والشك والوهم ليسوا بمعرفة وكذلك الجزم غير المطابق للواقع كجزم النصارى بالتثليث ، وكذلك التقليد ● فيتحصل أن الظان والشاك والمتوهم والجازم جزماً غير مطابق للواقع كل منهم كافر اتفاقاً ، وأما المتصف بالتقليد فسيأتي ذكر الخلاف فيه .

● ماقد وجبا لله : [1] أي يجب على المكلف وجوباً شرعياً أن يعرف جميع ما وجب لله ، لكن ما قامت الأدلة العقلية أو النقلية عليه تفصيلاً ، ـ وهو العشرون صفة الآتية ـ يجب على المكلف أن يعرفه تفصيلاً ، وما قامت عليه الأدلة إجمالاً ـ وهو سائر الكمالات ـ يجب على المكلف أن يعرفه إجمالاً ، وكذا يقال في المستحيل ● ودليل ما يجب لله عقلي غالباً، لأن الصفات على ثلاثة أقسام ، الأول : ما لا يصح الاستدلال عليه إلا بالدليل العقلي ، وهو ما توقفت عليه المعجزة من الصفات ، كوجوده تعالى وقدمه وبقائه وقيامه بنفسه ومخالفته للحوادث وقدرته وإرادته وعلمه وحياته ، بمعنى أن المعجزة ـ وهي الأكوان ـ لا توجد إلا ممن اتصف بتلك الصفات ، [2] والثاني : ما لا يصح الاستدلال عليه إلا بالدليل السمعي ، وهو كل ما لا تتوقف المعجزة عليه من الصفات ، كالسمع والبصر والكلام .

والثالث : اختلف فيه ، وهو الوحدانية ، والأصح أن دليلها عقلي .

واعلم أن الأحكام المطلقة : إما شرعية أو عقلية أو عادية . والحكم الشرعي : هو خطاب الله تعالى المتعلق بأفعال المكلفين بالطلب أو الإباحة أو الوضع لهما . والطلب أربعة أقسام : طلب فعل أو طلب ترك ، وكل منهما إما جازم أو غير جازم . والوضع : هو جعل الشيء شرطاً (كالطهارة للصلاة) أو سبباً (كدخول الوقت) أو مانعاً (كالحيض) أو صحيحاً (ككونه

---

(١) ما : اسم موصول يقع مفعولا به ليعرف أي يعرف الذي قد وجب لله . ولله جار ومجرور متعلقان بالفعل وجب .

(٢) من تقريرات الأجهوري على الحاشية .

موافقاً الشرع باستيفاء الشروط وانتفاء الموانع) أو فاسداً (ككونه غير موافق الشرع)

وأما الحكم العادي فهو : إثبات الربط بين أمر وأمر وجوداً أو عدماً بواسطة تكرر القران بينهما على الحس [1] وعدم تأثير أحدهما في الآخر ألبته [2] . مثال ذلك : الحكم على النار بأنها محرقة ، فهذا حكم عادي ، إذ معناه أن الإحراق يقترن بمس النار في كثير من الأجسام لمشاهدة تكرر ذلك على الحس . وليس معنى هذا الحكم أن النار هي التي أثرت في الإحراق ، أو في تسخين ما مسته - مثلاً - إذ هذا المعنى لا دلالة للعادة عليه أصلاً ، وإنما غاية مادلت عليه العادة الاقتران فقط بين الأمرين . أما تعيين فاعل ذلك فليس للعادة فيه مدخل ، ولا منها يتلقى علم ذلك . وقس على هذا سائر الأحكام العادية ككون الطعام مشبعاً ، والشمس مضيئة ، والسكين قاطعة ، ونحو ذلك مما لا ينحصر . وإنما يتلقى العلم بفاعل هذه الآثار المقارنة لهذه الأشياء من دليلي العقل والنقل ● وقد أطبق العقل والشرع على انفراد المولى جل وعز باختراع جميع الكائنات عموماً [3] فأهل السنة يقولون : ثبوت الإحراق للنار من حيث إنها سبب عادي يخلق الله عنده الإحراق . وغيرهم يقولون : ثبوت الإحراق للنار من حيث إنها مؤثرة بقوة مودعة فيها .

● والحق أن قدرة الله تعالى عامة التعلق بجميع الممكنات إيجاداً

---

(١) انظر أم البراهين ص ٣٨ .

(٢) انظر مفتاح الجنة ص ٥٩ .

(٣) انظر أم البراهين ص ٣٩ - ٤٠ .

وإعداماً وإمداداً ، فقصرها على بعضها دون الآخر مع استوائها في الافتقار ، لا برهان عليه إلا اتباع الهوى وظلمة الحجاب [1] وقد قال الله تعالى :

(كلاً نُمِدُّ هؤلاءِ وهؤلاءِ مِنْ عطاءِ ربِّك) .

وقال أيضاً :

«وأنزلنا من المُعصِراتِ ماءً ثجّاجاً لنُخرِجَ به حَبّاً ونَباتاً» .

وقال :

«أوَلَمْ يَرَوْا إلى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صافّاتٍ ويَقْبِضْنَ ما يُمْسِكُهُنَّ إلاَّ الرَّحْمنُ» .

وقال :

«أفرأيتُم ما تَحْرُثونَ أأنتم تَزْرَعونَهُ أمْ نحنُ الزّارِعونَ؟» .

وقال ﷺ :

«اللّهُمَّ بِكَ أصولُ وبِكَ أجولُ» .

وقال :

«لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلاّ باللهِ كَنْزٌ مِنْ كُنوزِ الجَنَّةِ» .

وقد قال سيدنا العارف بن عطاء الله مستمداً من أنوار ما تقدم : «نعمتان ما خرج عنهما موجود نعمة الإيجاد ، ونعمة الإمداد» ، وإنما سمي الحكم العادي عادياً لأن العادة هي المرتكز في إطلاقه .

(1) انظر الاقتصاد في الاعتقاد للإمام الغزالي رحمه الله .

والتكرار يتحقق بمرتين ، كما إذا قيل : لحم الضأن يذكي الفهم ، وتكرر هذا مرتين ، فإنه حكم عادي ● أما إن حكم به العقل فإنه يدعى حكماً عقلياً ، وهو : إثبات أمر لأمر (كإثبات القدم لله تعالى) أو نفيه عنه (كنفي القدم عن الخلق) من غير توقف على تكرار أو وضع واضع.

وينقسم الحكم العقلي إلى ثلاثة أقسام : واجب ، وجائز ، ومستحيل أي إن كل ما حكم به العقل من إثبات أو نفي. لا يخرج عن اتصافه بواحد من هذه الثلاثة.

● فالواجب : هو كل أمر – من ذات أو صفة أو نسبة[1] – ثابت لا يقبل الانتفاء في ذاته ، وهو قسمان ضروري ، كالتحيز للجوم ، فإنه ما دام الجرم موجوداً يجب أن يأخذ قسطاً من الفراغ ، فهو واجب مقيد بدوام الجرم ، ونظري كصفاته تعالى.

● والمستحيل : هو كل أمر – من ذات أو صفة أو نسبة – لا يقبل الثبوت في ذاته . وهو قسمان : ضروري كخلو الجرم عن الحركة والسكون معاً ، ونظري كالشريك له تعالى.

● والجائز : هو كل أمر قابل في حد ذاته للانتفاء والثبوت ، وهما قسمان : ضروري كحركة الجرم أو سكونه ، ونظري كتعذيب المطيع – ولو معصوماً – لكن لا ينبغي التشدق به في حق الأنبياء بل بقدر ضرورة التعليم ، وكإثابة العاصي – ولو كافراً – لأن الكلام في الإمكان العقلي ، فلا ينافي أن ذلك ممتنع شرعاً.

---

(١) من شرح الخريدة بتصرف يسير ص ٤٠ .

● الضروري هو البديهي ، وهو ما يدركه العقل بلا تأمل (كاستحالة صنعة بلا صانع .

والنظري هو ما يدركه العقل بعد التأمل (كحدوث الكون)[1] .

● ملاحظة : ينبغي الاعتناء بهذه الأحكام : لأن إمام الحرمين قال : إن معرفتها هي العقل ، بناء على أنه العـــلم بوجوب الواجبات وجواز الجائزات واستحالة المستحيلات ، أي تصور مفهوماتها ، بأن يتصور أن الواجب ما لا يقبل العـــدم ، والمستحيل ما لا يقبل الوجود ، والجائز ما يصح وجوده وعدمه .

● ومثل ذا لرسله : أشار المصنف بلفظ (مثل) إلى أن الواجب والجائز والمستحيل في حقهم – عليهم الصلاة والسلام – ليس هو عين الواجب والجائز والمستحيل في حقه تعالى فالمراد المثلية في مطلق واجب وجائز ومستحيل . وإنما خص الرسل لأن بعض ما يأتي – كالتبليغ – خاص بهم ، دون الأنبياء .

(١) انظر مفتاح الجنة ٦٦ – ٦٩

١١ - إذْ كُلُّ مَنْ قَلَّدَ بالتَّوحِيدِ   إيمانُهُ لَمْ يَخْلُ مِنْ تَرْدِيدِ

● إذ كل من قلد : هذا تعليل لوجوب المعرفة السابقة (باعتبار أن وجوبها يتضمن وجوب أمور ثلاثة هي : الجزم ، وكونه مطابقاً للواقع ، وكونه ناشئاً عن الدليل .

● والتقليد : هو أن يأخذ المكلف بقول غيره من غير أن يعرف دليله ، والمراد بالأخذ اعتقاد مضمون المأخوذ ، ويشمل القول والفعل والتقرير وكل ذلك من غير أن يعرف دليله . فخرج التلامذة بعـد أن يرشدهم الأشياخ للأدلة ، فهم عارفون لا مقلدون . وضرب لهم الشيخ السنوسي مثلاً للفرق بينهم وبين المقلدين (بجماعة نظروا للهلال ، فسبق أحدهم لرؤيته فأخبرهم به ، فإن صدقوه من غير معاينة كانوا مقلدين وإن أرشدهم بالعلامة حتى عاينوه لم يكونوا مقلدين) .

● بالتوحيد : أي في علم العقائد ، ولو تعلقت بالرسل . فليس المراد بالتوحيد إثبات الوحدة بخصوصه .

● إيمانه لم يخل من ترديد : المراد بإيمانه جزمه بأحكام التوحيد من غير دليل ، وليس المراد به المعرفة ، إذ لا معرفة عند المقلد والأولى أن المراد بإيمان المقلد تصديقه التابع للجزم ، لا نفس الجزم ، والمراد من الترديد ، التردد والتحير .

● واستشكل بأن العبارة تقتضي أن الجزم يجامع التردد مع أنه متى كان جازماً لا يكون متردداً أصلاً ، فكيف يقول : إيمانه لم يخل من ترديد ؟ وأجيب بأن المراد أن إيمانه لم يخل عن قبول الترديد ، لا أن الترديد يمتزج بإيمانه ، ولا يرد أن العارف لا يخلو أيضاً عن قبول الترديد لجواز أن تطمس عين معرفته (والعياذ بالله تعالى) لأن المراد بالقبول : القبول القريب من الفعل عادة ، ولا يضر غيره .

١٣- فَفِيهِ بَعْضُ القَوْمِ يَحْكِي الخُلْفَا وبَعْضُهُمْ حَقَّقَ فِيهِ الكَشْفَا

● ففيه بعض القوم : أي فبسبب تحيره وتردده اختلف العلماء في إيمانه صحة وفساداً ، وحاصل الخلاف فيه أقوال منها :

١ - عدم صحة إيمان المقلد ، فيكون المقلد كافراً ، وعليه السنوسي .

٢ - الاكتفاء بالتقليد مع العصيان - إن كان فيه أهلية للنظر - وإلا فلا عصيان .

٣ - إن من قلد القرآن والسنة القطعية صح إيمانه لإتباعه القطعي ، ومن قلد غير ذلك لم يصح إيمانه لعدم أمن الخطأ على غير المعصوم .

٤ - الاكتفاء به من غير عصيان مطلقاً ، لأن النظر شرط كمال ، فمن كان فيه أهلية النظر ولم ينظر ، فقد ترك الأولى .

● والقول الحق الذي عليه المعول من هذه الأقوال هو الثاني .
والصواب أن هذا الخلاف جاو في النظر الموصل لمعرفة الله تعالى دون غيره كالنظر الموصل لمعرفة الرسل .

● وحكى الآمدي اتفاق الاصحاب على انتفاء كفر المقلد ، وأنه لا يعرف القول بعدم صحة إيمانه الا لأبي هاشم الجبائي من المعتزلة .
وذكر ابن حجر عن بعضهم : أنه أنكر وجوب المعرفة أصلاً ، وقال بأنها حاصلة بأصل الفطرة ، واستدل على ذلك بقوله تعالى :

(فطرةَ اللهِ التي فَطَرَ النَّاسَ عليها)(١)

وبقوله ﷺ :

(١) الروم ٣٠ .

«كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ على الفِطْرَةِ» (١)

ولذلك قال أبو منصور الماتريدي : أجمع أصحابنا على أن العوام مؤمنون عارفون بربهم وأنهم حشو الجنة كما جاءت به الاخبار ، وانعقد به الإجماع فإن فطرتهم جبلت على توحيد الصانع وقدمه ، وحدوث ما سواه وان عجزوا عن التعبير عنه باصطلاح المتكلمين ، والله أعلم .

● وبعضهم حقق فيه : وبعض القوم - كالتاج السبكي - حقق في إيمان المقلد البيان عن حاله بما يصير به الخلاف في الاكتفاء بالتقليد وعدم الاكتفاء به لفظياً ، وحقق : أي ذكر الفصل في المسألة على الوجه الحق والكشف هو البيان .

(١) أخرجه الترمذي عن أبي هريرة ، وقال حديث حسن صحيح ٢١٣٩ جزء ٦ وأخرجه البخاري في القدر بأطول مما هنا وكذلك مسلم .

١٣- فَقَالَ إِنْ يَجْزِمْ بِقَوْلِ الغَيْرِ   كَفَى وَإِلاَّ لَمْ يَزَلْ فِي الضَّيْرِ

● فقال إن يجزم : أي فقال من حقق الكشف في الخلاف: إن يجزم المقلِّد بصحة قول المقلَّد جزماً قوياً ، بحيث لو رجع المتبوع لم يرجع التابع ، كفاه في الايمان.

● وعلى هذا مُحمل القول بكفاية التقليد ، فكفيه ذلك في الأحكام الدنيوية فيناكح ويؤم وتؤكل ذبيحته ويرثه المسلمون ويرثهم ، ويسهم له ، ويدفن في مقابر المسلمين . وفي الأحكام الاخروية أيضاً فلا يخلد في النار ، إن دخلها ، ومآله الى النجاة والجنة ، فهو مؤمن لكنه عاص بترك النظر ، إن كان فيه أهلية النظر ، أما إن لم يجزم المقلِّد بصدق قول المقلَّد جزماً قوياً قاطعاً ، بأن كان جازماً ، لكن لو رجع مقلَّده لرجع هو ، فإنه لم يزل واقعاً في الضير ، لانه قابل للشك والتردد ، وعلى هذا مُحمل القول بعدم كفاية التقليد ● والخلاف إنما هو في المقلِّد الجازم ، اما الشاك والظان فمتفق على عدم صحة ايمانهما ، وإن كان كلام المصنف يوهم خلاف المراد . والخلاف في إيمان المقلِّد إنما هو بالنظر لأحكام الآخرة ، وفيما عند الله ، وأما بالنظر الى احكام الدنيا فيكفي فيها الإقرار فقط ، فمن أقر جرت عليه الاحكام الاسلامية ولم يُحكم عليه بالكفر إلا إن اقترن بشيء يقتضي الكفر كالسجود لصنم أو ما يدل على اعتقاده فكرة مكفرة ، أو إنكار معلوم من الدين بالضرورة ، كأن ينكر صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان ، أو ينكر شمول أحكام الاسلام لكافة مجالات الحياة .

١٤ـ واجزم بأنّ أولاً مما يجب معرفةٌ وفيه خلفٌ منتصب

● واجزم : أي أعتقد اعتقاداً جازماً ، والمخاطب بذلك كل مكلف ، من ذكر أو أنثى حر أو عبد ، جني أو أنسي . قال المصنف في شرحه : والكلام السابق من قوله (فكل من كلف) (١) إنما أفاد أن المعرفة واجبة على المكلف ، وهذا أفاد أنها أول واجب . ثم إن هذه المسألة ليست من أركان الدين المعتقدة ، كيف والأصح كفاية التقليد !

● بأن أولاً مما يجب معرفة : أي الأصل أن اول شيء مما يجب معرفته معرفة الله ، والمراد معرفة صفاته وسائر أحكام الالوهية لا معرفة ذاته وكنه حقيقته ، إذ لا يعرف ذاته وكنه حقيقته إلا هو ، وفي الحديث :

«تفكّروا في الخلق ولا تفكّروا في الخالق فانّه لا تحيط به الفكرة» (٢)

وفي الحديث أيضاً :

«أن الله احتجب عن البصائر كما احتجب عن الأبصار» .

وبالجملة لا يعرف الله إلا الله ، والعجز عن درك الادراك إدراك ، والبحث في ذات الله اشراك .

(١) انظر شرح البيت ١٠٠ .

(٢) « تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله » رواه أبو نعيم في الحلية عن ابن عباس كشف الخفاء الجزء الأول ص ٣٨١ الحديث رقم ١٠٠٥ .

● وفيه خلف منتصب : أي في أول مايجب معرفته خلاف قائم بين الأئمة ، سنيين وغيرهم ، وجعل الناظم الخلاف في الأولية لا في الوجوب . لأنه لم يقع خلاف بين المسلمين في وجوب المعرفـة ، ووجوب النظر الموصل اليها ، كذا قال الشارح .

● وأهم الأقوال في اول الواجبات :

أولاً : ما قاله الأشعري إمام هذا الفن أنه : المعرفة .

ثانياً ـ ماقاله الأستاذ أبو إسحاق الاسفرايني أنه : النظر الموصل للمعرفة ، ويعزى للأشعري أيضاً .

ثالثاً ـ ماقاله القاضي الباقلاني أنه : أول النظر ، أي المقدمة الأولى منه ، نحو قولك : العالم حادث ، وكل حادث لابد له من محدث ، فمجموع المقدمتين هو النظر ، والمقدمة الأولى هي أول النظر .

رابعاً ـ ما قاله إمام الحرمين أنـه : القصد إلى النظر أي تفريغ القلب عن الشواغل ، وعزي للقاضي أيضاً .

خامساً ـ ما قاله بعضهم أنه : التقليد .

سادساً ـ أنه : النطق بالشهادتين .

● والأصح أن أول واجب ـ غاية ـ المعرفة . وأول واجب ـ وسيلة قريبة ـ النظر ، وأول واجب ـ وسيلة بعيدة ـ القصد إلى النظر . وبهذا يجمع بين الأقوال الثلاثة .

١٥ـ فانظرْ إلى نفسكَ ثُمَّ انتقِلِ للعالَمِ العُلْويِّ ثُمَّ السُّفْلي

● فانظر : أي إذا أردت المعرفة فانظر إلى نفسك ، لأن النظر وسيلة لها ، والمأمور به كل مكلف ، وأمره بالنظر إلى نفسه - ابتداء - لأنها أقرب الأشياء اليه . ثم أمره بالنظر إلى العالم العلوي لكونه أعظم وأبدع ، ثم إلى العالم السفلي . على أن صحة النظر لاتتوقف على هذا الترتيب .

● والنظر - لغة - هو إدراك الشيء بحاسة البصر أو الفكر ، أما هنا فالمراد به الإدراك بالفكر . وأما عرفاً فهو ترتيب أمرين معلومين (مقدمة كبرى - ومقدمة صغرى) ليتوصل بترتيبها إلى علم مجهول (نتيجة) ، كالترتيب بقولنا : العالم متغير ، وكل متغير حادث ، فإنه موصل الى العلم بحدوث العالم . والعلم بحدوث العالم مجهول قبل هذا الترتيب .

● إلى نفسك : أي فانظر في أحوالها ، وعلى سبيل المثال : أنت تأكل الطعام ، وهو يتركب من عدة عناصر نباتية أو حيوانية ، يقسمها العلماء إلى مواد زلالية ، أو نشوية ، أو دهنية - مثلا - فترى أن اللعاب يهضم بعض المواد النشوية ، ويذيب المواد السكرية ، ونحوها مما يقبل الذوبان . وترى أن عصارة المعدة تهضم المواد الزلالية كاللحم وغيره . والصفراء تساعد على هضم الدهنيات وتجزئها إلى اجزاء دقيقة يمكن امتصاصها . ثم يأتي البنكرياس بعد ذلك ، فيفرز أربع عصارات ، تتولى كل واحدة منها إتمام الهضم في عنصر من العناصر الثلاثة النشوية ، أو

الزلالية ، أو الدهنية ، والرابعة تحول اللبن إلى جبن . فتأمل هـذا الارتباط العجيب بين عناصر الجسم ، وقف خاشعاً أمام أنوار قوله تعالى « أفلا يَنظر الإنسانُ إلى طعامه » .

● فالمراد إذاً بأحوال النفس مـا اشتملت عليه من سمع وبصر ونطق وطـول وعرض وعمق ، ومـا يعتورها من رضا وغضب ، ولذة وألم وغير ذلك مما لا يحصى ● وكل هذه الأحوال متغيرة من عدم إلى وجود ، ومن وجود إلى عدم ، فهي إذاً حادثة ، وهي قائمة بالذات ملازمة لها . وملازم الحادث حادث مثله . وذلك دليل الافتقار إلى صانع قدير مريد عليم حي واجب الوجود . فتستدل بهذا النظر في أحوال النفس على وجوب وجود صانعك وصفاته ● قال الله تعالى

« وفي أنفُسِكُم أفلا تُبصِرُونَ » (١)

أي فيها آيات ودلائل لاينبغي ترك النظر فيها . وقد ورد « من عرف نفسه عرف ربه » (٢) أي من عرف نفسه بالحدوث والفقر عرف ربه بالقدم والغنى ، وهـذا هو الأظهر في معنى الحديث ، وقيـل هو إشارة إلى التعجيز ، أي أنت لاتعرف نفسك على حقيقتها فلا تطمع في معرفة كنه ربك ، ذكره الشريف المقدمي في مفاتيح الكنوز وحل الرموز .

---

(١) الذاريات ١٢ .

(٢) قال النووي ليس بثابت ، وقال أبو المظفر : يحكى عن يحيى بن معاذ الرازي . وقال النجم : وقع في أدب الدين والدنيا للماوردي عن عائشة « سئل النبي صلى الله عليه وسلم من أعرف الناس بربه ؟ قال : أعرفهم بنفسه » انظر كشف الخفاء ج ١/٣٦١ .

٠ ● ثم انتقل العالم العلوي : أي بعد ما نظرت في أحوال نفسك انتقل النظر في أحوال العالم المنسوب إلى جهة العلو، والمراد به ما ارتفع من الفلكيات من سموات، وكواكب وغيرها. وقد قال الله تعالى

«اللهُ الَّذي رفع السَّمٰواتِ بغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها، ثُمَّ اسْتَوَى على العَرْشِ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ والقَمَرَ، كُلٌّ يَجْري لأجلٍ مُسَمّى، يدبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآياتِ، لعلَّكُمْ بلقاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ».(١)

● ثم السفلي : أي ثم انتقل للنظر إلى العالم السفلي، والمراد به كل ما نزل من الفلكيات كالهواء والسحاب والأرض وما فيها، كالمعادن والبحار والنبات وغير ذلك، فتستدل بذلك على وجوب وجود الصانع وصفاته ● وخذ مثلاً زهرة وتأملها، ترى أن لها أوراقاً جميلة جذابة، ملونة بألوان بهيجة. فان سألت علماء النبات عن الحكمة في هذه الألوان أجابوك : بأن هذا إغراء النحل وأشباهه من المخلوقات التي تمتص رحيق الأزهار، إغراء لها لتسقط على الزهرة، حتى إذا مالامست مآبرها علقت حبوب اللقاح بأرجلها، وانتقلت بذلك من الزهرة الذكر إلى الزهرة الأنثى، فيتم التلقيح، فتكون هذه الأوراق الجميلة حلقة اتصال بين النبات والحيوان،(وهذا مبلغهم من العلم، وما يدرينا أن في خلقه أسراراً وأسراراً لم تبد لنا بعد) ● ثم انظر إلى الهواء، وهو - على ما تعلم - مركب من عدة عناصر. ومن هذه العناصر جزءان هامان،

(١) الرعد ٤.

جزء صالح لتنفس الانسان وهو الأوكسجين ، وجزء ضار به ، وهو غاز الفحم . وفي الوقت الذي يطرح فيه الانسان الجزء الضار ويستنشق الجزء النافع يكون النبات آخذاً لهذا الجزء الضار ، وطارحاً لذلك الجزء النافع . فأي ترتيب هذا بين الانسان والنبات والهواء ، هذا الترتيب الذي يكون بفقده فقدان الحياة على الأرض • ثم انظر بعد هذا إلى قوله سبحانه وتعالى :

« وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً ، وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ، يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ ، وَزَرْعٌ ، وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ ، وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » (١)

فإنك تجد كلا منها مشمولاً بجهات مخصوصة ، وأمكنة معينة ، وتجد بعضه متحركاً وبعضه ساكناً وبعضه نورانياً وبعضه ظلمانياً ، وذلك دليل على الحدوث ، والحدوث دليل على الافتقار لصانع حكيم متصف بالصفات . وخاصة أن تقول : العالم حادث ، وكل حادث لابد له من صانع حكيم متصف بالصفات . فالعالم لابد له من صانع .

والعالم اسم لما سوى الله تعالى وصفاته من الموجودات .

---

(١) الرعد ٤ .

● بيد أن النظرة في الأكوان تختلف باختلاف صفاء البصيرة وحدتها، وقد قال سيدي ابن عطاء الله مشيراً إلى هـــذا الاختلاف : « الفكرة فكرتان ، فكرة تصديق وإيمان ، وفكرة شهود وعيان ، فالأولى لأرباب الإعتبار . والثانية لأرباب الشهود والاستبصار » ، وأنعم بالإسلام داعياً إلى الفكرة المبصرة التي تقدح في القلوب ضياء المعرفة الواعية ، فهو لايريد للمسلمين أن يغرقوا في لجج التقليـــد الأعمى ، وكل شيء حولهم ينطق بالوحدانية ويدل على الله تعالى ، ولقد قال ابن عطاء الله مبينـــاً قيمة الفكرة وأهميتها : الفكرة سراج القلوب ، فإذا انطفأت فلا إضاءة له .

١٦ ـ تجدْ بِهِ صُنعاً بَديعَ الحكَمِ ❊ لكنْ بِهِ قامَ دَليلُ العَدَمِ

تجد به صنعاً : [1] أي إن تنظر في أحوال ما ذكر تعلم فيه صنعة باهرة ، وهي كناية عن الأعراض المخلوقة ، من نقوش متقنة ، وألوان مستحسنة ، إلى مالا يحصى من الصفات ، ولا يحيط به إلا خالق الأرض والسموات ، وكل هذا دال على علم صانعه وقدرته وإرادته وحياته لأن ذلك لايكون إلا ممن اتصف بما ذكر .

● بديع الحكم : البديع هو المخترع لاعلى مثال سبق والحكم بمعنى الاحكام والاتقان .

● لكن به قام دليل العدم : لكن هنا لمجرد التأكيد ، والمراد بدليل العدم دليل جواز العدم ، الذي هو عبارة عن ملازمة الأعراض الحادثة للعالم بمعنى الأجرام .

(١) فعل تجد مجزوم بجواب الطلب في البيت السالف وهو قوله : فانظر ، والتقدير فانظر إن تنظر تجد .

١٧ - وكُلُّ ما جازَ عليهِ العدَمُ   عَليهِ قَطعاً يَستحيلُ القِدَمُ

● وكل ماجاز عليه العدم : وكل شيء جاز عليه الفناء عليه قطعاً يستحيل القدم ، هذا قياس مطوي ، وفي نشره تقول : هكذا : العالم من عرشه إلى فرشه جائز عليه العدم ، وكل ماجاز عليه العدم إستحال عليه القدم ، فينتج أن العالم من عرشه الى فرشه إستحال عليه القدم ، فيثبت حدوثه ، واذا ثبت حدوثه فلا بد له من محدث وهو المطلوب . لأن أصل الكلام في النظر الموصل لمعرفة الله تعالى . وقد طوى المصنف بعض المقدمات وذكر بعضها ، وحاصلها أن تقول : الأعراض شوهد تغيرها من وجود إلى عدم ومن عدم إلى وجود ، وكل ما كان كذلك فهو حادث ، ينتج أن الأعراض حادثة .

● ثم يقال : العالم بمعنى الاجرام ملازم للأعراض الحادثة وكل ما كان كذلك فهو جائز العدم ، ينتج العالم يجوز عليه العدم .

● ثم يقال هكذا : العالم يجوز عليه العدم وكل ما كان كذلك استحال قدمه ، وثبت حدوثه ينتج أن العالم استحال قدمه وثبت حدوثه .

● ثم يقال هكذا : العالم استحال قدمه وثبت حدوثه ، وكل ما كان كذلك فلا بد له من محدث ينتج أن العالم لابد له من محدث ، وهذا هو المقصود بالنظر . والمصنف بين أن دليل العدم قام بالعوالم مع أن الحدوث هو الذي قام بالاعراض ، وللملازمة الاعراض للجواهر حكمنا على الجواهر بالحدوث أيضاً .

● لقد أضحى للأعراض من الدلالة وجهان ، الأول باعتبار حدوثها فانها دالة على حدوث الاجرام ، والثاني باعتبار اتقانها اتقاناً بديعاً فانها دالة على كمال الصانع وعموم علمه وإرادته وقدرته .[1]

(١) قال الحكيم العارف (دل بوجود آثاره على وجود أسمائه ، وبوجود أسمائه على ثبوت أوصافه ، وبثبوت أوصافه على وجود ذاته ، إذ محال أن يقوم الوصف بنفسه) .

● وفسر الايمان : أي وفسر جمهور الأشاعرة والماتريدية وغيرهم من المعتزلة الإيمان بالتصديق المعهود شرعاً وهو ، تصديق النبي ﷺ في كل ماجاء به وعلم من الدين بالضرورة ، أي علم من أدلة الدين بشبه الضرورة ، فهو نظري في الأصل إلا أنه لما اشتهر صار ملحقاً بالضروري

● والمراد بتصديق النبي ﷺ في ذلك: الإذعان لما جاء به ، والقبول له، وليس المراد وقوع نسبة الصدق اليه في القلب من غير إذعان ولاقبول ، حتى يلزم الحكم بايمان كثير من الكفار الذين كانوا يعرفون أحقية نبوته ورسالته ﷺ ، ومصداق ذلك قوله تعالى :

● ﴿يَعرِفُونَهُ كما يَعرِفُونَ أبناءَهُمْ﴾ (١)

قال عبد الله بن سلام : لقد عرفته حين رأيـــه كما أعرف ابني ، ومعرفتي لمحمد أشد(٢) . ويكفي الإجمال فيا يعتبر التكليف به إجمالاً ، كالايمان بغالب الأنبياء والملائكة ، ولا بد من التفصيل فيا يعتبر التكليف به تفصيلاً ، كالايمان بجمع من الأنبياء والملائكة فالجمع الذين يجب معرفتهم تفصيلاً من الأنبياء خمسة وعشرون ، فهؤلاء المذكورون في القرآن المتفق على نبوتهم ، وأما المختلف في نبوتهم فثلاثـــة : ذو القرنين ، والعزير

---

(١) البقرة ١٤٧ .

(٢) قال ابن كثير : قال القرطبي : ويروى عن عمر أنه قال لعبد الله بن سلام: أتعرف محمداً كما تعرف ولدك ؟ قال نعم ، وأكثر ، نزل الأمين من السماء على الأمين في الأرض بنعته فعرفته . تفسير ابن كثير ص ٣٤٢ ج ١ وفي القرطبي بعد ما قال : نعم وأكثر ، قال : بعث الله أمينه في سمائه إلى أمينه في أرضه بنعته فعرفته ، وابني لا أدري ما كان من أمه . تفسير القرطبي ١٦٣ ج ٢ .

ولقمان ، وأما الخضر فلم يصرح باسمه في القرآن وإن كان هو المراد في آية

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ . (١)

وكذا يوشع بن نون فتى موسى لم يصرح باسمه في القرآن .

ومعنى كون الايمان واجباً بهم تفصيلا أنه لو عرض عليه واحد منهم لم ينكر نبوته ولا رسالته ، فمن أنكر نبوة واحد منهم أو رسالته كفر . لكن العامي لايحكم عليه بالكفر إلا إن أنكر بعد تعليمه . وليس المراد أنه يجب حفظ أسمائهم ، خلافاً لمن زعم ذلك .

● والجمع الذي يجب معرفته تفصيــلا من الملائكة : جـبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، وعزرائيــل ، ورضوان خازن الجنة ، ومـالك خازن النار ، ورقيب وعتيد ، ومنكر ونكير فلا يكفر منكرهما ، لأنه اختلف في أصل السؤال . ويجب الايمان بحملة العرش ، والحافين به إجمالاً كسائر الملائكة ● والتفصيلي أكمل من الإجمالي من حيث التفصيل وإلا فهو مثله من حيث الخروج من عهدة التكليف بكل منها .

● وبالجملة فالإيمان شرعاً هو التصديق بجميع ما جاء به النبي ﷺ مما علم من الدين بالضرورة ، إجمالاً في الاجمالي وتفصيلا في التفصيلي . وأما لغة ، فهو مطلق التصديق ومنه قوله تعالى :

﴿ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ ، (٢)

أي بمصدق .

---

(١) الكهف ٦٥ .

(٢) يوسف ١٧ .

● تنبيه : إن الايمان على خمسة أقسام :

الأول – إيمان عن تقليد ، وهو الايمان الناشيء عن الأخذ بقول الشيخ من غير دليل .

الثاني – إيمان عن علم ، وهو الايمان الناشيء عن معرفة العقائد بأدلتها .

الثالث – إيمان عن عيان . وهو الايمان الناشيء عن مراقبة القلب لله بحيث لايغيب عنه طرفة عين .

الرابع – إيمان عن حق ، وهو الايمان الناشيء عن مشاهدة الله بالقلب.

الخامس – إيمان عن حقيقة ، وهو الايمان الناشيء عن كونه لايشهد إلا الله .

● فالتقليد للعوام ، والعلم لأصحاب الأدلة ، والعيان لأهل المراقبة ويسمى مقام المراقبة ، والحق للعارفين ويسمى مقام المشاهدة ، والحقيقة للواقفين ويسمى مقام الفناء لانهم يفنون عن غير الله ، ولا يشهدون إلا إياه ، وأما حقيقة الحقيقة فهي للمرسلين ، وقد منعنا الله من كشفها فلا سبيل الى بيانها .

● تنبيه آخر : المؤمن – إذا نام أو أغفل أو جن أو أغمي عليه أو مات – متصف جزماً بالايمان حكماً فتجري عليه أحكام الايمان في هذه الأحوال .

● والنطق فيه الخلف : أي وفي النطق بالشهادتين للقادر عليه وقع الاختلاف بين العلماء ، وموضوع هذا الخلاف (كافر أصلي) ، يريد الدخول في الاسلام ، أما أولاد المسلمين فمؤمنون قطعاً ، وتجري عليهم الاحكام الدنيوية ولو لم ينطقوا بالشهادتين طول عمرهم .

● والأخرس لايطالب بالنطق ، لعدم تمكنه من ذلك . وكذلك من اخترمته المنية قبل النطق من غير تراخ فهو مؤمن عند الله ، بخلاف من تمكن وفرط .

● ولا بد من لفظ أشهد ، ثم تكريره - وإن أتى بمرادف له - لما فيه من معنى التعبد ● ولا بد من التقريب بين الشهادتين ، والموالاة . ولا يشترط الإتيان بحرف العطف .

● ولا بد من الاعتراف برسالته ﷺ إلى غير العرب أيضاً [1] ، إذا كان يعتقد اختصاص رسالته بالعرب .

● وإذا كان كافراً باعتقاد قدم العالم - مثلاً - فلا بد من رجوعه عنه .

● وما تقدم من الشروط المتعلقة بتحديد اللفظ بأشهد مبني على المعتقد في مذهب السادة الشافعية ، لذلك لو أتى بالشهادتين بالعجمية أصح إسلامه ، وإن أحسن العربية ، وخالف الأبي شيخه ابن عرفة فقال ، لا يتعين القول بأشهد بل يكفي كل ما يدل على الإيمان ، فلو قال : الله واحد ومحمد رسول الكفى ، وتابعه بعض الشافعية على هذا وهما ابن حجر والنووي . قال المصنف في شرحه : القول الأول أولى بالتعويل عليه .

● بالتحقيق : أي ملتبساً بالتحقيق ، وهو الإثبات بالأدلة القائمة على دعوى كل من الفريقين ، فيكون التقدير - وفي النطق بالشهادتين - في جهة اعتبار مدخلة النطق في الإيمان الاختلاف ملتبساً بالأدلة . وفصل الخلاف بقوله في البيت التاسع عشر .

(١) قال النبي صلى الله عليه وسلم : فضلت على الأنبياء بست ، أعطيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب ، وأحلت لي الغنائم ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، وأرسلت إلى الخلق كافة ، وختم بي النبيون : رواه الترمذي عن أبي هريرة وقال حسن صحيح (برقم ١٥٥٣ الجزء الخامس) . وقال تعالى : « تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً » (الفرقان ١) .

١٩ ـ فَقِيلَ شَرْطٌ كَالعَمَلْ وَقِيلَ بَلْ شَطْرٌ والاسْلامَ أشرَحَنْ بِالعَمَلْ

● فقيل شرط : أي خارج عن ماهيته (لأن الشرط ما قام به الشيء ولم يدخل في ماهيته) وهذا القول لمحققي الأشاعرة والماتريدية ولغيرهم .

● وقد فهم الجمهور أن مرادهم أنه شرط لإجراء أحكام المؤمنين عليهم من التوارث والتناكح والصلاة خلفه ، وعليه ، والدفن في مقابر المسلمين ، ومطالبته بالصلاة والزكوات ، وغير ذلك لأن التصديق القلبي ، وإن كان إيماناً إلا أنه باطن خفي ، فلا بد له من علامة ظاهرة تدل عليه لتناط به تلك الأحكام .

فمن صدق بقلبه ، ولم يقر بلسانه ، من غير عذر مانع ، أو إباء ، بل اتفق ذلك له ، فهو مؤمن عند الله ، غير مؤمن في الأحكام الدنيوية .

أما المعذور إذا قامت قرينة على إسلامه بغير النطق ـ كالإشارة ـ فهو مؤمن فيهما .

وأما الآبي ـ بأن طلب منه النطق بالشهادتين فأبى ـ فهو كافر فيهما ، ولو أذعن في قلبه فلا ينفعه ذلك ولو في الآخرة .

● ومن أقر بلسانه . ولم يصدق بقلبه ـ كالمنافق ـ فهو مؤمن في الأحكام الدنيوية ، غير مؤمن عند الله تعالى ، ومحل كونه مؤمناً في الأحكام الدنيوية ما لم يطلع على كفره بعلامة كسجود لصنم ، أو اعتقاد لفكرة ضالة وإلا لجرت عليه أحكام الكفر .

● وفهم الأقل أن مرادهم بالشرطية أنه شرط في صحة الإيمان ، وهذا القول كالقول بالشطرية في الحكم .

● والقول بأنها شرط في إجراء أحكام المؤمنين هو الراجح ، والنصوص بحسب المتبادر منها مقوية للقول بالشرطية دون الشطرية ، كقوله تعالى :

﴿ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ ﴾ (١)

أي أثبته في قلوبهم ، وقوله ﷺ في دعائه :

« اللهمَّ ثبِّتْ قلبي على دينكَ » (٢) .

● كالعمل : أي النطق شرط مثل العمل ، فالنطق شرط لإجراء الأحكام الدنيوية ، والعمل شرط كمال من المختار عند أهل السنة ، فمن أتى به فقد حصل الكمال ، ومن تركه فهو مؤمن ، لكنه فوت على نفسه الكمال إذا لم يكن مع ذلك استحلال أو عناد للشارع أو شك في مشروعيته ، وإلا فهو كافر فيما علم من الدين بالضرورة .

● وذهبت المعتزلة إلى أن العمل شطر من الإيمان لأنهم يقولون بأن الإيمان هو العمل والنطق والاعتقاد ، فمن ترك العمل فليس هو بمؤمن لفقد جزء من الإيمان ، وهو العمل ، ولا هو بكافر ، لوجود التصديق ، فهو عندهم بين المؤمن والكافر ويخلد في النار ، ويعذب بأقل من عذاب الكافر .

---

(١) المجادلة ٢٢ .

(٢) عن أنس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول « يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك » فقلت « يا رسول الله » آمنا بك ، وبما جئت به ، فهل تخاف علينا ؟ قال نعم ، إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله ، يقلبها كيف يشاء » تفرد به الترمذي وقال حديث حسن . وعن أم المؤمنين أم سلمة أنه كان أكثر دعائه (يا مقلب القلوب ، ثبت قلبي على دينك) حديث حسن رواه الترمذي ٢١٤١ ج ٦ و ٣٥١٧ و ٢٥٨١ ج ٩) .

● والخوارج يكفرون مرتكب الكبائر . والمختار هو القول بالشرطية في إجراء الأحكام الدنيوية ، لأن الإيمان لغة ـ هو التصديق ـ فيستعمل شرعاً في تصديق خاص ، ولا دليل على نقله للعمل والنطق والاعتقاد ، كما زعمه المعتزلة . وكذلك قد دلت النصوص على ثبوت الإيمان قبل الأوامر والنواهي ، وعلى أن الإيمان والعمل الصالح متغايران ، وعلى أن الإيمان والمعاصي يجتمعان ، كقوله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا كُتبَ عليكمُ الصيامُ » (١)

فإنه يفيد ثبوت الإيمان قبل الأمر بالصوم ، وقوله تعالى :

« إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات » (٢)

فإن أصل العطف للمغايرة ، وكقوله تعالى :

« الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم » (٣)

بناء على أن المراد من الظلم المعصية ، فقد اقتضى بمفهوم اجتماع الإيمان مع المعاصي ، وقيل : إن المراد بالظلم الشرك ، لما روي أن الآية لما نزلت شق ذلك على الصحابة وقالوا : أينا لم يظلم نفسه ؟ ! فقال ﷺ ليس كما تظنون ، إنما هو كما قال لقمان لابنه « يا بنيّ لا تشرك بالله ، إنّ الشرك لظلم عظيم » (٤)

وعليه فمفهوم الآية من باب :

---

(١) البقرة ١٨٣ .
(٢) الكهف ١٠٩ .
(٣) الأنعام ٨٢ .
(٤) لقمان ١٣ .

« وما يؤمنُ أكثرُهمْ باللهِ إلاّ وهم مُشركونَ » (١)
فيكون المراد بالايمان مطلق التصديق .

● وقيل بل شطر : قال قوم محققون – كالإمام أبي حنيفة ، وجماعة من الأشاعرة – ليس الإقرار بالشهادتين شرطاً ، بل هو شطر . فيكون الايمان – عند هؤلاء – اسماً لعملي القلب واللسان جميعاً وهما التصديق والاقرار .

● واعترض بأن الايمان يوجد في المعذور ، كالأخرس ، والشيء لايوجد بدون شطره ، وأجيب عن ذلك : بأنه ركن يحتمل السقوط ، كما في الأخرس ، أما التصديق الذي محله القلب فإنه ركن لايحتمل السقوط ، وعلى هذا القول – كما في القول بأنه شرط صحة – فمن صدق بقلبه ، ولم يتفق له الإقرار في عمره ، ولا مرة ، مع القدرة على ذلك لايكون مؤمناً ، لاعندنا ولا عند الله تعالى . وكلا القولين ضعيف . والمعتمد أنه شرط لإجراء الاحكام الدنيوية فقط وإلا فهو مؤمن عند الله تعالى كما سلف وذكرناه .

● والاسلام أشرحه بالعمل : أي أشرحه بالعمل الصالح ، أي بالامتثال والإذعان الظاهري للعمل الصالح ، سواء عمل أو لم يعمل .

فمعنى الاسلام شرعاً : الامتثال والانقياد لما جاء به النبي ﷺ مما علم من الدين بالضرورة ، والمراد بالامتثال الإقرار اللساني بجميع ما جاء به النبي ﷺ الشامل لثبوت الوحدانية لله تعالى وثبوت الرسالة لمحمد ﷺ وغير ذلك من الأحكام المعلومة من الدين بالضرورة .

(١) يوسف ١٠٦

وأما معناه – لغة – فهو مطلق الامتثال والانقياد. فالنطق دليل على الاسلام والايمان، والعمل كال لهما، وقد ذكر الغزالي في الاحياء بحثاً عنوانه « بحث في الايمان والاسلام وما بينهما من الاتصال والانفصال »، فقال: ... الحق أن الايمان – لغة – عبارة عن التصديق، وأن الاسلام عبارة عن التسليم والاستسلام بالاذعان والانقياد وترك التمرد والإباء والعناد. والتصديق محل خاص، وهو القلب، واللسان ترجمانه، وأما التسليم فإنه عام في القلب واللسان والجوارح، فبموجب اللغة يكون الاسلام أعم من الايمان، ويكون الايمان عبارة عن أشرف أجزاء الاسلام. وأما في إطلاق الشرع لهما فالحق أنهما قد وردا – أولاً – على سبيل الترادف والتوارد بأن جعل الاسلام عبارة عن التسليم بالقلب والظاهر جميعاً، فان كل ذلك تسليم، وكذا الايمان بعد تعميمه بادخال الظاهر في معناه، وهو جائز لغة، لأن تسليم الظاهر في القول، والعمل ثمرة تصايق الباطن ونتيجته. ودليل هذا الاستعمال قوله تعالى:

«فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين، فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين».

ولم يكن باتفاق إلا بيت واحد. وقال تعالى أيضاً:

(ياقوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين).

ووردا – ثانياً – على سبيل الاختلاف بأن جعل الايمان عبارة عن التصديق بالقلب فقط، والاسلام عبارة عن التسليم ظاهراً، ودليل هذا الاستعمال الثاني قوله تعالى:

(قَالَتِ الأعرابُ آمَنّا . قُلْ لَمْ تُؤمِنُوا ولكنْ قُولوا أَسْلَمْنَا)

ومعناه استسلمنا في الظاهر ، فاراد بالإيمان - هہنا - : التصديق بالقلب فقط، وبالاسلام : الاستسلام ظاهراً باللسان والجوارح . ووردا - ثالثاً - على سبيل التداخل ، بأن جعل الاسلام عبارة عن التسليم بالقلب والقول والعمل جميعاً ، والايمان عبارة عن بعض مادخل في الاسلام وهو التصديق بالقلب ، وهو الذي عنيناه بالتداخل . ودليل هذا الاستعمال :

ما رُوِيَ أَنَّهُ ﷺ سُئِلَ . أيُّ الأعمالِ أفضلُ ؟ فَقَالَ ﷺ : الإسلامُ . فقيلَ : أيُّ الإسلامِ أفضلُ ؟ فقالَ ﷺ : الإيمانُ (١)

وهذا دليل على الاختلاف ، وعلى التداخل ، وهو أوفق الاستعمالات في اللغة لأن الايمان عمل من الأعمال ، وهو أفضلها ، والاسلام هو تسليم ، إما بالقلب وإما باللسان ، وإما بالجوارح ، وأفضلها الذي في القلب وهو التصديق الذي يسمى إيماناً (٢) .

(١) أخرجه أحمد والطبراني بإسناد صحيح .

(٢) عن الإحياء ص ١٠٢ ج ١ بتصرف .

٢٠ ـ مِثَالُ هذا الحَجُّ والصَّلاةُ كذا الصيامُ فادْرِ والزكاةُ

مثال هذا : أي مثال العمل الحج والصلاة والصيام والزكاة . وقد ترك المصنف الركن الخامس ـ وهو النطق بالشهادتين لتقدم بيانه .

الحج والصلاة : قدم الناظم الحج ـ وإن كانت الصلاة أفضل منه ـ لضرورة النظم فإن بعضهم يكفر بتركها كسلا بعد أمر الإمام ، بل الصيام أفضل من الحج على المعتمد والحج ـ لغة ـ هو مطلق القصد ، وشرعاً : قصد الكعبة للنسك المشتمل على الوقوف بعرفة . وقد اختلف في أي سنة فرض ، فقيل : فرض قبل الهجرة ، ونزول قوله تعالى :

(ولله عَلَى النَّاسِ حِجُّ البَيْتِ) (١)

الذي كان بعدها إنما هو للتأكيد . وقيل : فرض بعدها ، فقيل في السادسة ، وصححه الشافعية ، وقيل في التاسعة ، وصححه ابن الكمال .

والصلاة ـ لغة ـ : الدعاء مطلقاً ، وقيل بخير . وشرعاً : هي أقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير ، مختتمة بالتسليم ، بشرائط مخصوصة . وهي إما مأخوذة من الوصل ، لأنها وصلة بين العبد وربه ، أو مأخوذة من صليت العود بالنار ، إذا قومته بها لأنها تقوم العبد على طاعة الله تعالى ، وتنهاه عن العصيان ، قال الله تعالى

(إنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الفَحْشَاءِ والمُنْكَرِ) (٢)

وقال بعض المفسرين : الصلاة عرس الموحدين ، فانه يجمع فيها

(١) آل عمران ٩٧ .

(٢) عنكبوت ٤٥ .

ألوان العبادة كما أن العرس يجمع فيه ألوان الطعام [1] . وأعلم أن الصلاة فرضت قبل الهجرة بسنة . والأرجح أنه لم يفرض عليه ﷺ صلاة قبلها ، وقيل كان الواجب قبلها ركعتين بالغداة وركعتين بالعشي ، ثم فرضت الصلوات الخمس ليلة الإسراء .

● كذا الصيام : أي الصيام في كونه مثالاً للعمل مثل ماذكر من الحج والصلاة . وهو - لغة - الإمساك ، ولو عن نحو الكلام ، ومنه قوله تعالى حكاية عن مريم عليها السلام

(إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا) (٢)

وشرعاً : الإمساك عن المفطر جميع النهار على وجه مخصوص . وفرض في شعبان في السنة الثانية من الهجرة . وهل كان قبله صوم واجب ونسخ أو لا ؟ قولان ، وعلى الأول فقيل : عاشوراء ، وقيل : ثلاثة أيام من كل شهر . وأعلم أنه ﷺ صام تسع رمضانات ولم يكمل له إلا سنة واحدة على المعتمد .

---

(١) قال ابن عطاء الله

(الصلاة طهرة للقلوب من أدناس الذنوب ، واستفتاح لباب الغيوب) ثم بين أنها محل المناجاة فقال : « الصلاة محل المناجاة ، ومعدن المصافاة تتسع فيها ميادين الأسرار وتشرق فيها شوارق الأنوار علم وجود الضعف منك فقلل أعدادها وعلم احتياجك إلى فضله فكثر أمدادها » وبين أن المطلوب إقامتها بقوله « علم ما فيك من وجود الشره فحجرها عليك في بعض الأوقات ليكون همك إقامة الصلاة لا وجود الصلاة ، فما كل مصل مقيم .

(٢) مريم ٢٦ .

● قادر والزكاة : أي فاعل ، والمخاطب كل من يتأتى منه الدراية والعلم . والزكاة - لغة - التطهير والمدح والنماء ، وشرعاً إخراج جزء من المال على وجه مخصوص ، هذا إذا كانت بمعنى الفعل - كما هنا - وإن كانت بمعنى القدر المخرج فهي اسم لمال مخصوص ، يؤخذ من مال مخصوص ، على وجه مخصوص ، يصرف لطائفة مخصوصة ، وفرضت في السنة الثانية من الهجرة ، بعد زكاة الفطر .

٢١ ـ وَرُجِّحتْ زيادةُ الإيمانِ بما تزيدُ طاعـــةُ الإنسانِ

● ورجحت زيادة الإيمان : تقدم أن العمل من كمال الايمان ، عند أهل السنة ، وهنا ذكر المصنف أن الإيمان يزيد بسبب زيادة طاعـــة الانسان . ورجح جمهور الأشاعرة القول بزيادة الإيمان ، إذا زادت الطاعة ، وهي فعل المأمور به واجتناب المنهي عنه ، كما ينقص الإيمان بسبب نقص الطاعة . وقد يزيده المولى سبحانه وتعالى بمحض اختيـــاره من غير سبب يقتضيه .

● والزيادة والنقصان في غير إيمان الأنبياء والملائكة . أما الأنبياء فيزيد ولا ينقص ، لأن الكامل يقبل الكمال فحسب . ولا يرد أن الأنبياء يحصل لهم تجل عظيم في بعض الأحيان ، كما كان في ليلة المعراج ، فالإيمان بعده ليس بمنزلته قبله ، لأن هذا لا يستلزم تفاوتاً في إيمانهم .

● وإيمان الملائكة لا يزيد ولا ينقص كما ذكره المصنف في كبيره عن ابن القيم وهو المشهور لأن إيمانهم جبلي بأصل الطبيعة لا يتفاوت ، وذكر الشيخ عبد البر الأجهوري أنه يزيد ولا ينقص ، فجعلــه كإيمان الأنبياء .

● فتلخص أن الأقسام ثلاثة : يزيد وينقص (وهو إيمان الأمة ؛ إنساً وجناً) ولا يزيد ولا ينقص (وهو إيمان الملائكة على المشهور) ويزيد ولا ينقص (وهو إيمان الأنبياء) وزاد بعضهم قسماً رابعاً : وهو الذي ينقص ولا يزيد وهو إيمان الفساق .

● وقول سيدنا إبراهيم ﷺ

(ولكنْ ليطمئنَّ قلبي)

ليطمئن من قلبه لرؤية الكيفية . لأن الله سبحانه قال :

(أولمْ تُؤمن ؟ قالَ : بَلى) [1]

أي أولم يكفك إيمانك وقوله ﷺ :

نحنُ أحقُّ بالشكِ من إبراهيمَ [2]

أي لو لحقه شك لتطرق لنا بالأولى نظراً لحال الأمة ، لا لحاله ﷺ ، أو نظراً لحاله ، ويكون منه تواضعاً .

● وقد احتجوا على أن الإيمان يزيد وينقص بحجة عقلية ونقلية ، أما العقلية فهي : أنه لو لم تتفاوت حقيقة الإيمان بالزيادة والنقص لكان إيمان آحاد الأمة بل المنهمكين في الفسق والمعاصي مساوياً لإيمان الأنبياء والملائكة ! وهو باطل .

● وأما النقلية فهي النصوص الكثيرة الواردة على هــذا المعنى :

كقوله تعالى :

(وإذا تُليتْ عليهم آياتُه زادَتْهم إيماناً) [3]

وكقوله

(ليزْدادوا إيماناً معَ إيمانِهم) [4]

وقوله

(ويَزدادَ الذينَ آمنوا إيماناً) [5]

---

(١) البقرة ٢٦٠ ؛ قال ابن كثير : أحب أن يترقى من علم اليقين بذلك إلى عين اليقين وأن يرى ذلك مشاهدة .

(٢) رواه مسلم والبخاري عن أبي هريرة .

(٣) الأنفال ٢

(٤) الفتح ٤

(٥) المدثر ٣١ .

وقوله .

(فأما الذينَ آمنوا فزادَتهم إيماناً)[1]

وكقوله عليه الصلاة والسلام لابن عمر لما سأله ، الإيمان يزيد وينقص ؟ قال : نعم ، "يزيدُ حتى يُدخلَ صاحبَه الجنةَ ، وينقصُ حتى يُدخِلَ صاحِبَه النارَ ."[2]

وقوله ﷺ

«لو وُزِنَ إيمانُ أبي بكرٍ بإيمانِ هذه الأمة لرجحَ به »[3]

والآيات مع حديث لو وزن إيمان ... ، لا تدل على أن الإيمان ينقص بل توشد إلى الزيادة فحسب ، فنقول كل ما يقبل الزيادة يقبل النقص ، فتم الدليل على أن الإيمان يزيد وينقص غير أن إيمان الأنبياء يقبل الزيادة دون النقص لوجوب العصمة الدائمة المانعة من النقص .

● بما تزيد طاعة الإنسان : أي ورجح جماعة من العلماء القول بقبول الإيمان الزيادة ووقوعها فيه بسبب زيادة طاعة الإنسان ، وهي : فعل المأمور به ، واجتناب المنهي عنه » .

---

(١) التوبه ١٣٤ .

(٢) عند ابن ماجة موقوف على أبي هريرة وابن عباس وأبي الدرداء .

(٣) رواه إسحاق بن راهويه والبيهقي في الشعب بسند صحيح عن عمر من قوله، وأخرجه ابن عدي والديلمي كلاهما عن ابن عمر مرفوعاً بلفظ « لو وضع إيمان أبي بكر على إيمان هذه الأمة لرجح بها » وله شاهد في السنن عن أبي بكرة مرفوعاً أن رجلاً قال : يارسول الله كأن ميزاناً أنزل من السماء فوزنت أنت وأبو بكر فرجحت أنت ، ثم وزن أبو بكر بمن بقي فرجح (كشف الخفاء ٢٣٤ الجزء الثاني .

٢٢ ـ وَنَقْصُهُ بِنَقْصِهَا وَقِيلَ: لَا وَقِيلَ: لَا خُلْفَ كَذَا قَدْ نُقِلَا

● ونقصه بنقصها: أي ونقص الإيمان يحصل بنقص الطاعة فلا يرد الأنبياء والملائكة إذ لا يجوز على إيمانهم أن ينقص بنقصها إجماعاً، هذا مذهب جمهور الأشاعرة.

قال البخاري: لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار، فما رأيت أحداً منهم يختلف في أن الإيمان قول وعمل، ويزيد وينقص.

● وقيل لا قال جماعة ـ أعظمهم الإمام أبو حنيفة ـ لا يزيد ولا ينقص، لأنه سم التصديق البالغ نهاية الجزم والإذعان، وهذا لا يتصور فيه ما ذكر، لان تلك النهاية لا مراتب لها. وبحث فيه: بأن التصديق مراتب، فإن تصديق المقلد ليس كتصديق العارف بالدليل، وهو ليس كتصديق المشاهد، وهو ليس كتصديق المستغرق الذي لا يشاهد إلا الله تعالى.

● وقال الذين نفوا الزيادة: إن الآيات مصروفة الى الزيادة بالمؤمن به، لان الصحابة كانوا بما أنزل على النبي ﷺ، وكانت الشريعة لم تتم، والاحكام تنزل شيئاً فشيئاً، فكانوا يؤمنون بكل ما يتجدد، وقالوا ان الاحاديث مصروفة الى الزيادة في الاعمال، وليست في التصديق.

● وقيل لا خلف: قال جماعة ـ منهم الفخر الرازي، وامام الحرمين ـ ليس الخلاف بين الفريقين حقيقياً بل لفظياً. ووجهه أن القول: بأنه يزيد وينقص محمول على ما به كماله، وهو الاعمال، والقول بأنه لا يزيد ولا ينقص محمول على التصديق الباطني وهو أصل الإيمان، فيرجع الخلاف لفظياً.

● كذا قد نقلا: أي القول بأنه لا خلاف. والاصح أن التصديق

القلبي يزيد وينقص بكثرة النظر ووضوح الأدلة، وعدمها، وقد يزيد أيضاً بعض التجلي كما سبق (١).

ولهذا كان ايمان الصديقين أقوى من ايمان غيرهم بحيث لا تعتريه الشبه وعلى هذا يتبين أن الخلاف حقيقي.

● والمعتقد أن الإيمان هو التصديق فقط وأن النطق شرط في إجراء الأحكام الدنيوية وأن الإيمان يزيد وينقص كما هو التحقيق، فاستفده، والله ولي التوفيق.

---

(١) روى الترمذي الحكيم في النوادر والطبراني في الأوسط من حديث محمد بن مسلمة قوله عليه الصلاة والسلام: إن لربكم في أيام دهركم نفحات، ألا فتعرضوا لها، وعزاه الحافظ ابن حجر إلى محمد بن مسلمة وسكت عليه، ورواه الطبراني بزيادة».. لعله أن يصيبكم نفحة منها فلا تشقوا بعدها أبداً «كشف الخفاء الجزء الأول ص ٢٦٩.

٢٣ - فَواجِبٌ لَهُ الوجودُ والقِدَمْ كَذَا بَقَاءٌ لا يُشَابُ بالعَدَمْ

● فواجب له الوجود : تنقسم الصفات الواجبة إلى قسمين : ثبوتية وسلبية ، فالثبوتية قسمان ، منها ما يدل على نفس الذات ، دون معنى زائد عليها ، وهي الوجود . ومنها ما يدل على معنى زائد على الذات وهي صفات المعاني والمعنوية إلا أن هذا المعنى الزائد وجودي في المعاني ، وثبوتي في المعنوية ، وكلاهما أربع عشرة صفة : القدرة والإرادة ، والعلم ، والحياة ، والسمع ، والبصر ، والكلام . وكونه تعالى : قديراً ، مريداً ، عليماً ، حياً ، بصيراً ، سميعاً ، بصيراً ، متكلماً . فصفات المعاني دلت على معنى زائد على الذات ، وكذلك المعنوية ، إذ هي عبـــارة عن قيام المعاني بالذات [١] .

● والسلبية خمس صفات ، وهي القدم ، والبقاء ، والقيام بالنفس ، والمخالفة للحوادث ، والوحدانية .

وهنا شروع بما يجب لله تعالى ، وأول واجب هو :

الوجود : واعلم أن الأشاعرة يعرّفون الوجود بأنه صفة نفسية يدل الوصف بها على نفس الذات دون معنى زائد عليها [٢] .

---

(١) انظر حاشية الصاوي على الخريدة ص ٥٩ .

(٢) الوجود : مبتدأ ، خبره واجب ، ويقال أيضاً في تعريفه « الوجود صفة تصحح لموصوفها أن يرى . وفي جعله صفة تجوز . حيث شبهوا الوجود بالصفة الحقيقية كالعلم ، بجامع أن كلا منها يقع صفة في اللفظ فيقال « ذات الله موجودة » كما يقال « الله عالم » والرازي يعرف الوجود بأنه : الحال الواجب أي الثابت لها ثبوتاً لا ينفك عنها وقوله ما دامت الذات أي مدة دوام الذات =

وإنما قدم الوجود على بقية الواجبات له تعالى لأنه أصل، وما عداه كالفرع ، إذ الحكم بوجوب الواجبات واستحالة المستحيلات ، وجواز ما يجوز في حقه تعالى لا يتحقق إلا بعد الحكم بوجوب الوجود .

● ومعنى كونه تعالى واجب الوجود أنه لايجوز عليه العدم ولا يقبله لا أزلاً ولا أبداً ، والدليل على ذلك أن نقول : العالم حادث ، وكل حادث يجب افتقاره لمحدث ، فوجب افتقار العالم إلى المحدث ، وهو الله تعالى ، وكل من وجب افتقار العالم إليه فهو واجب الوجود ، فوجب وجود الله تعالى ، ولو لم يكن واجب الوجود لكان جائزاً ، ولو كان جائز الوجود لما ظهرت الأكوان ، كيف وقد ظهرت . لأنه لو كان جائز الوجود لاحتاج إلى محدث يحدثه كما احتاج الكون الحادث إلى محدث ، ثم لاحتاج محدثه إلى محدث كذلك ، لوقوع المماثلة بينهما ، وهكذا ، فإما أن يستمر الحال إلى ما لا نهاية وهو التسلسل أو يرجع الأمر إلى الأول ، وهو الدور ، وكلاهما باطل ، وما أدى إليهما ، وهو

= ودام هنا فعل تام فاعله الذات ، ولا يجوز جعل دام ناقصة وغير معللة خبرها ، لأن الذات لا تعلل بعلة ، وقوله غير معللة بعلة أي حال كون الحال الواجب غير معلل بعلة ، فغير حال لقوله الحال الواجب، فصفات المعاني السلبية عنده ليست بحال ، والصفات المعنوية دائمة بدوام المعاني ، فهي معللة بها كالمريد فهو معلل بقيام الإرادة بالذات ، والقادر معلل بقيام القدرة بالذات ، وهكذا . والمراد بالتعليل لغة : التلازم والملازمة ، واصطلاحاً : كون الحكم مقتضياً لآخر . والأول هو اللزوم ، والثاني هو اللازم : فالمعاني ملزومة المعنوية ـ عقلاً ـ والمعنوية لازمة للمعاني ، بمعنى أنه يلزم من كونه قادراً أنه موصوف بالقدرة : كما يلزم من اتصافه بالقدرة كونه قادراً ١ . هـ من مقدمة شيخ الإسلام زكريا الأنصاري في الألفاظ المتداولة ص ٣٠ ومفتاح الجنة لسيدي محمد الهاشمي ص ٩٢

احتياجه سبحانه إلى محدث ، باطل أيضاً ، فيثبت عدم احتياجه ، أي وجوب وجوده سبحانه .

● وحقيقة الدور هي توقف الشيء على ما يتوقف عليه ذلك الشيء فإن كان التوقف بمرتبة واحدة سمي الدور المصرح، كما اذ توقف زيد على عمرو، في حال توقف عمرو على زيد، فكل واحد منهما ينتظر صاحبه أن يوجده.. وان كان بمراتب سمي الدور المضمر » كما اذا توقف آ على ب، وتوقف ب على ج وتوقف ج على آ ». وبطلان أنه يلزم عليه كون الشيء الواحد سابقاً على نفسه مسبوقاً بها » كما لو فرضنا أن زيداً أوجد عمراً وأن عمراً أوجد زيداً، فيتحصل أن يكون زيد متقدماً على نفسه، متأخراً عنها، وأن يكون عمرو كذلك، وهذا يؤدي الى اجتماع النقيضين، وهو باطل.

● وأما حقيقة التسلسل فهو أن تفرض سلسلتين ، إحداهما من الآن إلى مالا نهاية له في جانب الماضي ، وتبدأ الأخرى من قبل الآن - وليكن عهد الطوفان - إلى ما نهاية له في جانب الماضي ، ثم تطبيق السلسلتان ، إحداهما على الأخرى فلا يخلو حالها إما أن تتساويا ، وهو باطل لأنه يلزم تساوي الناقص بالزائد ، أي تساوي السلسلة الآخذة بالطوفانة وإما أن تتفاوتا ، وهو الصحيح ، فإن مقدار التفاوت بينهما معلوم ، وهو ما كان من الطوفان إلى الآن ، وهو مقدار متناه ، والذي يزيد بمقدار متناه يكون متناهياً أيضاً ، ولا بد من انتهاء الحوادث في جانب الماضي ، ومعنى انتهائها أنها مسبوقة بعدم أي لم تكن ثم كانت .

● والوجود : صفة نفسية ، ونسبت للنفس بمعنى الذات لأنها لا تتحقق خارجاً بدونها .

● والقدم : هذا شروع في الصفات السلبية ، وهي التي دلت على سلب ما لا يليق به سبحانه أي تسلب من الذهن أضدادها ، وهي غير منحصرة على الصحيح ، وإنما عد المصنف منها خمساً لأنها من مهمات أمهاتها ، ولأن الشارع الحكيم لم يكلفنا تفصيلاً إلا بها .

● والمراد بالقدم في حقه تعالى : القدم الذاتي ، وهو : عدم افتتاح الوجود ، أو عدم الأولية للوجود . وأما القدم في حقنا فالمراد به الزماني ، وهو طول المدة ، وهذا مستحيل في حقه تعالى .

قال تعالى : « هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » . (١)

فالأول : هو قبل كل شيء بلا بداية ، والآخر : هو بعد كل شيء بلا نهاية .

وإن قلت : إن وجوب الوجود يستلزم القدم بل والبقاء ، فذكرهما بعده محض تكرار ! قلت : علماء هذا الفن لا يكتفون بدلالة الالتزام ، بل يصرحون بالعقائد لشدة خطر الجهل بها ● ودليل القدم : أنه لو لم يكن قديماً لكان حادثاً ، ولو كان حادثاً لا فتقر إلى محدث وهكذا محدثه يفتقر إلى محدث لانعقاد المماثلة بينهما ، حتى تنتهي إلى الدور أو التسلسل وكلاهما باطل ، ويلزم أن حدوثه باطل كذلك ، وإذا ثبت بطلان الحدوث ثبت القدم ، إذ لا واسطة بينهما .

● فائدة : انشعبت الأقوال في القديم والأزلي إلى ثلاثة ، الأول : أن القديم هو الموجود الذي لا ابتداء لوجوده ، والأزلي ما لا أول له ،

(١) الحديد الآية ٣ .

عدمياً كان أو وجودياً . فعليه الصفات السلبية لا توصف إلا بالأزلية ، بخلاف الذات العلية ، والصفات الثبوتية ، فإنها توصف بالقدم والأزلية .

الثاني : أنهما مترادفان ، الثالث : ان القديم هو القائم بنفسه الذي لا أول لوجوده ، والأزلي هو ما لا أول له ، عدمياً كان أو وجودياً ، قائماً بنفسه أو لا .

فعليه الصفات مطلقاً لا توصف بالقدم لانها غير قائمة بنفسها ، وتوصف الذات العلية بكل منهما .

● كذا بقاء : المراد بالبقاء في حقه تعالى عدم الآخرية للوجود ،أو عدم اختتام الوجود .

ودليله : أنه لو جاز عليه العدم لاستحال عليه القدم ، إذ كل ما ثبت قدمه استحال عدمه ، وقد سبق دليل وجوب القدم قال تعالى :

﴿وَلا تَدْعُ مَعَ اللهِ إلهاً آخرَ لا إلهَ إلاّ هُوَ كلُّ شيءٍ هالكٌ إلا وَجْهَهُ لهُ الحُكْمُ وَإلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.(١)

وقال تعالى :

﴿كُلُّ مَنْ عَليها فانٍ ويبقى وَجهُ رَبِّكَ ذو الجَلالِ والإكْرامِ﴾(٢)

● تنبيه : عدمنا في الأزل لا أول له ، وله آخر . والمخلوقات لها اول

(١) القصص ٨٨ .

(٢) الرحمن ٢٧ .

ولها آخر ما عدا نعيم الجنة وعذاب النار ، فلها أول وليس لها آخر ، فكل منها باقٍ ، لكن شرعاً لا عقلاً ، لأن العقل يجوز عدمها .[1]

● لا يشاب بالعدم : لا يلحق بقاء الله تعالى عدم ، أو لا يشاب بجواز العدم ، وهو معنى البطلان في قول لبيد رضي الله عنه .

ألا كل شيء ما خلا الله باطل . . . .

(١) إن دوام نعيم أهل الجنة واستمرار عذاب أهل الجحيم ، أبد الآبدين مما علم من الدين بالضرورة ، وقد تواردت الأدلة على بقائهما ، ومضت الأمة على هذه العقيدة مدى الدهور ، ففي القرآن الكريم وحده نحو مائة آية في الخلود ، قريب من ستين منها في النار وأربعين منها في الجنة ؛ وذكر التأبيد في أربع في النار مع الخلود وفي ثمان في الجنة . وتضافر هذه الآيات ونظائرها يفيد القطع بإرادة حقيقتها، وأما ماورد في السنة بالأدلة فأكثر من أن يحصى .

● وأنه لما ينال العدم مخالف : أي وواجب له تعالى أنه مخالف للحوادث التي يلحقها العدم . والمخالفة للحوادث عبارة عن سلب الجرمية ولازمها (التحيز) والعرضية ولا زمها (القيام بالغير) والكلية ولا زمها (الكبر) والجزئية ولا زمها (الصغر) إلى غير ذلك من سمات الحوادث ، كالفوقية والتحتية . فهو سبحانه ليس بجسم ، لأن كل جسم مؤلف من جواهر ، وكل جوهر متحيز لا يخلو عن أن يكون ساكناً في متحيزه أو متحركاً وكلا الحركة والسكون حادثان ، وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث ، إذاً فالجواهر حادثة وبالتالي يثبت حدوث الأجسام (١) .

● وهو سبحانه وتعالى ليس بعرض ، لأن العرض لا يقوم بنفسه ، بل لا بد له من جسم يقوم به . وقد ثبت حدوث الأجسام فيثبت بالتالي حدوث الأعراض . ولأن الله سبحانه متصف بصفات المعاني (وهي القدرة والإرادة والعلم والحياة والسمع والبصر والكلام) ولا تعقل هذه إلا لموجود قائم بنفسه ، مستقل بذاته ، ولهذا قال :

● برهان هذا القدم : أي دليل مخالفته سبحانه للحوادث هو دليل القدم . وذلك بأنه لو لم يكن مخالفاً لها لكان مماثلاً ، ولو كان مماثلاً لها لكان حادثاً ، كيف وقد سبق ثبوت قدمه سبحانه ، وقد قال الله تعالى :

« وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ » (٢)

أي لم يكن له أحد مكافئاً . وقال أيضاً :

(١) انظر إحياء علوم الدين الجزء الأول ص ١٠٦ بحث معرفة الله تعالى .
(٢) الإخلاص

«فاطر السموات والأرض ، جعل لكمْ من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً يذرؤكم فيه ، ليس كمثله شيءٌ ، وهو السَّميعُ البصيرُ » (١)

والفاطر هو الخالق على غير مثال سبق . وإذا ما ألقى الشيطان في الذهن أنه إذا لم يكن المولى جوماً ولا عرضاً ، ولا كلاً ، ولا جزءاً ، فما حقيقته ؟ فقل في رد ذلك : لا يعلم الله إلا الله .

«ليس كمثله شيءٌ وهو السَّميعُ البصيرُ »

بيد أنه قد ورد عن ابن عباس رضي الله تعالى عنها أن قوماً تفكروا في الله عز وجل فقال النبي ﷺ :

« تفكروا في خلق الله ، ولا تتفكروا في الله فإنكم لن تقدروا قدرَهُ » (٢)

وورد أيضاً ، أن الله احتجب عن البصائر كما احتجب عن الأبصار ، وأن الملأ الأعلى يطلبونه كما تطلبونه » وسئل أبو بكر الصديق رضي الله عنه هل يتأتى لبشر أن يدرك الله ؟ فقال : العجز عن الإدراك إدراك وسئل سيدنا علي كرم الله وجهه : بم عرفت ربك ؟ قال عرفته بما عرفني به نفسه لا يدرك بالحواس ولا يقاس بالقياس ، ولا يشبه بالناس ، قريب في بعده ، بعيد في قربه ، فوق كل شيء ، ولا يقال تحته شيء ، وأمام كل شيء ولا يقال أمامه شيء . وقال الجنيد رضي الله عنه : لا يعرف الله إلا

(١) الشورى ١١ .

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية ، والأصبهاني في الترغيب والترهيب .

الله . بيد أن هذه النصوص وأمثالها إنما تنفي معرفة الله تعالى من حيث كنه ذاته وكنه صفاته ، وأما معرفة الله تعالى من حيث وحدة ذاته أو وحدة صفاته أو وحدة أفعاله فهي واجبة على كل مكلف بل هي أول الواجبات عليه ، ويليها معرفة أحكام العبادات والمعاملات ، وتزكية النفس وتخليصها من آفاتها وأخلاقها المذمومة وقد ذكر النسفي والخازن في تفسيرها أن ابن عباس رضي الله عنهما قال في معنى قوله تعالى :

« يا أَيُّها النَّاسُ اعبُدوا ربَّكم »

أي وحدوا ربكم ، وقال : كل ما ورد في القرآن من العبادة معناه التوحيد . وذكر النسفي في معنى قوله تعالى :

« وما خلقتُ الجنَّ والإنسَ إلا ليعبُدون »

أن معناه إلا ليعرفوني ، ثم قال : وهذا حسن ، لأنه لو لم يخلقهم لم يعرف وجوده وتوحيده . ونقل القرطبي عن مجاهد أن معنى قوله تعالى « إلا ليعبدون » : إلا ليعرفوني . وها هو العلامة أحمد الصاوي يشرح هذه المعرفة المطلوبة بقوله : معرفة العبد ربه نور يقذفه في قلبه ، فيدرك بذلك أسرار ملكه ، ويشاهد به ملكوته ويلاحظ صفاته ، وهذا معنى قوله تعالى :

« اللهُ نورُ السَّموات والأرضِ »

أي منورهما ومنور قلوب المؤمنين فيهما . وقد عبر الصوفية رضي الله عنهم عن معرفة الله سبحانه بالوصول إليه وقال ابن عطاء الله : « وصولك إلى الله وصولك الى العلم به ، إذ جل ربنا أن يتصل به شيء أو يتصل هو بشيء » . وقال النوري : الاتصال مكاشفات القلوب ومشاهدات الأسرار في مقام الذهول

وقال الإمام الغزالي : اعلم أن الاتصال والمواصلة – فيما أشار إليه الشيوخ – لكل من وصل إلى صفو اليقين بطريق الذوق والوجد ، وهو رتبة في الوصول ، ثم يتفاوتون ، فمنهم من يجد الله بطريق الأفعال ، وهو رتبة في التجلي ، فيفنى فعله وفعل غيره لوقوفه مع الله تعالى . ومنهم من يوقف في مقام الهيبة والأنس بما يكاشف قلبه من مطالعة الجلال والجمال وهو تجلى بطريق الصفات ، وهو رتبة في الوصول ، ومنهم من يرقى إلى مقـــام الفناء مستملياً على باطنه أنوار اليقين والمشاهدة ، مغيباً في شهوده عن وجوده ، وهذا ضرب من تجلي الذات لخواص المقربين ، وهذه رتبة في الوصول وفوق هذا حق اليقين ، ويكون من ذلك في الدنيا للخواص "لمح"، وهو سريان نور المشاهدة في كلية العبد حتى يحظى بهروحه وقلبه ونفسه حتى قالبه ، وهذا من أعلى رتب الوصول[1] . وقد بين من القرب من الله تعالى فقال : وحقيقة الأنس : استبشار القلب وفرحه لما انكشف له من قرب الله تعالى وجماله وكماله ، وقال بعضهم : حقيقة القرب فقد حس الاشياء من القلب ، وهدوء الضمير الى الله تعالى ؛ قلت : وهذا هو الوسيلة لنيل القرب ، لا نفس القرب ، لأن هذا هو طهور القلب عما سوى الله تعالى ، وإذا تطهر القلب عما سوى الله تعالى كان حاضراً معه ، لأنه ليس بين العبد وبين الله الا حجاب نفسه وعوارضها ، فإذاً فني عنها وعن عوارضها ، وعلم قيام العالم كله بقدرة الله تعالى عرف قرب الله تعالى منه ، وجملة ذلك أن كل ذرة من بدء العالم وبدء الانسان قد تعلق علم الله تعالى بها كشفاً ، وارادته تخصيصاً ، وقدرته ايجاداً وابقاء ، والصفات لا تفارق الموصوف بل

(1) فرائد الآلىء تصحيح الشيخ محمد بخيت المطيعي ص ١٥١ .

صفاته قائمة بالموصوف ، فإذا نطق العارف فلا ينطق بنفسه ، وإذا سمع فلا يسمع بنفسه ، وهكذا ورد في الحديث :

(كنت سمعهُ الذي يسمع به وبصرهُ الذي يُبصرُ به... الحديث)

فالعارفون تنشأ أحوالهم عن قرب الله تعالى ، وأما الأبرار فتنشأ أحوالهم عن ملاحظة علمهم بوجود الرب مطلقاً ، مع العلم باقتداره على المنح والعطاء والإسعاد والإشقاء . والعارفون يرون ربهم في الدنيا بعين الإيقان والبصائر ، وفي الأخرى بالأبصار ، فهو قريب منهم في الدارين ، وليس قربه منهم في الأخرى مخالفاً لقربه في الدنيا إلا بمزيد اللطف والعطف ، وإلا ، فقد ارتفع هنا وهناك قرب المسافة ولم يكن بينه وبين مخلوق إضافة ، لا في الدنيا ، ولا في الآخرة البتة . وهذه المعرفة مثمرة للأنس بشرط الصفاء ، والأنس بثمر السكينة (١) .

(١) فرائد اللآلىء ص ١٨١ .

● قيامه بالنفس : أي وواجب له تعالى قيامه بالنفس . والمراد بالنفس الذات ، لأن الصحيح جواز إطلاق النفس على ذات الله تعالى[1] والمراد بالقيام بالنفس عدم افتقاره تعالى إلى المحل والمخصص .

● فأما عدم افتقاره إلى المحل فيراد به عدم افتقاره لذات يقوم بها ، لا يعني عدم افتقاره إلى المكان ، لأنه منفٍ في حقه تعالى بصفة المخالفة للحوادث .

وأما المراد بالمخصص فالموجد ، وهذا ـ وإن كان مستغنياً عنه بالقدم ـ مذكور لعدم كفاية دلالة الالتزام في علم التوحيد . ودليل عدم الافتقار إلى المحل أنه : لو افتقر اليــه لكان صفة ولو كان صفة لما اتصف بصفات المعاني والمعنوية ، وهي واجبة القيام به تعالى وإذا بطل كونه صفة بطل افتقاره إلى محل ، وثبت عدم الافتقار .

ودليل عدم الافتقار إلى المخصص أنه لو افتقر اليه لكان حادثاً ، كيف وقد سبق وجوب وجوده ، وقدمه ، وبقائه ذاتاً وصفات .

تنبيه : علم مما تقدم أنه سبحانه مستغن عن المحل والمخصص معاً ، أما صفاته فهي مستغنية عن المخصص ، وقائمة بذاته تعالى . ولا يعبر عنها بالافتقار إلى الذات ، لما فيه من الايهام .

وذوات الحوادث مفتقرة إلى المخصص ، وصفاتها مفتقرة إلى الذات والمخصص معاً ، وإذا ماتذوقت فقرك الذاتي وجدت أنه لاحول لك ولا قوة إلا بربك سبحانه ، ووجدت أن كل مالك وارد من المنعم إليك ،

(١) التحقيق أن النفس باعتبار مأخذه من النفس لا يصح إطلاقه عليه الله تعالى ، أما باعتباره مأخذه من النفيس فيجوز لأنه سبحانه أنفس الأشياء وأعزها .

وتأثير جنح التفضل عليك . ولقد قال الحكيم ابن عطاء الله : فاقتك لك ذاتية ، وورود الأسباب مذكرات لك بما خفي منها والفاقة الذاتية لاترفعها العوارض .

● وحدانية : أي وواجب له سبحانه وحدانية . ومبحثها هذا أشرف المباحث ، لذا سمي هذا الفن علم التوحيد . وأعلم أنه لما ثبت أنه لاخالق سوى الله تعالى لزم أنه لايستحق العبادة غيره . إذ أن توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية – أي استحقاق العبادة – متلازمان عرفاً وشرعاً ، فالقول بأحدهما قول بالآخر ، والإشراك في أحدهما إشراك في الآخر .

فمن اعتقد أنه لارب ولا خالق إلا الله تعالى لم ير مستحقاً للعبادة إلا هو سبحانه . ومن اعتقد أنه لايستحق العبادة غيره سبحانه كان ذلك بناء منه على أنه لارب إلا الله . ومن أشرك مع الله غيره في العبادة كان لامحالة قائلاً بربوبية هذا الغير . هذا ما لا يعرف في الناس سواه ، فإن من لاتعتقد له الربوبية استحال أن يتخذ معبوداً ، لهذا نجد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يكتفون بالدعوة إلى التوحيد لأحدهما ، ويضعون كلاً منها موضع الآخر . ولما تقرر في عقول الناس أنهم لايعبدون غير الله إلا إذا اشركوا هذا الغير في الربوبية فإذا انمحى عنهم هذا الإشراك تبعه التوحيد في العبودية . وابتداء كلامه سبحانه في فاتحة الكتاب بـ :

(الحَمدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ)

يشير إلى تقدير توحيد الربوبية ، المترتب عليه توحيد الألوهية المقتضي من الخلق تحقيق العبودية . وهو ما يجب على العبد أولا من معرفة الله سبحانه وتعالى . والحاصل : أنه يلزم من توحيد العبودية توحيد الربوبية ، دون العكس في القضية ، لقوله تعالى :

«وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ»

وقوله حكاية عنهم :

«مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ»

بل غالب سور القرآن وآياته متضمنة نوعي التوحيد . بل القرآن من أوله إلى آخره في بيانها ، وتحقيق شأنها . فإن القرآن ، إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله ، فهو التوحيد العلمي الخبري وإما دعوة إلى عبادته وحده ، وخلع ما يعبد من دونه ، فهو التوحيد الإرادي الطلبي . وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته ، فذلك من حقوق التوحيد ومكملاته ، وإما خبر عن إكرامه لأهل التوحيد ، وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في العقبى ، فهو جزاء توحيده ، وإما خبر عن أهل الشرك ، وما فعل بهم في الدنيا من النكال ، وما يحل بهم في العقبى من العذاب والسلاسل والأغلال ، فهو جزاء من خرج عن حكم التوحيد . إذن فالقرآن كله في التوحيد وحقوق أهله والثناء عليهم ، وفي شأن ذم الشرك وأهله وجزائهم[(1)]

والمراد هنا وحدة الذات والصفات ، بمعنى عدم النظير فيها .

أما وحدة الذات بمعنى عدم التركب من أجزاء فسبقت في المخالفة للحوادث ، ووحدة الصفات بمعنى عدم تعددها من جنس واحد ، كقدرتين

(1) أنظر كتاب فرقان القرآن بين صفات الخالق وصفات الأكوان للعلامة سلامة القضاعي ص ١١٦ - ١١٨ ، وكذلك شرح العلامة ملا علي القاري على الفقه الأكبر ص ٩ .

فأكثر – مثلاً – فستأتي في قوله : «ووحدة أوجب لها» . وأما وحدة الأفعال بمعنى أنه لاتأثير لغيره سبحانه في فعل من الأفعال فستأتي أيضاً في قوله : «فخالق لعبده وما عمل» .

والحاصل أنّ الوحدانية الشاملة لوحدانية الذات والصفات والأفعال تعني أولاً – بالنسبة للذات أنها غير مركبة من أجزاء ، وأنهـا غير متعددة بحيث يكون ثمة إله ثان ، فهي واحدة من غير تركيب ولا تعدد .

ثانياً – بالنسبة للصفات تعني أنها غير متعددة من جنس واحـد كقدرتين فأكثر – مثلاً – وأنه لايوجد صفة لأحد تشبه صفته تعالى .

ثالثاً – وبالنسبة للأفعال فتعني أنه لايوجد لغير الله فعل من الأفعال على وجه الايجاد وإنما ينسب الفعل لغير الله تعالى على وجه الكسب والاختيار.

وفي ذلك رد على المعتزلة القائلين بأن العبـد يخلق أفعال نفسه الاختيارية ، وإنما لم يكفروا بذلك لاعترافهم بأنّ إقدارهم عليها من الله تعالى ، وبعضهم كفرهم وجعل المجوس أسعد حالاً منهم ، إذ المجوس قالوا بمؤثرَين اثنين ، وهؤلاء أثبتوا مالا حصر له . والراجح عدم كفرهم.

ودليل الوحدانية بالمعنى المراد هنا – وهو وحدة الذات والصفات بمعنى عدم النظير فيها – أنه لو كان ثمة إلهان لما وجد شيء من الأكوان ، ووجودها بالفعل مبطل للتعدد ، فتثبت الوحدانية ، وإنما لزم من التعدد عدم وجود العالم لأنه لو كانا إلهين ، فإما أن يتفقا أو يختلفا ، فإن اتفقا فلا يمكن أن يوجـداه معاً ، لورود مؤثرين معاً على أثر واحـد – كمطرقتي الحداد فإنهما لاتقعان معاً – ولا يمكن أن يوجداه مرتباً ، لأنه إن أوجده الأول فالثاني لايحل له . ولا يمكن أن يختص أحدهما

ببعضها والآخر ببعضها الآخر ، لأنه إذا تعلقت قدرة الأول بشيء فمعناه انسداد الطريق أمام قدرة الثاني للتعلق به ، وهذا عجز يقضي بأنه ليس بإله .

وإن اختلفا بأن أراد أحدهما إيجاد العالم ، والآخر إعدامه ، فلا يمكن أن ينفذ مرادهما معا ، لأنه يترتب عليه اجتماع الضدين ، ولا يمكن أن ينفذ مراد أحدهما دون الآخر ، لانه يعني عجز الذي لم ينفذ مراده ، وهو بالتالي ليس بإله ، إنما الذي نفذ مراده هو الإله .

وإذا بطل التعدد لبطلان ما يترتب عليه ثبتت الوحدانية ، وانتفت عن الشرك .

وقد ذكر الله سبحانه هذا الدليل في قوله :

« لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا » (١)

أي لو كان فيها جنس الآلهة غير الله لم توجدا .

ملاحظة : يجوز اتفاق الإلهين ـ على فرض التعدد ـ إنما ببادىء الرأي وعند التأمل لا يصح الاتفاق لأن مرتبة الألوهية تقتضي الغلبة المطلقة ، كما يشير له قوله تعالى :

---

(١) الأنبياء ٢٢ .

« إلا » في الأصل إلا أداة استثناء كقوله تعالى « إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا » أو أداة حصر : وذلك إن سبقت بنفي كقوله تعالى : وما محمد إلا رسول ، أو تكون اسم بمعنى : غير ، كما في الآية ، ولا يجوز جعلها ـ هنا ـ استثناء لأن المعنى على الاستثناء يصبح: لو كان فيهما آلهة مستثنى منهم الله لفسدتا ، أما لو كان فيهما آلهة والله معهم لم تفسدا؛ وهذا هو الشرك بعينه ، لأن المقصود هو نفي الألوهية عن كل ما سوى الله تعالى.

«إذاً لذهبَ كلُّ إلهٍ بما خلقَ ولَعلا بعضُهم على بعضٍ» (١)

● منزها أوصافه سنية : هذا تأكيد للصفات السابقة ، أي وجبت له هذه الصفات حال كونه منزهاً ، وحال كون أوصافه سنية ، أي رفيعة رفعة معنوية .

(١) المؤمنون ٩١ .

٢٦ـ عَنْ ضِدٍّ أَوْ شِبْهِ شَرِيكٍ مُطْلَقَا   وَوَالِدٍ كَذَا الوَلَدْ والأَصْدِقَا

● عن ضد[1] : أي منزها عن ضد ، والضدان هما أمران وجوديان بينهما غاية الاختلاف لا يجتمعان بحال ، ولو فرض أن له سبحانه ضداً في ذاته أو صفاته لوجب ارتفاع ذات الله سبحانه وصفاته ما دام الضد ثابتاً ، كيف وقد ثبت وجوب الوجـــود والقدم وباقي الصفات .

● أو شبه شريك مطلقا : والشبه كالشبيه ، وهو المساوي في أغلب الوجوه والنظير هو المساوي في بعضها ، والمثيل هو المساوي في جميعها .

والمراد بالشبه هنا مطلق المشابه فليس له تعالى شبيه في ذاته ، ولا في صفاته ، ولا في أفعاله ، لوجوب مخالفته تعـالى للممكنات ، ذاتا وصفات وافعالا

ومراده بالشبه نفي المشابه من الممكنات ، ومراده بالشريك نفي المشارك من القدماء ويؤخذ في نفي الشريك دليل الوحدانية ، ومراده بقوله :

● مطلقا : نفي الشريك في الذات أو الصفات أو الافعال ، كذلك نفي مطلق المشابه في الذات أو الصفات أو الأفعال .

● ووالد : أي منزهاً عن أب وأم ، فهو سبحانه ليس منفصـــلا عن غيره .

● كذا الولد : فكما تنزه عن الولد ، فالوجوب تنزيهه عن الوالد كوجوب تنزيهه عن الولد ، فليس سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام ولدا بل خلقه الله تعالى بلا أب ، كما خلق آدم عليه السلام بـلا أب ، بل آدم أغرب وأدل على القدرة ، حيث خلقه من تراب بلا أب ولا أم

(١) عن ضد : جار ومجرور متعلقان بمنزها في البيت / ٢٥ / .

وكما أنه ليس منفصلا من شيء، ليس منفصلا عنه شيء.

● والأصدقا: التنزيه منصب على الواحد والجمع، فمجال النفي أن يكون لله صديق على الوجه المعتاد من أن كلا يعاون الآخر وينفعه، أما الصديق بمعنى المخلص في عبادته تعالى فلا ينافي، لكن لا يجوز أن يطلق «صديق الله» لأنه لم يرد، ويوهم المحال.

وكما يستحيل على الله الأصدقاء يستحيل الأعداء على الوجه المعتاد، من أن كلا يؤذي الآخر ويضره، أما بمعنى المخالف لأمره فقد ورد:

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ﴾ (١)

والاصل القاطع في ذلك، المؤكد للدليل العقلي قوله تعالى:

«لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ» (٢)

وقوله:

«قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ»

وقد نفت هذه السورة انواع الكفر الثمانية.

١ - فقوله:

«قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ»

نفي الكثرة والعدد، فهو متوحد في ذاته متفرد بصفاته.

٢ - وقوله:

«اللَّهُ الصَّمَدُ»

---

(١) فصلت ١٩.

(٢) الشورى ١١.

الصمد هو الذي يقصد في الحوائج ؛ المستغني عن كل أحد والمحتاج إليه كل أحد ، وهنا نفي للقلة والنقص .

٣ - وقوله :

«لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ»

نفى أن يكون تعالى علة لغيره ، أو أن يكون معلولا . أي ليس هو سبحانه بمحل للحوادث ولا بحادث .

٤ - وقوله :

«وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ»

نفى الشبيه والنظير ، أي ليس له أحد مماثلا أو مجانسا أو مشابها .

٢٧ - وَقُدْرَةٌ إِرَادَةٌ وَغَايَرَتْ أَمْرًا وَعِلْمًا وَالرِّضَا كَمَا ثَبَتْ

وقدرة : لما تكلم على الصفة النفسية ، والصفات السلبية شرع يتكلم على صفات المعاني مقدماً لها على الصفات المعنوية ، لكونها كالأصل لها ؛ إذ أن المعنوية عبارة عن قيام المعاني بالذات . والمعاني جمع معنى، وهو كل صفة قائمة بموصوف موجبة له حكماً ، كقيام القدرة بالذات، فإنه يوجب كونه قادراً .

وبدأ المصنف من صفات المعاني بالقدرة لظهور تأثيرها ، والقدرة صفة واجبة لله تعالى ومعناها - لغةً - القوة والاستطاعة ؛ وعرفاً صفة أزلية قائمة بذاته تعالى يتأتى بها ايجــاد كل ممكن وإعدامه على وفق الإرادة ؛ وهذا التعريف مع سائر التعاريف المذكورة لصفات لا يتناول الحقيقة لأنه لا يعلم كنه ذاته وصفاته إلا هو سبحانه .

والقدرة تعلقات سبعة ، أشار إلى واحد منها - وهو الصلوحي القديم بقوله : يتأتى بها . ومعنى التعلق الصلوحي صلاحيتها في الأزل للإيجاد والإعدام . والتعلقات الستة الباقية هي :

تعلق قبضة : وهو تعلقها بعدمنا فيما لا يزال قبل وجودنا .

تعلق بالفعل : وهو تعلقها بإيجادنا بالفعل بعد العدم السابق .

تعلق قبضة : وهو تعلقها باستمرار الوجود بعد العدم .

تعلق بالفعل : وهو تعلقها بإعدامنا بالفعل بعد الوجود .

تعلق قبضة : وهو تعلقها باستمرار العدم بعد الوجود .

تعلق بالفعل : وهو تعلقها بإيجادنا بالفعل حين البعث يوم القيامة [1] . والتعلق هو : طلب الصفة أمراً زائداً على قيامها بالذات . وقيل : هو من مواقف العقول ، فلا يعلمه إلا الله تعالى ، والتحقيق هو التعريف الأول .

ومعنى تعلق القبضة : أن الممكن في قبضة القدرة ، فإن شاء الله تعالى أبقاه على عدمه ، وإن شاء أوجده ، وإن شاء أعدمه .

وأما العدم الأزلي فلا تتعلق به القدرة ، لأنه واجب ، لا جائز وإلا لجاز وجودنا في الأزل وهو باطل ، لما يلزم عليه من تعدد ذوات القدماء [2] .

وذهب الأشعري الى أنها لا تتعلق بإعدامنا بعد وجودنا بل إذا أراد الله عدم الممكن قطع عنه الإمداد فينعــــدم بنفسه ، كالفتيلة اذا ما انقطع عنها الزيت انطفأت بنفسها قال سيدي محمد الهاشمي : فلولا إنعامه على المكونات بإيجادها لم توجد ، ولولا انعامه عليها بإمدادها في كل لحظة لاضمحل وجودها ، لأنها تقبل العدم في كل لحظة [3] .

وقال ابن عطاء الله : « نعمتان ما خرج موجود عنها ، ولا بد لكل مكوّن منها ؛ نعمة الإيجاد ، ونعمة الإمـــداد . أنعم عليك أولاً بالإيجاد ، وثانياً بتوالي الأمداد » . وهذا معنى كون الأكوان مسبوقة بالعدم ، ويلحقها العدم ، ويجوز عليها في كل لحظة من أزمنة وجودها العدم ، وقد قال العلامة ملا علي القاري : إن (واجب الوجود) : هو الصمد الغني الذي لايفتقر إلى شيء ، ويحتاج كل ممكن إليه في إيجاده

---

(١) انظر اتحاف المريد لمحي الدين عبد الحميد ٨٨-٨٩ .

(٢) انظر حاشية الدسوقي على شرح أم البراهين ١٠٠ .

(٣) انظر مفتاح الجنة .

وإمداده . ومعنى (القيوم) : هو المتضمن كمال غناه ، وكمال قدرته ، وافتقار غيره إليه في ذاته وصفاته ، إيجاداً وإمداداً ، فإنه القائم بنفسه ، فلا يحتاج الى غيره بوجه من الوجوه ، المقيم لغيره فلا قيام لغيره إلا بإقامته [1] .

وقد قال الدسوقي : إن القدرة تتعلق بوجود الممكن اتفاقاً تعلق تأثير ، وكذا تتعلق بعدمه الطارىء بعد وجوده تعلق تأثير على المعتمد [2] .

بيد أن التأثير حقيقة إنما هو للذات ، وإسناده للقدرة إنما هو بطريق المجاز لكونها سبباً فيه . ولذا يحرم أن يقال : القدرة فعالة ، أو انظر الى فعل القدرة ، أو نحو ذلك ، لما فيه من إيهام أنها المؤثرة بنفسها ، فإن قصد ذلك كفر .

ولا تتعلق القدرة بالواجب ، ولا بالمستحيل ، لأنها إن تعلقت بالواجب ، فإما لأن توجده ، وهو موجود ، وإما لأن تعدمه ، وهو لايقبل العدم بحال . ولأنها إن تعلقت بالمستحيل ، فإما لأن توجده وهو لايقبل الوجود بحال ، أو لأن تعدمه ، وهو معدوم أصلا ويظهر من هذا أن عدم تعلقها بالواجب أو بالمستحيل إنما كان لأنها خارجان عن وظيفتها ، وهي الإيجاد والإعدام ، لا لعجز فيها ، إذ أن العجز إنما يكون إذا كان المتعلَّق من وظائف القدرة ؛ بأن كان يقبل الوجود لذاته ، أو العدم لذاته . أفرأيت الى العين ووظيفتها الإبصار ، أفيعد

(١) انظر الفقه الأكبر ١٥ وما بعدها .

(٢) انظر حاشية الدسوقي على أم البراهين ١٠٠ .

نقصاً فيهـا إن لم تسمع الأصوات ؟ وهكذا تقول في الأذن ـ ولله المثل الأعلى ـ إذ ليس عجزاً أن لاترى الأذن ، بل العجز فيها إن لم تسمع .

والقدرة تبرز ماخصصه الله تعـالى بإرادته أزلاً . فيكون تعلق الإرادة ـ لكونه أزلياً ـ سابقاً على تعلق القدرة ، لكونه تنجيزياً حادثاً ، وهذا التعلق التنجيزي الحادث هو المعبّر عنه بالخلق والرزق والإحيـاء والإماتة المسمى عندنا بصفات الأفعال[1] .

والتنجيز هو الإيجاد أو الإعدام بالفعل .

ودليل وجوب القدرة : أنه لو لم يتصف بها لاتصف بنقيضها وهو العجز ، ولو كان متصفاً بالعجز لما ظهر شيء من الأكوان ، كيف وقد ظهرت ، فظهورها نافٍ للعجز ، وبانتفائه تثبت القدرة .

● إرادة : أي وواجب له إرادة ، وبر دفها المشيئة . وهي لغة : مطلق القصد ، وعرفاً : هي صفة قديمة زائدة على الذات ، قائمة بها تخصص الممكن ببعض مايجوز عليه على وفق العلم . ومما يجوز على الممكن : الوجود أو العدم ، وكونه في زمن مضى أو في زمن حاضر ، أو في زمن مستقبل ، وكونه أسود أو أبيض ـ مثلاً ـ وكونـه طويلاً أو قصيراً ، وفي جهة المشرق أو المغرب ـ مثلاً ـ .

وللإرادة تعلق صلوحي قديم ، وهو صلاحيتها في الأزل للتخصيص ، وتعلق تنجيزي قديم ، وهو ثبوت التخصيص بالفعـل أزلاً أيضـاً . فالله تعالى خصص الأشياء أزلاً بالصفات التي يعلم أنها توجد عليها في الخارج .

---

(1) انظر الخريدة البهية ٨٧ .

والإرادة – كالقدرة – لاتتعلق بالواجب ، ولا بالمستحيل ، ولكنها تتعلق بالممكن الذي يشمل الخير والشر ، والنفع والضر خلافاً للمعتزلة في قصرها على الخير والنفع .

واختلف العلماء في جواز نسبة الشرور والقبائح إليه تعالى ، والراجح جواز ذلك في مقام التعليم فقط. وهذا الخلاف نفسه جار في نسبة الأمور الخسيسة إليه تعالى ، والأصح الجواز في مقام التعليم فقط فعليه لايجوز أن يقال : الله خالق القردة والخنازير إلا في مقام التعليم .

ودليل الإرادة أن تقول : الله صانع للعالم بالاختيار ، وكل من كان كذلك تجب له الإرادة فالله تجب له الإرادة . أضف إلى ذلك أنّ الفعل الصادر منه تعالى مختص بضروب من الجواز لايتميز بعضها من بعض إلا بمرجح ، ولا يكفي العلم في الترجيح ، لأنه يتعلق بالمعلوم تعلق انكشاف ، على ما هو عليه ، دون أن يؤثر فيه أو يغيره . كما لاتكفي القدرة في الترجيح ، لأن نسبتها إلى الضدين المتقابلين واحدة ، إذاً لابد من صفة ثابتة للذات تخصص الممكن ببعض ما يجوز عليه ، وهذه الصفة هي الإرادة ، فالعلم كاشف ، والإرادة مخصصة على وفق العلم ، والقدرة تبرز ماخصصته الإرادة . كما أنه قد جرى اتفاق على إطلاق القول : بأنه تعالى مريد ، وشاع ذلك في كلامه سبحانه وكلام أنبيائه عليهم الصلاة والسلام . ولا يفهم من قولنا : مريد – بحسب اللغة – إلا ذات ثبتت لها الإرادة ، إذ لايتعقل مريد بلا إرادة ، كما لايتعقل عليم بلا علم ، وإن نازع في ذلك المعتزلة .

وغايرت أمراً : أي باينت الإرادة أمراً بمعنى أنها ليست عينه ، ولا مستلزمة له ، فقد يريد ويأمر (كإيمان من علم الله منهم الإيمان ، فإنه تعالى أراده منهم وأمرهم به) وقد لايريد ولا يأمر (كالكفر من هؤلاء ، فإنه تعالى لم يرده منهم ولم يأمرهم بـه) وقد يريد ولا يأمر (كالكفرالواقع ممن علم الله تعالى منهم عدم الإيمان ، وكالمعاصي ممن علم الله تعالى وقوعهم فيها ، فإنه أراد ذلك ولم يأمر به) . وقد يأمر ولا يريد (كإيمان من علـم الله تعالى كفرهم ، وإنما أمرهم بالإيمـان مع كـونه لم يرده منهم سبحانه ليظهر في عالم الحكمة ما علمه الله تعالى أزلاً فيعاقبون عليه) .

وعلما : أي وغايرت الإرادة علما ، بمعنى أنها ليست عينه ولا مستلزمة له ، لتعلق العلم بالواجب والجائز والمستحيل ؛ وعـــدم تعلق الإرادة إلا بالجائز فقط .

● والرضا كما ثبت : أي وغايرت الإرادة رضاه تعالى ، وهي قبول الشيء والإثابة عليه . والغرض بذلك الرد على من فسر الإرادة بالرضا ، فإن الإرادة قد تتعلق بما لا يرضى به الله تعالى (كالكفر الواقع من الكفار) فإنه تعالى أراده ، ولا يرضى به ، وهذا التغاير واقع لثبوته عقلاً .
وقد قال المحققون من أهل السنة : الارادة في كتاب الله تعالى نوعان ، إرادة قدرية ، كونية ، خلقية ، وهي المشيئة الشاملة لجميع المكونات ، وإرادة دينية ، أمرية ، شرعية ، وهي المتضمنة للمحبة والرضا (١) .

---

(١) انظر الفقه الأكبر للإمام أبي حنيفة ص (٢٠) .

● وعلمه : أي وواجب له علمه ، وهو صفة أزلية متعلقة بجميع الواجبات والجائزات والمستحيلات تعلق انكشاف على وجه الإحاطة على ماهي به من غير سبق خفاء. وتعلق العلم تعلق تنجيزي قديم ، فيعلم الله سبحانه وتعالى الأشياء أزلاً على ما هي عليه وكونها وجدت في الماضي أو موجودة في الحال ، أو توجد في المستقبل أطوار في المعلومات لا توجب تغييراً في تعلق العلم ، فالمتغير إنما هو صفة المعلوم ، لا تعلق العلم ، وليس له تعلق صلوحي قديم ، ولا تنجيزى حادث ، وإلا لزم الجهل ، لأن الصالح لأن يعلم ليس بعالم والتنجيزي الحادث يستلزم سبق الجهل ، هذا ما عليه السنوسي ومن تبعه وهو الصحيح ، فيعلم الله سبحانه الأشياء أزلاً إجمالاً وتفصيلاً ، ويعلم الكليات والجزئيات ويعلم ما لا نهاية له ككمالاته .

● ودليل وجوب العلم له تعالى أن تقول : الله فاعل فعلاً متقناً محكماً بالقصد والاختيار وكل من كان كذلك يجب له العلم ، فالله يجب له العلم . فإذا قيل : إن هذا الدليل إنما يفيد علمه بالجائزات فقط ، فما الدليل على علمه بالواجبات والمستحيلات ؟ أجيب بأن دليل ذلك هو دليل عدم افتقاره لمخصص ، لأنه لو لم يعلم بها لكان محتاجاً لمن يكمله ، فيلزم أن يكون حادثاً ، فيفتقر للمخصص ، وقد تقدم دليل عدم الافتقار للمخصص أو تقول : ان الموجودات منقسمة الى قديم وحادث ، فأما القديم فذاته وصفاته . ومن علم غيره فهو بذاته وصفاته أعلم .

● ولا يقال مكتسب : أي لا يجوز شرعاً ولا عقلاً أن يطلق أو

يعتقد أن علمه سبحانه مكتسب لاستحالته ، لأن الكسبي - عرفاً - هو العلم الحاصل عن النظر والاستدلال ، فإذا أقمت دليلا على حدوث العالم بأن قلت : العالم متغير وكل متغير حادث ينتج العالم حادث فالعلم - هنا بحدوث العالم حاصل عن نظر واستدلال ، فهو كسبي وقيل : الكسبي هو ما تعلقت به القدرة الحادثة ، فيشمل العلم الحاصل بالإبصار أو بالشم - مثلاً - بخلافه على التعريف الأول ، وعلى كل لا يقال لعلم الله كسبي ، لأنه يلزم منه قيام الحوادث بذاته تعالى ، ويلزم أيضاً سبق الجهل في حقه تعالى ، وهو محال . وما ورد مما يوهم اكتساب علمه تعالى فمؤول كقوله جل جلاله :

« ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا »[1]

فالمراد - والله أعلم : ثم بعثناهم ليظهر لهم متعلق علمنا فيكون لنعلم بمعنى لنُعلِم ، فاللام للعاقبة[2] .

● فاتَّبِعْ سبيل الحق : أي اذا علمت وجوب القدرة والارادة والعلم له تعالى فاتبع طريق الحق واسلك سبيل اهله ، وهم أهل السنة حيث اعتقدوا وجوب صفات المعاني له تعالى .

● واطرح الريب : أي ألق عنك الشبه ، والشبه : هي التي لا يعلم فسادها ولا صحتها . وقصد المؤلف الرد على المعتزلة النافين لصفات المعاني حيث قالوا : قادر بذاته ومريد بذاته ، وهو هذيان لأنه لا يعقل قادر بلا قدرة ولا مريد بلا إرادة ، وهكذا في باقي الصفات .

(١) الكهف ١٢ .

(٢) لام العاقبة هي التي يؤتى بها لبيان المآل والمصير كقول الشاعر :

لِدُوا للموت وابنوا للخراب ... له مَلَكٌ ينادي كل يوم

٢٩ - حياتُه كذا الكلامُ السمعُ ثم البصرْ ، بذي أتانا السمعُ

حياته : أي وتجب له الحياة ، وقد عرف الشيخ السنوسي الحياة بتعريف يشمل الحياة القديمة والحادثة حيث قال : هي صفة تصحح لمن قامت به الإدراك ، أي تصحح لمن قامت به أن يتصف بصفات الإدراك . وبعضهم عرف الحياة القديمة فقال : هي صفة أزلية تقتضي صحة الاتصاف بالعلم وبغيره من الصفات الواجبة ، وأما في حقنا فقد ينتفي العلم مع وجود الحياة ، كما في المجنون ، وحياة الله سبحانه لذاته ، فهي ليست بروح ، وحياتنا بسبب روح . ودليل وجوبها أن تقول : الله متصف بالقدرة والارادة والعلم ، وكل من كان كذلك تجب له الحياة ، فالله تجب له الحياة .

كذا الكلام : وتجب لله تعالى صفة الكلام ، ودليل وجوبها ، إما نقلي وحده ، أو مع العقلي على وجه الترتيب ، فالمعول عليه فيه الدليل السمعي كما سيذكره بقوله : بذي آتانا السمع . وقد اختلف أهل الملل والمذاهب في معنى كلامه تعالى ، فقال أهل السنة هو صفة أزلية قائمة بذاته تعالى ، ليست بحرف ولا صوت ، منزهة عن التقدم والتأخر والاعراب والبناء ، ومنزهة عن السكون النفسي (بأن لا يدبر في نفسه الكلام مع القدرة عليه) وعن الآفة الباطنية (بأن لا يقدر على ذلك) كما في حال الخرس والطفولية ، فهما مانعان من الكلام الظاهري ، والآفة الباطنية تمنع من الكلام النفسي ، والله منزه عنها .

وقالت المعتزلة : كلامه هو الحروف والاصوات الحادثة وهي غير قائمة بذاته ، فمعنى كونه متكلما عندهم : أنه خالق الكلام في بعض

الاجسام ، لزعمهم أن الكلام لا يكون الا بحروف واصوات ، وهـو مردود بأن الكلام النفسي ثابت لغة ، كما في قوله تعالى :

يقولونَ في أنفُسِهِمْ لولا يعذِّبُنا اللهُ بما نقولُ (١)

وقول عمر رضي الله عنه : إني زورت في نفسي مقالة ، وقول الاخطل :

ان الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلا

وكلامه تعالى صفة واحدة ، لا تعدد فيها ، لكن لها اقسام اعتبارية ، فمن حيث تعلقه بطلب فعل الصلاة مثلا ـ أمر ، ومن حيث تعلقه بطلب ترك الزنا ـ مثلا ـ نهي ، ومن حيث تعلقه بأن فرعون فعل كذا (خبر) ، ومن حيث تعلقه بأن الطائع له الجنة (وعد) ، ومن حيث تعلقه بأن العاصي يدخل النار (وعيد) ، إلى غير ذلك من الأقسام .

وتعلقه بالنسبة لغير الامر والنهي تنجيزي قديم ، وأما بالنسبة لها ـ فإن لم يشترط فيها وجود المأمور والمنهي ـ فكذلك ، اكتفاء بوجود المأمور والمنهي في علم الله تعالى وتقديره . وان اشترط فيها ذلك كان التعلق فيها صلوحيا قبل وجود المأمور والمنهي ، وتنجيزياً حادثاً بعد وجودهما .

واعلم ان كلام الله تعالى يطلق على الكلام النفسي القديم بمعنى : انه صفة قائمة بذاته تعالى ، كما يطلق على الكلام اللفظي بمعنى : أنه خلقه ، وليس لأحد في اصل تركيبه كسب ، وعلى هذا المعنى يحمل قول السيدة عائشة : ما بين دفتي المصحف كلام الله تعالى . وكل من أنكر ان ما بين دفتي المصحف كلام الله فقد كفر ، إلا إذا لم يرد به الصفة القائمة بذاته تعالى .

(١) المجادلة ٨ .

ومع كون اللفظ الذي نقرأه حادثا لا يجوز أن يقال : القرآن حادث ، الا في مقام التعليم ، لانه يطلق - ايضا - على الصفة القائمة بذاته ، فربما يتوهم من اطلاق أن « القرآن حادث » أن الصفة القائمة بذاته تعالى حادثة ولذلك ضرب الأمام أحمد ابن حنبل رضي الله عنه وحبس على أن يقول ذلك فلم يرض .

قال السنوسي وغيره من المتقدمين : إن الألفاظ التي نقرأها تدل على الكلام القديم ، والكلام النفسي يدل - أزلا وأبـدا على الواجبات والجائزات والمستحيلات ، ولكون الالفاظ المقروءة دالة على الكلام النفسي ولكون الدال على شيء دال على ما دل عليه ذلك الشيء ، كانت الألفاظ دالة من هذا الوجه على الواجبات والجائزات والمستحيلات . وعليه يكون بعض مدلول الالفاظ قديما ؛ وبعضه حادثا ، كما في قوله تعالى :

«اللهُ لا إلهَ إلاّ هوَ الحيُّ القيومُ »(١)

وقوله تعالى :

(إنَّ قارونَ كانَ منْ قومِ موسَى) (٢)

والحاصل أن الكلام اللفظي يدل على الكلام النفسي دلالة عقلية التزامية بحسب العرف ، فإن من أضيف له كلام لفظي دل - عرفاً - على أن له كلاماً نفسياً ، وقد أضيف له تعالى كلام لفظي كالقرآن - فإنه كلام الله قطعاً ، بمعنى أنه خلقه في اللوح المحفوظ - فدل التزاماً على أن له تعالى كلاماً نفسياً وهذا هو المراد بقولهم « القرآن حادث ، ومدلوله قديم » فأرادوا

(١) آل عمران ٢ .

(٢) القصص ٧٦ .

بمدلوله الكلام النفسي . ولو كشف عنا الحجاب وفهمنا من الكلام القديم طلب إقامة الصلاة - مثلاً - نفهم ذلك من قوله تعالى :

« وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ » (١)

ومن نسب القرآن لغير الله تعالى فهو كافر ، قال الطحاوي : من سمعها - أي آيات القرآن - فزعم أنها كلام البشر فقد كفر ، وقد ذمه الله وأوعده بسقر حيث قال تعالى

« سَأُصْلِيهِ سَقَرَ » (٢)

فلما أوعده الله تعالى بسقر على قوله ؛

« إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ » (٣)

وعلمنا وأيقنا أنه قول خالق البشر ، ولا يشبه قول البشر (٤) .

وقد دلل الإمام الغزالي على وجوب صفة الكلام له تعالى بقوله : من قال : إني رسول الجبل الأبكم ، فلا يصغى اليه ، لاستحالة الكلام والرسالة من الجبل ، كذلك من اعتقد استحالة الكلام في حقه تعالى استحال منه أن يصدق الرسول إذ المكذب بالكلام لابد وأن يكذب بتبليغ الكلام ، فالرسالة عبارة عن تبليغ الكلام ، والرسول عبارة عن المبلغ . كذلك الكلام للحي إما كمال ، أو نقص ، ولا يقال هو نقص ، فيثبت بالضرورة أنه كمال (٥) .

---

(١) البقرة ٤٣ . (٢) المدثر ٢٦ (٣) المدثر ٢٥

(٤) انظر الفقه الأكبر ص ٣٢ .

(٥) انظر الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي .

وأن كلا منها غير الانكشاف بالعلم ، ولكل حقيقة يفوض علمها لله تعالى . وأما السمع الحادث فهو قوة تدرك بها الأصوات على وجه العادة ، وقد يدرك بها غير الأصوات فقد سمع سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام كلام الله تعالى القديم وهو ليس بحرف ولا بصوت

● **قال السعد** يتعلق السمع بالمسموعات . فإما أن مراده المسموعات في حقه تعالى وهي الموجودات « الأصوات وغيرها » فيوافق ما تقدم ، أو أن مراده المسموعات في حقنا وهي الأصوات فقط ، فيكون مخالفاً للسنوسي ومن تبعه .

● ثم البصر : وكذا البصر فهو مثل ما ذكر في وجوب اتصافه تعالى به ، وهو صفة أزلية قائمة بذاته تعالى تتعلق بالموجودات ، الذوات وغيرها ، وهي طريقة السنوسي ومن تبعه ، وقال السعد تتعلق بالمبصَرات ، فإما مراده المبصَرات في حقه تعالى فيشمل الذوات وغيرها أو المبصَرات في حقنا فيشمل الذوات والألوان فقط ، « هذا ما يحتمله كلام السعد » فيبصر سبحانه جميع الموجودات حتى الأصوات ، ولو خفية ، بمعنى أن ذلك انكشف لله ببصره ، وليس الأمر على ما نعهده من أن البصر الحادث يفيد بالمشاهدة وضوحاً فوق العلم بل جميع صفاته تامة كاملة ، فيستحيل عليها الخفاء والزيادة والنقص إلى غير ذلك .

● بذي أتانا السمع : أي بهذه الصفات الثلاثة التي هي الكلام والسمع والبصر أتانا الدليل السمعي ، والمراد أنه ورد الدليل بشتقاتها ، قال الله تعالى :

« وكَلَّمَ اللهُ موسى تكليماً »[1]

أي أزال عنه الحجاب وأسمعه الكلام القديم ، ثم أعاد الحجاب ، وليس المراد أنه تعالى يبتدىء كلاماً ثم يسكت ، لأنه لم يزل متكلماً أزلاً وأبداً خلافاً للمعتزلة في قولهم بأن المعنى ، أنه تعالى خلق الكلام في شجرة وأسمعه موسى ، ويرد كلامهم أن الأصل في الإطلاق الحقيقة ، وأكثر ما اشتهر في المناجاة غير ما سبق فيه ، كذب واختلاق .

وللسمع والبصر تعلقات ثلاثة :

أولاً - صلوحي قديم ، وهو صلاحيتها في الأزل لانكشاف ذوات الكائنات وصفاتها بها فيما لا يزال .

ثانياً - تنجيزي قديم ، وهو انكشاف الذات العلية وصفاتها بها انكشافاً يغاير انكشاف العلم ، إذ لكل صفة حقيقة تخالف حقيقة الأخرى ، غير أنهما لا يتعلقان بالأمور العدمية (كالسلوب) والأمور الثبوتية (كالأحوال)[2] .

ثالثاً - تنجيزي حادث ، وهو انكشاف الممكنات بعد وجودها بها .

وقد أتى الدليل على صفتي السمع والبصر في الكتاب والسنة ، قال تعالى :

« وهو السَّميعُ البصيرُ »[3]

---

(1) النساء ١٦٤ .

(2) انظر حاشية الدسوقي على أم البراهين ص ١٠٩ .

(3) الشورى ١ .

وعن أبي موسى الأشعري قال :

«رفعَ النّاسُ أصواتَهم بالدعاءِ فقال رسولُ اللهِ ﷺ . أيها النّاسُ أرْبَعوا على أنفسكمْ ، فإنكمْ لا تَدعونَ أصمَّ ، ولا غائباً ، إنَّ الذي تَدعونَ سميعٌ قريبٌ »(٣) . وارْبَعوا على أنفسكم: أشفقوا عليها .

وقد أراد سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام تقرير هاتين الصفتين حين قال لأبيه :

«يا أبتِ لِمَ تعبُدُ ما لا يسمَعُ ولا يُبصِرُ ، ولا يُغني عنكَ منَ اللهِ شيئاً »(٤) .

ولو كان لا يعتقد أن عدم السمع والبصر نقص لخاف أن ينقلب الدليل عليه في معبوده ، فيقال له : وأنت تعبد ما لا يسمع ولا يبصر . أضف إلى ذلك أن أهل اللغة لا يفهمون من « سميع » وبصير » إلا ذاتاً قد ثبت لها السمع والبصر .

(٣) رواه البخاري ومسلم .

(٤) مريم ٤٢ .

٣٠ـ فهل له إدراكٌ أولاً خُلفٌ وعندَ قومٍ صحَّ فيه الوَقفُ

فهل له إدراك أولا : حاصل ماذكره الناظم أنه قيل بثبوت صفة الإدراك ، وقيل بانتفائها ، وقيل بالوقف . وقد اختلف أيضاً في صفة التكوين ، فأثبتها الماتريدية ، وقالوا : هي صفة قديمة قائمة بذاته تعالى يوجد بها ويعدم ، ولكن إن تعلقت بالوجود تسمى إيجاداً وإن تعلقت بالعدم تسمى إعداماً وإن تعلقت بالحياة تسمى إحياء ، وهكذا ، فصفات الأفعال عندهم قديمة ، لانها هي صفة التكوين القديمة وعلى هذه الطريقة وظيفة القدرة تهيئة الممكن بحيث تجعله قابلا للوجود أو العدم ، إذ أن للممكن قبولاً امكانياً وقبولاً استعدادياً قريباً من الفعل ، ومثال ذلك : قش رطيب ، فقبوله للاشتعال يسمى قبولاً إمكانياً ، فإذا ماجفف وأضحى يابساً ، سمي قبوله للاشتعال قبولاً استعدادياً قريباً من الفعل ، ونفاها الأشاعرة وقالوا : إن صفات الأفعال حادثة لأنها عبارة عن تعلقات القدرة التنجيزية الحادثة ، وصفة التكوين - عندهم - ليست سوى صفة القدرة باعتبار تعلقها بمتعلق خاص ، فالتخليق هو القدرة باعتبار تعلقها بالمخلوق ، وكذا الترزيق . والصفات الفعلية هي التي يتوقف ظهورها على وجود الخلق ، والحد بين صفات الذات وصفات الفعل أن ما يلزم من نفيه نقيضه ، فهو من صفات الذات ، فإنك لو نفيت الحياة لزم الموت ، ولو نفيت القدرة لزم العجز ، وكذا العلم مع الجهل ، ولو نفيت الإرادة للزم منه الجبر والاضطرار ، ولو نفيت عنه سبحانه الكلام للزم الخرس

والسكوت ، فثبت أنها من صفات الذات ، وإن مالا يلزم من نفيه نقيضه فهو من صفات الفعل ، فلو نفيت الاحياء أو الإماته أو الخلق أو الرزق لم يلزم منه نقيضه ، وصفات الأفعال حادثة - عند الأشاعرة - لأنها عبارة عن تعلقات القدرة ، وتعلقاتها حادثة .

والإدراك : في حق الحادث هو تصور حقيقة الشيء المُدرَك ، وأما في حقه تعالى - على القول به - فهو صفة قديمة قائمة بذاته تعالى تسمى الإدراك ، قيل إنه يدرك بها كل موجود ، وقيل يدرك بها الملموسات (كالنعومة) والمشمومات (كالروائح) والمذوقات (كالحلاوة) من غير اتصال بمحالها التي هي الاجسام ، ولا تكيف بكيفيتها لان الاتصال والتكيف إنما هو عادي في حصول الإدراك وقد ينفك . وقد سرح بعض المتأخرين بأنها صفة واحدة ، لكن الواقع في كتب علم الكلام أنها ثلاث صفات، إدراك الملموسات، وإدراك المشمومات، وإدراك المذوقات .

ودليل المثبتين لها كالباقلاني وإمام الحرمين: بأنها كمال ، وكل كمال واجب لله ، لانه لو لم يتصف بها لاتصف بضدها ، وهو نقص ، والنقص عليه تعالى محال ، فوجب أن يتصف بها على ما يليق به من غير اتصال بالاجسام ، ومن غير وصول اللذات والآلام له تعالى .

ودليل النافين لها : أنه لو اتصف بها للزم الاتصال بمحالها لزوماً عقلياً ، فلا يتصور انفكاكه ، والاتصال مستحيل ، فلذا يستحيل الاتصاف بها . وتقدم أن المثبتين قد جعلوه تلازماً عادياً بحيث يمكن انفكاكه .

وأن دعواهم - أنه تعالى لو لم يتصف بها لاتصف بضدها - فاسدة ، لان العلم

الواجب له تعالى ينفي الاتصاف بضدها : فعلمه سبحانه محيط بمتعلقاتها ، وهو كاف عنها ، ولم يرد بهذه الصفة دليل سمعي ، ولا يفهم من خلق المكونات ثبوتها له تعالى ، لان خلقها لايتوقف عليهـا ، كما يتوقف على القدرة والارادة والعلم .

"خُلْفٌ" : هذا الاختلاف مبني على الاختلاف في دليل الصفات الثلاثة السابقة التي هي الكلام ، والسمع ، والبصر ، فمن أثبتها بالدليل العقلي ـ فقال : إنها صفات كمال ، ولو لم يتصف بها لاتصف بأضدادها ، وأضدادها نقائص ، والنقص عليه محال ـ أثبت هذه الصفة التي هي صفة الادراك ، ومن أثبت الصفات الثلاثة بالدليل السمعي نفى الصفة المذكورة لانـه لم يرد به سمع [1] .

● وعند قوم صح فيه الوقفُ : أي وصح التوقف عن القول بإثبات الإدراك أو نفيه عند قوم من المتكلمين ـ كالمقترح وابن التلمساني وبعض المتأخرين ـ لتعارض الأدلة ، فهم لايجزمون بالإثبات ولا بالنفي . وهذا القول أسلم وأصح من القولين الأولين . وقد اختلف أيضاً في كونه مدركاً أولا ، تبعاً للاختلاف في الادراك ، والأصح الوقف عن ذلك .

---

(١) إن عدم ورود السمع يقتضي الجزم بعدم ثبوت هذه الصفة ، لا الوقوف . لكنهم توقفوا نظراً لعدم الورود من جهة ، ولثبوت هذه الصفة في الشاهد من جهة أخرى « من حاشية الدسوقي بتصرف ص ١١٧ » .

● حي : هذا شروع فيا هو كالنتيجة لما قبله ، وهو الصفات المعنوية وهي سبع : وقيل لها : المعنوية نسبة للسبع المعاني ، لأن الاتصاف بها كالفرع للاتصاف بالمعاني ، باعتبار التعقل ، لا باعتبار التأخر في الزمان . وإن اتصاف محل من المحال بكونه عالماً أو قادراً – مثلاً – لا يصح إلا إذا قام به العلم أو القدرة . وإن عد هذه السبع في الصفات هو على سبيل الحقيقة ، إن قلنا بصفات الأحوال ، وهي صفات ثبوتية ، ليست بوجودة ولا بمعدومة ، قائمة بموجود ، فهذه الصفات ثابتة قئمة بذاته تعالى . وأما إن قلنا بنفي الاحوال ، وأنه واسطة بين الوجود والعدم – كما عليه الأشعري وهو المعتمد – فالثابت من الصفات التي تقوم بالذات إنما هو السبع الأول، أي صفات المعاني . أما هذه فهي عبارة عن قيام تلك بالذات ، لا أنها لها ثبوتاً بالخارج عن الذهن بحيث يقال فيها : إنها قائمة بالذات ، وهذا لا ينافي أنها أمر اعتباري ثابت في نفسه بقطع النظر عن اعتبار المعتبر فالأحوال صفات قارة في الذات بخلاف الاعتبار الثابت في نفس الأمر فإنه غير قار فيها .

● وحيث وجبت له الحياة فهو سبحانه حي كما علم من الدين ضرورة ، وثبت من الكتاب والسنة بحيث لا يمكن إنكاره ولا تأويله . قال الله تعالى :

« اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الحيُّ القَيُّومُ »(١)

(٢) البقرة ٢٥٥ .

وقال: «اللهُ الّذي جعلَ لكمُ الأرضَ قراراً والسماءَ بناءً وصوّرَكُم فأحسنَ صُوَرَكُم ورزقكُم منَ الطيّباتِ ، ذلكمُ اللهُ ربُّكم ، فَتباركَ اللهُ ربُّ العالمينَ . هُوَ الحيُّ لا إلهَ إلاّ هوَ ، فادعُوهُ مخلصينَ لَهُ الدِّينَ ، الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ »(١) .

والقيوم : القائم بتدبير خلقه ، والسِّنَةُ : النعاس ، وحقيقة الحي هو الذي تكون حياته لذاته ، وليس ذلك لأحد من الخلق . والكون حياً عبارة عن قيام الحياة بالذات ، وهو أمر اعتباري .

لذلك تعرّف الصفات المعنوية بأنها صفات ثبوتية ، أي ثابتة للذات ، وهي كل صفة ثابتة لا توصف بالوجود - كالمعاني - ولا بالعدم - كالسلبيات - ملازمة السبع الأول .

والفرق بين المعاني والمعنوية أن المعاني صفات وجودية والمعنوية ثبوتية بمعنى أنها عبارة عن قيام المعاني بالذات ، وهذا هو المعتمد . وأن المعاني ملزومة للمعنوية عقلا والمعنوية لازمة للمعاني ، بمعنى أنه يلزم من كونه قادراً أنه موصوف بالقدرة ، كما يلزم من اتصافه بالقدرة كونه قادراً ، وأن الصفات المعنوية واجبة له تعالى إجماعاً على مذهب أهل السنة والمعتزلة .

---

(١) غافر ٦٤-٦٥ .

تنبيه: التحقيق أن من ينفي المعنوية يكفر، إن أثبت ضدها، لأن الحق نفي صفات الأحوال، أما النافي لأن يكون له تعالى صفة قديمة يقال لها: الكون عالما، وهو مثبت لانكشاف الأشياء له تعالى أزلاً بذاته فلا ضرر في ذلك. وأما صفات المعاني فنفي زيادتها على الذات مع إثبات أحكامها لها فموجب للفسق فقط، وأما نفيها مع إثبات أضدادها فهو كفر[1].

عليم: أي وحيث وجب له العلم فهو عليم بمعنى عالم، وهو الذي علمه شامل لكل ما من شأنه أن يعلم. وصيغة المبالغة «عليم» باعتبار كثرة المعلوم، وإن كانت صفة العلم واحدة. قال الله تعالى: ﴿الحمدُ للهِ الذي لهُ ما في السمواتِ وما في الأرضِ، ولهُ الحمدُ في الآخرةِ وهوَ الحكيمُ الخبيرُ، يعلمُ ما يلجُ في الأرضِ وما يخرجُ منها، وما ينزلُ منَ السماءِ وما يعرجُ فيها وهو الرحيمُ الغفورُ﴾ (٢)

وقال تعالى أيضاً:

﴿يعلمُ ما في السمواتِ والأرضِ ويعلمُ ما تسرُّونَ وما تعلنونَ واللهُ عليمٌ بذاتِ الصدورِ﴾[3].

وقال تعالى حكاية عن لقمان:

﴿يا بنيَّ إنها إنْ تكُ مثقالَ حبةٍ منْ خردلٍ فتكنْ في

---

(١) انظر حاشية الدسوقي على أم البراهين ١١٨.

(٢) سبأ.

(٣) التغابن ٤.

صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير » (١)

وقال حكاية مما وقع بين شعيب وقومه :

« وَسِعَ رَبُّنا كلَّ شيءٍ علماً » (٢) .

وقال : « ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ، ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم » (٣)

وقال : « وما تكون في شأن وما تتلوا منه من قرآن ، ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه ، وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين » (٤) .

وفي آيات كثيرة مبثوثة في كتاب الله دالة على سعة علمه تبارك

(١) لقمان ١٦ .

(٢) الأعراف ٧٨ .

(٣) المجادلة ٧ .

(٤) يونس ٦١ .

وتعالى وإحاطته بكل شيء قل أو كثر ، دق أو عظم .

قادر : أي وحيث وجبت له القدرة فهو قادر . والقادر هو الذي إن شاء فعل وإن شاء ترك ، فهو المتمكن من الفعل والترك ، فيكون منه كل منها بحسب ما خصصته الارادة على وفق ما انكشف بالعلم .

قال الله تعالى : (يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ...) .

إلى أن قال :

(وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير) . (١)

وقال تعالى : (ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب) . (٢) اللغوب : التعب

(وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات ، وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا . وهو الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا ، وكان ربك قديرا) (٣) .

والمرج : الارسال ، والفرات : شديد العذوبة ، والأجاج شديد

(١) الحج ٦ .

(٢) ق ٣٨ .

(٣) الفرقان ٥٣-٥٤ .

اللوحة ، والبرزخ : الحاجز ، والحجر المحجور : الستر المستور الذي يمنع اختلاط أحدهما بالآخر ، وخلق من الماء : أي من النطفة .

وقال سبحانه :

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ، وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ . يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ . وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » (١)

والودق : المطر ، وسنا البرق : لمعانه .

مريد : أي وجبت له الإرادة فهو مريد . والمريد هو الذي تتوجه إرادته الى المعلوم فتخصصه بالوجود بدلاً عن العدم ـ مثلاً ـ :

قال الله تعالى :

« إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » (٢)

---

(١) النور ٤٣ – ٤٤ .
(٢) يس ٨٢ .

وقال أيضاً : « وإذا أردنا أن نهلك قريةً أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً » . (١)

وأمرنا مترفيها : أي أمرنا رؤساءها بالطاعة ـ على لسان ـ الرسل ففسقوا فيها .

● سمع : أي سميع « حذفت الياء للضرورة » وحيث وجب له السمع فهو سميع ، والسميع هو الذي يسمع كل موجود . قال الله تعالى :

« قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير » (٢)

ومعنى تجادلك : تراجعك وقال أيضـاً : لموسى وهارون حين أرسلهما الى فرعون

« إنني معكما أسمع وأرى » (٣)

● بصير : وحيث وجب له البصر فهو بصير ، وهو الذي يبصر الأشياء ، فهو سبحانه يحيط بالمسموعات والمبصرات من غير أن يشغله شأن عن شأن قال :

« ألم يعلم بأن الله يرى » (٤)

---

(١) الإسراء ١٦ .
(٢) المجادلة ١ .
(٣) طه ٤٦ .
(٤) العلق ٣٤ .

● مابشا يريد : أشار – هنا – الى اختيار مـــذهب الجمهور من اتحاد المشيئة والإرادة وأنه يطلق إحداهمـا على الأخرى ، والمعنى : أن كل مايشاؤه الله تعالى فهو – من حيث إنه مشاء له – مراد له ، وكلما يريده فهو – من حيث إنه مراد له – مشاء له ، خلافاً للكرامية الزاعمين بأن المشيئة صفة واحدة أزلية تتناول مايشاؤه الله بها ، والإرادة حادثة متعددة بتعدد المرادات .

ومراداته سبحانه هي شؤونه بخلقه ، وشؤونه يبديها ولا يبتديها ، أي هي أحوال يظهرها للناس ولا يبديها علمـــاً ، لأنه تعالى يعـــلم الاشياء أزلاً ، خلافاً لمن قال « الأمرُ أُنُفٌ » ، أي يستأنف الله الاشياء علماً وهم قوم كفار لانهم أنكروا القدر .

● متكلم : وحيث وجب له الكلام فهو متكلم ، ولا خـــلاف لأرباب المذاهب والملل في أنه تعالى متكلم ، وإنمـا الخلاف في معنى كلامه وقد تقدم معناه[1] ، وقد اختلفوا في قدمه وقد تقدم بيانه أيضاً وسيأتي في قوله : ونزه القرآن أي كلامه * عن الحدوث واحذر انتقامه .

● ثم صفات الذات : أورد النافون لصفات الذات شبهة هي : أن الصفات الوجودية إما أن تكون « حادثة » فيلزم قيام الحوادث بذاته تعالى ، ويلزم خلوه تعالى في الأزل عنها . وإما أن تكون « قديمة » فيلزم تعدد القدماء وهو كفر بإجماع المسلمين ، والغرض هنا بيان حكم صفات الذات ، وهو أنها ليست بعين الذات ، ولا بغيرها ، ولم تكن عينها لأن حقيقة الذات غير حقيقة الصفات ، وإلا لزم اتحاد الصفات والموصوف ، وهو لا يعقل ، ولم تكن غيرها لأنها قائمة بالذات ، أي ليست غيراً منفكاً عن الذات ، وإن كانت غيراً في المفهوم ، وعلى هذا يظهر بطلان القول بتعدد القدماء ، وإنما يلزم التعدد وقيام الحوادث بذاته تعالى فيما لو كانت كل صفة قائمة بنفسها . ولكون الصفات ليست غيراً بالمعنى المتقدم وقع التسامح بإضافة ما للذات إليها نحو : « كل شيء تواضع لقدرته » والمراد

(١) راجع البيت (٢٩) .

تواضع كل شيء لذاته لأجل قدرته ، وإلا فعبادة مجرد الصفات كفر ، وعبادة مجرد الذات فسق ، والقول المستقيم عبادة الذات المتصفة بالصفات .

والصفات السلبية لا تدخل في الخلاف السابق لأنها غير قائمة بالذات ، فهي أمور عدمية وكذلك صفات الأفعال - كالإحياء والإماتة - فإنها غير قائمة بها أيضاً ، لأنها منفكة ، فهي تعلقات القدرة التنجيزية الحادثة ، كما سبق . والصفة النفسية - التي هي الوجود - مثل مامر ، من حيث عدم الدخول في الخلاف . إذ أن الوجود عين الموجود ، فهو ليس زائداً على الذات .

● ليست بغير : أي ليست بغير الذات ، والمراد ليست غيراً منفكاً فلا ينافي أنها غير ملازم ، أي قائم بالذات .

● أو بعين الذات : أي ليست عين الذات ، لأن حقائقها تخالف حقيقة الذات ، فهي صفات مغايرة للذات ، مفهوماً ، لكنها قائمة بالذات ، إذ محال أن يقوم الوصف بنفسه ، وهي واجبة لذاتها ، مثل وجوب الذات كما هو الحق ، وليست ممكنة في ذاتها واجبة لغيرها بسبب اقتضاء الذات لها (١) .

---

(١) ثمرة العلم بهذه الصفات من وجهين، الأول «فكري عقدي يصحح به المكلف فكره وعقيدته فيبني إيمانه على قاعدة راسخة تتلاشى الشكوك والشبه دونها. والثاني: شهودي ذوقي ، وهذا ثمرة للوجه الأول إن واكبه سلوك تعبدي سوي وصحبة صالحة تقية ، وذكر يستغرق الأوقات ؛ فيشهد عندها المكلف أن الله هو السميع، فيحفظ لسانه ، بل يراقب خلجات قلبه وهواجس نفسه ، ويعلم أنه خلق له السمع ليسمع به كلام الله تعالى ، فيزداد به هداية ويشهد أنه بمرأى من الله تعالى، فلا يستهين بنظره إليه واطلاعه عليه وإن أخفى عن غير الله ما لا يخفيه عن الله فقد استهان بنظر الله تعالى إليه ، ويعلم أنه خلق له البصر لينظر في الآيات المبثوثة =

٣٣ - فقدرةٌ بِمُمْكِنٍ تعلّقتْ   بِلا تَناهِي ما بِهِ تعلّقتْ

● فقدرة بممكن تعلقت : القدرة لغةً : عبارة عن الصفة التي بها يتهيأ الفعل للفاعل ، وبها يقع الفعل . ولما طوى ذيل مباحث الصفات شرع هنا في نشر مالها من التعلقات . والتعلق : هو طلب الصفة أمراً زائداً على الذات يصلح لها . والذي اعتمده المحققون أن التعلق لصفات المعاني فقط ، وبعض المتكلمين قال : التعلق للمعنوية . ولم يقل أحد بها معاً لئــلا يجتمع مؤثرين على أثر واحـد ، في القدرة والكون قادراً ، والإرادة والكون مريداً ، وهكذا .

واعلم أن صفات المعاني من حيث التعلق وعدمه ، ومن حيث شموله للواجب والجائز والمستحيل أقسام :

فالقدرة تتعلق بالممكنات إيجاداً أو إعداماً ، والارادة تتعلق بالممكنات تخصيصاً لها ببعض ما يجوز عليها ، وتعلقها قديم ، والعلم يتعلق بالواجبات

= وعجائب الملك فيزداد عبرة وإيماناً . وهذه المراقبة هي إحدى ثمرات الإيمان بهاتين الصفتين ، بل يقوي بها عزمه ، ويشتد أزره ، ولا يرهب مخلوقاً لعلمه بأن الله معه يسمع ويرى ، وقد قال سبحانه لموسى وأخيه عليهما الصلاة والسلام (إنني معكما أسمع وأرى) بل لا يطوف على قلبه طائف الرياء اكتفاء بسمع الله وبصره إذ الرياء قرين الغفلة عن الله لأنه إكتفاء بسمع الناس وبصرهم . ومن قارف معصية، وهو يعلم بأن الله تعالى يراه فما أجرأه ! ، وإن ظن أنه لا يراه فما أكفره !! . ويشهد المكلف أن الله هو القدير فما يوجل له فؤاد ، ولا يرهب من مخلوق كيف وقد قال سبحانه (ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعا) ويشهد أنه لايند عن إرادته سبحانه مخلوق ، فلا يحزن على ما فات ويسلم أمره لرب الأرض والسموات فيعيش في روضات التسليم محبوراً ، وغيره في مضائق الغفلات محصوراً .

والجائزات والمستحيلات تعلق انكشاف . والكلام يتعلق بالواجبات والجائزات والمستحيـلات تعلق دلالة . والسمـع والبصر والادراك . على القول به ـ تتعلق بالموجودات ، سواء قديمها وحادثها ، لكنه في القديم قديم وفي الحادث حادث . والحياة لا تتعلق بشيء ، فهي لا تقتضي أمراً زائداً على قيامها بالذات . ومعرفة هذه التعلقات غير واجبة على المكلف لأنها من غوامض علم الكلام . ولكنها ركن ركين في معرفة الله سبحانه ، وفي شهود تجلياته .

فالقدرة لا تتعلق إلا بالممكن فلا تتعلق بواجب ولا بمستحيل بل كل ممكن داخل في متعلقها ، إذ لو خرج ممكن عنه لزم منه العجز وهو محال عليه تعالى [1] . والممكن هو ما لا يجب وجوده ، ولا عدمه لذاته ، ولو وجب وجوده أو عدمه لغـيره .

---

(١) عموم التعلق بكل ممكن ثابت لأن صفة الإمكان لا تنحصر في عدد من الممكنات بل هي صفة عامة في كل ممكن يتصور في العقل وجوده وعدمه لهذا لا يمكن الإشارة إلى حادث ـ مرضا كان أو شفاء ، حرارة أو برودة ، شبعاً أو رياً ، عطاء أو منعا موتاً أوحياة ـ بأنه خارج عن تعلق القدرة به مع تعلقها بمثله ، إذ بالضرورة يعلم أن ما وجب لشيء وجب لمثله . قال الغزالي : إنكار عموم تعلق القدرة إنكار لما أطبق عليه السلف ـ رضي الله عنهم ـ من أنه لا خالق إلا الله ولا مخترع سواه ، كذلك في انكارها نسبة الاختراع والخلق إلى قدرة من لا يعلم ما فعله من الحركات ، فالصبي يدب إلى ثدي أمـه ويمتص ، والهرة تدب إلى أمها وهي مغمضة عينيها ، والعنكبوت تنسج من البيوت ما يحير عقول المهندسين في استدارتها وتوازي أضلاعها وتناسب ترتيبها ، وبالضرورة يعلم انفكاكهـا عن العلم بما يعجز المهندسون والعقلاء عن معرفته . والنحل تشكل بيوتها على شكل التسديس ، فلا يكون فيها مربع ولا مدور ولا شكل آخر لأن الشكل المسدس له خصائص عجيبة دلت عليها البراهين الهندسية لا توجد في غيرها ، فالأشكال =

فالذي تعلق علمه تعالى بوجوده من الممكنات ، وخصصته إرادته ، فهو - وإن كان ممكناً في ذاته ، متساوياً وجوده وعدمه - واجب الوجود لغيره ، كإيمان أبي بكر الصديق . والذي تعلق علمه تعالى بعدم وجوده من الممكنات ، وخصصته الإرادة فهو - وإن كان ممكناً في ذاته - واجب الوجود لغيره ، كإيمان أبي جهل . وقد قال سيدي محمد الهاشمي : والحاصل أن الحكم العقلي ينحصر في ثلاثة أقسام :

أولاً - الواجب الذاتي : (كوجود الله سبحانه وصفاته) ولا يتفرع عن هذا شيء ، أي لا يكون جائزاً عرضياً ولا محالاً عرضياً ، لما يلزم عليه من قلب الحقائق .

ثانياً - المحال الذاتي : (كاستحالة وجود الشريك لله سبحانه) ولا يتفرع عن هذا شيء ، أي لا يكون جائزاً عرضياً ولا واجباً عرضياً ، لما يلزم عليه من قلب الحقائق .

= المستديرة إذا وضعت متراصة بقيت بينها فرج معطلة لا محالة ، وكذلك الأشكال القريبة من المستديرة ، كالبيضوي والمسبع والمثمن ، ولما كان النحل محتاجاً إلى شكل قريب من الدائر ليكون حاوياً لجسمه - لأنه قريب من الاستدارة - وكان محتاجاً - لضيق مكانه وكثرة عدده - إلى أن لا يضيع موضعاً بفرج تتخلل بين البيوت ولم يكن في الأشكال شكل يقرب من الاستدارة ، وله هذه الخاصية - خاصية التراص والخلو عن الفرج - إلا المسدس فقد سخرها الله تعالى لاختيار الشكل المسدس في صناعة بيتها . فليت شعري أعرف النحل هذه الدقائق التي يقصر عن دركها أكثر عقلاء الإنس ، أم سخره الخالق المنفرد بالجبروت لنيل ما هو مضطر إليه ، فتقدير الله تعالى يجري عليه ، وفيه ، ولا يدريه ، ولا قدرة له على الامتناع منه . وفي صناعات الحيوانات ما إن أوردته امتلأت الصدور من عظمة الله تعالى وجلاله . فتعساً للزائغين عن طريق الهدى ، الظانين أنهم مساهمون مع الله في الخلق والاختراع (انظر كتاب الاقتصاد للغزالي) .

ثالثاً - الجائز الذاتي : (كوجود المكونات) ولا يكون الجائز إلا ذاتياً ، أي لا يكون جائزاً عرضياً متفرعاً عن الواجب الذاتي ، ولا جائزاً عرضياً متفرعاً عن المحال الذاتي ، كما سبق وبيناه ، وقد يعرض الجائز الذاتي الوجوب (كوجود الجنة والنار) لإخبار الشرع بوقوعه فيسمى الواجب العرضي . أو قد يعرض له الاستحالة (كدخول الكفر الجنة) بإخبار الشرع بعدم وقوعه ، ويسمى المستحيل العرضي . والعرضي لا ينافي الامكان الذاتي ، وإنما ينافيه الواجب الذاتي ، والمحال الذاتي ، لما فيه من قلب الحقائق[1] .

والقدرة تتعلق بما وجب عدم وجوده لغيره تعلقاً صلوحياً قديماً ، بمعنى أنها صالحة لانجازه أزلاً ، لا تنجيزياً حادثاً ، وإلا لانقلب العلم جهلا وهو محال ، إذ أنه لو تعلقت به القدرة تعلقاً تنجيزياً حادثاً لوجد ، ووجوده يناقض ما في العلم من عدم وجوده .

● بلا تناه ما به تعلقت : أي متعلقات القدرة لا تنتهي إلى حد ونهاية في جانب المستقبل ، إذ منها نعيم الجنان ، وهو متجدد شيئاً فشيئاً ، ومنها عذاب النيران وهو أبدي سرمدي . أما ما وجد منها في الخارج فهو متناه ، لأن كل ما حصره الوجود من الممكن فهو متناه . وقد فسر قوله (بلا تناه) بأن القدرة لا تنتهي عند طائفة من الممكنات ، بأن تتعلق بها دون غيرها بل هي عامة التعلق بجميعها ، بحيث لا يشذ عنها ممكن .

---

(١) مفتاح الجنة ٧٠ - ٧٤ .

٣٤ـ وَوَحْدَةً أَوْجِبْ لَهَا وَمِثْلُ ذِي   إِرَادَةٌ وَالْعِلْمُ لَكِنْ عَمَّ ذِي
٣٥ـ وَعَمَّ أَيْضًا وَاجِبًا وَالْمُمْتَنِعْ   وَمِثْلُ ذَا كَلَامُهُ فَلْتَتَّبِعْ

● ووحدة أوجب لها: أي اعتقد وجوب وحدتها، وهي أن لله تعالى قدرة واحدة لأن تعددها لا يقتضيه معقول ولا منقول، إذ لو كان له تعالى قدرتان لزم اجتماع مؤثرين على أثر واحد فالقدرة واحدة والمقدور متعدد كالحركة والسكون وغيرهما.

● ومثل ذي «إرادة»: المعنى أن إرادة الله تعالى مثل قدرته في الأمور الثلاثة المتقدمة التي هي: تعلقها بكل ممكن، وعدم تناهي متعلقاتها، وايجاب الوحدة لها بلا تفاوت بينهما. فالمثلية إنما هي في هذه الثلاثة، وإن اختلفت جهة التعلق فيها ● فالقدرة تبرز الممكن من العدم إلى الوجود، أو تخرجه عن الوجود إلى العدم، والإرادة تخصص الممكن ببعض ما يجوز عليه ● ويدل على عموم تعلق الإرادة أدلة عقلية كأن يقال: لو تعلقت ببعض الممكنات دون الآخر لزم عليه الترجيح بلا مرجح، والترجيح بلا مرجح باطل، فينتج أن التعلق ببعض الممكنات باطل، وبثبت تعلقها بجميعها. والأدلة السمعية على ذلك هي كقوله تعالى:

«إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» (١)

والمراد من ذلك ـ والله أعلم ـ أنه متى تعلقت ارادته أزلاً وقدرته حالاً بشيء برز في الحال، فهو كناية عن سرعة وجود مراده تعالى، وعدم

(١) يس ٨٢.

تخلفه ، وليس المراد من ذلك ما هو ظاهره من أنه تعالى إذا أراد شيئاً يصدر منه أمر للكائنات بلفظ (كن) .

أعلم أن للإرادة تعلقين : صلوحياً قديماً ، وهو صلاحيتها في الأزل لتخصيص الممكن ببعض مما يجوز عليه ، كتخصيصه بالوجود أو بالعدم ، بالغنى أو بالفقر ، وهكذا . وتعلقاً تنجيزياً قديماً ، وهو تخصيص الله بها أولاً الممكن ببعض ما يجوز عليه .

● والعلم : هو مثل القدرة في الأمور الثلاثة ، وهي تعلقه بالممكنات وعدم تناهي متعلقاته ، وإيجاب الوحدة له بإجماع من يعتد بإجماعه ، فإنه لم يذهب أحد إلى تعدد علمه تعالى بعدد المعلومات إلا أبا سهل الصعلوكي فقال بعلوم قديمة لا نهاية لها ولو كان له علوم لا نهاية لها ، فكل علم هل يكشف كل المعلومات أم لا ؟ فإن كشفها كلها فما يكون بالنسبة لبقية العلوم إلا تحصيل حاصل ، إذ كل المعلومات مكشوفة لأحدها ـ كما فرض ـ وإن لم يكشفها كلها فهو علم ناقص لا يوصف به الله تعالى فثبت وحدة صفة العلم .

● لكن عم ذي : استدرك هنا ليدخل الواجب والمستحيل في متعلقات العلم ، لئلا يتوهم أن العلم متعلق بالممكنات فقط ، كما يقتضيه تشبيه بالقدرة فالعلم يشمل من حيث التعلق ● **الواجب العقلي** (كذاته تعالى وصفاته) ● **والممتنع العقلي** (كاستحالة الشريك له تعالى أو كاتخاذ ولد أو صاحبة) بمعنى أنه يعلم استحالة ذلك ، ويعلم أنه لو وجد لترتب عليه من الفساد كذا وكذا . **والجائز العقلي** :

وقد قال الله تعالى فيه : « يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » (١)

(١) الحديد ٤

وليس للعلم إلا تعلق تنجيزي قديم فقط على التحقيق .

● واعلم أنّ تعلقات القدرة والإرادة والعلم مترتبة – عند أهل الحق – باعتبار التعقل فقط في التعلقات القديمة أما في تعلقات الحادث منهما (كتعلق القدرة التنجيزي الحادث) مع القديم (كتعلق العلم والإرادة) فالترتيب على الحقيقة ، أي في التعقل والخارج .

● فتتعلق أولاً تعلق العلم ، ثم تعلق الإرادة ، ثم تعلق القدرة الصلوحي ، فتعلق القدرة تابع لتعلق الإرادة ، وتعلق الارادة تابع لتعلق العلم ، وليس بين هذه التعلقات ترتيب في الخارج لأنها كلها قديمة ، والقديم لاترتيب فيه خارجاً وإلاّ لزم أنّ المتأخر حادث . وأما بين تعلق القدرة التنجيزي الحادث وتعلقي الإرادة الصلوحي والتنجيزي القديمين ، وتعلق العلم التنجيزي القديم فالترتيب في الخارج ، وفي التعقل ، لأنّ تعلق القدرة التنجيزي الحادث متأخر عن هذه التعلقات القديمة ضرورة تأخر الحادث عن القديم

● ومثل ذا كلامه : أي كلامه مثل علمه ، فكلامه النفسي القديم القائم بذاته تعالى مثل العلم فهو عام التعلق بالواجبات والجائزات والمستحيلات ، ولا تتناهى متعلقاته وهو واحد لأنه لم يرد السمع بالتعدد، بل انعقد الإجماع على نفي كلام ثان قديم . لكن تعلق العلم على سبيل الكشف ، أما تعلق الكلام فعلى سبيل الدلالة ، وهو تعلق تنجيزي قديم بالنظر لغير الأمر والنهي ، فهو يدل أزلا على أن ذاته وصفاته تعالى واجبة ، وعلى أن الشريك والولد مستحيلان ، وأن رزق زيد وعلمه جائزان ، وأن من أطاع فله الجنة – ويسمى هذا وعداً – ومن عصى فله النار – ويسمى هذا وعيداً – أما بالنسبة للأمر والنهي فإن اشترط وجود المأمور والمنهي فتعلق تنجيزي حادث ، وإلا فقديم .

● فلنتبع : لغموض المحل وصعوبته يشير إلى أنه ليس لنا في هذا المقام إلا اتباع القوم ، خصوصاً في إثبات التعلقات الأزلية .

٣٦ - وكلُّ موجودٍ أنِط للسَّمعِ بِهْ كذا البَصَرْ إدْرَاكُهُ إنْ قيلَ بِهْ

● وكل موجود أنط السمع به [١] : أي اعتقد تعلق السمع الأزلي بكل موجود .

● كذا البصر : أي فهو مثل السمع في وجوب اعتقـــاد تعلقه بكل موجود .

● إدراكه إن قيل به : أي والإدراك كالسمع والبصر ، على القول بثبوت الإدراك كما مر في قوله (فهل له إدراك أولا ؟ خلف) [٢] فهذه الصفات الثلاثة متحدة المتعلّق مع أنها متعددة ، وكل منها له حقيقة من الانكشاف ليست عين حقيقة غيره ، ولا يعلم تلك الحقيقة إلا الله تعالى .

وكلام السعد وغيره على أن السمع الأزلي صفة تتعلق بالمسموعات ، وأن البصر الأزلي صفة تتعلق بالمبصَرات ، فان قصد المسموعات في حقنا فهو مخالف لما عليه الشيخ السنوسي ومن تبعه من أن السمع يتعلق بكل موجود ، وإن قصد المسموعات في حقه تعالى فهو موافق للسنوسي وهكذا يقال بالنسبة للمبصَرات . والإدراك على القول به يتعلق بكل موجود ، وقول آخر أنه يتعلق بالملموسات والمشمومات والمذوقات من غير اتصال بمحالها .

والسمع والبصر والإدراك - إن قيل به - ثلاثـــة تعلقات . تنجيزي قديم : وهو التعلق بذات الله سبحانه وصفاته . وصلوحي قديم : وهو صلاحية التعلق بنا قبل وجودنا ، وتنجيزي حادث : وهو التعلق بنا بعد وجودنا .

وأشار الناظم الى عدم تناهي متعلقاتها بقوله : (وكل موجود) فإن : لفظ كلّ : من أدوات العموم . وسكت عن وحدة هذه الصفات للعلم بها من وجوبها بنظائرها كالقدرة والإرادة ، إذ لا فرق بينها .

(١) كل : إما مفعول لمحذوف يفسره فعل - أنط - ، أو مبتدأ وجملة أنط خبره .
(٢) انظر البيت رقم ٣٠ .

٣٧ - وَغَيْرُ عِلْمٍ هٰذِهِ كَمَا ثَبَتْ ثُمَّ الحَيَاةُ مَا بِشَيْءٍ تَعَلَّقَتْ

وغير علم هذه : هذه الصفات الأربع ، وهي الكلام والسمع والبصر والإدراك ، غير العلم . ودفع بهذا توهم اتحادها مع العلم ، لاتحاد متعلق الكلام معه . واندراج متعلق السمع والبصر والإدراك في متعلقه . لاسيا وتعلق هذه الثلاثة تعلق انكشاف كتعلق العلم . وكما أنها تغاير العلم فكذلك تغاير بعضها بعضا .

كما ثبت : كالتغاير الذي ثبت عند القوم بالأدلة السمعية . لأن هذه الصفات إنما ثبتت بالسمع ، بالنسبة لبعضها . فكل لفظة تدل على معنى مخالف للفظة الأخرى لغة . وإذا ثبت تغايرها ـ لغة ـ ثبت تغايرها شرعاً . فكنه كل واحدة غير كنه الأخرى . ونفوض علم كل ذلك إلى الله سبحانه وتعالى .

ثم الحياة مابشيء تعلقت : المعنى أن الحياة لاتتعلق بشيء ، سواء كان معدوماً أو موجوداً . فليست من الصفات المتعلقة . لأنها صفة مصححة لمن قامت به أن يتصف بصفات الادراك ، ولا تقتضي أمراً زائداً على قيامها بمحلها (وهو الذات) .

٣٨ ـ وَعِنْدَنَا أَسماؤُهُ العَظِيْمَهْ كَــذَا صِفَاتُ ذاتِهِ قَدِيْمه

● وعندنا : لما فرغ من الصفات وتعلقاتها شرع في مبحث يجب اعتقاده . فيجب على المكلف أن يعتقد أن أسماء الله العظيمة قديمة . وكذا صفات ذاته .

فأسماؤه العظيمة ـ عندنا معاشر أهل الحق ـ قديمة ، خلافاً للمعتزلة في قولهم « بأن اسماءه تعالى حادثة ، وأنها من وضع الخلق » وهي قديمة لا باعتبار ذاتها إذ هي ألفاظ ، والألفاظ حادثة قطعاً ، وإنما باعتبار التسمية بها . والمراد بالتسمية القديمة ، وهي دلالة الكلام أزلاً على معاني الأسماء من غير تبعيض ولا تجزئة في الكلام . فالله تعالى لم يزل مسمى بأسماء قبل وجود الخلق ، وعند وجودهم ، وبعد فنائهم . لأنه لاتأثير لهم في أسمائه ، هذا مايفهم من كلام القرطبي رحمه الله .

● أسماؤه : المراد ما دل على الذات بمجردها (كالله ، وَخُدَاي في الفارسية) أو مادل على الذات باعتبار الصفة (كالعالم والقادر) [1] .

---

(١) من الأسماء ما يدل على الذات ـ كالله ـ ويقرب منه اسم الحق ، إذا أريد به الذات من حيث هي واجبة الوجود .

* ومنها مايدل على الذات مع سلب : مثل القدوس والسلام والغني والأحد ، ونظائرها ، فإن القدوس: هو المسلوب عنه كل ما يخطر بالبال ، ويدخل في الوهم ، والسلام : هو المسلوب عنه العيوب . والغني : هو المسلوب عنه الحاجة . والأحد :هو المسلوب عنه النظير والقسمة .

* ومنها مايرجع إلى الذات مع إضافة : كالعلي والعظيم والأول والآخر والظاهر والباطن ونظائرها ، فإن العلي ، هو الذات التي هي فوق سائر الذوات في =

المرتبة ، فهي إضافة ، والعظيم يدل على الذات من حيث تجاوز حدود الإدراكات ، والأول : هوالسابق على الموجودات ولا أول لوجوده . والآخر : هو الذي إليه مصير الموجودات ، والظاهر : هو الذات بالإضافة إلى دلالة العقل ، والباطن : هو الذات مضافة إلى إدراك الحس والوهم .

* ومنها ما يرجع إلى الذات مع سلب وإضافة : كالملك والعزيز ، فإن الملك يدل على ذات لا يحتاج إلى شيء ويحتاج إليه كل شيء . والعزيز : هو الذي لا نظير له وهو مما يصعب نيله والوصول إليه .

* ومنها ما يرجع إلى صفة ، كالعليم والقادر والحي والسميع والبصير .

* ومنها ما يرجع إلى صفة العلم مع إضافة : كالخبير والحكيم والشهيد والمحصي . فإن الخبير يدل على العلم مضافاً إلى الأمور الباطنة ، والشهيد يدل على العلم مضافاً إلى مايشاهد ، والحكيم يدل على العلم مضافاً إلى أشرف المعلومات ، والمحصي يدل على العلم من حيث يحيط بعلومات محصورة معدودة .

* ومنها مايرجع إلى القدرة مع زيادة إضافة : كالقهار والقوي والمقتدر والمتين . فإن القوة هي تمام القدرة ، والمتانة شدتها ، والقهر تأثيرها في المقدور بالغلبة .

* ومنها ما يرجع إلى الإرادة مع اضافة أو مع فعل ، كالرحمن والرحيم والرؤوف والودود ، فإن الرحمة ترجع إلى الإرادة مضافة إلى قضاء حاجة المحتاج الضعيف . والرأفة شدة الرحمة ، وهي مبالغة في الرحمة . والود : يرجع إلى الإرادة مضافاً إلى الإحسان والإنعام ، وفعل الرحيم يستدعي محتاجاً ، وفعل الودود لا يستدعي ذلك ، بل الإنعام على سبيل الابتداء يرجع إلى الإرادة مضافاً إلى الإحسان وقضاء حاجة الضعيف .

* ومنها مايرجع إلى صفات الفعل : كالخالق والبارىء والمصور والوهاب والرزاق والفتاح والقابض والباسط والخافض والرافع والمعز والمذل والعدل والمقيت والمجيب والواسع والباعث والمبدىء والمعيد والمحيي والمميت والمقدم والمؤخر والوالي والبر والتواب والمنتقم والمقسط والجامع والمانع والمغني والهادي ، ونظائره .

ومنها ما يرجع إلى الدلالة على الفعل مع زيادة ، كالمجيد والكريم . فإن المجيد يدل على سعة الإكرام مع شرف الذات . والكريم كذلك . واللطيف يدل على الرفق في الفعل . (من كتاب المقصد الأسنى للإمام الغزالي ص ١٥٢ باختصار) .

العظيمة : أي الجليلة المطهرة عن أن يسمى بها غيره سبحانه ، أو عن أن تقصر بما لايليق ، أو أن تذكر على غير وجه التعظيم ، كما قاله السعد . والحق أنها متفاضلة فيما بينها . وأعظمها لفظ الجلالة وهو الاسم الأعظم ،[1] . وكان سيدي علي الوفا رضي الله عنه يذهب الى التفاضل في الأسماء ، وفي اليواقيت عن ابن العربي أن أسماء الله تعالى متساوية في نفس الأمر لرجوعها كلها الى ذات واحدة ، وإن وقع فيها تفاضل فإن ذلك لأمر خارج .

كذا صفات ذاته قديمة : كل من أسمائه وصفات ذاته قديم . وهي صفات المعاني السبع ، أو الثمان ، على الخلاف في ذلك . فليست أسماؤه تعالى من وضع خلقه . وليست صفاته حادثة ، لأنها لو كانت حادثة للزم قيام الحوادث بذاته تعالى ، وللزم كونه تعالى عارياً عنها في الأزل . فيلزم افتقارها إلى موجد وهو ينافي وجوب الغنى المطلق ، الذي هو انتفاء الحاجات مطلقاً ، وهو لايكون إلا لله تعالى . بخلاف الغنى المقيد ، الذي هو قلة الحاجات ، فهوغني الحوادث ،قال بعضهم « إلهي غناك مطلق وغنانا مقيد » .

---

(١) مال الغزالي إلى تفاضل الأسماء فيما بينها فقال : الأسامي يجوز أن تتفاوت فضيلتها لتفاوت معانيها في الجلالة والشرف . (١٦١ المقصد الأسنى) . وروى هشام بن محمد بن الحسن قال : سمعت أبا حنيفة ــ رحمه الله ــ يقول : اسم الله الأعظم هو (الله) ، وبه قال الطحاوي وأكثر العارفين حتى أنه لاذكر عندهم لصاحب مقام فوق الذكر به . (الفقه الأكبر لأبي حنيفة) .

وقال الغزالي رحمه الله : إعلم أن هذا الاسم أعظم الأسماء التسعة والتسعين لأنه دال على الذات الجامعة للصفات الإلهية كلها حتى لا يشذ منها شيء ، وسائر الأسماء =

أما صفات الأفعال فحادثة عند الأشاعرة ، قديمة عند الماتريدية . لأنها عند الأشاعرة عبارة عن تعلقات القدرة التنجيزية الحادثة ، وعند الماتريدية ، هي عين صفة التكوين القديمة . وأما الصفات السلبية فهي قديمة قطعاً .

= لا تدل آحادها إلا على آحاد المعاني من علم أو قدرة أو فعل أو غيره ، ولأنه أخص الأسماء ، إذ لا يطلقه أحد على غيره سبحانه لا حقيقة ولا مجازاً وسائر الأسماء قد تسمى بها غيره ، كالقادر ، والعليم ، والرحيم ، وغيره . فلهذين الوجهين يشبه أن يكون هذا الاسم أعظم هذه الأسماء (ص ٤٨ المقصد الاسنى)

٣٩- واختير أن أسماءه توقيفية   كذا الصفات فاحفظ السمعية

والمختير: اختار جمهور أهل السنة أن أسماءه تعالى توقيفية، وكذا صفاته. فلا نثبت لله إسماً، ولا صفة إلا إذا ورد بذلك توقيف من الشارع [1] ومال اليه الباقلاني، وتوقف فيه أمام الحرمين، وفصل الغزالي، فجوز اطلاق الصفة (وهي ما دلت على معنى زائد على الذات) ومنع إطلاق الإسم (وهو ما دل على نفس الذات).

(١) قال الغزالي رحمه الله في كتابه المقصد الأسنى (صفحة ١٥٧ : إن أسماء الله تعالى من حيث التوقيف غير مقصورة على تسعة وتسعين بل ورد التوقيف بأسماء سواها، إذ في رواية أخرى عن أبي هريرة إبدال لبعض هذه الأسماء بما يقرب منها وإبدال بما لا يقرب. فأما الذي يقرب فالأحد بدل من الواحد. والقاهر بدل القهار والشاكر بدل الشكور. والذي لا يقرب كالهادي والكافي والدائم والبصير والمنور والمبين والجميل والصادق والمحيط والقريب والقديم والوتر والفاطر والعلام والمليك والأكرم والمدبر والرفيع وذي الطول وذي المعارج وذى الفضل والخلاق. وقد ورد أيضاً في القرآن ماليس متفقاً عليه في الروايتين جميعاً: كالمولى والنصير والغالب والقريب والرب والناصر، ومن المضافات «كقوله» شديد العقاب، وقابل التوب، وغافر الذنب، ومولج الليل في النهار، ومولج النهار في الليل، ومخرج الحي من الميت، ومخرج الميت من الحي. «وقد ورد في الخبر أيضاً: السيد» إذ قال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم «ياسيد» فقال: السيد هو الله تعالى وكأنه قصد المنع من المدح في الوجه (رواه الإمام أحمد في مسنده، وأبو داود، عن عبد الله بن السخير) وإلا فقد قال صلى الله عليه وسلم: أنا سيد ولد آدم ولافخر (رواه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه، =

والحاصل أن علماء الاسلام اتفقوا على جواز إطلاق الأسماء والصفات على الباري عز وجل إذا ورد بها الإذن من الشارع ، وعلى امتناعه إذا ورد المنع منه . واختلفوا حيث لا إذن ولا منع ، والمختار منع ذلك ، وهو مذهب الجمهور .

● أنّ اسْمَاه : المراد بالأسماء ما قابل الصفات لا الأسماء في مصطلح النحو . والإسم ما دل على الذات (إما وحدها كلفظ الجلالة ، وإما مع الصفة كلفظ الرحمن) . والصفة ما دلت على معنى زائد على الذات (كلفظ قدرة فإنه دل على المعنى القائم بذاته سبحانه وتعالى) [1] .

● توقيفية : أي يتوقف جواز إطلاق الأسماء عليه تعالى على ورودها في كتاب ، أو سنة صحيحة ، أو حسنة ، أو إجماع ، لأنه غير خارج عنها ، بخلاف السنة الضعيفة إن قلنا : إن المسألة من الاعتقاديات بحيث يعتقد أن ذلك الاسم من أسمائه تعالى ، وإن قلنا : إنها من العمليات بحيث نستعمله ونطلقه عليه تعالى فالسنة الضعيفة كافيـــة في ذلك لأنهم قالوا : الحديث الضعيف يعمل بـه في فضائل الأعمـال ـ وأما القياس ، فقيـل

= عن أبي سعيد) والديان أيضاً قد ورد ، وكذلك الحنان والمنان . ومما وقع عليه الاتفاق بين الفقهاء والعلماء من الأسماء « المريد والمتكلم والموجود والشيء والذات والأزلي والأبدي » وإن ذلك مما يجوز إطلاقه في حق الله تعالى . وقد ورد في الحديث لا تقولوا جاء رمضان ، فإن رمضان إسم من أسماء الله تعالى لكن قولوا . جاء شهر رمضان .

(١) انظر تقريرات الأجهوري ص ٦٣

كالإجماع ما لم يكن ضعيفاً ، وعليه يقاس واهب ـ لأنه لم يرد ـ على وهّاب ، وأطلق بعضهم منع القياس . قال المصنف في الشرح الصغير : وهو الظاهر لاحتمال إيهام أحد المترادفين دون الآخر كالعالم والعارف ، والجواد والسخي ، والحليم والعاقل أ.هـ. وبالجملة فما أذن الشارع في إطلاقه واستعماله جاز ـ وإن أوهم ـ كالصبّور والشكّور والحليم فإن الصبور : يوم وصول مشقة له تعالى ، لأن الصبر حبس النفس على المشاق ، فيفسر في حقه تعالى : بالذي لايعجل بالعقوبة على من عصاه . والشكور يوم وصول الإحسان إليه لأن معناه كثير الشكر لمن أحسن اليه ، مع أن الاحسان كله من الله تعالى ، فيفسر في حقه تعالى : بالذي يجازي على يسير الطاعات كثير الدرجات ، ويعطي بالعمل في أيام معدودات نعماً في الآخرة غير محدودة . والحليم يوم وصول أذى إليه ، فيفسر في حقه تعالى : بالذي لايعجل بالعقوبة على من عصاه ، فيرجع لمعنى الصبور . وقد تقدم أن أسماءه ﷻ توقيفية اتفاقاً وسبقت حكمة ذلك فتفطن لها .

● كذا الصفات : أي صفاته تعالى توقيفية مثل أسمائه ، فلا يجوز إثبات صفة له تعالى إلا بتوقيف من الشارع لنا .

● فاحفظ السمعية : أي فاحفظ الأسماء والصفات الواردة في السمع ، كالواردة في الكتاب ، أو السنة أو الثابتة بالاجماع : كالصانع والوجود والواجب والقديم .

٤٠ - وكلُّ نصٍ أوهمَ التَّشبيها   أوِّلْهُ أو فَوِّضْ ، ورُمْ تَنزيها

● وكل نص - المراد بالنص - في هذا الموضع - ما قابل الإجماع والقياس والاستنباط ، وهو منحصر في الدليل من الكتاب أو السنة ، سواء أكان صريحاً أو ظاهراً ، وليس المراد به ما قابل الظاهر كما هو مصطلح علماء أصول الفقه ، إذ لو كان هذا المعنى هو المراد - هنا - لما أمكن تأويله .

● والمراد من التشبيه - في هذا الموطن - المشابهة للحوادث ، ومحل الشبهة أن ظاهر بعض النصوص يوهم أن لله تعالى مكاناً ، أو جارحة ، وهو مخالف لصريح قوله تعالى :

« لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ » (١)

وقوله : « وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ »

● والمراد من التأويل - هنا - حمل اللفظ على خلاف ظاهره مع بيان المعنى المراد فيحكم المكلف بأن اللفظ مصروف عن ظاهره قطعاً ، ثم يؤول اللفظ تأويلاً تفصيلياً بأن يبين فيه المعنى الذي يظن أنه المقصود من اللفظ .

● والمراد من التفويض صرف اللفظ عن ظاهره ، مع عدم التعرض لبيان المعنى المراد منه ، بل يترك ويفوض علمه إلى الله تعالى ، بأن يقول : الله أعلم بمراده .

(١) الشورى ١١ .

وقبل أن نبين مذهبي السلف والخلف نورد تعريف كل من المحكم والمتشابه .

● **تعريف المحكم** : المحكم - لغة - المتقن الذي لايطرأ إليه الفساد ، وأحكمه أتقنه فاستحكم ومنعه عن الفساد[1] . واصطلاحاً : ما لا يعرض فيه شبهة من حيث اللفظ ، ولا من حيث المعنى[2] . والآيات المحكمات هي التي أحكمت فلا يحتاج سامعها الى تأويلها لبيانها ، فلا تحتمل التصريف ، ولا التحويف ، ولا يحتاج سامعها الى تأويلها ، وهي قطعية الدلالة على المعنى المراد . قال ابن كثير فالآيات المحكمات هن حجة الرب ، وعصمة العبد ودفع الخصم الباطل ، ليس لهن تصريف ، ولا تحريف عما وضعن عليه ، ولا يطرأ عليهن احتمال أو اشتباه[3] وقال الرازي : ما يتأكد ظاهرها بالدلائل العقلية فذلك هو المحكم حقاً . وقال أبو السعود : هي قطعية الدلالة على المعنى المراد ، محكمة العبارة ، محفوظة من الاحتمال والاشتباه .

● **تعريف المتشابه** : والمتشابه - لغة - هو اسم لكل مالايهتدي إليه الانسان[4] لأن من شأن الأمور المتشابهة أن يعجز العقل عن التمييز بينها . والشبه : المثل ، وشابهه : أشبه ، وأمور مشتبهة : مشكلة[5] والشبه والشبيه : حقيقتها في المماثلة من جهة الكيفية ، كاللون والطعم ،

(١) القاموس المحيط ٤/٩٨ .

(٢) مفردات الراغب ١٢٨ .

(٣) تفسير ابن كثير ٢/٦ وكذا النسفي .

(٤) إتحاف الكائنات للسبكي ٢٥ .

(٥) القاموس المحيط ٤/٢٨٦ .

والعدالة والظلم . والشبهة : هو أن لايتميز أحد الشيئين من الآخر لما بينهما من التشابه عيناً كان أو معنى [١] وأصل التشابه : أن يشبه اللفظ اللفظ في الظاهر والمعنيان مختلفان ، قال تعالى في وصف ثمار الجنة

« وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا »

أي : متفق المناظر ، مختلف الطعوم [٢] . وأما اصطلاحاً : فالمتشابه من القرآن ما أشكل تفسيره لمشابهته لغيره ، إما من حيث اللفظ أو من حيث المعنى [٣] ، وقال في شرح المنار : هو اسم لما انقطع معرفة الرجاء منه . وقال ابن كثير : فالمتشابه هو الذي يقابل المحكم [٤] . أي هو النص المشتبه من حيث لفظه أو من حيث معناه ، والمحتمل للتصريف والتحريف ، والذي يحتاج سامعه الى تأويله فليس قطعي الدلالة على المعنى المراد ، وتتظاهر الأدلة العقلية على أن ظاهره غير مراد ، وقال القرطبي : المتشابهات لمن تصريف وتحريف وتأويل ابتلى الله فيهن العباد . وقال الرازي : المتشابهات هي التي قامت الدلائل القاطعة على امتناع ظواهرها ، فذاك الذي يحكم فيه بأن مراد الله تعالى به غير ظاهره . وقال أبو السعود : هن المحتملات لمعان متشابهة ، لا يمتاز بعضها من بعض في استحقاق الإرادة بها ، ولا يتضح الأمر إلا بالنظر الدقيق والتأمل الأنيق ، فالتشابه في الحقيقة وصف لتلك المعاني ، وصف به الآيات على طريق وصف الدال

(١) مفردات الراغب ٢٥٤ .
(٢) تأويل مشكل القرآن ٧٤ .
(٣) مفردات الراغب ٢٥٤ .
(٤) ابن كثير ٤/٦ .

بوصف المدلول ، وقال النسفي : المتشابهات : المحتملات ، مثال ذلك

« الرَّحْمنُ على العَرشِ استوَى »

فالاستواء يكون بمعنى الجلوس وبمعنى القدرة والاستيلاء ، ولا يجوز الأول على الله تعالى بدليل المحكم ، وهو قوله :

« لَيسَ كَمِثْلِه شيءٌ »

وعرَّف السبكي المتشابه بأنه « كل ماورد في الكتاب أو السنة الصحيحة موهما مماثلته تعالى للحوادث في شيء ما ، وقامت الدلائل القاطعة على امتناع ظاهره في حق الله تعالى . ولذا أجمع السلف والخلف على تأويله تأويلاً إجمالياً (أي بصرف اللفظ عن ظاهره المحال على الله تعالى) لقيام الأدلة القاطعة على أنه تعالى ليس كمثله شيء»[1] .

وبناء على التعريفين السابقين يتبين أن المحكم :

١ – هو النص الذي لاتعارض فيه شبهة من حيث لفظه ، ولا من حيث معناه ، فلا يحتمل التصريف والتحريف .

٢ – وهو الذي لايحتاج سامعه إلى تأويله فهو قطعي الدلالة على المعنى المراد .

٣ – وهو الذي تظاهرت الأدلة العقلية على أن ظاهره هو المراد .

والمتشابه هو :

١ – النص المشتبه من حيث لفظه ، أو من حيث معناه ، فهو يحتمل التصريف والتحريف .

---

(١) اتحاف الكائنات للسبكي ص ٢٥ .

والذي يحتاج سامعه إلى تأويله فليس قطعي الدلالة على المعنى المراد.

٣ – والذي تتظاهر الأدلة العقلية على أن ظاهره غير مراد.

● **السلف والخلف :** وقد اتفق السلف (وهم من كانوا من أهل العلم قبل نهاية القرن الثالث الهجري ، وهم الصحابة والتابعون وتابعوهم والأئمة الأربعة وكبار علماء مذاهبهم) والخلف (وهم من كان من العلماء بعد نهاية القرن الثالث الهجري) على صرف النصوص المتشابهة عن ظواهرها المستحيلة ، واعتقاد أن هذه الظواهر غير مرادة للشارع قطعاً ، كيف وهذه الظواهر باطلة بالأدلة القطعية ، وبما هو معروف عن الشارع من الآيات المحكمات [١] قال الامام السبكي رحمه الله : أجمع السلف والخلف على تأويل الآيات المتشابهة تأويلاً إجمالياً بصرف اللفظ عن ظاهره المحال على الله تعالى ، لقيام الأدلة القاطعة على أنه تعالى مخالف للحوادث [٢].

ثم بعد اتفاقهم على صرف النص عن ظاهره ذهب السلف الى تفويض معاني هذه المتشابهات الى الله تعالى وحده بعد تنزيهه عن ظواهرها المستحيلة [٣] . وطريقتهم هذه تشتمل على السلامة من تعيين معنى لانستطيع أن نجزم أنه مراد الله تعالى ، ولأن التأويل التفصيلي أمر مظنون بالاتفاق ، والقول في صفات الله تعالى بالظن غير جائز ، وربما أوّلت الآية على غير مراد الله تعالى فيكون سبباً للوقوع بالزيغ [٤] .

(١) مناهل العرفان ١٨٢/٢ .

(٢) إتحاف الكائنات للسبكي ص ٢٥ .

(٣) مناهل العرفان ١٨٣/٢ .

(٤) الشهرستاني ١٧٣/١ .

وذهب الخلف الى حمل اللفظ على معنى يسوغ في اللغة ، ويليق بالله تعالى . وقد كان إمام الحرمين يذهب هذا المذهب ثم رجع عنـه وقال : الذي نرتضيه ديناً ، وندين الله به عقدا ، اتباع سلف الأمة ، فإنهم درجوا على ترك التعرض لمعانيها(٥) . وطريقة الخلف تشتمل على مزيد ايضاح ، ولا يلجأ اليها إلا عند الضرورة بأن نخشى على عقيدة إنسان من الذهاب . وحاصل المذهبين أن الخلف والسلف قد اتفقوا على وجوب تنزيه الله تعالى عما دل عليه ظاهر اللفظ ، وتفسير المتشابه على ضوء المحكم من الآيات كقوله تعالى :

« لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ » .

وقوله :

« وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ » .

فهاتان الآيتان من المحكم الذي لاشبهة في معناه ، فاتفقوا على أن الله تعالى لايشبهه شيء من المخلوقين وصفاتهم وأحوالهم ، ثم وكل السلف تحليل معاني النصوص المتشابهة وشرحها الى الله عز وجل مع الايمان بأنه تعالى لامثيل له ، وبأنه منزه عن الجارحة والمكان . وأما الخلف فقد آثروا أن يحملوا ألفاظ الآيات المتشابهة على محمل يليق بذات الله تعالى ، مع التزام الدلالة اللغوية وعدم الخروج عليها ، أو التكلف في معالجتها . وحجتهم في التأويل : أن المطلوب صرف اللفظ عن مقام الإهمال الذي يوجب الحيرة ، وما دام في الامكان حمل كلام الشارع على معنى سليم ،

---

(٥) المناهل ٢/١٨٥ .

دون معارضة القطعي المحكم ، فالنظر قاض بوجوبه انتفاعاً بما ورد . وقد تقدم أن حمل الكلام على بعض المعاني المحتملة في النصوص القطعية لا يورث القطع بأنها مراد الله تعالى .

بعض النصوص المتشابهة :

١ - من النصوص المتشابهة قوله تعالى :

« الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى » .

فهذه الآية الكريمة يوهم ظاهرها ما يستحيل في حق الله تعالى ، وكلمة الاستواء فيها تحمل عدة معان ولا يرجح إرادة أحدها دون الآخر مرجح ، وقد تظاهرت الأدلة النقلية والعقلية على استحالة ظاهرها ، لأن فيه مشابهته سبحانه بالمخلوقات ، ويحتاج سامعها إلى تأويلها ، فالاستواء يحتمل الاعتدال ، والقصد ، والاستيلاء ، والعلو والارتفاع (الحسيين) والاقتدار ... إذن هي متشابهة من حيث معناها .

قال الامام تقي الدين أبو بكر الحصني : وأعلم أن الاستواء في اللغة على وجوه ، وأصله « افتعال من السواء أي العدل والوسط » وله وجوه في الاستعمال منها : الاعتدال ، كقول بعض بني تميم : استوى ظالم العشيرة والمظلوم ، أي اعتدلا . ومنها : إتمام الشيء ، كقوله تعالى :

« وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى » .

ومنها القصد إلى الشيء ، كقوله تعالى :

« ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ » .

ومنها : الاستيلاء كقول الشاعر :

إذ ما غزى قوماً أباح حريمهم وأضحى على ما ملكوه قد استوى

ومنها الاستقرار كقوله تعالى :

« واستوت على الجودي »

وهذه صفة المخلوق الحادث قال تعالى :

« وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون ، لتستووا على ظهوره »

وقد نزه نفسه سبحانه عن ذلك في كتابه العزيز في أكثر من موضع (١) .

وقال النسفي في تفسيره : متشابهات : محتملات ، مثال ذلك :

« الرحمن على العرش استوى »

فالاستواء يكون بمعنى الجلوس أو القدرة أو الاستيلاء . ولا يجوز الأول على الله بدليل المحكم ، وهو قوله :

« ليس كمثله شيء » (٢)

وقال السبكي . وللفظ الاستواء مجازات كثيرة لايتعين أحدها إلا بدليل لغوي ظني ، والقول بالظن في ذات الله تعالى وصفاته غير جائز بالإجماع (٣)

٢ ـ ومنها أيضاً قوله تعالى :

(١) دفع شبه من شبه ٩ .
(٢) النسفي ١٤٦/١ .
(٣) الاتحاف ٣٦ .

« وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ »

وقوله « يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ »

فلفظة فوق تحتمل عدة معان ، فهي تستعمل في المكان والزمان والجسم والعدد والمنزلة ، فهي مشتبهة من حيث معناها . قال الراغب ، فوق : يستعمل في المكان والزمان والجسم والعدد والمنزلة ، وذلك أضرب [1] .

وقال الغزالي : إذا سمع لفظ « فوق » في قوله تعالى :

(وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ)

"فليَعْلَمْ" أن الفوق اسم مشترك لمعنيين ، أحدهما : نسبة جسم الى جسم ، بأن يكون أحدهما أعلى والآخر أسفل ، أي أن الأعلى من جانب رأس الأسفل . وثانيهما : قد تطلق الفوقية ويراد بها الرتبة ، كما يقال : الخليفة فوق السلطان . والمؤمن يعتقد أن المعنى الاول غير مراد قطعاً ، وأنه على الله تعالى محال ، لانه من لوازم الاجسام ، أو لوازم أعراض الاجسام [2] .

فالآيتان إذن من النصوص المتشابهة ، لأن ظاهرهما المتبادر يستحيل في حق الله إذ أنه يوجب مماثلته سبحانه للحوادث ، كما أنه لايوجد فيها دليلٌ قاطعٌ على المعنى المراد من المعاني المحتملة لها .

قال الامام شمس الدين محمد اللبان : صفة الفوقية وقد جاء بها الكتاب والسنة كقوله تعالى :

(يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ)

---

(1) المفردات ٣٨٨ .

(2) إلجام العوام ٥ - ٧٦ .

وهو معدود من المتشابه .

٣ـ ومنها قوله تعالى : (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذو الجَلالِ والإكْرَامِ)(١)

فلفظة الوجه ظاهر معناها يفيد الجارحة ، والله تعالى منزه عن الجوارح ، لأن الوجه هو الذي تقع به المواجهة ، فهي أي لفظة ظاهرهـا فيه تشبيه الخالق بالمخلوق : قال الراغب : أصل الوجه الجارحة . فهي إذن مشتبهة من حيث لفظها .

٤ـ ومنها قوله تعالى : (هَلْ يَنْظُرونَ إلاَّ أنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ)

وقوله تعالى : (وَجَاءَ رَبُّكَ والمَلَكُ صَفًّا صَفًّا)

وقوله ﷺ : (يَنْزِلُ رَبُّنَا كُلَّ لَيْلَةٍ إلى سَمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الأخير ، ويقول : (مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ ، مَنْ يَسْألُنِي فأُعْطِيَهُ ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فأغْفِرَ لَهُ) (٢)

فهذه النصوص من المتشابه في الجسمية ، كما تفيده كلمة : الاتيان ،

(١) الرحمن ٢٧ .

(٢) رواه أصحاب الكتب الستة وغيرهم، انظر شرح القسطلاني على البخاري ٢/٣٦٧

والمجيء والنزول ، لأن كلاً من هذه الكلمات يفيد الانتقال الملازم للجسمية .
قال الراغب : الإتيان مجيء بسهولة ... ويقال المجيء بالذات ، وبالأمر ، وبالتدبير ، ويقال في الخير ، وفي الشر ، وفي الأعيان ، وفي الأعراض .

قال تعالى : (إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ ، أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ)

وقال : (أَتَى أَمْرُ اللهِ) (١)

وقال الراغب : المجيء كالاتيان ، لكن المجيء أعم ، لأن الإتيان مجيء بسهولة ...

ويقال : جاء في الأعيان والمعاني ، ولما يكون مجيئه بذاته ، وبأمره ، ولمن قصد مكاناً أو عملاً أو زماناً .

قال تعالى : (فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ)

وقال : (إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ)

وقال : (فَقَدْ جَاؤُوا ظُلْماً وَزُوراً) (٢)

وقال في معنى النزول : النزول في الأصل انحطاط من علو ... وانزال الله تعالى نعمته ونقمته على الخلق إما بإنزال الشيء نفسه ، كإنزال القرآن ، أو بإنزال أسبابه والهداية إليه ، كإنزال الحديد واللباس .

قال تعالى : « وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ »

---

(١) المفردات ٩ .

(٢) المفردات ١٠٤ .

وقال: «وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ» (١)

وقال الغزالي: النزول اسم مشترك، قد يُطلق إطلاقاً يفتقر إلى ثلاثة أجسام، جسم عال، هو مكان لساكنه، وجسم سافل، وجسم منتقل من السافل إلى العالي، ومن العالي إلى السافل، فإن كان من أسفل سمي صعوداً وعروجاً ورقياً، وإن كان من علو سمي نزولاً وهبوطاً. وقد يطلق على معنى آخر، ولا يفتقر الى تقدير انتقال وحركة في جسم، كما قال تعالى:

«وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الأَنْعَامِ»

وما رؤي البعير نازلاً من السماء بالانتقال، بل هي مخلوقة في الأرحام. وكما قال الشافعي: دخلت مصر فلم يفهموا كلامي، فنزلت ثم نزلت ثم نزلت. فلم يرد انتقال جسمه إلى أسفل ويتحقق المؤمن أنَّ النزول في حق الله تعالى ليس بالمعنى الأول قطعاً، وهو انتقال من علو الى أسفل، لأنه سبحانه ليس بجسم.

٥- ومنها قوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ» (٢)

وقوله: «إِنِّي رَأَيْتُ رَبِّي فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ».

فالصورة اسم مشترك، قد يُطلق ويُراد به الهيئة الحاصلة من أجسام مختلفة مرتبة ترتيباً مخصوصاً، مثل الأنف والعين وغيرهما، وقد يُطلق ويُراد به ما ليس بجسم ولا هيئة

---

(١) المفردات ٤٨٨.

(٢) رواه الشيخان والإمام أحمد.

في جسم ، كقولك : عرفت صورة المسألة والمعنى الاول يستحيل في حق الله تعالى .

● **موقف السلف من المتشابهات** : بعد ماسقنا بعضاً من النصوص المتشابهة آنفاً نذكر الآن موقف كل من السلف والخلف تجاهها : إن الخلف ذهبوا ـ بعد ان نزّهوا الله تعالى عن الظاهر المتبادر من هذه النصوص ـ الى التأويل التفصيلي ، فقالوا : إنّ المراد بالاستواء الاستيلاء والقهر من غير معاناة ولا تكلف ، واللغة تتسع لهذا المعنى الذي عينوه ، لأن استوى ـ لغة ـ تكون بمعنى استولى وقهر ، أو دبر وحكم ، أو اعتدل وقصد ، أو علا وارتفع . وإن المراد بالوجه الذات ، وباليد القدرة ، وبالصورة الصفة من سمع وبصر وعلم وحياة ، فهو على صفته على الجملة وإن كانت صفته تعالى قديمة وصفة الانسان حادثة وإن المراد باليمين في قوله تعالى :

(وَالسَّمٰوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ) :

القوة ، وبالفوقية : العلو المعنوي دون الحسي ، وبالمجيء : مجيء الأمر ، وبالعندية في قوله :

(وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ) :

الاحاطة والتمكن ، وبالعين في قوله :

(وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي) :

التربية والرعاية .

وقد ذهب السلف الى تفويض علم المراد من هذه النصوص إليه سبحانه .

قال الزرقاني : المذهب الأول مذهب السلف ، ويُسمى مذهب المفوضية وهو تفويض معاني هذه المتشابهات الى الله وحده بعد تنزيهه عن ظواهرها المستحيلة ، ويستدلون على مذهبهم بدليلين .

أحدهما عقلي : وهو أنّ تعيين المراد من هذه المتشابهات إنما يجري على قوانين اللغة واستعمالات العرب ، وهي لاتفيد إلا الظن مع أنّ صفات الله من العقائد التي لايكفي فيها الظن، بل لابد فيها من اليقين ، ولا سبيل اليه ، فلنتوقف ، ولنكل التعيين الى العليم الخبير .

وثانيهما نقلي : ويعتمد على عدة أمور منها أن الوقف في الآية الكريمة:

(هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ ، مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ ...)

على قوله تعالى : (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ)[1]

ولامناص لمن أراد الإحتراز عن الزيغ من أن يمتنع عن التأويل والتفسير والتصريف.

---

(١) يؤيد هذا قراءة ابن مسعود « إن تأويله إلا عند الله » وعليه لا يجوز عطف « والراسخون » على لفظ الجلالة ويؤيده قراءة أبي ابن كعب « ويقول الراسخون في العلم آمنا به » وهي كذلك قراءة ابن عباس على ما رواه الحاكم باسناد صحيح عن طاووس . ويؤيده مارواه الحاكم بإسناد صحيح عن ابن مسعود أنه صلى الله عليه وسلم قال : « كان الكتاب الأول أنزل من باب واحد ، ونزل القرآن من سبعة أبواب ، على سبعة أحرف ، زاجر وآمر ، وحلال وحرام ، ومحكم ومتشابه ، وأمثال . فأحلو حلاله وحرموا حرامه ، واعملوا بمحكمه ، وآمنوا بمتشابهه ، وقولوا آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب » .

ومنها حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال بعد أن قرأ قوله تعالى:

﴿فأمَّا الَّذينَ في قلوبِهِمْ زَيْغٌ﴾

(إذا رأيتمُ الذينَ يجادلونَ فيهِ فهمُ الذينَ عنى اللهُ فاحذروهم)[1].

وما أخرجه ابن مردويه عن أبيه عن جده:

(أنه ﷺ خرجَ على أصحابهِ ذاتَ يومٍ، وهمْ يتراجعونَ في القدرِ، فخرجَ مغضباً حتى وقفَ عليهمْ فقالَ: ياقومِ! بهذا ضلّتِ الأممُ قبلكمْ، باختلافهمْ على أنبيائهمْ وضربهمُ الكتابَ بعضهُ ببعضٍ، وإنَّ القرآنَ لمْ ينزلْ لتضربوا بعضهُ ببعضٍ ولكنْ نزلَ القرآنُ ليصدّقَ بعضهُ بعضاً، ما عرفتمْ منهُ فاعملوا بهِ، وما تشابهَ فآمنوا بهِ).

وحديث أبي مالك الأشعري، وفيه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول:

(لا أخافُ على أمتي إلاَّ ثلاثَ خلالٍ: أنْ يكثرَ لهمُ المالُ فيتحاسدوا فيقتتلوا، وأنْ يفتحَ لهمُ الكتابُ فيأخذهُ المؤمنُ يبتغي تأويلهُ، وما يعلمُ تأويلهُ إلاَّ اللهُ. والراسخونَ في العلمِ يقولونَ آمنَّا بهِ، وأنْ يزدادَ علمهمْ فيضيّعوهُ، ولا يسألُ عنهُ)[2]

---

(1) رواه البخاري والترمذي والإمام أحمد في مسنده واللفظ له.
(2) رواه الطبراني في الكبير.

ومنها ماوراه سليمان بن يسار أن رجلا يقال له « صَبِيغ » أو (صُبَيْغ) قدم المدينة فجعل يسأل عن متشابه القرآن ، فأرسل اليـه عمر رضي الله عنه وقد أعد له عراجين النخل فقال له : من أنت ؟ فقال : أنا عبد الله ابن صبيغ . فأخذ عمر عرجوناً فضربه حتى دمّى رأسه ، فتركـه حتى برأ ، ثم عاد ، ثم تركه حتى برأ ، فدعا به ليعود فقال : إن كنت تريد قتلي فاقتلني قتلا جميلا ، فأذن له إلى أرضه وكتب الى أبي موسى الأشعري : « ألا يجالسه أحد من المسلمين » [1] .

وقد ورد عن أم سلمة رضي الله عنها أنها سئلت عن قوله تعالى :

(الرَّحمٰنُ على العَرْشِ اسْتَوى)

فقالت : الكيف غير معقول والاستواء غير مجهول ، والاقرار به من الايمان ، والجحود به كفر . وورد أن عامر الشعبي وسفيان، الثوري وجماعة من المحدثين قالوا عن الحروف التي في أوائل السور هي سر الله في القرآن ، ولله في كل كتاب من كتبه سرٌ ، فهي من المتشابه الذي انفرد الله تعالى بعلمه ، ويجب ألا يتكلم فيها ، ولكن نؤمن بها ، وتمرُّ كما جاءت . وقد روي هذا القول عن أبي بكر الصديق وعن علي ابن أبي طالب رضي الله عنهما [2] .

وإليك بعض أقوال السلف رحمهم الله تعالى في المتشابه :

قال جابر بن عبد الله : المحكم ماعرف تأويله وفهم معناه وتفسيره ، والمتشابه مالم يكن لأحد الى علمه سبيل ، فهو مما استأثر الله تعالى بعلمه دون خلقه [3]

(١) أخرجه الدارمي في الاتقان ٢/٥ .
(٢) انظر القرطبي ١٥٤/١ .
(٣) القرطبي ٩/٤ .

ونقل عن عمر وعثمان وابن مسعود أنهم قالوا : الحروف المقطعة من المكتوم الذي لايفسر . قال أبو بكر الأنباري : فهذا يوضح أن حروفاً من القرآن استترت معانيها عن جميع العالم اختباراً من الله عز وجل وامتحاناً ، فمن آمن بها أثيب وسعد ، ومن كفر وشك أثم وَبَعُدَ .

وجاء عن الإمام مالك رحمه الله أنه قال حين سئل عن الاستواء : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والسؤال عن هذا بدعة ، ثم قال للسائل : وأظنك رجل سوء ، أخرجوه عني . وقد عقب العلامة ملا علي قاري على قول الامام مالك بقوله : وهذه طريقة السلف ، وهي أسلم .

وسئل الامام الاوزاعي عن تفسير قوله تعالى :

(الرَّحْمنُ على العَرْشِ اسْتَوى)

فقال : « الرحمن على العرش استوى ، كما قال ، وإني لأراك ضالاً . وقد عقب ابن الصلاح على هذا بقوله : على هـذه الطريقة مضى صدر الأمة وساداتها ، وإياها اختار الأئمة الفقهاء وقادتها ، وإليها دعـا أئمة الحديث وأعلامه ، ولا أحد من المتكلمين من أصحابنا يصـدف عنها ويأباها[1] .

وقد سئل الإمام أحمد رضي الله عنه عن الاستواء فقال : استوى كما أخبر ، لا كما يخطر للبشر .

ولما سئل الشافعي قال : آمنت بلا تشبيه وصدقت بلا تمثيـل ، واتهمت نفسي عن الإدراك ، وأمسكت عن الخوض فيه كل الإمساك .

وقال يونس بن عبد الأعلى : سمعت الشافعي يقول : "نثبت" هذه الصفات التي جاء بها القرآن ، ووردت بها السنة ، وننفي التشبيه عن الله كما نفاه عن نفسه فقال :

---

(١) انظر مناهل العرفان ٢/١٨٥ والبرهان ٨٠ - ٨٢ .

(لَيسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ) (١)

وقال الترمذي عند حديث :

(إنَّ اللهَ يَقْبلُ الصَّدَقةَ ويأخذُها بيمينِهِ) .

وقد قال غير واحد من أهل العلم في هذا الحديث وما يشبهه : « يُؤْمَنُ به ولا يُتَوَهَّمُ » ، ولا يقال . كيف ؟ . هكذا روي عن مالك بن أنس وسفيان بن عيينة ، وعبد الله بن المبارك ، أنهم قالوا في هذه الاحاديث : أمِرُّوها بلا كيف ، وهكذا قول أهل العلم من أهل السنة والجماعة ، (٢) .

ونقل الشهرستاني أن الأئمة : مالكاً والشافعي وأحمد لم يتعرضوا للتأويل واحترزوا عن التشبيه أيما احتراز ، حتى قالوا : من حرك يده عند قراءة قوله تعالى :

« لما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ » .

أو أشار بأصبعه عند رواية :

« قَلْبُ المؤمنِ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصابِعِ الرَّحْمنِ » .

وجب قطع يده وقطع أصبعه . (٣)

وقد قال الامام النووي بعد أن ذكر حديث النزول ... وفي هذا الحديث وشبهه من أحاديث الصفات وآياتها مذهبان ، أحدهما : تأويله على ما يليق بصفات الله تعالى وتنزيهه عن الانتقال وسائر صفات المحدث ، وهذا هو الأشهر عن المتكلمين .

ثانيها : الإمساك عن تأويلها مع اعتقاد تنزيه الله سبحانه عن صفات المحدث.

---

(١) رواه ابن أبي حاتم .

(٢) الترمذي ٣/٢٤ .

(٣) الملل والنحل ١٧٢/١ .

لقوله تعالى : « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ » .

وهذا مذهب السلف وجماعة من المتكلمين ، وحاصله أن يقال : لا نعلم المراد بهذا ، ولكن نؤمن به مع اعتقاد أن ظاهره غير مراد ، وله معنى يليق بالله تعالى[1] .

وقال الشيخ زين الدين قاسم الحنفي : قالت الشافعية : الاستواء على العرش صفة لله تعالى بلا كيفية ، وكذلك جميع المتشابهات ، وقال مشايخنا :

(الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى)

لا يعلم تأويله إلا الله ، وكذلك جميع المتشابهات[2] .

وحكى التكساري وغيره أن سلفنا قالوا في جملة المتشابه : نؤمن به ونفوض تأويله إلى الله تعالى مع تنزيهه عما يوجب التشبيه والحدوث .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير : أجمع السلف على ألا يزيدوا على تلاوة الآية ، فلا يقولون . مستو على العرش (لأن اسم الفاعل يدل على كون المشتق متمكناً ومستقراً ، بخلاف لفظ الفعل ، إذ دلالته على هذا المعنى ضعيفة) ولا يبدلون لفظة « على » بلفظة « فوق »[3] .

وقال العيني : ثم إن الجمهور سلكوا في هذا الباب الطريقة الواضحة السالمة ، وأجروا على ماورد مؤمنين بـه ، منزهين الله تعالى عن التشبيه والكيفية ، وهم الزهري ، والاوزاعي ، وابن المبارك ، ومكحول ، وسفيان الثوري ، ومنهم الأئمة الأربعة : مالك ، وأبو حنيفة والشافعي ، وأحمد[4] .

وقال القرطبي : إن مذهب السلف ترك التعرض لتأويلها (أي الآيات

(١) انظر شرح صحيح مسلم ٢٩/٦ .
(٢) الحاشية على المسامرة ٣٥ .
(٣) انظر أساس التقديس ٢٢٩ .
(٤) العيني ١٩٩/٧ .

المتشابهات) من قطعهم باستحالة ظواهرها ، فيقولون : أمِرُّوها كما جاءت .

وقال الإمام فخر الرازي موضحاً مذهب السلف : حاصل هذا المذهب أن هذه المتشابهات يجب القطع فيها بأن مراد الله تعالى منها شيء غير ظواهرها ، ثم يجب تفويض معناها إلى الله تعالى ، ولا يجوز الخوض في تفسيرها (١) .

وقال العلامة اللقاني : فالسلف ينزهونه سبحانه عما يوهمه ذلك الظاهر من المعنى المحال ، ويفوضون علم حقيقته على التفصيل اليه تعالى ، مع اعتقاد أن هذه النصوص من عنده سبحانه ، فظهر مما قررنا : إتفاق السلف والخلف على تنزيه الله سبحانه عن المعنى المحال ، وعلى الإيمان بأنه من عند الله .

وقال صاحب الجريدة : ... وأجاب أئمتنا ، أي سلفهم : بأن الله تعالى منزه عن صفات الحوادث مع تفويض معاني هذه النصوص إليه تعالى إيثاراً للطريق الأسلم :

« وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ » (٢)

وقال الإمام البيضاوي في تفسيره : ... وعن أصحابنا أن الاستواء على العرش صفة لله تعالى بلا كيف ، والمعنى أن الله تعالى استوى على العرش على الوجه الذي عناه منزهاً عن الاستقرار والتمكين ،

ولكي ينقض آخر حجر في بناء المشبهة والمجسمة وأصحاب الأهواء والبدع الضالة ، ولكي لا تبقى شبهة في خاطر ضعيف ، ولأجل أن تبقى شمس الحقيقة بازغة تذيب كل وسوسة شيطان ، وتحرق كل زخرف قول ، لكل هذا نورد — ختاماً — قول ابن كثير عند قوله تعالى :

(١) أساس التقديس ٢٢٣ .
(٢) الجريدة ٦٤ .

« ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ »

قال : فللناس في هـذا المقام مقالات كثيرة جـداً ، ليس هذا موضع بسطها ، وإنما نسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح : مالك والأوزاعي والثوري ، والليث بن سعد ، والشافعي ، وأحمد ، وإسحاق بن راهويه ، وغيرهم من أئمة المسلمين قديماً وحديثاً ، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ، ولا تشبيه ، ولا تعطيل ، والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله تعالى ، فان الله تعالى لايشبهه شيء من خلقه

« لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ »(١)

حقيقة مذهب السلف :

وقد جمع الإمام الغزالي في كتابه إلجام العوام نقاطاً لخص بهـا مذهب السلف فقال : وحقيقة مذهب السلف ، وهو الحق عندنا أن كل من بلغه حديث من هذه الأحاديث (أي المتشابهة) من عوام الخلق يجب عليه أمور :

أولاً — التقديس : وهو تنزيه الرب تعالى عن الجسمية وتوابعها .

ثانياً — التصديق : وهو الايمان بما قاله ﷺ ، وأن ماذكره حق ، وهو فيما قاله صادق ، فإنه حق على الوجه الذي قاله وأراده .

ثالثاً — الاعتراف بالعجز : وهو أن يقر بأن معرفة مراده ليس على قدر طاقته ، وأن ذلك ليس من شأنه وحرفته .

رابعاً — السكوت : وهو أن لايسأل عن معناه ولا يخوض فيه ،

(١) تفسير ابن كثير ٢٢٠/٢ .

ويعلم أن سؤاله عنه بدعه، وأنه في خوضه فيه مخاطر بدينه، وأنه يوشك أن يكفر لو خاض.

خامساً - الإمساك: وهو أن لايتصرف في تلك الألفاظ بالتصريف والتبديل بلغة أخرى أو الزيادة فيه، والنقصان منه، والجمع والتفريق بل لاينطق إلا بذلك اللفظ، وعلى ذلك الوجه من الإيراد والاعراب، والتصريف، والصيغة.

سادساً - الكف: وهو أن يكف باطنه عن التصرف فيه [٢].

● ورم تنزيها: بعد أن بين مذهب السلف والخلف في كل من المحكم والمتشابه قال: اقصد تنزيها له تعالى عما لايليق به، مع تفويض علم المعنى المراد من النصوص المتشابهة، وقد ظهر بما قررناه اتفاق السلف والخلف على التأويل الإجمالي (وهو نفي الظاهر الموهم من النص) ثم فوض السلف معرفة حقيقته لله تعالى، وأول الخلف بما يتفق مع التنزيه واللغة.

الحكمة من إنزال المتشابه:

وأما الحكمة من إنزال المتشابه - مع أنه كتاب أنزل للقراءة والفهم - فهي كما قال ابن قتيبة في كتابه تأويل مشكل القرآن: أن القرآن نزل بألفاظ العرب ومعانيها ومذاهبها في الإيجاز والاختصار والإطالة والتوكيد، والإشارة إلى الشيء، وإغماض بعض المعاني حتى لايظهر عليه إلا اللقن، وإظهار بعضها وضرب الأمثال لما خفي. ولو كان القرآن كله ظاهراً مكشوفاً حتى يستوي في معرفته العالم والجاهل لبطل التفاضل بين الناس،

(٢) الجام العوام ٤ - ٥.

وسقطت الهمة وماتت الخواطر[1]. على أن الإعجاز القرآني - كما قاله الدكتور سعيد رمضان البوطي حفظه الله تعالى - في جملته قائم على البحث والنظر في أمور ، منها الخفي والجلي ، ومنها الدقيق والأدق ، واللطيف والألطف ، وإلا فكيف تتبع المعاني ، وتأتي الدهشة لها ، إذا كان جميعها من الظهور بحيث تتكشف لكل ناظر مهما تفاوتت درجة العلم ورتبة الفهم . ونافلة في إظهار الحكمة من إنزال الآيات المتشابهات ماقاله ابن اللبان في كتابه « رد الآيات المتشابهات » إن الحكمة من ورود هذه الآيات هو : أنه من المعلوم أن أفعال العباد لابد فيها من توسط الجوارح ، مع أنها منسوبة اليه تعالى ، وبذلك يعلم أن لصفاته تعالى في تجلياتها مظهرين : مظهر عبادي منسوب لعباده ، وهو الصور والجوارح الجسمانية ، ومظهر حقيقي منسوب اليه ، وقد أجرى عليه اسماء المظاهر العبادية المنسوبة لعباده على سبيل التقريب لافهامهم ، والتأنيس لقلوبهم .

وقد نبه تعالى في كتابه على القسمين ، وأنه منزه عن الجوارح في الحالين : فنبه على الأول بقوله :

« قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ ».

فهذا يُفهِمُ أن كل ما يظهر على أيدي العباد فهو منسوب اليه تعالى ، ونبه على الثاني بقوله فيما أخبر عنه نبيه ﷺ :

« ... وَلاَ يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حتى

(١) تأويل مشكل القرآن ٦٢ .

أحبَّهُ ، فإذا أحْبَبْتُهُ كُنْتُ سمعَه الذي يَسْمَعُ بِهِ وبَصَرَهُ الذي يُبْصِرُ بِهِ ، ويَدَهُ التي يَبْطُش بها ... الخ »[1]

وقد حقق الله تعالى ذلك لنبيه بقوله :

« إنَّ الذينَ يُبايعونَكَ إنَّما يُبايعونَ اللهَ »

وبقوله : « ومَا رَميْتَ إذْ رَميتَ ولكنَّ اللهَ رَمى »[2]

---

(١) الحديث رواه الإمام مسلم في صحيحه .

(٢) انظر مناهل العرفان للزرقاني ١٩٣/٢ - ١٩٤ .

٤١ — ونزِّه القرآنَ أي كلامَهْ عن الحُدوث واحذرِ انتقامَهْ

● ونزه القرآن : أي اعتقد أيها المكلف تنزه القرآن — بمعنى كلامه تعالى — عن الحدوث ، خلافاً للمعتزلة القائلين به زعماً منهم أن من لوازمه الحروف والاصوات وذلك مستحيل عليه تعالى . فكلامه سبحانه — عندهم — مخلوق وأن الله تعالى خلقه في بعض الأجرام .

● ومذهب أهل السنة أن القرآن الكريم — بمعنى الكلام النفسي — ليس بمخلوق وأما القرآن — بمعنى اللفظ الذي نقرؤه — فهو مخلوق . لكنه يمتنع أن يقال : القرآن مخلوق ، ويراد بـه اللفظ الذي نقرؤه إلا في مقام التعليم . لأنه ربما أوهم أن القرآن — بمعنى الكلام النفسي — مخلوق . ولذلك امتنعت الأئمة عن القول بخلق القرآن ، وقد وقع في ذلك امتحان كبير لخلق كثير من أهل السنة . فقد خرّج البخاري رضي الله عنه فاراً وقال : اللهم اقبضني اليك غير مفتون . فمات بعد أربعة أيام . وقـد سجن عيسى بن دينار عشرين سنة . وسئل الشعبي رضي الله عنه فقال : أما التوراة والانجيـل والزبور والفرقان ، فهـذه الأربعة — وأشار إلى أصابعه — حادثة ، فكانت سبب نجاته . وقد اشتهرت عن الشافعي رضي الله عنه أيضاً ، وحبس الامام أحمد ، وضرب بالسياط حتى غشي عليـه ويذكر أن النبي ﷺ قال للإمام الشافعي في الرؤيا : بشر أحمد بالجنة على بلوى تصيبه في خلق القرآن . فأرسل الشافعي لأحمد كتاباً ببغداد يخبره فيه برؤياه ، فلما قرأه الامام أحمد بكى ، ودفع للرسول قميصه

الذي بلي جسده ، وكان عليه قميصان ، فلما دفع الشافعي غسله وادهن بمائه .

● أي كلامه : لما كان الأكثر إطلاق القرآن على اللفظ المقروء دفع توهم ذلك بتفسيره بكلامه تعالى . والمراد تنزيه القرآن ـ من حيث هو كلامه النفسي الأزلي .

● عن الحدوث : أي الوجود بعد العدم ، فليس مخلوقاً بل هو صفة ذاته العلية .

● واحذر انتقامه : أي خف الانتقام منك إن قلت بحدوثه .

٤٢ – فكلُّ نصٍّ للحدوثِ دلاّ إحملْ على اللفظِ الذي قد دلاّ

● فكل نص للحدوث دلا : هذا جواب عما تمسك به المعتزلة من النصوص الدالة على الحدوث ، سواء وردت في القرآن الكريم أو في السنة ، من مثل قوله تعالى :

« إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ »

وقوله : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ »[1]

فكل نص دل ظاهره على حدوث القرآن يحمل على اللفظ المنزل على نبينا ﷺ أي على القرآن بمعنى اللفظ ، لابمعنى الكلام الذي هو المعنى النفسي الأزلي القائم بذاته تعالى . واللفظ المنزل هو اللفظ المتعبد بتلاوته ، المتحدى بأقصر سورة منه[2] . ومعنى المتعبد بتلاوته : أن من خصائص هذا الكتاب الكريم ، أن مجرد قراءته تكسب القارئ أجراً ومثوبة من الله تعالى ، وأن ذلك يعتبر نوعاً من العبادة المشروعة ، وأن الصلاة لاتصح إلا بقراءة شيء منه .

---

(١) الحجر ٩ .

(٢) إنما وقع التحدي لتثبت المعجزة الدالة على ثبوت النبوة له صلى الله عليه وسلم . قال القرطبي رحمه الله : وسميت المعجزه معجزة لأن البشر يعجزون عن الإتيان بمثلها . وقال السيوطي مبيناً معنى إعجاز القرآن ، ومعنى أن القرآن معجز : أنه لايقدر العباد عليه ، وإنما تقع المعجزات على وجه إقامة البرهان على النبوات ، وعلى أن من ظهرت عليه ووقعت موقع الهداية إليه صادق فيما يدعيه =

= من نبوته . وقد قامت الحجة على العرب - كما قال القرطبي وغيره - إذ كانوا أرباب الفصاحة ومظنة المعارضة ، كما قامت الحجة في معجزة سيدنا عيسى عليه السلام على الأطباء ، وفي معجزة سيدنا موسى على السحرة . فان الله سبحانه إنما جعل معجزات الأنبياء بالوجه الشهير أبرع ما يكون في زمان النبي الذي أراد إظهاره ، فكان السحر في زمن موسى إلى غايته ، وكذلك الطب في عهد عيسى عليه السلام ، والفصاحة في زمن سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . وقد قال الرافعي : بلغ العرب في عهد القرآن مبلغاً من الفصاحة لم يعرف في تاريخهم من قبل ، فقامت فيهم بذلك دولة الكلام ، ولكنها بقيت بلا ملك حتى جاءهم القرآن .

وقال أيضاً : ولولا أن القرآن الكريم قد ملك سر الفصاحة ، وجاءهم منها بما لاقبل لهم برده ، ولا حيلة لهم معه ، فاستبد بإرادتهم ، وغلب على طباعهم ، وحال بينهم وبين ما نازعوا إليه من خلافه ، حتى انعقدت قلوبهم عليه ، وهم يجهدون في نقضها ، واستقاموا لدعوته ، وهم يبالغون في رفضها ، ولو كان مقدوراً للعباد أن يأتوا بمثله لكان قد اتفق إلى وقت مبعثه من هذا القبيل ما كان يمكنهم أن يعارضوه به .

قال الرافعي : إن القرآن معجز بالمعنى الذي يفهم من لفظ الإعجاز على إطلاقه ، حين ينفي الإمكان بالعجز عن غير الممكن ، فهو أمر لا تبلغ منه الفطرة الإنسانية مبلغاً وليس إلى ذلك مأتى ولا جهة ، وإنما هو ، أثر كغيره من الآثار الإلهية ، يشاركها في إعجاز الصنعة ، وهيئة الوضع ، فالقرآن معجز في تاريخه دون سائر الكتب ، ومعجز في أثره الإنساني ومعجز في حقائقه ». وقد ثبت أن المعجز الدال على صدق النبي صلى الله عليه وسلم لا يصح دخوله تحت قدرة العباد ، وإنما ينفرد الله تعالى بالقدرة عليه قال ابن عطية : ووجه إعجازه أن الله تعالى قد أحاط بكل شيء علما ، وأحاط بالكلام كله ، فعلم بإحاطته أي لفظة تصلح أن تلي الأولى ، وتبين المعنى بعد المعنى ، ومعلوم - ضرورة - أن بشراً لم يكن محيطاً قط ، فلهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة » ولو صح دخوله تحت قدرة العباد لبطلت دلالة المعجز ، ومما يدل على هذا قوله تعالى : « وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه ، قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين ، أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم » فأخبر سبحانه أن الكتاب آية من آياته وعلم من أعلامه ، =

. . . . .

=وأن ذلك يكفي في الدلالة ، ويقوم مقام معجزات كثيرة . ولو كان غير خارج عن العادة لأتوا بمثله أو عرضوا عليه من كلام فصحائهم وبلغائهم ما يعارضه . والعرب كانت تعرف ما يباين عاداتها من الكلام البليغ ، لأن ذلك طبعهم ولغتهم .

قال الرافعي : فلو أن هذا القرآن غير فصيح ، أو فصاحته غير معجزة في أساليبها التي ألقيت إليهم لما نال منهم على الدهر منالا « كيف وهذا صاحب الذوق الرفيع الذي فضحت الصبح شهرته ، عمر بن الخطاب رضي الله عنه يحدثنا عن أثر القرآن فيه فيقول « كنت للاسلام مباعداً ، وكنت صاحب خمر في الجاهلية ، أحبها وأشربها ، وكان لنا مجلس يجتمع فيه رجال قريش ، فخرجت أريد فيه جلسائي أولئك ، فلم أجد منهم أحداً ، فقلت لو أنني جئت فلاناً الخمار ، وخرجت فجئته ، فلم أجده ، قلت لو أنني جئت الكعبة فطفت بها سبعاً أو سبعين ، فجئت المسجد أريد أن أطوف بالكعبة ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلي ، وكان إذ صلى استقبل الشام وجعل الكعبة بينه وبين الشام ، واتخذ مكاناً بين الركنين ، الأسود واليماني ، فقلت حين رأيته : والله لو أنني استمعت لمحمد الليلة ، حتى أسمع ما يقول ، وقام بنفسي أني لو دنوت منه أسمع لأروعنه فجئت من قبل الحجر ، فدخلت تحت ثيابها مابيني وبينه إلا ثياب الكعبة، فلما سمعت القرآن رق له قلبي فبكيت ودخلني الإسلام». والفضل ما شهدت به الأعداء ، وهذا ، رأسهم بل عقلهم الوليد بن المغيره ، يسمع شيئاً من القرآن الكريم فكأنما رق له ، فقالت قريش : صبأ والله الوليد ولتصبون قريش كلها . فأوفد إليه أبو جهل يثير كبرياءه واعتزازه بنسبه وماله ويطلب إليه أن يقول في القرآن قولاً يعلم به قومه أنه له كاره ، قال : فماذا أقول فيه ؟ فوالله ما منكم رجل أعلم مني بالشعر ، ولا برجزه ولا بقصيده ، ولا بأشعار الجن، والله مايشبه الذي يقول شيئاً من هذا ، والله إن لقوله لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة وإنه ليحطم ماتحته ، وإنه ليعلو وما يعلى . « ولا يقل عن هذا في الدلالة على تأثير القرآن عن قول بعض الكفار فيما يحكيه سبحانه (لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون) فإن هذا ليدل على الذعر الذي كان يضطرب في نفوسهم من تأثير هذا القرآن فيهم وفي أتباعهم . قال الرافعي : فكانوا يفرون منه في كل وجهة ثم لا ينتهون إلا إليه إذ يرونه أخذ عليهم بفصاحته وإحكام أساليبه جهات أنفسهم « والعرب كانت تعرف ما يباين عادتها من الكلام البليغ لأن ذلك طبعهم ولغتهم . إنه =

= تحداهم إلى أن يأتوا بمثله وقرعهم على ترك الإتيان دهراً طويلاً، فلم يأتوا بذلك وإن حكمة هذا التحدي وذكره في القرآن إنما هي أن يشهد في كل عصر بعجز العرب عنه ، وهم البلغاء اللد ، والفصحاء اللسن، حتى لا يجيء بعد ذلك فيما يجيء من الزمن مولد أو أعجمي أو كاذب أو منافق أو ذو غفلة فيزعم أن العرب كانوا قادرين على مثله ، وأنه غير معجز بل لن تسمى معجزة إلا إذ وقع بها التحدي بدئياً ، فإن هذا التحدي ميزان ينصب بين القدرة والعجز . ولئن عجز أهل ذلك العصر عن الاتيان بمثله فن بعدهم أعجز . إنه تحد مقتصر على طلب المعارضة بمثل القرآن ثم بعشر سور مثله مفتريات ، لا يلتزمون فيها الحكمة ولا الحقيقة وليس إلا النظم والأسلوب ، وهم أهل والله ، ولن تضيق أساطيرهم وعلومهم أن تسعها عشر سور ، ثم قرن التحدي بالتأنيب والتقريع ثم استفزهم بعد ذلك جملة واحدة كما ينفخ الرماد الهامد .

وقال أبو الحسن الأشعري: « ان كل سورة قد علم كونها معجزة بعجز العرب عنها » وقال السيوطي: « الذي ذهب اليه عامة أصحابنا ـ وهو قول أبو الحسن ـ أن أقل ما يعجز عنه من القرآن السورة، قصيرة كانت أو طويلة ، أو ما كان بقدرها » وقال ابن الحصار فهذه سورة الكوثر ، ثلاث آيات قصار ، وهي أقصر سورة في القرآن وقد تضمنت الاخبار عن مغيبين ، أحدهما : الإخبار عن الكوثر وعظمه وسعته وكثرة أوانيه ، وذلك يدل على أن المصدقين به أكثر من أتباع سائر الرسل . والثاني : الاخبار عن الوليد بن المغيرة ، وقد كان عند نزول الآية ذا مال وولد كما هو مقتضى قوله تعالى : « وجعلت له مالاً ممدوداً وبنين شهوداً ، ومهدت له تمهيداً » ثم أهلك سبحانه ماله وولده وانقطع نسله .

وهو الذي خلقه الله تعـالى أولاً في اللوح المحفوظ ، ثم أنزله في صحائف إلى سماء الدنيا في محل يقال له : بيت العزة ، في ليلة القدر .

كما قال تعالى : « إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ » .

وقال : « بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ » .(١)

ثم أنزله على النبي ﷺ مفرقاً بحسب الوقائع كما قال :

« نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ » .(٢)

● الذي قد دلا : أي كل نص دل على الحدوث يحمل على القرآن بمعنى اللفظ المقروء الدال على الصفة القديمة القائمة بذاته تعالى بطريق الالتزام . لكن يمتنع أن يقال : القرآن مخلوق إلا في مقام التعليم .

---

(١) البروج ٢٢ – ٢٣

(٢) الشعراء ١٩٣ . قال ابن كثير في تفسيره : وأما القرآن فانما نزل جملة واحدة إلى بيت العزة من السماء الدنيا ، وكان ذلك في شهر رمضان في ليلة القدر منه ، هكذا روي من غير وجه عن ابن عباس . وفي رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : أنزل القرآن في النصف من شهر رمضان إلى سماء الدنيا ، فجعل في بيت العزة ثم أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في عشرين سنة لجواب كلام الناس . – ١/٣٨٠ – .

٤٣ - ويستحيلُ ضِدُّ ذي الصِّفاتِ   في حَقِّهِ كالكَونِ في الجِهاتِ

● ويستحيل : هذا شروع في ثالث الأقسام المتقدمة في قوله : فكل من كلف شرعاً وجبا عليه أن يعرف ماقد وجبا ، لله والجائز والممتنعا ،[1] ولا شك في علم استحالة هذا القسم من وجوب القسم الاول له تعالى ، وأنما تعرض له المصنف - هنا - على طريق القوم من عدم اكتفائهم بدلالة الالتزام ولا بدلالة التضمن بل مالوا إلى الدلالة المطابقية لخطر الجهل في علم العقيدة ، وضد الصفات الواجبة المار ذكرها يشمل الأمر الوجودي والعدمي ، وليس المراد بالضد الأمر الوجودي فقط .

● ضد ذي الصفات في حقه : أي يستحيل ضد الصفات الواجبة في حقه تعالى وهذه الأضداد المنفية هي :

١ - العــدم

٢ - الحدوث .

٣ - طرو العدم أي الفناء .

٤ - المماثلة للحوادث ،

فليس بجرم سواء كان جسماً مركباً ، أو جوهراً فرداً غير مركب ، وليس بعرض قائم بجرم (لأنه متصف بالحيـاة والعلم والارادة والقدرة وغيرها من صفات المعـاني ، وليس العرض كذلك إذ لاتعقل هذه الأوصاف إلا لموجود قائم بنفسه) . وليس في جهـة للجرم ، بأن يكون فوق العرش أو تحته أو عن يمينه أو عن شماله ، ونحو ذلك ، وليس له جهة بأن يكون له فوق أو تحت أو يمين أو شمال ونحو ذلك ، لأن الجهات الست حادثة باحداث الإنسان ونحوه مما يمشي على رجليه ، فإن معنى الفوق مايحاذي الرأس ، وهكـذا في سائر

(١) انظر البيت التاسع والعاشر .

الجهات ، فقبل خلق العالم لم تكن جهات ، لذا كانت الجهات اعتبارية تقبل الانتفاء . فلو كان كل حادث مستديراً كالكرة ـ مثلاً ـ لما وجدت هذه الجهات . ولو كان الله سبحانه وتعـالى في جهة لكان جوهراً أو جسماً ، وهما باطلان في حقه تعالى . ومن أراد جهة غير الجهات الست المعروفة فقد أخطأ في التعبير لعدم وروده في اللغة ـ هذا إن قصـد التنزيه ـ وإلا فيرد عليه افساده فيإن قيل فما بال الايدي ترفع إلى السماء عند الدعاء ، وهي جهـة العلو ؟ أجيب بانها قبلة الدعاء تستقبل بالايدي ، كما أن البيت قبلة الصلاة يستقبل بالصدر والوجـه ، والمعبود بالصلاة والمقصود بالدعاء منزه ـ قطعـاً ـ عن الحلول بالبيت أو بالسماء ، ولا يتصف سبحانه بالصغر أو الكبر ، بمعنى قلة الاجزاء أو كثرتها ، وهذا لاينافي أنه تعالى كبير في المرتبة والشرف .

قال سبحانه : « عَالِمُ الغَيْبِ والشَّهادةِ الكبيرُ المُتَعَال » (١)

ولا يتصف بالأغراض في الأفعال والأحكام ، إذ ليس خلقه الكون لمصلحة باعثة على ذلك الخلق ، وهذا لاينافي أنه لحكمة ، لأنـه إن انتفت الحكمة كان عبثاً ، وهو محال في حقه سبحانه . وكذلك إيجابه الصلاة ـ مثلاً ـ علينا ، فهو ليس لغرض باعث ، وإن كان لحكمـة .

٥ ـ ويستحيل عليه ألاّ يكون قائماً بنفسه ، بأن يكون صفة يقوم بمحل ، أو يحتاج الى مخصص .

٦ ـ ويستحيل : ألاّ يكون واحـداً بأن يكون مركبا ، أو يكون له مماثل في ذاته ، أو يكون في صفاته تعدد من نوع واحد ، كقدرتين ، أو إرادتين ـ مثلا ـ أو يكون لأحد صفة كصفته تعالى ، أو يكون معه في الوجود مؤثر في فعل من الأفعال .

(١) الرعد ٩ .

لهذا قال العلامة السعد : .. وقد يفسر شمول قدرته سبحانه بأن ماسوى الذات والصفات من الموجودات واقع بقدرته وإرادته ابتداء، بحيث لامؤثر سواه ، وهذا مذهب أهل الحق من المتكلمين ، وقليل ماهم [1]، وهذا كله ضد الوحدانية .

٧ - ويستحيل أن يكون عاجزاً عن ممكن ما ، وهذا ضد القدرة .

٨ - ويستحيل أن يوجد شيئاً من العالم مع الإكراه ، أو بعدمه مع الإكراه ، أو مع النسيان ، أو مع السهو ، أو مع التعليل (بأن يكون سبحانه علة تنشأ عنه الخلائق من غير اختيار ، كحركة الخاتم بحركة الأصبع) . ونحن نقول: « الخالق لحركة الاصبع ولحركة الخاتم هو الله تعالى من غير تأثير أحدهما في الآخر البتة » أو مع الطبع بأن يكون الباريء سبحانه طبيعة تنشأ عنه الخلائق من غير اختيار ، كالنار تحرق بشرط المماسة لها بطبعها عندهم ، ونحن نقول : المؤثر في الاحراق هو الله تعالى ، ولا تأثير للنار فيه أصلاً . وهذا كله ضد الإرادة .

٩ - ويستحيل في حقه الجهل وما في معناه ، كالظن والشك والوهم والنوم ، وهذا ضد العلم .

١٠ - ويستحيل في حقه الموت وهو ضد الحياة .

١١ - ويستحيل البكم النفسي ، وهو ضد الكلام .

١٢ - والعمى وهو ضد البصر .

١٣ - والصمم وهو ضد السمع .

١٤ - حتى ٢٠ ويستحيل كونه عاجزاً . أو مكرهاً . أو جاهلاً . أو ميتاً . أو أبكم . أو أعمى . أو أصم .

● كالكون في الجهات : هذا مثال من أمثلة المماثلة للحوادث ، أي مما يستحيل في حقه تعالى أن يكون في جهة من الجهات

(١) انظر شرح المقاصد ٨٥/٢ .

الست . ولقد أسرف بعض الناس في هذا العصر فخاضوا في متشابه الصفات بغير حق ، وأتوا في حديثهم عنها بما لم يأذن به الله ، ولهم فيها كلمات غامضة تحتمل التشبيه والتنزيه ، وتحتمل الكفر والإيمان ، حتى باتت هذه الكلمات نفسها من المتشابهات ، فهم قوم قد تصوروا الذات الإلهية كما صورتها لهم أخيلتهم ، ثم راحوا يستنهضون ظواهر بعض آيات من كتاب الله تعالى إلى تلك الأخيلة لتصدقها ومن الزيغ أنهم يواجهون العامة وأشباههم بما اعتقدوه ، ومن المؤسف أنهم ينسبون ما يقولون إلى سلفنا الصالح ، ويخيلون إلى الناس أنهم سلفيون ، ومن أقوالهم أن الله تعالى يشار إليه بالإشارة الحسّيّة وأن له من الجهات الست جهة الفوق ، وأنه استوى على عرشه بذاته استواء حقيقياً ، بمعنى : أنه استقر استقرارا حقيقيا غير أنهم يعودون للقول : بأنه ليس كاستقرارنا ، وليس على ما نعرف ، وليس لهم مستند في ذلك إلا التشبث بالظواهر ، ولقد تجلى مذهب السلف والخلف آنفاً ، وفيه : أن حمل متشابهات الصفات على ظواهرها مع القول بأنها باقية على حقيقتها ليس رأياً لأحد من المسلمين ، إنما هو رأي لبعض أصحاب الأديان الأخرى كاليهود والنصارى ، وأهل النحل الضالة كالمشبهة والمجسمة .

أما المسلمون فأمور العقائد — عندهم — معتمدة على الأدلة القطعية التي توافرت على أنه تعالى ليس بجسم ، ولا متحيزاً ، ولا متجزئاً ، ولا متركباً ، ولا محتاجاً لأحد لا مكان ولا زمان ، ولا حالاً فيها . ولقد جاء القرآن الكريم بهذا في محكماته إذ قال :

(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) . وقال : (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ، اللهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ) . وقال : (وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ، وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ) . وقال : (يا أَيُّها النَّاسُ أَنْتُمُ الفُقَراءُ إلى الله ، واللهُ هو الغَنِيُّ الحَمِيدُ)

وغير هذا كثير في الكتاب والسنة ، وكل ما جاء مخالفاً بظاهره لتلك القطعيات والمحكمات فهو من المتشابهات الذي لايجوز اتباعها . ثم إن هؤلاء المتشبهين بالسلف - وماهم منهم ، ولا من الخلف - متناقضون في أنفسهم ، لأنهم يثبتون تلك المتشابهات على حقائقها ولا ريب أن حقائقها تستلزم الحدوث وأعراض الحدوث ، كالجسمية والتجزؤ والحركة والإنتقال لكنهم بعد أن يثبتوا تلك المتشابهات على حقيقتها ينفون هذه اللوازم ، مع أن القول بثبوت الحقائق ونفي لوازمها تناقض لايرضاه عاقل فضلاً عن طالب علم أو عالم فقولهم في مسألة الاستواء الآنفة : إن الاستواء باق على حقيقته يفيد أنه الجلوس المعروف المستلزم الجرمية والتحيز .

وقولهم بعد ذلك : ليس هذا الاستواء على ما نعرف ، يفيد أنه ليس الجلوس المعروف المستلزم الجرمية والتحيز .

فكأنهم يقولون : إنه مستو غير مستو ، أو متحيز غير متحيز ، وجسم غير جسم ، أو الاستقرار فوق العرش ليس هو الاستقرار فوقه ، إلى غير ذلك من الاسفاف والتهافت .

نعم ، إن أرادوا بقولهم : « الاستواء حقيقة » أنه على حقيقته التي يعلمها الله تعالى ، ولا نعلمها نحن ، فقد اتفقنا ، لكن يبقى أن تعبيرهم هذا موهم ولا يجوز أن يصدر عن مؤمن خصوصاً في مقام التعليم ، وفي موقف النقاش والحجاج لأن القول : « بأن اللفظ حقيقة أو مجاز ، لا ينظر فيه إلى علم الله وما هو عنده ، ولكن ينظر فيه إلى المعنى الذي وضع له اللفظ في عرف اللغة ، والاستواء لغـــة : يدل على ما هو مستحيل على الله تعالى في ظاهره ، فلا بد - إذن - من صرفه عن هذا الظاهر . واللفظ إذا صرف عما وضع له واستعمل في غير ما وضع له خرج عن الحقيقة - لا محالة - إلى المجاز ، ما دامت ثمة قرينـــة مانعة من إرادة المعنى الأصلي .

ثم إن كلامهم هذا على هذه الصورة فيه تلبيس على العامة وفتنة لهم، فكيف يواجهونهم به ، وفي ذلك من الإضلال وتزيق الأمة مافيه ؟ الأمر الذي نهانا القرآن الكريم عنه والذي جعل عمر يفعل مايفعل بابن صُبَيغ وجعل مالكاً يقول ما يقول ، كما مرَّ في بحث سابق . ولو أنصف هؤلاء لسكتوا عن الأخبار والآيات المتشابهات ، واكتفوا بتنزيه الله تعالى عما توهمه ظاهرها من الحدوث ولوازمه ، وفوضوا الأمر في تعيين معانيها إلى الله تعالى وحده لكنهم :

١ - لم يسلكوا في النصوص المتشابهة مسلكاً واحداً ، فتراهم يجنحون الى تأويل بعضها .

كقوله تعالى : « وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ » .

وقوله تعالى : « وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ » .

وقوله تعالى : « وَهُوَ اللهُ فِي السَّمٰوَاتِ وَفِي الأَرْضِ » .

ويتركون بعضها الآخر على ظواهرها ابتغاء إثبات ما قر في أنفسهم من عقيدة الجهة لله تعالى .

٢ - ولم يأتوا إلى النصوص المتشابهة وهم "متنزّهون" ، بل هم قد اعتقدوا عقيدة وأرادوا إثباتهـــا ، فراحوا يتلمسون النصوص التي يوهم ظاهرها تأييداً لعقيدتهم .

أدلة تهافت مسلكهم :

١ - إن الأخذ بظاهر النصوص يوجب تناقضاً ، وتشبيهاً لله تعالى بالحوادث ، وإليك أمثلة ذلك :

في النصوص الموهمـــة بالجارحة ، قال العلامة فخر الدين الرازي في كتابه أساس التقديس : وأعلم أن نصوص القرآن لايمكن إجراؤها على ظاهرها لوجوه :

الأول ـ أن ظاهر قوله تعالى : (وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي)

يقتضي أن يكون موسى عليه السلام مستقراً على تلك العين ملتصقاً بها مستعلياً عليها ، وذلك لايقوله عاقل .

والثاني ـ أن قوله تعالى : (وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا)

يقتضي أن تكون آلة تلك الصنعة الأعين .

والثالث ـ أن إثبات الأعين في الوجه الواحد قبيح فثبت أنه لابد من المصير إلى التأويل (أي بصرف النص عن ظاهره المحال في حقه تعالى) .

ويقال لهم إذا كنتم تعملون النصوص على ظواهرها حقيقة فأخبرونا : أله عين أم أعين ؟!. كذلك ماتقولون في :

قوله تعالى : « يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ » بإفراد اليد

وقوله تعالى : « لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ » بتثنيتها

وقوله تعالى : « وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ » بجمعها

أله يد أم يدان أم له أيد ؟! .

ويقال لهم أيضاً : إذا كنتم تأخذون بظواهر النصوص على حقيقتها ، فكيف توفقون بين هذه النصوص .

في النصوص الموهمة للجهة :

آ - ورد من الآيات التي يوهم ظاهرها أنه سبحانه وتعالى في السماء

قوله تعالى : « الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ » .

وقوله : « بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ » .

وقوله : « أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ » .

وقوله : « وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ » .

ب - ومن الآيات التي يوهم ظاهرها أنه سبحانه وتعالى في الأرض

قوله تعالى : « وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ » .

وقوله : « وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ » .

وقوله : « وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ » .

وقوله : « وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ » .

وقوله : « وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ » .

وقوله : « فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ » .

وقوله : « وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ » .

أفتقولون : إنه في السماء حقيقة أم في الأرض حقيقة أم فيهما معاً حقيقة ؟ وإذا كان في الأرض وحدها حقيقة فكيف تكون له جهة الفوق ؟ وإذا كان فيهما حقيقة فلماذا يقال : له جهة الفوق ، ولا يقال له جهة التحت ؟!

ثم ألا تعلمون أن الجهات أمور نسبية ، فما هو فوق بالنسبة الينا يكون تحتاً بالنسبة إلى غيرنا ؟ فأين تذهبون ؟!. وإن راموا تأويل القسم الثاني من الآيات حتى يوافق اعتقادهم الجهة لله سبحانه فيسألون : كيف تسوغون تأويل بعض النصوص مع ترك النصوص الاخرى على ظاهرها ، مع أنها كلها متشابهة ، ومستحيلة الظاهر في حقه سبحانه ؟! أضف إلى ذلك أنه يلزمهم التأويل في كل النصوص ، إن أولوا بعضها ، والعجيب أنهم قد أتوا إلى النصوص التي تهدم معتقدهم فأولوها بما يتناسب مع أهوائهم ، والى النصوص التي يوهم ظاهرها تأييداً لما انطووا عليه من اعتقاد الجهة لله سبحانه فتشبثوا بها ، ولم ينظروا الى النصوص المتشابهة كلها نظرة واحدة ، كما عليه السلف والخلف رضي الله عنهم بحيث يعتقدون استحالة ظواهرها على الله تعالى ، ويفوضون المعاني المرادة منها إلى الله تعالى كما عليه السلف ، أو يؤولونها كما هي طريقة الخلف . والحق أنه ليس أحد من السلف فعل مافعلوه ، ولا أحد من الخلف ذهب اليه . كذلك وردت بعض الأحاديث الشريفة المتشابهة التي منها مايوهم ظاهره بأنه سبحانه في السماء ومنها ما يوهم ظاهره أنه تعالى في الأرض ، فيقال فيها كما سبق وبيناه في الآيات ، واليك بعضها :

آ ـ قال رسول الله ﷺ : « يَنزِلُ رَبُّنا في ثُلُثِ اللَّيْلِ الأخيرِ ... الحديث » .

وقد سأل ﷺ جارية مرة فقال لها :

« أينَ اللهُ ؟ فَأشارَتْ بأُصبُعِها السَّبابَةِ إلى السَّماءِ » .

ب - وقال ﷺ: «أقربُ ما يكونُ العبدُ من ربهِ وهوَ ساجدٌ، فأكثروا الدُّعاءَ». (١)

وقال أيضاً: «إنَّ اللهَ عز وجل قِبَلَ وَجهِ أحدِكُمْ إذا صَلّى فلا يَبصُقْ بَيْنَ يَدَيْهِ». (٢)

ويقال لمعتقدي الجهة: كيف تأخذون بظاهر حديث النزول وجلي أن الليل مختلف في البلاد لاختلاف المشارق والمغارب، وإذا كان ينزل لأهل كل أفق نزولاً حقيقياً في ثلث ليلهم الأخير، فمتى يستوي على عرشه حقيقة - كما يزعمون - لأن الأرض لاتخلو من ليـل في وقت من الأوقات، وهذا لايماري فيه إلا جهول، كذلك لو كان جل جلاله كما زعموا في جهة، فكيف يكون فيها ويكون بين المصلي وقبلته؟ وكم من المصلين في الزمن الواحد في أقطار الأرض مختلفين متباينين؟.

● مناقضة: لربما جادل معتقدوا الجهة بالباطل فقالوا: إن قوله ﷺ «إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قِبَلَ وَجهِ أحدِكُمْ...» من الأحاديث المتشابهـة. ويجاب: بأن حـديث الجارية كذلك من الأحاديث المتشابهة.

ولئن قالوا: هو نص يجب تأويله. يجاب: بأنه لماذا يجب تأويله؟ ألأنه يعارض التنزيه؟ أم لأنه لايعارض التشبيه؟ فان وجب لأنه يوهم في ظاهره الحلول والاتحاد، وهما تشبيه له سبحانه بمخلوقاته، لزم أيضاً

---

(١) رواه الإمام مسلم.

(٢) رواه البخاري وأبو داود.

وجوب تأويل حديث الجارية لأنه يوهم بظاهره أنه سبحانه وتعالى في جهة ، ولا يكون في جهة إلا الحادث .

ولئن قالوا : حديث الجارية صحيح ، وتؤيده النصوص القطعية .

أجيبوا : بأن هذا الحديث صحيح أيضاً وتؤيده النصوص القطعية ، فقد قال تعالى : « وَهُوَ اللهُ فِي السَّمٰوٰتِ وَالأَرْضِ » وقال : « فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ » . وغيرهما كثير .

ولئن قالوا : هذا حديث ظني الثبوت . أجيبوا بأن حديث الجارية كذلك .

أضف الى ذلك أنه قد ورد في بعض الروايات أن هذه الجارية كانت خرساء ، فأشارت الى السماء .

(فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رجلاً أتى النبي ﷺ بجارية سوداء أعجمية فقال : يا رسول الله ، إنَّ عليَّ رقبةً مؤمنةً . فقال لها رسولُ الله ﷺ : أينَ اللهُ ؟ فأشارتْ برأسِها إلى السَّماءِ ، أو بأصبعِها السَّبابة ، فقالَ لها رسولُ الله : مَنْ أنا ؟ فأشارتْ بأصبعِها إلى رسولِ الله وإلى السماءِ أي أنتَ رسولُ الله قال : أعتقها) . (١)

كذلك سؤال « أين الله » ، لم يكن القاعدة المطردة لمعرفة إيمان من دخل في الاسلام ، بدليل أنه عليه الصلاة والسلام كان يسأل : أتشهدين

(١) رواه أحمد والبزار والطبراني في الأوسط إلا أنه قال لها : من ربك ؟ فأشارت برأسها الى السماء ، ورجاله موثوقون . انظر الموطأ ٢/١٤٠ .

أن لا إله إلا الله ، أو : من ربك ؟ فقد ورد عن عبيد الله بن عبد الله ابن عتبة بن مسعود :

[أنَّ رجلاً من الأنصار جاء إلى رسول الله ﷺ بجارية له سوداء فقال : يا رسول الله ، إنَّ عليَّ رقبة مؤمنة فإن كنت تراها مؤمنة أعتقها . فقال لها رسول الله : أتشهدين أن لا إله إلا الله ؟ قالت نعم ، ثم قال : تشهدين أن محمداً رسول الله ؟ قالت نعم . فقال رسول الله ﷺ اعتقها[(١)]] .

وعن الشريد بن سويد الثقفي قال : قلت يا رسول الله : إنَّ أمي أوصت أن أعتق عنها رقبة مؤمنة ، وعندي جارية سوداء نوبية ، أفأعتقها ؟ قال : أدعها . فدعوتها فجاءت ، فقال : من ربك ؟ قالت : الله . قال : فمن أنا ؟ قالت : رسول الله . قال أعتقها فإنها مؤمنة[(٢)] .

وقد قال الإمام النووي في شرحه حديث الجارية : ... ، ولقد كان المراد امتحانها هل هي موحدة تقر بأن الخالق المدبر الفعال هو الله وحده ، وهو الذي إذا دعاه الداعي استقبل السماء كما إذا صلى المصلي استقبل الكعبة ، وليس ذلك لأنه المحصر في السماء ، كما أنه ليس منحصراً في جهة الكعبة ، بل ذلك لأن السماء قبلة الداعين ، كما أن الكعبة قبلة المصلين ،

(١) الموطأ ٢/١٤٠ .

(٢) في تيسير الوصول ١/١٧٥ أخرجه النسائي وأبو داوود .

أو هي من عبدة الأوثان التي بين أيديهم . فلما قالت : في السماء علم أنها موحدة وليست عابدة للأوثان »[1] .

وقال العلامة الكوثري عند قوله ﷺ للجارية « أين الله » ... على أن « أين » تكون للسؤال عن المكان ، وللسؤال عن المكانة ، وقال أبو بكر العربي : المراد بالسؤال بـ « أين » عنه تعالى : « المكانة » ، فإن المكان يستحيل عليه »[2] .

والخلاصة : أن مَنْ لم يصرف لفظ المتشابه - آية كان أو حديثاً - عن ظاهره الموهم للتشبيه أو المحال ، فقد ضــل ، ومن فسره تفسيراً بعيداً عن الحجة والبرهان قائماً على الزيغ والبهتان فقد ضل ، كالباطنية . وكل هؤلاء يقال فيهم : إنهم يتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة ، أما من يصرف المتشابه عن ظاهره بالحجة القاطعة لاطلباً للفتنة ولكن منعاً لها ، وتثبيتاً للناس على المعروف من دينهم ، ورداً لهم الى محكمات الكتاب القائمة ، فاولئك هم هادون مهديون حقاً ، وعلى ذلك درج سلف الأمة وخلفها ، وأئمتها وعلماؤها ، وهاؤم بعض النصوص في نفي الجهة عنه سبحانه ، قال ابن اللبان : ... لما ادعى فرعون الربوبية واعتقد الجهة لله تعالى قال :

« يَاهَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ ، أَسْبَابَ السَّمٰوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ » .

---

(1) حديث الجارية ٥/٢٤ .

(2) السيف الصقيل ص ٩٤ - ٩٥ .

فرد الله تعالى عليه ، وسخف رأيه بقوله:

« وكذلكَ زُيِّنَ لِفرعَونَ سوءُ عَمَلِهِ ، وصُدَّ عنِ السَّبيلِ » .

أي عدل عن سبيل القرب والدنو من إله مومى فإنه سبحانه منزه عن علو المكان . وقول موسى ﷺ :

« وَعَجِلتُ إِلَيكَ رَبِّ لِتَرضى » .

مع أنه لم يبن له صرحاً ، ولا احتاج في الدنو والقرب إلى صعود السماء .
وكذلك قول ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، حيث جاء ربه بقلب سليم ، فكان مجيئه اليه سبحانه ، ووصوله إنما بسلامة القلب ، لا بالتسور والصعود .

وقال الإمام الفخر الرازي : المشبهة احتجوا بقوله تعالى :

« بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيهِ » .

في إثبات الجهة . والجواب هو أن المراد الرفع إلى موضع لايجري فيه حكم غير الله تعالى كقوله تعالى :

« وَمَن يَخرُجْ مِنْ بَيتِهِ مُهاجِراً إلى اللهِ وَرَسُولِهِ » .

وقد كانت الهجرة في ذاك الوقت إلى المدينة المنورة . وقد قال إبراهيم عليه السلام :

« إِنِّي ذَاهِبٌ إِلى رَبِّي سَيَهدِينِ » .(١)

قال العلامة النسفي : معنى قوله تعالى

---

(١) الرازي ١١/١٠٢ .

« بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ ».

أي إلى حيث لاحكم فيه لغير الله تعالى [1].

قال ابن حجر قال الكرماني :

قوله تعالى: «أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ».

ظاهره غير مراد ، إذ أن الله تعالى منزه عن الحلول في المكان ، لكن لما كانت جهة العلو أشرف من غيرها أضافها إليه إشارة إلى علو الذات والصفات [1].

وقال البيهقي: ... وليس معنى قول المسلمين و إن الله استوى على العرش ، أنه مماس له ، أو متمكن عليه ، أو متحيز في جهة من جهاته ، لكنه بائن من خلقه [2] . وقد أوضح معنى البينونه هذه فقال: وأنه فوق الأشياء بائن منها ، بمعنى أنها لا تحله ولا يحلها ، ولا يمسها ، ولا يشبهها ، وليست البينونة بالعزلة، تعالى الله ربنا عن الحلول والمماسة علواً كبيراً [3].

وقال الإمام الرازي : ١ - لو وجب اختصاصه تعالى بالجهة لكان محتاجاً إليها ، وذلك يقدح في كونه غنياً على الإطلاق .

٢ - قوله تعالى : (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ) .

(١) النسفي ١/٢٦٣ .

(٢) فتح الباري الحديث عن السيدة زينب .

(٣ - ٤) الأسماء والصفات ٣٩٦ - ٤١١ .

وقد سئل رسول الله : أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه ؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية . ولو كان سبحانه في السماء أو في العرش لما صح القول بأنه تعالى قريب من عباده .

٣ ـ قوله تعالى : (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ) .

ظاهره يقتضي فناء العرش ، وفناء جميع الأحياز والجهات ، وحينئذ يبقى الحق سبحانه وتعالى منزهاً عن الحيز والجهة ، وورد في صحيح البخاري أنه ﷺ قال :

(كانَ اللّهُ ولَمْ يَكُنْ شيئاً غيرُهُ) .

وإذا ثبت ذلك امتنع أن يكون الآن في جهة ، وإلا لزم وقوع التغير في الذات

٤ ـ ولو كان سبحانه متحيزاً لكان متناهياً ، وكل متناه ممكن ، وكل ممكن حادث ، فلو كان متحيزاً لكان محدثاً ، وهو باطل ، وقال العلامة الشيخ أحمد فهمي أبو سنة عند كلامه حول معرفة أسباب النزول : إن معرفة عادات العرب في أقوالها وأفعالها عند نزول القرآن ضروري ، لأن كثيراً من الألفاظ ، إذا أريد تفسيرها بمجرد اللغة من غير رجوع إلى هذه العادات وقع المفسر في الغلط والجهل . . . ومن ذلك قوله تعالى :

(يَخافُونَ رَبَّهُمْ) . وقوله : (أَأَمِنْتُم مَنْ في السَّماءِ) .

وأشباه ذلك إنما جرى على معتادهم من اتخاذ الآلهة في الأرض ، وإن كانوا مقرين بالإلهية الواحد الحق ، فجاءت الآيات بتعيين الفوق وتخصيصه تنبيهاً على نفي ما ادعوه في الأرض من الأوثان ، فلا يكون فيه دليل على إثبات الجهة لله سبحانه ، ومن ذلك قوله :

﴿وأنَّهُ هُوَ ربُّ الشِّعْرَى﴾

فعين هذا الكوكب مع أنه رب الكواكب كلها لأن خزاعة من العرب قد عبدته [1] .

وقال القرطبي في تفسيره . . . . ثم إن إضافة العرش إلى الله تعالى كإضافة البيت ، وليس البيت للسكنى وكذلك العرش [2] .

وقال الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى : من قال لا أعرف الله في السماء هو أم في الأرض فقد كفر ، لأن هذا يوهم أن للحق سبحانه مكاناً ، ومن توهم أن للحق مكاناً فهو مشبه .

(١) انظر أدلة الأحكام والاجتهاد لأبي سنة ١٨-١٩ .

(٢) تفسير القرطبي جـ ٢٦٧/١٨ .

● لما فرغ من الكلام على الواجب والمستحيل شرع يتكلم على الجائز الذي هو ثاني الأقسام الثلاثة في الاجمال وإنما أخره في التفصيل لما مر آنفاً من طول الكلام عليه ..

وجائز في حقه ... : أي جائز في حقه تعالى إيجاد الممكن واعدامه ، أو بمعنى آخر : جائز في حقه فعل كل ممكن وتركه فلا يجب عليه شيء من الممكنات كما لا يستحيل ، خلافاً للمعتزلة في قولهم بوجوب بعض الممكنات عليه تعالى ، مثال ذلك : قولهم بوجوب الصلاح والأصلح عليه تعالى ، أما أهل السنة فعندهم الصلاح والأصلح جائز في حقه تعالى كما هو مبين في هذا الكتاب[1] .

---

(1) قال سيدي الشيخ محمد الهاشمي في كتابه « مفتاح الجنة » ص ٢٥٣ : والجائز في حقه تعالى فعل كل ممكن او تركه ، وأفراده كثيرة فمنها الخلق والرزق ، والإماتة والاحياء ، والصحة ، والاسقام ، وبعثة الرسل عليهم الصلاة والسلام ، والثواب والعقاب ، والقضاء والقدر ، وفعل الصلاح والأصلح ورؤية المؤمنين الى الله تعالى بلا كيف ولا انحصار ، وإيجاد تأثيره تعالى عند الاسباب العادية لابها ولا بقوة أودعها الله فيها ، ولا هي سبب عقلي بحيث لايصح فيها التخلف ، وإنما المولى تبارك وتعالى اجرى العادة أن يخلق عند تلك الاسباب لابها او بها عادة مع صحةالتخلف كإيجاد تأثيره تعالى عند قدرة العبد الحادثة وإيجاد الاحتراق عند النار، والضوء عند الشمس والنور عند القمر والمصباح والشبع عند الاكل والجوع عند عدم الاكل والري عند شرب الماء والستر والوقاية عند لبس الثوب والقطع عند السكين والشفاء عند التداوي .

وخصت خمسة منها بالذكر للرد صريحاً على من يزعم عدم دخولها في القسم الجائز وإن كانت تؤخذ منه ، لان اربابهذا الفن لايكتفون بخاص عن عام ولا بدلالة الإلتزام لخطر الجهل فيه وهي : جواز الفعل والترك . وجواز ايجاده الحكمة في افعاله تعالى ، واحكامه . وجواز إيجاده وتأثيره تعالى عند مقارنة الأسباب العادية مع صحة التخلف ، وجواز إيجاده تأثيره عندالطبيعةوالعلة من الاسباب العاديةمعصحة التخلف أيضاً وجواز إحداثه تعالى هذا العالم بأسره فإنما احدثه وأظهره بمحض إرادته تعالى واختياره .

★ ★ ★

٤٥ ـ فَخَالِقٌ لِعَبْدِهِ وَمَا عَمِلْ مُوَفِّقٌ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَصِلْ

فخالق لعبده وما عمل : هذا تفريع على ما علم مما تقدم من انفراده تعالى بالإيجاد فإذا ثبت وجوب انفراده تعالى بالإيجاد فهو سبحانه خالق لعبده وما عمل . وهذا يسمى عند العارفين « بوحدة الأفعال » ، ومنها يعلم بطلان دعوى أن شيئاً يؤثر بطبعه أو بقوة فيه ، فمن اعتقد أن الأسباب العادية كالنار والسكين والأكل والشرب يؤثر في مسبباتها كالحرق والقطع والشبع والري بطبعها وذاتها فهو كافر بالإجماع ، أو بقوة خلقها الله فيها ، ففي كفره قولان والأصح أنه ليس بكافر بل هو فاسق مبتدع

ومن اعتقد أن المؤثر هو الله تعالى ، لكن جعل بين الأسباب ومسبباتها تلازماً عقلياً بحيث لا يصح تخلفها فهو جاهل ، وربما جره ذلك إلى الكفر ، فإنه قد ينكر معجزات الأنبياء لكونها على خلاف العادة . ومن اعتقد أن المؤثر هو الله تعالى ، ولكن جعل بين الأسباب والمسببات تلازماً عادياً بحيث يصح تخلفها فهو المؤمن الناجي إن شاء الله تعالى ، فالفرق في ذلك أربعة . والسلامة أن يعتقد أنه سبحانه خالق لعبده وعمله . والمراد بالعبد هنا ـ كل مخلوق يصدر عنه الفعل ، عاقلاً كان أو غيره ، خلافاً لبعضهم حيث قصره على المكلف بدعوى أن بعض الأدلة التي ذكرها العلماء في هذه المسألة لا تجري في غير فعل المكلف .

وإنما ذكر المصنف العبد ، مع أنه متفق على خالق الله إياه ، توصلاً لما بعده ، واقتداء بقوله تعالى :

(وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ)[1] .

والتقدير في الآية : والله خلقكم وعملكم . أو : والله خلقكم والذي تعملونه .

وذلك رد على المعتزلة في قولهم : بأن العبد يخلق أفعال نفسه الإختيارية.

وهذه المسألة ذات فرعين أحدهما : بيان هل الموجد للفعل المنسوب إلى العبد هو قدرة الله تعالى أم قدرة العبد ؟ . وثانيهما : بيان هل للعبد فيه كسب أولا ؟.

وقد ذكر المصنف الفرع الأول – هنا – وسيأتي قريباً كلامه عن الفرع الثاني بقوله : « وعندنا العبد كسب » ، وخلاصة القول في هذه المسألة : أن أهل السنة ذهبوا إلى أن أفعال العباد الإختيارية واقعة بقدرة الله تعالى وحدها ، وليس لقدرة العباد تأثير فيها ، بل الله تعالى أجرى عادته بأن يوجد في العبد قدرة واختياراً ، فإذا لم يكن ثمة مانع أوجد فيه فعله المذكور مقارناً لهذه القدرة وهذا الإختيار اللذين أوجدهما الله تعالى فيه ، فيكون فعل العبد – على هذا – مخلوقاً لله تعالى إبداعاً وإحداثاً ومكسوباً للعبد ، والمراد بكسبه : مقارنة وجود الفعل بقدرته واختياره ، من غير أن يكون ثمة تأثير منه أو مدخل في وجوده سوى كونه محلا لظهور الفعل . هذا مذهب الشيخ أبي الحسن الأشعري ، وسيأتي إيضاح الكسب في الكلام على الفرع الثاني من فرعي المسألة وقال أكثر المعتزلة : أفعال العباد واقعة بقدرتهم وحدهم على سبيل الإستقلال بـلا إيجاب ، بل بالإختيار ، وذهبت طائفة من المتكلمين إلى أنها واقعة بالقدرتين معاً ، وهذه الطائفة تختلف فيما بينها . فمنهم من يقول : أفعال العباد

---

(1) الصافات ٩٦ .

واقعة بمجموع القدرتين . قدرة الله تعالى وقدرة العبد ، على أن تتعلق القدرتان جميعاً بالفعل نفسه ، وهذا مذهب الأستاذ من أهل السنة ، والنجار من المعتزلة ، وعندهما لا يمتنع اجتماع مؤثرين على أثر واحد ، ومنهم من يقول : أفعال العباد واقعة بالقدرتين جميعاً ، على أن تتعلق قدرة الله تعالى بأصل الفعل وتتعلق قدرة العبد بوصفه ، من كونه طاعة أو معصية إلى غير ذلك من الأوصاف التي لا توصف بها أفعاله سبحانه وتعالى . كما في لطم اليتيم تأديباً أو إيذاء ، فإن نفس اللطمة واقعة بقدرة الله تعالى وتأثيره ، وأما كونها تعد طاعة إن قصد تأديبه ، ومعصية إن قصد إيذاءه فواقع بقدرة العبد وتأثيره . وأما ما نقل عن الأستاذ والقــاضي وإمام الحرمين من القول بوقوع التأثير من القدرتين لم يصح عنهم وهم منزهون عن مخالفة مشهور أهل السنة ، وهو أن التأثير لله سبحانه وتعالى وحده ، إذ هو المتفرد بالإيجاد والامداد . وقد استدل أهل السنة على ما ذهبوا إليه بالنصوص وبوجوه من المعقول ، أما النصوص فقد قال سبحانه وتعالى في معرض التمدح والتفرد بالألوهية واستحقاق العبادة :

« لا إِلهَ إلا هُوَ خالِقُ كُلِّ شيءٍ فاعبُدُوهُ »[1] .

فيحمل قوله على العموم ، ويدخل فيه أعمال العباد . وقال أيضاً :

« أمْ جعَلُوا لله شُركاءَ خلَقُوا كخلقِهِ فتشابَهَ الخَلْقُ عليهِم ، قلِ اللهُ خالِقُ كُلِّ شيءٍ وهُوَ الواحِدُ القهّارُ » .

(١) الشعراء ٧٨ .

وقال: «ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدره تقديراً».

وقوله تعالى: «وخلق كل شيء».

إزالة لما يتوهم من أن العبيد – وإن لم يكونوا شركاء له في الملك على الإطلاق – يخلقون بعض الأشياء.

قال تعالى: «إنا كل شيء خلقناه بقدر».

أي خلقنا كل موجود من الممكنات بتقدير وقصد وقال:

«هو الله الخالق».

وهذا يفيد حصر الخالقية فيه سبحانه.

قال تعالى: «وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور ألا يعلم من خلق».

وفيه احتجاج على علمه – سبحانه – بما في القلوب من الدواعي والصوارف والعقائد والخواطر لكونه خالقاً لها، على طريق ثبوت العلم بثبوت الخالق، وفي أسلوب الآية إشارة إلى أن كلا من ثبوت الخلق، والعلم به، واضح لا ينبغي أن يشك فيه.

قال تعالى: «هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض».

وقال: «والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً».

وهذا يتناول السيد المسيح عليه الصلاة والسلام والملائكة وغيرهم من الأحياء الذين يدعونهم الكفار، فيجب أن لا يخلقوا شيئاً أصلاً.

قال تعالى: (هذا خَلْقُ اللهِ فأرُوني مَاذَا خَلَقَ الذينَ مِنْ دُونِهِ).

وهذا يدل على أن من سوى الله تعالى لا يخلق شيئاً وإلا لكان للكفار أن يقولوا: نحن خلقنا كثيراً من الحركات والأوضاع والهيئات المحسوسة ـ إن أريد بالرؤية الإبصار ـ وإن أريد بها الإعلام فجميع الأفعال الظاهرة والباطنة.

قال تعالى: (ألا لَهُ الخَلْقُ والأَمْرُ).

وقال: (وَمَا خَلَقْنَا السماءَ والأرضَ وما بينَهُما باطلاً).

وقال: (رَبُّنا الّذي أعطَى كُلَّ شيءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى).

وقال تعالى حكاية: (ربَّنا واجعلْنا مُسْلِمَيْنِ لكَ).

فجعل بمعنى صير، والتصيير تحصيل صفة مكان صفة، فإذا وقع مفعوله الثاني من أفعال العباد، أفاد أنه بجعل الله وبخلقه.

قال تعالى: (فَعّالٌ لِما يُرِيدُ).

وهذه الآية تدل على أن الله تعالى يفعل كل ما تتعلق به إرادته، وهي متعلقة بالإيمان وسائر الطاعات، فتدل على أنه فاعلها. وقال:

(إنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يقولوا هذِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ، وإنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يقولوا: هذه مِنْ عِنْدِكَ، قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ).

هذه الآية تدل على أن جميع الحسنات والسيئات بخلق الله تعالى ومشيئته ، لأن منشأ الإحتياج (أي الإمكان والحدوث) مشـترك بينها ، بحيث لا ينبغي أن يخفى على العاقل ، فما لهم لا يفهمون ؟ ! وعليه يكون قوله تعالى بعد ذلك :

(وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ) .

وارداً على سبيل الإنكار فكيف تكون هذه التفرقة ، أو يحمل على مجرد السببية دون الإيجاد توفيقاً بين الكلامين .

قال تعالى : « وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ » .

وقال : « وإنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إذا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » .

وأي ممكن يخرج عن إرادته سبحانه حتى يقال فيه : إنه ليس بتكوين الله تعالى ؟ .

قال تعالى : « وأنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وأَبْكَى » .

وقال : « هو الذي يُسَيِّرُكُمْ في البرِّ والبحرِ » .

وقال : « أَوَلَمْ يَرَوْا إلى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ في جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إلا اللَّهُ » .

فهو سبحانه الموجد لوقوف الطير في الهواء مع أنه فعل اختيـاري من الحيوان كما يبدو . ونصوص كثيرة أخرى كلها تصرح بتفرد الله تبارك وتعالى في الإيجاد والإمداد ، وإنما للعباد الكسب فقط وليس لهم الخلق ، إذ هو إبداع واختراع . وثمة أحاديث شريفة نقلها الثقات مثل البخاري

ومسلم وغيرهما تؤكد خالقية الله تعالى لكل شيء ، منها ما روي عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال :

« كلُّ شيءٍ بِقَدَرٍ ، حتى العجزُ والكَيْسُ » .

وما رواه حذيفة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

« إنَّ اللهَ تعالى يَصْنَعُ كُلَّ صانعٍ وصَنْعَتَهُ » .

ومنها قوله ﷺ :

« ما مِنْ قلبٍ إلاَّ وَهُوَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصابعِ الرَّحْمٰنِ إنْ شاءَ أَنْ يُقيمَهُ أقامَهُ ، وإنْ شاءَ أنْ يُزيغَهُ أزاغَهُ » .

وما رواه جابر من أنه ﷺ كان كثيراً ما يقول :

« يا مُقلِّبَ القلوبِ ثبِّتْ قلبي على دينِكَ . فقيلَ له يا رَسُولَ الله : أتخافُ علينا وقدْ آمنّا بكَ وبما حدَّثتَ بهِ ؟ ! ، فقالَ : « إنَّ القلوبَ بينَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أصابعِ الرَّحمنِ يُقلِّبُها هكذا ، وأشارَ إلى السبَّابةِ والوسطى يحرِّكُهما » .

وإنما نسبت الأفعال والأعمال والصنع والخير للعباد في بعض النصوص لكونهم أسباباً عادية فيها ، فهي من باب إسناد الفعل لما هو سببه كما في قولك « بنى الأمير المدينة » ، وقد قال تعالى :

« وما رَمَيْتَ إذْ رَمَيْتَ ولكنَّ اللهَ رَمى » .

فأخبر سبحانه أنه رمى ، وأن نبيه ﷺ قد رمى ، فباعتبار أنه سبحانه خالق الحركة ، بعض الرمية ، خالق المسيرها ، نفاها عن نبيه ﷺ ، وباعتبار أنه ﷺ محل ظهورها أثبتها له . وعلى هذا الغرار قوله تعالى :

« فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ » .

وقد قال تعالى حاكياً عن سيدنا المسيح عيسى بن مريم :

« أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ » .

وقال مخبراً عن نفسه أنه هو الذي يحيي ويميت فالإحياء من حيث خلقه منسوب له تعالى ، ومن حيث محل ظهوره منسوب للسيد المسيح عليه السلام . وقد قال تعالى :

« أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ » .

فنسبته له تعالى لأنه مخترعه وخالقه ومنميه ، ونسبته إلينا لأننا نحرثنا في زرعه فظهرت الحركة المخلوقة فينا ، فهذه كلها أفعال خلقها الله تعالى وأظهرها في عباده ؛ وقس على هذا كل النصوص الواردة التي نسبت فيها الأفعال للجمادات والأعراض . كتحرك الفلك ، ونزول المطر ، وسيلان الوادي ، وإحراق النار ، وتبريد الثلج .

قال تعالى : « تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ » .

وقال : « فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا » .

وقال : « فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا » .

وقال : « فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ » .
وقال : « وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ » .

وما نسبت الأفعال إلى هذه الجمادات إلا لأنها محل لظهورها، أما موجدها فهو سبحانه وحده ، لا شريك له .

وأما وجوه المعقول على أنه سبحانه متفرد بالإيجاد فالأول : أن فعل العبد ممكن في نفسه ، وكل ممكن فهو مقدور لله تعالى لما مر من شمول قدرته سبحانه للمكنات بأسرها ، ولا تأثير لقدرة العبد في فعله لامتناع اجتماع قدرتين مؤثرتين لمؤثر واحد ، وإذا ماثبت هذا دحض كون فعل العبد واقعاً بقدرة العبد وثبت أنه واقع بقدرة الله تعالى والثاني : لوكان العبد موجداً لأفعاله بالإستقلال لوجب أن يعلم تفاصيلها ، لأن كل فعل من أفعاله يمكن وقوعه منه على وجوه متفاوتة بالزيادة والنقصان ، وكل من الأزيد والأنقص مما أتى به كان ممكناً أن يقع ، ووقوع الفعل على الوجه المعين دون سائر الوجوه التي كان يمكن وقوعه عليها لأجل القصد إليه بخصوصه والإختيار المتعلق به وحده ، وهذا يستدعي العلم بالوجوه التي يمكن أن يقع كل فعل عليها ، وبإيثار الوجه المعين دون غيره ، وذلك مما تشهد به البديهة ، فإذن تفاصيل الأفعال الصادرة منه باختياره لابد أن تكون مقصودة معلومة له ، لكنه لايعلم تفاصيلها بالتحقيق ، لأن النائم والساهي قد يفعل كل منها باختياره فعلا كانقلابه من جنب إلى آخر ونحوه وهو لايشعر بكمية ذلك الفعل ولا بكيفيته ، وأيضاً المحرك

منا لأصبعه محرك لكل أجزائها لاحالة ، ولا شعور له بها ، فكيف يتوهم أنه يعرف حركة الأجزاء ويقصدها ؟ ! فيثبت ضرورة أن العبد غير موجد لأفعاله بالإختيار والإستقلال . والثالث : أنه لو كان العبد موجداً لفعله باختياره وقدرته استقلالاً لوجب أن يكون متمكناً من فعل كل ممل يقدم عليه وتركه ، وإلا لم يكن قادراً عليه مستقلاً بإيجاده ، ولوجب أيضاً أن يكون ـ ثمة ـ مرجح يرجح فعله على تركه ، إذ لو لم يتوقف على المرجح لزم ترجيح أحد الأمرين المتساويين بغير مرجح وهو محال ، وإذا لزم وجود مرجح فهذا المرجح إما أن يكون من العبد باختياره فيلزم التسلسل بأننا ننتقل إلى صدور هذا المرجح منه وهكذا ، وإن كان المرجح من الله تعالى فهو المطلوب . وهمنا شيئان أنبهك اليهما

الأول : أنه قد تبين لك أن أهل الملة جميعاً متفقون على أن الله تعالى خالق العباد ، وعلى أنه تعالى خالق لأفعالهم الإضطرارية ، كانتفاضة الحمى ، وحركة القلب والمعدة وغيرهما ، وحركة المرتعش . وتبين لك أيضاً أن مذهب أهل السنة هو أنه تعالى الخالق لأفعال العباد الإختيارية أيضاً ، خيرها وشرها ، وأن للعبد فيها الكسب فقط . فإذا ما أبصرت القرآن الكريم أو السنة النبوية الشريفة تنسب الفعل الإختياري إلى العبد فمنشأ هذه النسبة من حيث ماله فيه من الكسب ، وإذا وجدتها ينسبان الأفعال إلى الله تعالى فهو بالنظر الى حقيقة الحال ، وأنه سبحانه هو الخالق لكل شيء . وقد قال سيدي محمد الهاشمي في هذا : ... وبالجملة فمذهب أهل السنة أن الموجد لأفعال العباد هو الله تبارك وتعالى وحده ، غير أن الإختيارية منها تقارنها قدرة

حادثة ، من غير تأثير لها فيها أصلا . وهذه الأفعال هي التي في وسع المكلف على حسب مادل عليه الشرع ، قال جل من قائل :

« لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا »

أي إلا ماتسعه طاقتها بحسب الظاهر والعادة ، وأما بحسب ما في نفس الأمر فليس في وسعها فعل من الأفعال ، فلا يقال الجبر لازم لأهل السنة حيث لم يجعلوا للعبد تأثيراً في أفعاله ، لأننا نقول : الجبر المحظور هو الحسي ، كما ذهب إليه الجبرية ، أما العقلي ـ وهو سلب الخالقية عن العبد ـ فهو متوجه على جميع الفرق ، ولا يضر ، بل هو الإيمان فاعرفه .
وبالجملة فأهل السنة جانبوا الجبرية بتقسيمهم الأفعال إلى قسمين : إختيارية وإضطرارية ، وإن الأولى مقدورة للعباد ، بمعنى أن لهم قدرة حادثة تقارن تلك الأفعال الإختيارية ، وتتعلق بها من غير تأثير . وجانبوا أيضاً القدرية ، لأنهم لم يجعلوا لتلك القدرة الحادثة ـ المخلوقة لله تعالى في المخلوقات ـ تأثيراً البتة في أثر ما ، بدليل برهان الوحدانية ، ووجوب عموم القدرة والإرادة لجميع الممكنات ، ودل عليه الكتاب والسنة .
وإجماع السلف الصالح قبل ظهور البدع ، وقال بالشيخ كمال الدين بن أبي الشريف . وقد كان الأوائل من المعتزلة لقرب عهدهم بإجماع السلف، على أنه لاخالق إلا الله تعالى . وقال الإمام جعفر رضي الله عنه يوماً للقدري : إقرأ الفاتحة . فلما بلغ قوله تعالى :

« إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ » .

قال الإمام جعفر : على ماذا تستعين بالله ، وعندك أن الفعل منك ،

وجميع مايتعلق بالإقدار والتمكين والألطاف قد حصلت وتمت ؟ فانقطع القدري . وقد قال سيدي الشيخ محمد الحامد رحمه الله : « إن التوسط في الأمر فيه السلامة ، فالله سبحانه خالق الأفعال ومُقدِّرُها ، والعبد كاسبها ومحصلها ، يمدح ويثاب باختياره الخير ، ويذم ويعاقب باختياره الشر » .

وقد قال الشيخ محي الدين قدس الله سره : وإنما أضاف الله تعالى الأعمال الينا لأننا محل الثواب والعقاب وهي لله حقيقة ، ولكن لما شهدنا الأعمال بارزة على أيدينا ، وادعيناها لنا ، أضافها تعـالى الينا بحسب دعوانا ، ابتلاء منه لأجل الدعوى ، ثم إذا كشف الله تعالى عن بصيرتنا رأينا الأفعال كلها لله تعالى ، فهو تعالى خالق فينا مانحن العاملون ، ثم مع هذا المشهد العظيم لابد من القيام بالأدب ، فما كان من حسن شرعـاً أضفناه اليه خلقاً ، والينا محلاً ، وما كان من سيء أضفناه الينا بإضافة الله تعالى . على هذا يقول الجنيد رحمه الله : إياك أن تقف في حضرة شهود الفعل لله تعالى وحده دون عباده فتقع في مَهْوَاة من التلف ، ولا ترى لك مع ذلك قط ذنبـاً ، فتهلك مع الهالكين وفي ذلك هـدم الشرائـع كلها .

● الأمر الثاني : أن الأدب يقتضي أن ينسب الخير إلى الله تعالى ، لأنه هو الفاعل الموجد ، وينسب الشر إلى أنفسنا لأننا اكتسبناه لها ، وقد جاء هذا الأدب العالي في كتاب الله تعالى ، فانظروا في قولـه سبحانه على لسان إبراهيم الخليل :

﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ، وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ، وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ .(١)

تجده قد أسند كل الأفعال ماخلا المرض إلى الله تعالى ، لكونها خيراً ، وفعلها منة من الله على عبده ، فلما ذكر المرض أسنده إلى نفسه ، مع أنه يعلم حق العلم أن الله تعالى خالق كل شيء . ثم تدبر قول العبد الصالح لموسى عليه الصلاة والسلام :

« أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا » .(٢)

وقال : « فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا » (٣)

ترَ أن إحداث العيب قد نسبه الى نفسه لكونه شراً في ظاهر الأمر فلما ذكر المنة على الغلامين ، وظاهر أمرهما الخير ، نسبها الى الله تعالى، مع أن كلا منها من عنده سبحانه(٤) . على أنه ينبغي أن لايغرب عنا أن قدرته تعالى لاتبرز إلا ماخصصته الإرادة بالوجود أزلاً . وأن إرادته سبحانه لاتخصص إلا وفق علمه تبارك وتعـــالى . ففي الحقيقة

(١) الشعراء ٧٨ .

(٢) كهف ٧٩ .

(٣) كهف ٨٢ .

(٤) انظر الجوهرة بتحقيق محي الدين عبد الحميد .

ما برز شيء الى الوجود - من خير أو شر ، من نفع أو ضر - إلا لتعلق العلم بوجوده ، والثابت أن تعلق العلم إنما هو تعلق انكشاف ، أي أن العلم يكشف الأمر على ما هو عليه من غير سبق خفاء ، فهو لا يتعلق تعلق إجبار ، فالذي تبرزه القدرة إنما هو وفق تخصيص الإرادة ، والذي تخصصه الإرادة إنما تخصصه على وفق العلم . فقد علم الله أن أبا بكر سيؤمن ولا يعاند فخصصت الإرادة هذا الإيمان على الهيئة التي سيكون عليها ، وفي الزمن الذي سيظهر به ، ثم أبرزت القدرة ما خصصته الإرادة فظهر إيمانه على ما نعرفه . فالعلم تعلق بإيمان أبي بكر تعلق انكشاف لا إجبار فيه . كذلك قد علم الله تعالى أن أبا جهل سوف لا يؤمن عناداً وحسداً ، فخصصت الإرادة أزلاً عدم إيمانه على الهيئة المعروفة ، وفي الزمن الذي سيظهر به ثم أبرزت القدرة هذا العناد على ما عرفناه ، فتعلق العلم بكفر أبي جهل تعلق انكشاف لا إجبار فيه .

وقد قال تعالى : « وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ ، وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ » .

ففعله سبحانه وتعالى - إذن - هو ظهور ما سبق في العلم الكاشف ، بحيث لو فرضنا أن العبد لو ترك وشأنه بعد إعطائه القدرة على الفعل والترك لما ظهر منه إلا ما علمه الله تعالى ، وخصصته إرادته ثم أبرزته قدرته .

● موفق لمن أراد أن يصل : التوفيق - شرعاً - هو خلق قدرة الطاعة ، والداعية اليها في العبد ، كما قاله إمام الحرمين ، وأراد بالقدرة سلامة الأسباب والآلات . وزاد قيد « الداعية اليها » ، ليخرج الكافر ، والمراد أن ما

يجب اعتقاده أنه سبحانه هو الخالق لقدرة الطاعة في من أراد توفيقه، وأراد أن يصل لرضاه ومحبته.

وأما المراد من الأسباب والآلات في تعريف القدرة، فالأسباب هي الأشياء التي تكون حاملة على فعل الشيء، والآلات هي الأشياء التي تكون بها المعونة على فعل الشيء. فالرجل الذي يريد الصلاة مثلاً، فالماء المتوضأ به من الأسباب العرفية بفعل الصلاة، والأعضاء التي يحاول بها فعل هذه الطاعة آلات لها. ولما كان الكافر على هذا داخلاً في التعريف، إذ خلق الله فيه قدرة الطاعة بهذا المعنى، قال المُعرِّف: خلق قدرة الطاعة، والداعية اليها في العبد، والداعي إلى الطاعة مفقود في الكافر، لأن الداعية إلى الطاعة هو الميل النفساني السائق اليها المرغب فيها.

والقدرة على فعل الطاعة ضربان: الأول - قدرة واستطاعة بمعنى تمكين الله العبد من أن يفعل الفعل، أو يتركه بمحض اختياره، وهذه هي مناط الأمر والنهي وهي المصححة للفعل، وهذه لاشك أنها لا يجب فيها مقارنة الفعل، والثاني: قدرة واستطاعة يجب معها وجود الفعل، وهي بغير شك مقارنة للفعل لا سابقة عليه، والكتاب والسنة أشارا لهذين الضربين. فقد أشير إلى الأول بقوله تعالى:

« ولله على النَّاسِ حِجُّ البَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ».(١)

وقوله: « فَاتَّقُوا اللهَ ما اسْتَطَعْتُمْ ».(٢)

وفي قوله ﷺ لعمران بن الحصين:

« صَلِّ قائماً، فإنْ لَمْ تستطِعْ فعلى جَنْبٍ ».(٣)

ومعلوم أن الحج والصلاة واجبان على المستطيع بمعنى المتمكن من الفعل.

---

(١) آل عمران ٩٧.

(٢) التغابن ١٦.

(٣) فيض القدير ٤، ٥٠٨، قال البيهقي حديث حسن رواه البخاري وأحمد بسنده.

سواء أفعل أم لا ، وأشير إلى الضرب الثاني بقوله :

« مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ » . (١)

وقوله : « الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا » . (٢)

فالمراد بعدم استطاعتهم مشقة ذلك عليهم ، وصعوبته على نفوسهم ، فنفوسهم لاتقبله ولا تريده ، وإن كانوا قادرين على فعله متمكنين منه لو أرادوا . وبهذا ينجلي أن العبد قادر حين التكليف بالقوة القريبة لما اتصف به من سلامة الآلات وتوافر الأسباب . ويدخل في التوفيق المؤمن العاصي خلافاً لمن قال : الموفق لايعصي ، إذ لاقدرة له على المعصية ، كما أن المخذول لايطيع إذ لاقدرة له على الطاعة . وقد سئل الجنيد : أيعصي الولي ؟ فأطرق ثم رفع فقال :

« وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا » . (٣)

إذ العصمة لاتثبت إلا للأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم .

---

(١) هود ٢٠ .

(٢) الكهف ١٠١ .

(٣) الأحزاب ٣٨ . ومن الخطل أن يدعي إنسان الولاية وهو منهمك في الشهوات مقارف للمعاصي ، كيف وقد عرف السعد في شرحه على المقاصد الولي : بأنه هو العارف بالله تعالى المواظب على الطاعات المجتنب للمعاصي المعرض عن الإنهماك في اللذات والشهوات .

٤٦- وَخَاذِلٌ لِمَنْ أَرَادَ بُعْدَهُ وَمُنْجِزٌ لِمَنْ أَرَادَ وَعْدَهُ

● وخاذل لمن أراد بعده : الخذلان لغة ترك النصرة والإعانة ، وشرعاً: خلق المعصية في العبد والداعية اليها ، أو خلق قدرة المعصية للذي أراد بعده عن رضاه ومحبته . واستغنى عن أنسبة الهداية والضلال والختم والطبع والأكنة والمد في الطغيان بنسبة خلق التوفيق اليه تعالى ، وبنسبة خلق الخذلان (١) .

والأصل قوله تعالى : « إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » . (٢)

وقوله تعالى : « فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ، وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا » . (٣)

● ومنجز لمن أراد وعده : ولما اختلف الأشاعرة والماتريدية في الوعد والوعيد أشار بذلك إلى قوله : وما يجب شرعاً اعتقاده أن الله تعالى معط ـ لمن أراد به خيراً ـ وعده الذي سبقت به إرادته في الأزل ، إذ المراد لايتخلف عن الإرادة ، لأنه لو تخلف إعطاء الموعود به لزم الكذب والسفه والخلف والتبديل في القول ، وهو خلاف قوله تعالى :

---

(١) ذكر الختم على القلوب إشارة إلى ما أجرى الله به العادة من أن الإنسان إذا تناهى في اعتقاد باطل ، أو ارتكاب محظور ، ولا يكون منه تلفت بوجه إلى الحق ، يورثه ذلك هيئة تمرنه على استحسان المعاصي ، وكأنما يختم على قلبه وعلى ذلك قوله تعالى: (أولئك الذين طبع الله على قلوبهم) وعليه استعارة الإغفال والكن والقساوة في قوله: (ولاتطع من أغفلنا قلبه) وقوله: (وجعلنا على قلوبهم أكنة) وقوله: (وجعلنا قلوبهم قاسية) .

(٢) القصص ٥٦ .

(٣) الأنعام ١٢٥ .

« إنَّكَ لاتُخْلِفُ المِيعَادَ » .(١)

وقوله : « مَا يُبَدَّلُ القَوْلُ لَدَيَّ » .(٢)

فوعد الله المؤمنين بالجنة لايتخلف - شرعاً - قطعاً ، إذ الخلف في الوعد نقص يجب تنزيه الله تعالى عنه ، وأما الوعيد فلا بد من تحققه بالكافرين قطعاً ، قال تعالى :

« إنَّ اللهَ لايَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ » .(٣)

وأما عصاة المؤمنين فيجوز أن يغفر الله لهم ويجوز أن يعذبهم ويدخلهم النار ، إلا أنه يقطع بإنفاذ الوعيد في بعض المؤمنين لورود الأخبار بذلك ، قال تعالى :

« إنَّ اللهَ لايَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَادُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ » .(٣)

وقال ﷺ : « مَنْ وَعَدَهُ اللهُ عَلى عَمَلٍ ثَوَاباً فَهوَ مُنْجِزٌ لَه ، وَمَنْ أَوْعَدَهُ عَلى عَمَلٍ عِقاباً فَهوَ بالخِيَارِ ، إنْ شَاءَ عَذَّبَهُ ، وإنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ » .(٤)

(١) آل عمران ١٩٤ .

(٢) ق ٢٩ .

(٣) النساء ٤٨ .

(٤) روى الحافظ أبو بكر البزار والحافظ أبو يعلى ، وتفردا به عن أنس رضي الله عنه : « من وعده الله على عمل ثوابا فهو منجزه له ، ومن توعده على عمل عقابا فهو فيه بالخيار » وذكره ابن كثير ج ٢ /٣١٨ .

٤٧ - فوزُ السَّعيدِ عندَهُ في الأزَلِ كَـذا الشَّقيُّ ثُمَّ لَمْ يَنْتَقِلِ

● فوز السعيد عنده في الأزل : أي السعادة والشقاوة مقدرتان أزلاً، لا يتغيران ولا يتبدلان. لأن السعادة هي الموت على الايمان، باعتبار تعلق علم الله تعالى أزلاً بذلك، والشقاوة هي الموت على الكفر بذلك الإعتبار. فالخاتمة تدل على السابقة. فإن من ختم له بالإيمان دل على أنه كان من السعداء في الأزل، وإن تقدم ذلك كفر. وإن ختم له بالكفر — والعياذ بالله تعالى — دل على أنه كان من الأشقياء في الأزل، وإن تقدم ذلك إيمان، كما يدل لذلك حديث الصحيحين، عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه قال حدثنا الصادق المصدوق قال :

« إنَّ أَحدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ في بطنِ أُمِّهِ أربعينَ يوماً نُطْفةً، ثُمَّ يكونُ علقةً مثل ذلك، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذلكَ، ثم يُرسَلُ إليهِ المَلَكُ فَيَنْفُخُ فيهِ الرُّوحَ، ويُؤمَرُ بأربَعِ كلماتٍ، بكَتْبِ رِزْقِهِ وأجَلِهِ وعَمَلِهِ وشقيٌّ أَوْ سَعيدٌ، فَوَالَّذي لا إلهَ غيْرُهُ إنَّ أَحَدَكُمْ ليَعْمَلُ بعَمَلِ أهلِ الجنَّةِ حتى ما يَكُونَ بَيْنَهُ وبَيْنَها إلا ذراعٌ فَيَسْبِقُ عَليهِ الكتابُ فَيَعْمَلُ بعَمَلِ أهلِ النَّار فَيدخلَها، وإنَّ أحَدَكُمْ لَيَعْملُ بعَمَلِ أهْلِ النَّارِ حتى مَا يكونَ بَيْنَهُ وبَيْنَها إلا ذِراعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتابُ فَيَعْمَلُ بعَمَلِ أَهلِ الجَنَّةِ فَيَدْخُلَها ».(١)

(١) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما .

فظفر السعيد بحسن الخاتمة عنده تعالى في الأزل ، والمراد من العندية العلم ، ومن الأزل : عدم الأولية .

● كذا الشقي : أي شقاوه عنده في الأزل مثل فوز السعيد ، فليس كلٌ من فوز السعيد وشقاء الشقي ـ باعتبار الوصف القائم به في الحال ـ من الإيمان في السعيد ، والكفر في الشقي ، بل باعتبار ماسبق أزلاً في علمه تعالى .

● ثم لم ينتقل : أي كلٌ من السعيد والشقي لم يتحول عما ختم له به ، وإلا لزم انقلاب العلم جهلاً . وعلى هذا يصح قولك : « أنا مؤمن إن شاء الله تعالى » نظراً للمآل ، وأما عند الماتريدية فلا يصح ، نظراً للحال ، إذ السعيد عندهم : هو المسلم باعتبار الآن ، والشقي : هو الكافر بالاعتبار نفسه . أما لو قالها شاك فلا يجوز بالإجماع .

لأن الشك في إيمان نفسه كفر . أما لو قالها وهو مريد للتبرك بذكر اسم الله تعالى فإنه جائز بالإجماع . والحاصل أن الشك على قسمين : إما أن يتردد في أنه هل يستمر على الإيمان أو يقطعه ؟ فهــذا هو الشك الممنوع ، وإما أن يتردد الآن في أنه هل يكون مؤمناً عند الموت أو لا ؟ فهذا غير ممنوع ، لأن الخاتمة مجهولة ، على أن الماتريدية لايجوزون الإرتداد على من علم الله موته على الإسلام ، ولا الإسلام على من علم الله موته على الكفر . والخلاصة : أن العامة تخاف من الخاتمة ، وأما خوف

الخاصة فمن السابقة [1] ، وهو أشد ، وإن تلازما . فيكون الخلاف بين الأشاعرة والماتريدية لفظياً ، فيتناول أن السعادة عند الأشاعرة هي الموت على الإيمان ، فهي مستقبلة ، لذلك صح تعليقها ، وعند الماتريدية هي الإيمان الحالي ، أي الحاصل بالفعل لذلك لايعلق .

---

(١) ذكر القرطبي في تفسيره : أن القراء اجتمعوا إلى إبراهيم بن ادم رضي الله عنه ليسمعوا ماعنده من الأحاديث ، فقال لهم: إني مشغول عنكم بأربعة أشياء ، فقيل له وما ذاك الشغل ؟ قال أحدها : أني أتفكر في يوم الميثاق حيث قال : « هؤلاء في الجنة ولا أبالي ، وهؤلاء في النار ولا أبالي . فلا أدري من أي الفريقين كنت في ذلك الوقت» . والثاني: « حيث صورت في الرحم ، فقال الملك الذي هو موكل على الأرحام: « يا رب ، شقي هو أم سعيد ؟ . فلا أدري كيف كان الجواب في ذلك الوقت» . والثالث« حين يقبض ملك الموت روحي فيقول : يا رب مع الكفر أم مع الإيمان ؟ فلا أدري كيف يخرج الجواب » . والرابع حيث يقول: « وامتازوا اليوم أيها المجرمون» . فلا أدري في أي الفريقين أكون » ٥٠ ٤/٨

٤٨ ـ وَعِنْدَنَا لِلْعَبْدِ كَسْبٌ كُلِّفَا وَلَمْ يَكُنْ مُؤَثِّراً فَلْتَعْرِفَا

● وعندنا : أشار إلى المسألة المترجمة عندهم بمسألة الكسب فقال : وعندنا أهل السنة والحق خلافاً للجبرية والمعتزلة كسبٌ للعبد ، وهذا هو الفرع الثاني من فروع المسألة على ما ذكرناها عند القول بأن الله تعالى خالق لأفعال العبد الاختيارية . وحاصل هذه المسألة ثلاثــة مذاهب : مذهب أهل السنة والجماعة ، وحاصله : أن للعبد في أعماله الإختيارية كسباً ، وأنه ليس له إلا ذلك الكسب . فليس هو مجبوراً عليها - كما يقول الجبرية - وليس هو خالقاً لها - كما يقول المعتزلة - . والثاني : مذهب الجبرية ، وحاصله : أن العبد ليس له شيء في عمله الإختياري ، لاخلق ، ولاإبداع ، ولا كسب . بل هو مجبور مقهور على فعله كريشة في الهواء تقلبها الريح كيف شاءت . والثالث : مذهب المعتزلة ، وحاصله : أن العبد خالق لأفعاله الاختيارية بقدرة خلقها الله تعالى فيه . فأمـــا الجبرية فقد أفرطوا ، وأما المعتزلة فقد فرطوا ، وأما أهل السنة فقد جاء مذهبهم وسطاً خارجاً من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين . فإن قيل : قد قام البرهان على وجوب استقلاله تعالى بالأفعال ، والمقدور الواحد لايدخل تحت قدرتين كما يستلزمه إثباتكم للعبد كسباً ؟ أجيب بأن المقدور الواحد يدخل تحت قدرتين بجهتين مختلفتين ، فيدخل تحت قدرة الله تعالى بجهة الخلق والايجاد والامداد ، وتحت قدرة العبد في جهة الكسب ، إذ العبد محل لظهور قدرة الله تعالى .

● للعبد كسب : المراد بالعبد كل مخلوق يصدر عنه فعل اختياري ، فيشمل حنين الجذع

ومشي الشجر ، وتسبيح الحصى ، وتلك من معجزاته عليه الصلاة والسلام

والكسب هو : « ما يقع به المقدور بلا صحة انفراد القادر به » ، بخلاف الخلق فانه : «ما يقع به المقدور مع صحة انفراد القادر به» وللعلماء اختلاف في تفسير الكسب ـ هنا ـ على مذهب أهل السنة ، وهناك أربعة أمور لا بد من بيانها أولها : الارادة السابقة على الفعل . وثانيها : القدرة المقارنة للفعل . وثالثها : نفس الفعل المقارن للقدرة عليه . ورابعها : الارتباط والتعلق بين القدرة التي يكون بها الفعل وبين الفعل . فمن العلماء من جعل الكسب : هو الإرادة ، التي هي العزم على الفعل وتوجيه القصد والنية اليه . ومنهم من جعله : هو التعلق بين القدرة والفعل . والتعريف السابق الذي هو : ما يقع به المقدور من غير صحة انفراد القادر به ، يتمشى على المذهبين جميعاً[١] . والمقدور على هذا يراد به الفعل ، كالحركة ونحوها وأما المراد بالقادر فالعبد . ومعنى قولهم (من غير صحة انفراد القادر به) : من غير تجويز كون العبد منفرداً بفعل ذلك المقدور ، بل ومن غير صحة كون العبد مشاركاً في فعل ذلك المقدور ، إذ لاتأثير للعبد بوجه ما ، لاعلى الاستقلال ، ولا على المشاركة ، والله سبحانه وتعالى هو المنفرد بعموم التأثير وليس للعبد إلا مجرد المقارنة أو توجه القصد .

وهناك تعريف ثان للكسب ، وهو قول بعضهم :

الكسب هو : مايقع به المقدور في محل قدرته ، ومحل القدرة الجارحة التي بها الفعل ، كاليد في الضرب .

(١) على هذا تكون (ما) من قوله « ما يقع به » نكرة موصوفة تقع موقع (ارتباط) أو موقع (إرادة) أي الكسب : هو إرتباط أو (إرادة) يقع به المقدور بلا صحة انفراد القادر به .

ولا شك أن ماهيات الممكنات كلها - ومنها الأفعال التي تنسب إلى العباد - معلومة لله سبحانه أزلاً ، فهي في العلم متميزة في أنفسها أزلاً وتعلق العلم بها تعلق انكشاف وإحاطة بدون سبق خفاء ، وبدون تأثير ، كما هو معلوم . ومن تميزها في ذاتها أن لها أسباباً ناشئة عن استعدادات ذاتية غير مجعولة أيضاً . فإذا ماتعلق العلم الإلهي بها على ماهي عليه في أنفسها ، وبأنها يقتضيها استعدادها ، تعلقت الإرادة الإلهية بهذا الذي اختاره العبد بمقتضى استعداده ، فيصير مراده - بعد تعلق الإرادة الإلهية - مراد الله تعالى . فاختياره المعلوم لله أزلاً - بمقتضى استعداده - متبوع العلم ، المتبوع للإرادة . واختيار العبد - فيما لايزال - تابع للإرادة الأزلية المتعلقة باختياره . فالعباد منساقون إلى فعل مايصدر عنهم باختيارهم لا بالإكراه والجبر ، فليسوا مجبورين في اختيارهم المعلوم لله أزلاً ، لأن علمه سبحانه كاشف له على ماهو عليه من غير سبق خفاء ، ولا إجبار ، فمعنا أربعة أشياء مترتبة ، أولها : اختيار العبد المعلوم لله أزلاً ، وهذا هو المعلوم . والثاني : تعلق علم الله تعالى بهذا الاختيار . والثالث : تعلق إرادة الله تعالى به ، والرابع : وقوعه وفقاً للإرادة ، وهذا الرابع هو الذي يقال إن العبد مجبور فيه ، وعند التحقيق لاجبر، لأنه ما من شيء يبرزه الله بمقتضى الحكمة ويفيضه على الممكنات إلا وهو مطلوبها بلسان استعدادها ، وما حرم الله تعالى من خلقه شيئاً من ذلك ، وعلى هذا يقول الله تعالى في حق الكافرين المعرضين الذين نفروا من سماع الحق وأبوا الإنصياع إليه .

قال تعالى: (وَلَو عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيراً لأَسْمَعَهُمْ ، وَلَوْ أَسمَعَهُمْ لَتَولوا وَهُمْ مُعْرِضون)[1].

وفائدة إرسال الرسل وإنذارهم من أرسلوا اليهم بعد أن علم الله تعالى أن منهم من لايثمر فيه الإنذار إنما هو استخراج سر ماسبق به العلم ، من طواعية بعض المكلفين ، وإباء بعضهم الآخر .

قال تعالى: « لِئلا يَكُونَ للنَاسِ عَلى اللهِ حُجَةٌ بَعدَ الرُسل » .

فان الله سبحانه لو أدخل فريقاً من الناس النار لسابق علمه بأنهم لا يؤمنون بل يعيثون في الأرض الفساد إن خلقهم لكان شأن المعذب منهم ماوصف الله تعالى بقوله :

(وَلَوْ أَنَّا أَهلَكنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا: رَبَّنا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسولاً فَنَتَّبِعَ آياتِكَ مِنْ قَبلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخزَى)[2].

فأرسل سبحانه الرسل مبشرين ومنذرين ليستخرج ما في استعداد العباد من الطوع والإباء ، بل ليظهر ماثبت في الأعيان العلمية – أزلاً – في عالم الإمكان

قال تعالى: (لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ ، وَيَحيى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ)

إذ بعد الذكرى وتبليغ الرسالة تتحرك دواعي الطوع من الطائعين ، أو الإباء من الآبين بحسب الإستعداد المعلوم لله أزلاً ، فيترتب عليه الفعل أو الترك بمشيئة الله وإرادته السابقة ، التابعة للعلم ، ويترتب على ذلك الفعل والترك الثواب والعقاب . وإنما قامت الحجة على العصاة والمذنبين والكفار لأن الذي امتنعوا

(١) الانفال ٣٤ .
(٢) طه ١٣٤ .

عن الاتيان به – بعد بلوغ الدعوة وظهور المعجزة – وهو الإيمان والطاعة، لم يكن أمراً ممتنعاً لذاته، إذ لو كان ممتنعاً لذاته لما وقع من أحد أصلاً، فوقوع الإيمان والطاعات من بعض العباد يدل على عدم الإمتناع لذواتها. وإنما تمتنع لإباء بعض الناس وهذا الإباء ناشيء عن استعدادهم المعلوم لله أزلا باختيارهم السيء، وإن كان إباؤه الحادث واقعاً بخلق الله تعالى.

ونعود لنقول: إن المعلوم – الذي هو استعداد العبد – من حيث ثبوته أزلا غير مجعول، فعلم الله تعالى يتعلق به أزلا على ما هو عليه في ثبوته غير المجعول، أي لا تأثير لتعلق علم الله تعالى بإيمان زيد أو بكفره، وتخصص الإرادة أزلا ما سبق به العلم ثم تبرزه القدرة طبق الإرادة، قال تعالى:

« قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ، فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ».[1]

لكنه لم يشأ، إذ لم يسبق العلم بذلك، لكون العلم ليس إلا كاشفاً لما في الإستعداد المعلوم لله أزلا، فلم تبرز القدرة إلا ماشاء الله تعالى، فصح أن له الحجة البالغة على من حاول أن يعتذر عن نفسه، ولهذا قال ﷺ: « فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدِ اللهَ ».[2]

لأن الله تعالى هو المتفضل بالإيجاد، ولا واجب عليه.

« وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إلاَّ نَفْسَهُ ».

فلأنه سبحانه ما أبرز بقدرته إلا ما هو من مقتضى استعداد العبد. من كل ماتقدم يمحص الحق المبين، وتبطل نزعات المنحرفين القائلين بالجبر.

---

(١) الأنعام ١٤٩.

(٢) رواه مسلم من حديث طويل عن أبي ذر الغفاري.

فنعوذ به سبحانه من أهل الزيغ والضلال .

● كفا به : أي بسبب الكسب ألزمه الله فعل مافيـــه كلفة ، فالكسب سبب في التكليف ، وفي « كفا » رد مذهب الجبرية .

● ولم يكن مؤثراً فلتعرفا : أي لم يكن العبد مؤثراً في المقدور تأثير إختراع وإيجاد له ، فهو وإن كان له كسب ـ يتعلق به التكليف ـ لأفعاله ، غير موجد لها خلقاً . فليعرف المكلف هذا الحكم الخفي الإدراك ، مع ظهوره عند مثبت الوحدانية المحضة له تعالى[1] . وبقوله : « ولم يكن مؤثراً » رد مذهب المعتزلة . ولما كان القوم لايكتفون إلا بالتصريح في مقام رد المذاهب الفاسدة قال :

---

(١) قال سيدي محمد الهاشمي في مفتاح الجنة : والأسباب العادية كلها حادثة ممكنة مفتقرة غاية الإفتقار إلى الله تعالى في إيجادها وإمدادها لا فرق بين سبب وسبب، إذ كلها ممكنات ، وليس عند المؤمنين الموفقين منها ما يؤثر بطبعه أو علته أو قوة وخاصية ، أو ملازمة عقلية بينها وبين ماجعلت دليلاً وعلامة عليه بحيث لا يصح فيها التخلف . وليس للأسباب العادية إلا الربط العادي وهو المقـــارنة المعتادة مع صحة التخلف وعدم تأثير أحدهما في الآخر البته . وشرك الأسباب ـ وهو إسناد التأثير للأسباب العادية ـ كشرك الفلاسفة والطبائعيين ومن تبعهم على ذلك الإعتقاد الفاسد فسببه عمى البصيرة والإغترار بما ظهر للحس من اقتران حادث بحادث ودورانه معه وجوداً وعدماً على ماشاء الله تعالى فاعتقد الناظر إذ كان أعمى البصيرة أن ذلك السبب العادي هو الذي أثر في وجود مااقترن معه وليس من فعل الله تبارك وتعالى ، وهذا كاغترار فقير أحمق أعمى البصيرة جرت عادته أنه مهما جاء إلى باب من أبواب الملك جعل في يده عند وقوفه على ذلك الباب ما يأكل وما يشرب أو نحو ذلك مما يحتاج إليه ، فلم يشك بحمقه ـ وعمى بصيرته ولعدم مشاهدته من ألقى في يده ذلك ـ أن ذلك الباب هو الذي يعطيه أغراضه بطبعه أو بقوة فيه ، فامتلأ قلبه بحبه، وأكثر لسانه الثناء عليه ، ونسي=

٤٩ـ فَلَيْسَ مَجْبُوراً وَلَا إِخْتِيَارَا   وَلَيْسَ كُلّاً يَفْعَلُ اخْتِيَارَا

فليس مجبوراً ولا اختياراً : فغرض المصنف التصريح بالرد على الجبرية في قولهم : إن العبد مجبور لا اختيار له في صدور جميع أفعاله عنه ، فهو كريشة معلقة في الهواء ، فقال : اعتقد أيها المكلف أن العبد ليس مجبوراً ، وليس القول بأنه « لا إختيار له » صحيحاً . بل هو مختار .

والواجب اعتقـــاده أن بعض أفعاله صادر باختياره وبعضها الآخر باضطراره لما يجده كل عاقل من الفرق الضروري بين حركتي يد المرتعش الإرتعاشية والإرادية حال تناول بعض الأشياء . والاختيار هذا غير الكسب ، لأن معناه كونه إن شاء فعل وإن شاء ترك ، فيكون الإختيار هو التمكن من الفعل والترك ، وهذا غير الكسب قطعاً . ومن أثبت الكسب أثبت الإختيار ، ومن نفاه ـ وهم الجبرية ـ نفى الإختيار . وقد أجاب على مذهب المعتزلة بقوله :

● وليس كلّا يفعل اختياراً [١] : أي الواجب اعتقاده أيضاً أن العبد لا يفعل : أي لا يخلق كل فعل حال كون ذلك الفعل اختيارياً .

ذكر الملك وفضله وانفراده بالعطاء وليس له في قلبه موقـــع . وأما أهل السنة رضي الله عنهم فقدنور الله تعالى بصائرهم ولم يفتتنوا بشيء من الأكوان وكوشفوا بالحقائق على ما هي عليه في نفس الأمر . فمن أنكر وجوه ذوات الأسباب العادية فقد عطل الحكمة ، ومن نسب اليها التأثير فقد أشرك بالله تعالى ، لأنه مناقض لما عليه العقل من وجوب انفراده تعالى باختراع جميع الكائنات بلا واسطة على وفق ما شاء جلا وعلا . ا هـ . كذلك نكون قد جعلناها مستغنية عن الله تبارك وتعالى كيف وهو الذي يفتقر اليه كل ما سواه عموما .

(١) قوله . ليس : منصب على قوله : « لا اختيار » أي ليس العبد مجبورا ، وليس العبد لا اختيار له ، كما يزعم الجبرية . وقوله: كلّا: مفعول مقدم لفعل يفعل .

لأن المعتزلة قالوا : إن العبد يخلق أفعاله الإختيارية ، والحق أن العبد لا يخلق أي فعل من أفعاله الإختيارية . وقد علم من وجوب انفراده تعالى بالخلق ، ومن نفي تأثير العبد عما باشره من الأفعال ، بطلان دعوى أن شيئاً يؤثر بطبعه ، أو بقوة مردعة فيه ، وإنما الله تعالى بحسب ما جرت به العادة يخلق ذلك الأثر عنده لا به ، كالستر عند اللبس ، والري عند الشرب ، والإحتراق عند مماسة النار ، وعليه فمن اعتقد أن شيئاً من الأسباب العادية يؤثر بطبعه فلا نزاع في كفره ، وإن كان يعتقد حدوث الأسباب العادية ، وأنها ليست مؤثرة بطبعها ، وإنما الله تعالى يخلق فيها قوة ، هي التي تؤثر، فهو فاسق مبتدع ، ومن اعتقد حدوث الأسباب وأنها لا تؤثر بطبعها ولا بقوة جعلها الله فيها ، وإنما المؤثر هو الله تعالى ، لكن التلازم بينها وبين ما قارنها عقلي لا يمكن تخلفه ، فهذا جاهل بحقيقة الحكم العادي وربما جره ذلك إلى الكفر ، بأن يجحد بعث الأجساد لأنه خلاف المعتاد ، وكذلك المعجزات .

ومن اعتقد حدوثها ، وأنها لا تؤثر بطبعها ولا بقوة فيها ، ويعتقد صحة التخلف بأن يوجد السبب العادي ولا يوجد الشبع الذي هو المسبب عنه ، وإنما المؤثر في المسبب هو الله تعالى ، فهو الموحد الناجي بفضل الله عز وجل .

ثم فرع الناظم على وجوب انفراده تعالى بخلق أفعال العباد وأنه لا تأثير لهم فيها سوى الكسب فقال : إذا علمت أنه سبحانه هو الخالق لأفعالنا وحده خيراً ، كانت أو شراً ، وأن قدرتنا الحادثة ليست مؤثرة في أفعالنا ، فاعتقد أنه تعالى إن يثبنا على الطاعة فإثابته إيانا إنما هي بفضله الخالص .

٥٠ـ فإنْ يُثِبْنا فَبِمَحْضِ الفَضْلِ   وإنْ يُعذِّبْ فَبِمَحْضِ العَدْلِ

● فإن يثبنا فبمحض الفضل : إن الإنس مثابون ومعاقبون، والملائكة سيأتي الكلام في إثابتهم ، وأما الجن فقد اتفقوا على أن كافرهم معذب في النار وأما مؤمنهم فمختلف فيه على أقوال ، قيل : إنهم كالإنس ، وقيل : ثوابهم نجاتهم من النار ثم يقال لهم : كونوا تراباً ، وقيل : ثوابهم أن يكونوا في ربض الجنة ، يراهم الإنس من حيث لايرونهم ، عكس ما كانوا في الدنيا . والقول الأول ـ وهو أنهم كالإنس ـ هو المعتمد .

● والفضل المحض : هو الفضل الخالص بمعنى الإعطاء عن اختيار كامل ، لا عن إيجاب ـ بحيث يثيبنا ولا اختيار له في الإثابة أبداً ، لكون الطاعة علة تنشأ عنها معلولاتها من غير اختيار لها كما يقول الفلاسفة ـ ولا عن وجوب بحيث تصير الإثابة مستحقة لازمه يقبح تركها . فبالفضل الخالص رد مذهب المعتزلة والفلاسفة ، ويدل لمذهب أهل السنة أن طاعات العبد ـ وإن كثرت ـ لاتفي بشكر بعض ما أنعم الله به عليه ، فكيف يتصور استحقاقه عوضاً عليها ، وقد ورد عن جابر رضي الله تعالى عنه أنه قال : خرج علينا رسول الله ﷺ فقال :

«خَرَجَ مِنْ عِنْدي خَليلي جِبْريلُ آنِفاً فقالَ : يا مُحَمَّدُ، والَّذي بَعَثَكَ بالحَقِّ إنَّ للهِ عَبْداً مِنْ عِبادِهِ عَبَدَ اللهَ خَمسَمائَةِ سَنَةٍ على رأسِ جَبَلٍ في البحرِ . وقدْ أخرجَ لهُ عَيْناً عَذْبَةً بِعَرْضِ الأُصْبُعِ تَفيضُ بماءٍ عَذْبٍ فَتَسْتَنْقِعُ في أسفلِ الجَبَلِ

وشجرةَ رُمَّانٍ تُخرجُ لَهُ في كلِّ ليلةٍ رُمَّانةً ، يَتعبَّدُ يومَهُ فإذا أمسى نَزَلَ فأصابَ مِنَ الوَضوءِ وأخذَ تلكَ الرُّمانةَ فأكلَها ، ثُمَّ قامَ بصلاتِه فسألَ رَبَّهُ عِندَ وقتِ الأجلِ أنْ يَقبِضَهُ ساجداً ، وأنْ لايَجعلَ للأرضِ ، ولا لشيءٍ يُفسِدُهُ عليهِ سبيلاً حتى يبعثَهُ اللهُ وهوَ ساجدٌ . قالَ فَفعَلَ . فنحنُ نَمرُّ عليهِ إذا هبطْنا وإذا عَرَجنَا ، فنجدُ لهُ في العِلمِ أنَّهُ يُبعثُ يومَ القيامةِ فيوقفُ بينَ يدَيِ اللهِ سُبحانَهُ فيقولُ لَهُ الربُّ : أدْخِلوا عبدِيَ الجنَّةَ برَحْمتي ، فيقولُ : ربِّ بلْ بعمَلي . فيقولُ : أدخلوا عبدِي الجنَّةَ برَحْمتي . فيقولُ : بل بعمَلي . فيقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ : قايِسُوا عبدِي بنِعْمَتي عليْهِ وبعمَله . فتُوجدُ نِعمةُ البَصرِ قدْ أحاطَتْ بعبادةِ خمسِمائةِ سنةٍ وبقيتْ نِعمةُ الجَسدِ فضلاً عليه . فيقولُ : أدْخلوا عبدِيَ النَّارَ فيُجَرُّ إلى النّارِ . فيُنادِي ربِّ برَحمتِكَ أدْخلْني الجنَّةَ . فيقولُ : رُدُّوهُ ، فيوقَفُ بينَ يدَيهِ ، فيقُولُ : ياعبدي : مَنْ خلَقكَ ولَمْ تكُ شيئاً ؟ فيقولُ : أنتَ ياربِّ . فيقُولُ :

مَنْ قَوْاكَ لعبادة خمسمائة سَنة ؟ فَيقول : أَنتَ يارب . . .
ويُعدِّدُ عليه نِعَمَهُ ثُمَّ يقولُ : كَذَلكَ برَحْمَتي أُدخلكَ الجنَّةَ ،
أدخلوا عَبْدِي الجَنَّةَ ، فَنِعْمَ العَبْدُ كُنْتَ يا عَبْدِي . فأَدْخلهُ اللهُ
الجنَّةَ . قالَ جبْريلُ : إِنَّمَا الأَشياءُ برحمة الله يا مُحمَّدُ »[1].

● وإن يعذب فبمحض العدل : معنى العدل المحض وضع الشيء في محله من غير اعتراض على الفاعل . والظلم هو وضع الشيء في غير محله مع الإعتراض على فاعله وهذا رد على المعتزلة القائلين : بوجوب تعذيب العاصي ، لقولهم بوجوب إثابة الطائع . وبنوا ذلك على قاعدتهم من أن العبد يخلق أفعال نفسه الإختيارية التي منها الطاعة والمعصية ، وأما أهل السنة فقاعدتهم : أن الله تعالى هو الخالق للأفعال كلها ، ومنها الطاعة والمعصية . وبنوا على ذلك أن الإثابة بالفضل والتعذيب بالعدل ، وليسا بواجبين عليه تعالى . وبالجملة فهو سبحانه لاتنفعه طاعة ولا تضره معصية . فليست الطاعة مستلزمة للثواب وليست المعصية مستلزمة للعقاب ، وإنما هما أمارتان عاديتان تدلان على الثواب لمن أطاع ، والعقاب لمن عصى . حتى لو عذب الله المطيع وأثاب العاصي ، بأن جعل الطاعة أمارة على العذاب والمعصية أمارة على الثواب لكان منه ذلك حسناً سبحانه ، لايسأل عما يفعل ، وهذا كله بحسب العقل[2] ، وأما بحسب الشرع فلا يجوز

---

(١) رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد .

(٢) أنظر البيت الثالث والثلاثين .

خُلْف الوعد ، لأنه سفه ، وهو يستحيل عليه سبحانه . وأما الوعيد فهو في حق الكفار واقع لامحالة [1] ، لقوله تعالى :

« إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ » . [2]

أما في حق المؤمنين فواقع في بعضهم لورود الأخبار بذلك ، ثم يخرجون من النار ، فلا يبقى فيها موحد ، فتظل لأصحابها الطغاة الفجرة ، الذين استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً .

(١) قال في الكفاية : قال أصحابنا رحمهم الله تعالى لا يجوز أن يعفو الله تعالى عن الكافرين ، ويخلدهم في الجنة ، ولا أن يخلد المؤمنين في النار ، لأن الحكمة تقتضي التفرقة بين المسيء والمحسن ، وما يكون على خلاف قضية الحكمة يكون سفها . ودلالة ذلك أنه تعالى رد على من حكم بالتسوية بين المسلم والمجرم بقوله تعالى : (أفنجعل المسلمين كالمجرمين ، مالكم كيف تحكمون) . وقوله : (أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنو وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ، ساء ما يحكمون) . ثم التفرقة بين الفريقين في الدنيا متحققة فلا بد منها إذن في الآخرة .

(٢) النساء ٤٨

٥١ - وَقَولُهُمْ إنَّ الصَّلاحَ وَاجِبٌ عَلَيْهِ زُورٌ مَا عَلَيْهِ وَاجِبٌ

● وقولهم إنَّ الصلاح واجب : أي وقول المعتزلة بوجوب الصلاح والأصلح عليه سبحانه فهنا إشارة إلى هذه المسألة ، ومضمونها : أنه إذا كان ثمة أمران ، أحدهما صلاح ، والآخر فساد ، وجب على الله تعالى أن يفعل الصلاح منها ، دون الفساد ، وإذا كان هناك أمران أحدهما صلاح ، والآخر أصلح منه ، وجب على الله تعالى أن يفعل الأصلح منهما دون الصلاح . فالصلاح والفساد كالإيمان في مقابلة الكفر . والصلاح والأصلح كـكون العبد في أول مراتب الجنان في مقابلة أعلاها .

والمصنف على هذا تعرض لإبطال مذهبهم « بوجوب فعل الصلاح » ولم يتعرض لنقض مذهبهم « بوجوب فعل الأصلح » إلا أنه لما أبطل الأول لزم منه بطلان الثاني ، إذ أن الصلاح أعم من الأصلح ونفي الأعم يستلزم نفي الأخص . الا ترى أنه لو نفي كون الشيء حيواناً لزم أن ينتفي كونه إنساناً . والحاصل أن المعتزلة قالوا : فعل الصلاح والأصلح واجب على الله تعالى ، وأنهم اختلفوا ، فمنهم من قال : يجب مراعاة الصلاح والأصلح لعباده بالنظر إلى الدين والدنيا جميعاً . ومنهم من قصر الوجوب على الدين وحده . واختلفوا في معنى الأصلح ، فمفسر له : بالأوفق في الحكمة والتدبير ، ومفسر له : بالأنفع والأكثر فائدة . وبالجملة فقد ذهبوا جميعاً إلى أنه يجب إقدار العبد وتمكينه وأن يفعل معه أقصى مايمكن في معلومه سبحانه مما يؤمن عنده المكلف ويطيع . وأنه سبحانه فعل مع كل أحد غاية مقدوره من الأصلح . وليس في مقدوره لطف لو فعله

بالكفار لآمنوا جميعاً ، وإلا لكان تركه بخلا منه وسفها . ومنشأ وهمهم القصوى في هذه المسألة (قياس الغائب على الشاهد) القصور نظرهم في المعارف الإلهية واللطائف الحقية الربانية ، ووفور غلطهم في صفات الواجب الحق وأفعال الغني المطلق ، وما ضربوه من الأمثال مصروف إلى أن المخلوق عندما يفعل ما يفعل ، إما اتقاء لضر ، أو جلباً لمنفعة ما . أما في الغني كل الغنى عن موالاة الأولياء ، القادر كل القدرة على الإنتقام من الأعداء ، فلا ينطبق عليه ماضربوه مثلا وأنه لو وجب عليه الأصلح لعباده لما خلق الكافر الفقير المعذب في الدنيا والآخرة سيما المبتلى بالأسقام والآلام والمحن والآفات . حكي أن الحافظ ابن حجر مر يوماً في السوق بموكب عظيم وهيأة جميلة ، فهجم عليه يهودي ، وأثوابه ملطخة بالدرن ، وهو في غاية الرثاثة والبشاعة . فقبض على لجام بغلته ، ثم قال له : ياشيخ الإسلام ، أنت تزعم أن نبيك قال :

« الدُّنيا سِجنُ المؤمن ، وَجنةُ الكافر » .(1)

فأي سجن أنت فيه مع هذه النعمة ؟ وأي جنة أنا فيها مع ماترى ؟ فقال له الحافظ رضي الله عنه : أما أنا فإن الذي أنا فيه بالنسبة لما أعده الله في الآخرة من النعيم للمؤمنين يُعَدُّ سجناً ، وأما أنت فإن الذي أنت فيه بالنسبة لما ينتظرك من العذاب الأليم يعد جنة . ولو وجب عليه فعل الأصلح لما استوجب عليه شكراً ، لكونه مؤدياً للواجب عليه كمن يرد وديعة أودعها ، وكمن يؤدي دَيْناً لزمه ، مع أنه سبحانه قد طلب من

(1) رواه مسلم من حديث أبي هريرة وابن ماجة في الزهد ٤٣٢٥ ج ٧ ترمذي

عباده أن يشكروه على منافعه معهم . ووجه آخر في دحض مذهبهم هو أنه يلزم على قولهم أن تكون إماتة الأنبياء والمرشدين بعد حين من حياتهم، مع تبقية إبليس وذريتـه من الضالين المضلين إلى يوم الدين أصلح عنـدهم لعباد الله ، وكفى بهذا فظاعة . وأخيراً حجة نسوقها على لسان أبي الحسن الأشعري حينما كان أحد تلامذة أبي هاشم الجبائي كبيرهم ، فبينما كان الجبائي يقرر هذه المسألة في درسه يوماً ، قال أبو الحسن : ماتقول في ثلاثة أخوة ، مات أحدهم كبيراً طائعاً ، ومات الثاني كبيراً عاصياً ، ومات الثالث صغيراً ؟ فقال الجبائي : الأول يثاب بالجنة ، والثاني يعاقب بالنار ، والثالث لاثواب له ولا عقـاب ، (لأنهم يقولون بالمنزلة بين المنزلتين) فقال الأشعري : فإن قال الثالث : يارب لم أمتني صغيراً ولم تبقني حتى أبلغ فأطيعك فأدخـل الجنة ؟ فقال الجبـائي : يقول له ربه : علمت أنك لو كبرت عصيت ، فتدخل النار ، فكان الأصلح لك أن تموت صغيراً . فقال الأشعري : فإن قال الثاني : يارب لم ما علمت أني إن كبرت عصيت فدخلت النـــار فلم لم تمتني صغيراً حتى أكون كأخي ؟ مـــاذا يقول الرب ؟ فبهت الجبائي . وفي ذلك الحين ترك الأشعري درسه ومذهبه ، واشتغل هو وأتباعه بإبطال مذهب المعتزلة ، وإثبات ما وردت به السنة ومضى عليه الجماعة من السلف الصالح ، ولذلك سموا أهل السنة والجماعة .

● زور : أي قولهم في مذهبهم : إن الصلاح واجب زور . والزور هو الباطل فمذهبهم باطل ومن أسمج المذاهب لأنه لو وجب عليه سبحانه

الأصلح لما بقي للتفضيل مجال ولم يكن له تعالى خيرة في الإنعام، وهو باطل في قوله تعالى :

« وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ».(١)

وقوله : « يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ».(٢)

● ماعليه واجب : أي ليس عليه تعالى واجب من فعل أو ترك لأنه تعالى فاعل بالإختيار وأما الآيات الدالة على الوجوب عليه تعالى فمحمولة على أن المراد بها الوعد تفضلا منه سبحانه، كقوله تعالى :
« وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا ».(٣)
وكذلك الأحاديث الدالة على ذلك .

---

(١) القصص ٦٨ .
(٢) آل عمران ٧٤ .
(٣) هود ٦ .

٥٢ - أَلَمْ يَرَوْا إِيلامَهُ الأَطْفالا ... وَشِبْهَها فَحاذِرِ المُحالا

● ألم يروا إيلامه الأطفالا : أي ألم ير المعتزلة بأبصارهم إيلامه الأطفال وينبه المصنف بهذا على فساد مذهب المعتزلة . والطفل هو من لم يبلغ الحلم ، وحكمة إيلامهم حصول الثواب لأبويهم ، لأن ذلك من المصائب التي يثاب الشخص عليها ، ولهذا قال إمام الحرمين : شدائد الدنيا مما يلزم العبد الشكر عليها ، لأنها نعم حقيقة . وقال سيدنا عمر رضي الله عنه : « ما ابتليت ببلاء إلا كان لله تعالى عليّ فيه أربع نعم ، إذ لم يكن في ديني ، وإذ لم يكن أعظم ، وإذ لم أحرم الرضا به ، وإذ لم أرجو الثواب عليه[1] » .

● وشبهها : أي وشبه إيلام الأطفال كالعجزة والدواب ، فإنهم لا نفع لهم في إنزال الأسقام بهم .

● فحاذر المحالا : أي فاحذر عقاب الله تعالى النازل بهم على إضلالهم .

قال تعالى : « وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللهِ وَهُوَ شَدِيدُ المِحَالِ » .[2]

أو فاحذر المُحَال أي الشك في ذلك . أو فاحذر المُحال أي الممتنع ، وهو وجوب شيء عليه تعالى .

(١) مختصر منهاج القاصدين ص ٣٠٤ .

(٢) الرعد ١٣ .

● وجائز عليه خلق الشر : هنا رد على المعتزلة في قولهم : « إن الله تعالى يمتنع عليه إرادة الشرور والقبائح » . زعموا أنه تعالى أراد من الكافر الإيمان وإن لم يقع منه ، ولم يرد الكفر وإن وقع منه ، وكذا أراد من الفاسق الطاعة لا الفسق ، حتى أن أكثر ما يقع من العباد خلاف مراده تعالى ، بنوا ذلك على أصلهم الفاسد من الحسن والقبيح العقليين » فقال : « وجائز عليه » : أي عندنا جائز عقلاً عليه تعالى إرادة إيجاد الشر بإجرائه على أيدي العباد ، وهو مايعبرون عنه بالقبيح . والقبيح : ما يكون مُتَعَلِّقَ الذم في العاجل والعقاب في الآجل » ، لأن الحسن عندنا ما حسنه الشرع والقبيح ما قبحه الشرع .

والمعتزلة استدلت على مذهبهم . بأن إرادة الشر شر ، وإرادة القبيح قبيحة والله تعالى منزه عن الشرور والقبائح ، ورد بأنه لا يقبح من الله تعالى شيء وغاية الأمر أنه يخفى علينا وجه حسنه . ويلزم على مذهبهم أن أكثر مايقع في ملكه تعالى غير مراد له ، لأن الشرور أكثر من الخيرات ، ورد مذهبهم قوله ﷺ :

« ماشَاءَ اللّهُ كَانَ وَمَا لَمْ يَشأْ لَمْ يَكُنْ » .

والقبيح عندهم هو الحرام بخصوصه ، والحسن ما يشمل الواجب ، والمندوب والمباح ، والمكروه ، وخلاف الأولى إن لم ندخله في المكروه . واصطلح كثير من أهل السنة على أن المنهي عنه مطلقاً قبيح ، والأحسن ماقاله إمام الحرمين : أن المكروه - ومنه خلاف الأولى - ليس بحسن ولا قبيح .

● والخير كالإسلام : « أي وجائز عليه إرادة خلق الخير كالإسلام مثلاً ، فمثل الخير بالإسلام ، والشر بجهل الكفر . لأن مذهب أهل السنة : أن

الإرادة تتعلق بالممكنات بأمرها ، لا يند عنها ممكن ما ، كالقدرة في تعلقها بالممكنات ، لكن الإرادة تخصص الممكن ببعض ما يجوز عليه ، والقدرة تبرز ماخصصته الإرادة ، والإرادة غير العلم والرضا والأمر .
ومذهب المعتزلة : أن الإرادة والرضا والأمر شيء واحد ، ولا تتعلق إلا بما هو خير ، فوافقوا أهل السنة في أنه سبحانه يريد الخير ، وخالفوهم في أنه يريد الشر .

● وجهل الكفر (١) : لما مثل بالإسلام على إرادته الخير ، مثل بجهل الكفر على إرادته خلق الشر . والكفر ضد الإيمان ، فهو إنكار ما علم مجيء النبي ﷺ به من الدين بالضرورة أو ما يستلزمه .

---

(١) أضاف الناظم الجهل إلى الكفر لأنه سببه ، وإن كان له أسباب أخرى لعل من أخطرها الجهل ، إذا أنه لا يعرو عنه سبب ما من أسبابه الأخرى . وقد يكون جهلاً محضاً وهذا يزهق بأول جولة مع دوامغ الحق .

وربما خالطه اعتزاز بالنفس ، ومازجه تكبر وعناد . ويأبى هؤلاء استماع النصيحة ، والإنصياع لها ، والرجوع عن الخطيئة استغراقاً في الأثرة وتجاهلاً للفضل حيثما ظهر . وقد قال الله تعالى فيهم : « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً » وهم لايقتصرون على جريتهم في أنفسهم بل يدأبون على جر الآخرين إلى ماهم فيه ، رغبة في الفساد ونشر الضلال في الأرض ، وصداً عن سبيل الله ، وقد قال تعالى فيهم :« ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم ، يرجع بعضهم الى بعض القول . يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا : لولا أنتم لكنا مؤمنين .:. « وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار ، إذ تأمروننا أن نكفر بالله ، ونجعل له أنداداً . وأسروا الندامة لما رأوا العذاب » .

وقد يكون جهلاً غارقاً في لجج الهوى ، وما أثقل حجاب الهوى على القلوب بل ما أغلظ أقفاله ، وما أشد استبداده بصاحبه ، حتى إنه ليطفيء فيه قبس العلم ويجعل موازينه خاضعة لمثاقيل هواه . قال تعالى: « واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها ، فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ، ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه » . وإذا ما تمكن الهوى من القلب استحال تخلصه منه ، =

٥٤ - وَوَاجِبٌ إيمانُنَا بالقَدَرِ وَبالقَضَا كَمَا أَتى فِي الخَبَرِ

● وواجب إيماننا : غرض المصنف - هنا - الرد على القدرية التي تنفي القدر وتزعم أنه تعالى لم يقدر الأمور أزلاً ، وتقول : الأمر يستأنفه الله علماً حال وقوعه ، ولقبوا بالقدرية لخوضهم في القدر حيث بالغوا في نفيه . وهؤلاء انقرضوا قبل الإمام الشافعي رضي الله عنه أي قبل انقضاء القرن الهجري الثاني . وثمة فرقة أخرى أطلقوا عليها اسم القدرية وهي إحدى فرق المعتزلة ، وهم القائلون بأن العبد خالق لأفعال نفسه الإختيارية ، والمثبتون - مع أهل السنة - أن الله تعالى عالم بالعبد أزلا قبل وقوعها منه ، وقد مضى الرد على هذه الطائفة في قوله: « فخالق لعبده وما عمل » ، فهما قدريتان ، الأولى : وهي تنكر سبق علمه تعالى بالأشياء قبل وقوعها وتخوض في القدر حيث بالغت في نفيه . والثانية : تنسب أفعال العباد إلى قدرهم ، ومذهب الثانية أخف من الأولى - الذي هو كفر - ، وإن كان باطلاً مثله .

= ولن تقتلع جذوره إلا بالموت . من هنا نعلم خطر البدعة ، وبخاصة في الإعتقاد اذ ما من بدعة الا ومنشؤها الهوى .

ويكون الجهل - أحياناً - محاطاً بأشباح الخوف ، محدقة به وساوسه ، وهذا نوع يصعب شفاؤه ، اذ أن صاحبه يظل في حذر مفرط ، وتردد واحجام ، يقعدانه في زوايا العزلة القاتلة ، ويجعلانه دوماً - في الصف الأخير سلبياً خامراً . وقلما يخلو خوف من نفاق . وإن الله تعالى قد عرض مشهداً حياً لهذا الصنف من الناس ، مظهراً منهم خلجات القلوب المنافقة المرعوبة التي تبغي النجاة بأي سبيل ، قال عز وجل: « ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ، ولكنهم قوم يفرقون . لو يجدون ملجأ ، أو مغارات ، أو مدخلاً لولوا إليه وهم يجمحون » .

فما أروعها صورة تبعث الشفقة مشوبة بالإشمئزاز . أما القلب العارف المطمئن فلا سبيل للقلق والخوف اليه ، قال تعالى فيه : « يجاهدون في سبيل الله ، ولا يخافون لومة

وفيه مسألتان ، الأولى : أن الإيمان بالقضاء والقدر يستدعي الرضا بهما ، فيجب الرضا بهما ، واستشكل بأنه يلزم على ذلك الرضا بالكفر والمعاصي لأن الله قضى بها وقدرها ، مع أن الرضا بالكفر كفر ، وبالمعاصي معصية ! فقال السعد : إن الكفر والمعاصي مقضي ومقدر ، لا قضاء وقدر ، والواجب الإيمان به إنما هو القضاء والقدر وليس المقضي والمقدر ، فالمؤمن بها لا يعترض على الله في قضائه وقدره ، ويعتقد أنه لحكمة وإن كنا لانعلمها ، وإنما يعترض على الكافر والفاسق في اختيارهما واكتسابها . والمسألة الثانية : أنه وإن وجب الإيمان بالقدر لا يجوز الإحتجاج به قبل الوقوع توصلا إليه أو بعد الوقوع تخلصاً من الحد أو نحوه ، بأن يقول : قدر الله علي الزنا وغرضه التوصل إلى الوقوع فيه ، أو قال بعد وقوعه في

لاثم » . وقال: « لايخشون أحداً إلاالله » . ومهما تجبر الباغي وتعنت الطاغي فلن ينثلم من الإيمان أو يخفت من نوره ، أو ينزل من علياء القلب المؤمن لما قر فيه من المعرفة، فها هو ذا فرعون يهدد من آمن ، بقوله تعالى على لسان فرعون : « لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ، ولأصلبنكم في جذوع النخل ، ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى » . فماذا يجيبون ؟ : قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا . فاقض ماأنت قاض ، إنما تقضي هذه الحياة الدنيا ».

وأحياناً أخرى يشاب الجهل بمظنة العلم ، والأنكى من ذلك أن يدعي الجاهل الرسوخ في العلم ، وهذا هو الجهل المركب، الذي يتعذر شفاؤه ، قال تعالى : « ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله » .

وقد ذكر السنوسي في المقدمات أن أصل الكفر والبدع سبعة أمور . أولها - الايجاب الذاتي ، وهو إسناد الكائنات الى الله تعالى على سبيل التعليل أو الطبع من غير =

الزنا : قدر الله علي ذلك ، فأما الإحتجاج به بعد الوقوع لدفع اللوم فقط فلا بأس به ففي الحديث الصحيح :

« أنَّ رُوحَ آدمَ التقتْ مع روحِ موسى عليهما الصلاةُ والسلامُ فقالَ موسى لآدمَ أنتَ أبو البشَرِ الذي كنتَ سبباً لإخراجِ أولادِك من الجنّةِ بأكلكَ من الشجرةِ ، فقالَ آدمُ : يا موسى فأنتَ الذي اصطفاكَ اللهُ بكلامهِ وخطّ لكَ التوراة بيدهِ ، تلومُني على أمرٍ قدْ قدّرهُ اللهُ عليّ قبلَ أنْ يخلُقني بأربعين ألفَ سنةٍ . قال النبيُّ ﷺ : فحجّ آدمُ موسى . يريدُ أنّهُ غلبهُ بالحُجّة »[1] .

● بالقدر وبالقضاء : اختلف الأشاعرة والماتريدية في كل من القدر والقضاء فقال الأشاعرة : القدر إيجاد الله الأشياء على قدر مخصوص ووجه معين أراده تعالى فهو عبارة عن الإيجاد عندهم ، وهو من صفات الأفعال . وقال الماتريدية : « القدر هو تحديد الله أزلاً كل مخلوق بحـده الذي يوجد

= اختيار منه تعالى . وهو أصل كفر الفلاسفة الذين جعلوا ذاته تعالى علة للممكن بلا اختياره .

ثانيها : التحسين العقلي ، وهو كون أفعال الله تعالى وأحكامه موقوفة عقلاً على الأغراض ، وهي جلب المصالح ودفع المفاسد . وهذا أصل كفر البراهمة حتى نفوا النبوات ، اذ قالوا باكتفاء العقل في معرفة الحسن والقبيح ، وأصل ضلال المعتزلة حتى أوجبوا على الله تعالى مراعاة الصلاح والأصلح لخلقه .

ثالثها : التقليد الرديء ، وهو متابعة الغير لأجل الحمية والتعصب من غير طلب للحق . وهو أصل كفر عبدة الأوثان وغيرهم ، حتى قالوا : إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مقتدون » . =

(١) أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، والنسائي وأبو داوود وابن ماجه ، وأخرجه الترمذي بنحوه في الجزء السادس ص ٣٠٧ برقم ٢١٣٥ .

عليه من حسن وقبح، ونفع وضر، إلى غير ذلك، فهو علمه تعالى أزلاً بصفات المخلوقات، وهو - عندهم - راجع لصفة العلم وهي من صفات الذات. وأما القضاء - عند الأشاعرة - فقد قالوا: هو إرادة الله الأشياء في الأزل على ماهي عليه فيما لا يزال، فهو من صفات الذات وعند الماتريدية: هو إيجاد الله الأشياء مع زيادة الإحكام والإتقان، فهو راجع لصفات الأفعال. وعلى هذا يكون القدر - عند الأشاعرة - حادث، والقضاء قديم. وعلى العكس عند الماتريدية، وحمل الشارح كلام المصنف على على مذهب الماتريدية في القدر والقضاء. لأن القضاء لغة له نحو معان سبعة، أشهرها الحكم، وهو يرجع للفعل، فناسب أن يفسر - اصطلاحاً - بالفعل. وأما القدر فلم يرد أن معناه في اللغة الفعل، فناسب ألا يفسر في الإصطلاح بالفعل بل بالعلم.

= رابعها: الجهل بالربط العادي، وهو ثبوت التلازم بين أمر وأمر، وجوداً وعدماً، بواسطة التكرار. وهوأصل كفر الطبائعيين، وضلال من اتبعهم من جهلة المؤمنين

خامسها -: الجهل المركب، وهو أن يجهل الحق ويجهل جهله به.

سادسها: التمسك في عقائد الإيمان بمجرد ظواهر الكتاب والسنة من غير عرضها على البراهين العقلية والقواطع الشرعية. وهو أصل ضلال الحشوية إذا قالوا بالتشبيه والتجسيم والجهة.

سابعها -: الجهل بالقواعد العقلية التي هي العلم بوجوب الواجبات. وجواز الجائزات، واستحالة المستحيلات ١٠ هـ.

تنبيه:

إن الرضا بالكفر كفر، وكذلك جعل الحرام حلالاً أو مباحاً، واستحسان المعاصي أو تجويد القتل بغير حق، وتعظيم أعياد الكفرة، ومساوات الحلال بالحرام، واعتقاد أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليست من الواجبات المقررة في الأصول، والقول عن الظلم بأنه عدل. (انظر خواتيم كتاب الفقه الأكبر للإمام أبي حنيفة رحمه الله تعالى).

وبعد هذا كله فالقضاء والقدر راجعان لمــا تقدم من العلم والإرادة وتعلق القدرة ، وأنه يجب على المكلف أن يؤمن بأن الله سبحانه علم أزلا بجميع أفعال العباد ، وخصص بإرادته ـ سبحانه ـ أزلاً هذه الأفعال على وفق العلم وأنه أوجدها ـ حين أوجدها فيما لا يزال ـ على القدر المخصوص والوجه المعين الذي سبق العلم به وخصصته الإرادة ، بل إن ذلك مما لا يتحقق الإيمان إلا به

● كما أتى في الخبر : أشار المصنف ـ هنا ـ إلى أن دليل القضاء والقدر سمعي ، ومن جملة ماورد في السمع ماروي عن سيدنا علي كرم الله وجهه أنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« لايؤمنُ عَبْدٌ حَتّى يُؤمنَ بأرْبَعٍ : يَشْهَدُ أنْ لاإلَهَ إلاّ اللهُ وأنّي مُحَمَّدٌ رَسولُ اللهِ بعثني بالحقّ ، ويؤمنُ بالموتِ ، وبالبعثِ بَعْدَ الموتِ ، ويؤمنُ بالقَدَرِ »[1] .

وعن جابر بن عبد الله قال ، قال رسول الله ﷺ :

« لايؤمنُ عَبْدٌ حتّى يُؤمنَ بالقَدَرِ خَيْرِه وشَرِّه ، وحتّى يَعلَمَ أنَّ ما أصابَهُ لمْ يَكُنْ لِيُخطِئَهُ وأنَّ ما أخطأهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصيبَهُ »[2] .

وإنما عولوا على الدليل السمعي لأنه للعامة أسهل ، وإلا فقد علم مما مر أن القضاء والقدر يرجعان إلى الصفات المعول فيها على الدليل العقلي[3] .

---

(١) أخرجه الترمذي ٦/٣١٩ برقم ٢١٤٦ .

(٢) الترمذي كذلك ٦/٣١٧ برقم ٢١٤٥ .

(٣) قال سيدي محمد الهاشمي في كتابه مفتاح الجنة ص (١٥٦) : فكل شيء من الممكنات هو بقدرته تعالى وإرادته وعلمه ، ودل عليه كلامه . فالقضاء والقدر عقيدة=

• • • • •

= سمية جزئية من الكلي (الذي هو الجائز الذاتي في حقه تعالى) تندرج في معاني العلم والإرادة والقدرة والكلام ، وبرهانها العقلي هو برهـــان هذه الصفات الثلاث ، ودليلها النقلي هو دليل هذه الصفات الأربع . بزيادة الكلام – لأنها سمعية . ١ هـ .

فعليه يرجع القضاء والقدر إلى صفات العلم والإرادة والقدرة. فالعلم يتعلق بالمقدور – أزلاً – تعلق انكشاف لا إجبار فيه ، والإرادة تتعلق بالمقدور أيضاً – أزلاً – تعلق تخصيص على وفق العلم ، فتخصص المقدور ببعض ما يجوز عليه . والقدرة تتعلق بالمقدور تعلق إيجاد وإمداد وإعدام على وفق ما خصصته الإرادة . وعلى هذا يتبين أن القضاء والقدر لا يقتصران على بعض المكونات كالكوارث مثلاً ، بل كل شيء بقضاء وقدر . روى البخاري في صحيحه والإمام مالك في موطئه أن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه لما خرج إلى الشام في إحدى قدماته لقيـه في « سرغ » قرب تبوك أمراء الأجناد، أبو عبيدةوأصحابه ، فأخبروه أن الطاعون في الشام . قال ابن عباس فقال عمر : ادع لي المهاجرين الأولين ، فدعاهم فاستشارهم وأخبرهم أن الوباء وقع في أرض الشام ، فاختلفوا ، فقال بعضهم : معك بقية الناس وأصحاب رسولالله صلى الله عليه وسلم ولا نرى أن تقدمهم على هذاالوباء وقال بعضهم:قد خرجت لأمر ، ولا نرىأن ترجع عنه ، فقال:ارتفعوا عني . ثم قال: ادع ليالأنصار فدعوتهم . فاستشارهم فسلكوا سبيل المهاجرين واختلفوا كاختلافهم ، فقال:ارتفعوا عني . ثم قال:ادع لي من كان – هنا – من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح ، فدعوتهم ، فلم يختلف منهم عليه رجلان ، فقالوا : نرى أن ترجع بالناس لا تقدمهم علىهذا الوباء . فنادى عمرفي الناس إني مصبحعلى ظهر فأصبحوا عليه . قال أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه : أفراراً من قدر الله ؟ فقال عمر : لو غيرك قالها يا أبا عبيدة ، نعم نفر من قدر الله الى قدر الله. أرأيت لو كانت لك إبل هبطت وادياً ، له عدوتان إحداها خصبة ، والأخرى جدبة ، أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله ، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله ؟.

وهنا تتهاوى شبهات الذين يحسبون أن العبد مجبور ، وخاصة اذا علمنا أن القضاءالذي هو تعلق علمه سبحانه بالأشياء ، أزلاً ، على سبيل الكشف ، على الصورة التي ستوجد عليها وعلمه تعالى ليس بمجبر ، إنما هو كاشف .

=

= والله تبارك وتعالى قد علم أزلاً ماسيفعله كل انسان ، فكتب سبحانه أعمال العباد على وفق علمه بها ، ثم بعد ذلك ظهر إيمان من آمن ، وكفر من كفر ، وعصيان من عصى ، فعلمه تعالى ليس مجبراً ، وكتابته سبحانه ليست مجبرة أيضاً لأنها على وفق العلم ، وبهذا استحق المؤمن الثواب والكافر العذاب ، فأين الإجبار فيما كتبه الله تعالى علينا ؟ إذن فالقدر إنما هو إيجاد ما علم الله إيجاده في عالم الحكمة على وجه يوافق القضاء السابق .

وقد قال الإمام جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه وقد سئل ، هل العباد مجبرون ؟ فقال : الله أعدل من أن يجبر عبده على معصية ثم يعذبه عليها ، وليمت الكائدون للإسلام بغيظهم ، الذين يهرفون بأن الإيمان بالقضاء والقدر يورث كسلاً وخمولاً ، وكيف يكون مدعاة للكسل والخمول ، والذين آمنوا قد دحروا كل ظالم وطاغية حتى أشرقت البسيطة بعدل الإسلام ، وحطموا كل طاغوت ، وكانوا في شدة البأس مثالاً ، وفي الجرأة بالحق والصدع به نبراساً ، لذلك قال المستشرق الألماني ديبور : إن المسلمين حينما اتبعوا أمر دينهم واستسلموا لله في الصدر الأول دكوا معاقل القياصرة : وحطموا حصون الأكاسرة ، لإعلاء كلمة الله ، واتخذوا ـ كما امرهم دينهم ـ لكل شيء سبباً ، وأعدوا مااستطاعوا من قوة ومن رباط الخيل ، حتى لكأنما صغرت رقعة الدنيا فطووها في فتوحهم طياً .

وإنهم رضي الله عنهم إيماناً منهم بالقضاء والقدر لم يهنوا لأحد ، ولم يخضعوا إلا لرب السموات والأرض ، ومارضوا إلا به حافظاً إياهم ونصيراً لهم. فقد أخرج أبو داوود وابن عساكر عن يحيى بن مرة قال : كان علي رضي الله تعالى عنه يخرج بالليل الى المسجد يصلي تطوعاً فجئنا نحرسه ، فلما فرغ أتانا فقال : مايجلسكم ؟ قلنا : نحرسك ، فقال : أمن أهل السماء تحرسون أم من أهل الأرض ؟ قلنا : بل من أهل الأرض ، قال: انه لا يكون في الأرض شيء حتى يقضى في السماء ، وليس من أحد إلا وقد وكل به ملكان يدفعان عنه ويكلآنه حتى يجيء قدره ، فإذا جاء قدره خليا بينه وبين قدره وإن علي من الله جنة حصينة فإذا جاء أجلي كشفت عني ، وانه لا يجد طعم الإيمان عبد حتى يعلم أن ماأصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، فهم رضي الله عنهم قد استقر في أعماقهم ، وفي أرواحهم إنه لاتطرف في العالم عين ولا تهب نسمة هواء ، ولا يحدث فيه حادث ، صغيراً كان أو كبيراً ، إلا بعلم الله تعالى وإرادته وقدرته ، ولقد =

= امتزج هذا بدمائهم، فاستسلموا لله تعالى مخبتين خاضعين بأن ماشاءه كان ، وما لم يشأه لم يكن ، وهو سبحانه قد أمرهم بالعمل ، وبالضرب في مناكب الأرض ، وبالجهاد لإعلاء كلمته ، وسحق أئمة الكفر « إنهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون » فاستجابتهم هذه من الإستسلام ، فلا تناقضه . وناهيك بإمامهم صلى الله عليه وسلم فلقد كانت حياته كلها استسلاماً لله تعالى ، وإيماناً بقدره ، وجهاداً ؛ وتضحية ،ودعوة دائبة لا تني ولا تفتر ؛ حتى لقد كسرت رباعيتاه وجرحت ركبتاه وشج رأسه ورمي بالحجارة حتى سالت الدماء من عقبيه في الطائف ، وهاجر من مسقط رأسه ومألف نفسه « مكة » إلى المدينة . ومن كل ما تقدم يتضح أن الإيمان بالقضاء والقدر إنما هو إيمان بالحقيقة ، وطاعة لله تعالى يثاب عليها،وأن الكفر بها إنما هو كفر بالحقيقة الواقعة ومعصية لله تعالى يعاقب عليها ، وليت شعري هل شيء أثلج للقلوب من معرفة الحقيقة والإيمان بها ؟ . أخرج ابن عساكر عن علي رضي الله عنه أنه قال . من رضي بقضاء الله جرى عليه ، وكان له أجر ، ومن لم يرض بقضاء الله جرى عليه وحبط عمله . وقد جاء رجل إلى ابن عمر رضي الله تعالى عنهما فقال له : إن فلاناً يقرأ عليك السلام يريد رجلاً من أهل الشام ، فقال ابن عمر إنه بلغني أنه قد أحدث التكذيب بالقدر ، فإن كان قد أحدث فلا تقرأ مني عليه السلام . وللعبد أمام القضاء والقدر أحوال ذكرها الإمام الغزالي في كتابه «الأربعين في أصول الدين » فقال : إن قضاء الله تعالى على أربعة أوجه: قضاء الطاعات ، وقضاء المعاصي ، وقضاء النعم ، وقضاء الشدائد .

والمذهب المستقيم في ذلك أنه إذا قضي للعبد الطاعة فعليه أن يستقبله بالجهد والإخلاص حتى يكرمه الله تعالى بالتوفيق والهداية. وإذا قضيت عليه المعصية فعليه أن يستقبلها بالإستغفار والتوبة والندامة من صميم الفؤاد. وإذا قضيت له النعمة فعليه أن يستقبلها بالشكر والسخاء حتى يكرمه الله تعالى بالزيادة . وإذا قضيت عليه الشدة فعليه أن يستقبلها بالصبر حتى يعطيه الكرامة في الدار الآخرة .

وثمة أمور ينبغي ملاحظتها : منها أن كل ما يتناول العباد من عقاب إلهي في الدنيا أو في الآخرة فبشؤم ذنوبهم وسوء سلوكهم ، قال الله تعالى: « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ، ويعفو عن كثير ». وقال أيضاً : « وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة =

. . . . .

مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله ، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » . وقال : «ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون » . والمراد بالبر – هنا – الفيافي ، والبحر : الأمصار والقرى ، وبظهور الفساد : النقص في الزروع والثمار . قال أبو العالية «من عصى الله في الأرض فقد أفسد في الأرض لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة » ، ولهذا جاء في الحديث : «لحد يقام في الأرض أحب إلى أهلها من أن يمطروا أربعين صباحاً » . والسبب في هذا أن الحدود إذا أقيمت انكف الناس أو أكثرهم عن تعاطي المحرمات ، وإذا اجتنبت المعاصي كان سبباً في حصول البركات من السماء والأرض ، ولهذا إذا نزل عيسى ابن مريم عليه السلام ، في آخر الزمان يحكم بهذه الشريعة المطهرة في ذلك الوقت فلا يقبل إلا الإسلام أو السيف ، فإذا أهلك الله في زمانه الدجال وأتباعه ، ويأجوج ومأجوج ، قيل للأرض : أخرجي بركتك ، فيأكل من الرمانة الفئام من الناس ويستظلون بقحفها ويكفي لبن اللقحة الجماعة من الناس ، وما ذاك إلا ببركة تنفيذ الشريعة المطهرة ، فكلما أقيم العدل كثرت البركات والخيرات ولهذا ثبت في الصحيحين : أن الفاجر إذا مات يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب .

ومن هذه الأمور أن الخلط من جملة المقدورات الإلهية ، كالحرمان تماما إذ كل شيء بقضاء الله وقدره كما أسلفنا .

ومنها أنه قد أسدلت دوننا سجف الغيب ، فما ندري ما الذي تعلق به علمه تعالى إلا بعد ظهوره في عالم الشهادة ، ونحن إنما طولبنا بالنظر إلى الأعمال المشروعة ، والقيام بها فحسب ، لهذا لا ينبغي لأحد أن يزعم أنه قد قدرت عليه معصية ما قبل وقوعها ، بغية الوصول إليها .

ومنها أنه صلى الله عليه وسلم قد وضح لنا المنهج الكامل الناظم لحياتنا كلها فحذرنا من كل ما يؤدي بي الجحيم ، وحثنا على كل ما يدخل النعيم ، وما علينا إلا أن نأخذ بالأسباب المشروعة – وهذا عمله الجوارح – ونفوض النتائج لله تعالى وهذا عمله القلب – ومن عكس انتكس ، وتردى في بؤرة التواكل المذموم .

٥٥ـ وَمِنْهُ أَنْ يُنْظَرَ بِالأَبْصَارِ لَكِنْ بِلا كَيْفٍ وَلا انْحِصَارِ

● ومنه أن ينظر : أي ومن بعض جزئيات الجائز عقلا عليه تعالى أن ينظر الله تعالى بالأبصار ، بمعنى أن العقل إذا خلي ونفسه لم يحكم بامتناع الرؤية ولا بوجوبها . والقد ذهب أهل السنة الى أنه تعالى يجوز أن يرى ، والمؤمنون يرونه في الجنة منزهاً عن المقابلة والجهة والمكان . فكما يعلمون أنه سبحانه ليس في جهة يرونه كذلك بلا جهة . فالرؤية جائزة عقلاً دنيا وأخرى ، لأنه سبحانه موجود ، وكل موجود يصح أن يرى ، لكنها لم تقع في الدنيا إلا لنبينا محمد ﷺ وهي واجبة شرعاً في الآخرة كما أطبق عليه أهل السنة ، للكتاب والسنة والإجماع . وقبل الخوض في سرد الأدلة نورد أسئلة تترتب من طبيعة المسألة ، ثم نورد أجوبتها ، والأسئلة هي :

١ ـ هل الرؤية مما يجوزه العقل ؟.

٢ ـ وهل في السمع مايدل على جوازها ؟.

٣ ـ وهل في السمع ما يجوز وقوعها في الدنيا ؟ ، أو أن ما ورد فيه ـ إن دل على الجواز ـ خاص بالآخرة .

السؤال الأول : هل الرؤية مما يجوزه العقل ؟.

ذهب المعتزلة إلى عدم تجويز العقل رؤية العباد لربهم ، بل إن العقل يحكم بامتناعها . وأجمع الأئمة من أهل السنة على أنها مما يجوزه العقل . راحتج المعتزلة على مقالتهم : بأننا نعلم علم اليقين أن الله تعالى ليس

بجسم ، ولا في جهة من الجهات ، وأنه يستحيل عليه المقابلة والمواجهة وتقليب الحدقة نحوه . والرؤية لاتتحقق إلا إن كان المرئي في الجهة المقابلة لنظر الرائي ، لهذا لايمكن لعبد أن يرى ربه ، لا في الدنيا ولا في الآخرة .

وأجاب أهل السنة : بأننا لا نسلم لكم ما زعمتموه من عدم تحقق الرؤية إلا إن كان المرئي مقابلاً للرائي ، بل نحن نقول : إن الرؤية قوة يجعلها الله تعالى في عبده متى شاء من غير لزوم مقابلة المرئي، ولا لزوم كونه في جهة وحيز ، ونقول : إن الله تعالى ليس بجسم ولا هو في جهة ، وإنه يستحيل عليه المقابلة والمواجهة ، ومع ذلك يصح أن ينكشف لعباده انكشاف القمر ليلة البدر كما ورد في صحيح الأحاديث.

السؤال الثاني : هل في السمع مايدل على جوازها ؟ .

فقد ذهب المعتزلة إلى نفي الدليل السمعي الصريح في الرؤية، بل قالوا : إن في السمع مايدل على أنها لاتجوز ولزمهم أن يؤولوا صريح القرآن وصحيح الأحاديث ليوافق ماذهبوا إليه ، كحمل الجبائي قوله تعالى: (ناظرة) في هذه الآية :

« وجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ » .(١)

على معنى الإنتظار ، وجعل (إلى) بمعنى النعمة ، وكأنه قيل : وجوه يومئذ منتظرة نعمة ربها . وهو كلام عجيب ، فيه من الهوى الجامح

---

(١) القيامة ٢٢ - ٢٣ .

مافيه ، لأن الإخبار بانتظارهم النعمة والثواب لايتلاءم والمقام ، بل ينافيه أشد المنافاة ، إذ أن في الإنتظار موتاً أحمر ، فهو بالغم والقلق والهم، وضيق الصدر أجدر ، أضف إلى ذلك أن النظر المتعدي بـ (إلى) ، والمسند إلى الوجه بما لم يثبت عند الثقات بمعنى الإنتظار . ومدعمهم في هذا المذهب قوله تعالى حكاية عن موسى عليه الصلاة والسلام :

« رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ : لَنْ تَرَانِي ، وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى الجَبَلِ ، فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ، فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا ، وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً » [1] .

قالوا : أجاب الله بـ (لن تراني) فنفى الرؤية ثم علقها على استقرار الجبل وهو يعلم أنه لن يستقر ، فكأنه علقها على أمر مستحيل ، فتكون رؤيته سبحانه مستحيلة .

– وأهل السنة يقولون إن في السمع كثيراً من الآيات الكريمة ، والأحاديث الصحيحة تدل صراحة على جوازها ، بل إن الآية التي أحتج بها المعتزلة وذندنوا حولها تدل نفسها على جوازها ، ومن عدة وجوه ، الأول : أن سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام قد طلبها ، ولا شك أنه أدرى من المعتزلة بما يجوز في حقه تعالى وبما لا يجوز ، ولو كان يعلم استحالتها لما استاغ أن يطلبها . والثاني أنه سبحانه علق حصول الرؤية

(١) الأعراف ١٢٣ .

في آخر الآية على أمر جائز في نفسه ، وهو استقرار الجبل ، بل هو من حيث ذاته أقرب من صيرورته دكاً ، وكل أمر يعلق على أمر جائز فهو جائز ، وادعاء المعتزلة من أنه سبحانه يعلم أنه لا يستقر لا يخرجه عن كونه جائزاً . وقد قال المعتزلة في الآية حذف مضاف وهو : « أرني آية من آياتك » ، وهو فاسد ، كيف وموسى عليه الصلاة والسلام اختص من من الله تعالى بآيات كثيرة ؟ ، واندكاك الجبل أعظم آية من آياته ، فكيف يستقيم نفي الرؤية ؟ ، بل كيف يصح تعلق رؤيتها بالاستقرار ؟ ، وإنما الآية عند اندكاك الجبل وقالوا أيضاً : إنه إنما سألها لأجل قومه . وهو قول باطل أيضاً ، لأن تجويز الرؤية باطل ، بل هو كفر عند أكثر المعتزلة ، فلا يجوز لموسى عليه الصلاة والسلام تأخير الرد عليهم ، وتقرير الباطل . ألا ترى أنهم لما قالوا له :

« اِجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ » .

رد عليهم لساعته :

« إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ »[1].

ولأن القوم إنما يصدقون نبيهم فيكفيهم إخباره بامتناع الرؤية ، هذا وإن لم يصدقوه فلا تفيدهم حكايته عن الله تعالى وإنما أخذتهم الصاعقة بقصدهم التعنت ، لا لطلبهم الباطل . والحق أن السائلين القائلين :

« لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً »[2].

(١) الأعراف : ١٣٨
(٢) البقرة : ٥٥

لم يكونوا مؤمنين ، ولم يكونوا حاضرين عند سؤاله عليه الصلاة والسلام الرؤية . وقد نقل ابن فورك عن الأشعري رحمه الله أنه قال :

قال تعالى : « لنْ تَراني » .

ولم يقل . لست برئي على ماهو مقتضى المقام لو امتنعت الرؤية . وإنه ليس معنى التجلي للجبل أنه ظهر عليه بعد ما كان محجوباً عنه ، بل إنه خلق فيه الحياة والرؤية فرآه . واحتج المعتزلة على نفيها بقوله تعالى :

« لا تُدرِكُهُ الأَبصارُ وَهُوَ يُدرِكُ الأَبصارَ » .

فقالوا إن الإدراك بالبصر هو الرؤية ، والادراك بالبصر منتف بهذه الآية. فأجابهم أهل السنة : بأن الإدراك بالبصر ليس بمجرد الرؤية ، بل هو رؤية مخصوصة ، وهي التي تكون على وجه الإحاطة بحيث يكون المرئي منحصراً بحدود ونهايات . فالمنفي في الآية أخص من مجرد الرؤية ، ولا يلزم من نفي الأخص نفي الأعم . وقد قال في المسايرة يدال على جواز الرؤية عقلاً : ... وأما عقلاً فلأنه غير مؤد إلى محال ، فوجب ألا يُعدل عن ظاهر النصوص الواردة ، إذ العدول عنه عند عدم إمكانه ، وذلك أن الرؤية نوع كشف وعلم للمدرك بالمرئي يخلقه الله تعالى عند مقابلة الحاسة له عادة ، فجاز أن يخلق هذا القدر من العلم بعينه من غير مقابلة بجهة أو إحاطة بجموع المرئي . وكما أنا نرى السماء ولا نحيط بها ، وكما يرانا الله تعالى من غير مقابلة في جهة باتفاق ، بل كما قد يخلق الله تعالى الرؤية من

(١) الأعراف : ١٤٣

(٢) الأنعام : ١٠٣

غير مقابلة لحاسة البصر أصلا نراه سبحانه وتعالى . وقد روي عنه ﷺ أنه قال للصحابة :

« سَوُّوا صُفوفَكُمْ فإنِّي أراكُمْ مِنْ وَراءِ ظَهْرِي »(١) .

السؤال الثالث : هل في السمع ما يدل على جوازها في الدنيـا ، أو هو - إن وجد - خاص بالآخرة ؟ . ولا خفاء في أن إثبات وقوع الرؤية لا يمكن إلا بالأدلة السمعية . وقد اتفقت الأمة قبل حدوث المخالفين على وقوعها ، ولكن من أهل السنة من قال : إن الوارد في السمع خاص في الآخرة . وعلى هذا تحمل الآيات التي تنفي جوازها ، كقوله تعالى :

« لا تُدْرِكُهُ الأبْصارُ » .

إن سلمنا أن الإدراك المنفي هو الرؤية فهذا خاص في الدنيـا ، أما في الآخرة فقد ثبت بدليل آخر أنه يرى ، وكذا قوله سبحانه :

« لَنْ تَرانِي » .

أي في الدنيا . وكانت السيدة عائشة ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما يقولان : كانت رؤية النبي لربه ليلة الإسراء والمعراج رؤيا منام ، ولم تكن يقظة ، ولعلهما قالا ذلك بناء على اجتهاد منهما ، وقد روى البخاري وغيره عن مسروق قال : قلت لعائشة يا أماه ، هل رأى محمد ﷺ ربه ؟ فقالت : لقد قف شعري مما قلت ، أين أنت من ثلاث ، من حدثكهن

(١) انظر كتاب المسايرة على المسامرة ص ٤١ .

فقد كذب ، ومن حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب ثم قرأت قوله تعالى :

« لا تُدْرِكُهُ الأَبْصارُ وهو يُدْرِكُ الأَبْصارَ » .

وقوله: «وما كانَ لِبَشَرٍ أنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إلاّ وَحْياً أوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ»[1].

ومن حدثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب ، ثم قرأت :

« وما تَدْري نَفْسٌ ماذا تَكْسِبُ غَداً »[2].

ومن حدثك أنه كتم فقد كذب ، وقرأت قوله تعالى :

« يا أَيُّها الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ »[3].

ولكن رأى جبريل عليه السلام في صورته مرتين [4] . ولعلها قالت ذلك اجتهاداً منها ، على أنها رضي الله عنها لم تكن في بيته ﷺ حين أسري به ، بل لم تكن تميز - إن سمعت - في وقت الحادث ، على أن الراجح أنها لم تكن ولدت وقتئذٍ الدنيا ، لأن المعراج حدث في أول البعثة وعائشة رضي الله عنها لم تكن قد بلغت العاشرة يوم الهجرة على الأرجح . وأما معاوية رضي الله عنه فلم يكن قد أسلم يوم هذا الحادث . وإن بعض الناس قد يوجه قولها بقوله تعالى :

(وما جَعَلْنا الرُّؤْيا التي أَرَيْناكَ إلاّ فِتْنَةً للنّاسِ)[5].

---

(١) الشورى : ٥١

(٢) لقمان : ٣٤

(٣) المائدة : ٦٧

(٤) انظر الترمذي الحديث رقم ٣٢٧٤ ج ٩ .

(٥) الاسراء : ٦٠

لأن الرؤيا تطلق على رؤيا المنام ، وأما الرؤية فتطلق على اليقظة . والصحيح أن الرؤيا كما تطلق على النوم تطلق على اليقظة . قال الشاعر :

فَكَبّر للرؤيا وهَشَّ فؤادُهُ وبشّر قلباً كان جماً بلابله

فإنه يصف راعياً رأى العشب والكلأ فاستبشر به ، وطمان نفسه ، وهذا حاصل في اليقظة لا محالة . وقد قال تعالى عن هذه الرؤيا إنما كانت فتنة للناس ، يعني ابتلاء لهم واختباراً ، ليرى من يثبت على إيمانه ومن يرتد عن دينه لعدم تصديقه ذلك ، وقد كان ذلك فعلاً ، فإن النبي ﷺ لما أصبح وأخبر أهل مكة بما كان من مسراه إلى بيت المقدس ، وعروجه إلى السموات وما فوقها ، سخروا منه وكذبوه حتى ارتد ضعاف القلوب ، وثبت أهل التقوى والمغفرة ومنهم أبو بكر الذي قال حين جعلوا يتندّرون به على النبي : إن كان قد قال ذلك فقد صدق [1] . وليس من المعقول أن يكون حديث الإنسان عن رؤيا رآها في المنام فتنة وبلاء واختباراً ، ويصدق به قوم ، وينكر آخرون .

وقد ذهب الأكثرون إلى أن في السمع ما يدل على جوازها في الدنيا لمن أراد الله له ذلك . ومن ذلك قصة معراجه ﷺ . ويقول هذا الفريق : إنه ﷺ رأى ربه بعيني رأسه وهما في مكانهما الخلقي ، لم يحولهما الله تعالى إلى قلبه كما زعم بعض الناس ، وقد كان ﷺ يرى ربه كذلك في كل مرة من مرات المراجعة التي كان يسأل فيها تخفيف الصلوات المفروضة [2] .

---

(١) أخرجه البيهقي وذكره ابن كثير في تفسيره ٤/٢٥٤ .

(٢) هداية الباري ١/٢٩٨ فيه حديث المعراج والمراجعة .

ورؤيته ﷺ هذه منقولة عن جمهرة الصحابة فعن ابن عباس رضي الله عنها قال :

رأى محمد ربه ، قال عكرمة : قلت : أليس الله يقول :

(لا تُدرِكُهُ الأبصارُ وَهُوَ يُدرِكُ الأَبصارَ) .

قال : ويحك ذاك إذا تجلى بنوره الذي هو نوره ، وقد رأى ربه مرتين[1]

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال :

(رأيتُ ربّي عزَّ وَجلّ) .[2]

وروى أيضاً عن ابن عباس . أنه رآه بعينه ، وكذا عن أنس وأبي ذر وكعب والزهري[3] .

وعن ابن عباس أنه قال : بعد ما قرأ قوله تعالى :

(وما جعلنا الرُّؤيا التي أريناكَ إلاّ فتنةً للنّاس) .

هي رؤيا عين ، أريها النبي ﷺ ليلة أسري به إلى بيت المقدس[4] .

---

(١) رواه الترمذي ٩/٣٢٧٥ .

(٢) قال الهيثمي رجاله رجال الصحيح .

(٣) في زجاجة المصابيح ٤/٣٦٢ .

(٤) رواه الترمذي ٨ /٣١٣٣ .

وروى شريك عن أبي ذر رضي الله عنه أنه قال : (رأى النبي ﷺ ربه) .

وحكى عبد الرزاق أن الحسن كان يحلف بالله لقد رأى محمد ربه ، وحكي أيضاً عن عكرمة ، وبعض المتكلمين حكى هذا المذهب عن ابن مسعود ، وأبي هريرة . وحكى النقاش عن أحمد بن حنبل أنه قال : أنا أقول بحديث ابن عباس ، بعينه رآه ، رآه .. (حتى انقطع نفس أحمد) . قال الماوردي : إن الله تعالى قسم كلامه ورؤيته بين موسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم . وقد اجتمع ابن عباس وكعب ، فقال ابن عباس : أما نحن بني هاشم فنقول إن محمداً قد رأى ربه فكبر كعب . وقال المناوي : والرؤية بالمشاهدة العينية التي لم يحتمل الكليم أدنى شيء منها ، أو القلبية بمعنى التجلي التام .

والأرجح أن الله تعالى جمع له بين الرؤية البصرية والجنانيـــة (أي القلبية) (١) .

وقد استدل أهل السنة على جواز رؤيته تعالى من الكتاب والسنة ، أما الكتاب ففيه أكثر من آية غير قوله تعالى :

« وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ » .

منها قوله تعالى :

« لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ » (٢) .

(١) المناوي على الجامع الصغير ٤ /٦ .

(٢) يونس ٢٦ .

قال جمهور المفسرين : الحسنى هي الجنة ، والزيادة هي النظر إلى وجه الكريم ، وقد روي عن صهيب أنه قال : لما قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية قال :

« إذا دَخَلَ أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ ، وأهلُ النَّارِ النَّارَ ، نادى مُنادٍ يا أهلَ الجنَّةِ ، إنَّ لكمْ عندَاللهِ موعداً يُريدُ أنْ يُنجزَكُمُوهُ ، قالُوا : ما هذا الموعدُ ؟ ألَمْ يُثقِلْ موازِينَنا ، ويُنَضِّرْ وُجوهَنا ، ويُدخِلْنا الجنَّةَ ، ويُجِرْنا مِنَ النَّارِ ؟ قال : فيُرفَعُ الحجابُ فينظُرونَ إلى وَجهِ اللهِ عزَّ وجلَّ . قال : فما أعطوا شيئاً أحبَّ إليهِمْ مِنَ النَّظَرِ » .

وروى الإمام مسلم عن صهيب أيضاً أن رسول الله ﷺ قال :

« إذا دَخَلَ أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ ، يقولُ اللهُ تباركَ وتعالى : تُريدُونَ شيئاً أزيدُكُمْ ؟ فيقولونَ : ألَمْ تُبيِّضْ وُجوهَنا ؟ ألَمْ تُدخِلْنا الجنَّةَ وتُنَجِّنا مِنَ النَّارِ ؟ فيَكْشِفُ الحجابُ ، فما أعطوا شيئاً أحبَّ إليهِمْ مِنَ النَّظَرِ إلى ربِّهِمْ » .

وخرجه ابن المبارك في رقائقه عن أبي موسى الأشعري ، وخرج النسائي عن صهيب نحوه إلا أنه قال :

« يُكشَفُ الحجابُ فينظرونَ إليهِ ، فو اللهِ ما أعطاهُمُ اللهُ شيئاً

« أَحَبَّ إِلَيهِمْ مِنَ النَّظَرِ وَلَا أَقَرَّ لِأَعْيُنِهِمْ » .

وخرج الترمذي الحكيم عن أبي ابن كعب قال : سألت رسول الله ﷺ عن الزيادتين في كتاب الله تعالى في قوله :

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الحُسْنَى وزيادة) . قال : « النظرُ إلى وجه الرحمن » .

وعن قوله : (وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ) .

قال : « عِشْرُونَ أَلْفاً » .

وذكر القرطبي في تفسيره [1] : أن أنساً رضي الله عنه قال سئل رسول الله ﷺ عن قوله تعالى :

« وزيادة » . قال : « للذين أحسنوا العمل في الدنيا لهم الحسنى ، وهي الجنة » ، والزيادة : « النظر إلى وجه الله الكريم » .

قال القرطبي : وهو قول أبي بكر الصديق وعلي بن أبي طالب في رواية ، وحذيفة وعبادة بن الصامت وكعب بن عجرة وأبي موسى وصهيب وابن عباس في رواية ، وهو قول جماعة من التابعين ، وهو الصحيح في الباب .

فإن قيل : إن الرؤية أجل الكرامات وأعظمها ، فكيف يعبر عنها بالزيادة ؟ قلنا : التنبيه على أنها أجل من أن تعد في الحسنات ، وفي أجزية الأعمال الصالحات ، ومنها قوله تعالى :

« على الأرائك ينظرون » [2] .

---

(١) تفسير القرطبي جـ ٨ ص ٣٣٣ .

(٢) المطففين ٢٤ .

وأما الأحاديث فمنها الحديث الذي ورد في الصحيح فيما روي عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال :

«كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَنَظَرَ إِلى القَمرِ لَيْلَةَ البَدْرِ وقال: إِنَّكُم سَتَرَونَ رَبَّكم عِياناً كَما تَرَوْنَ هذا القَمرَ، لا تُضامُونَ في رُؤيتِه» .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه وجرير أنه ﷺ قال :

«هَلْ تُضامُونَ في رُؤيَةِ القمرِ لَيْلَةَ البَدْرِ، لَيْسَ بَيْنَكُم وَبَيْنَهُ سحابٌ؟ كذلكَ تَرَوْنَ رَبَّكُم» (١)

والتشبيه للرؤية لا للمرئي ، ووجه الشبه عدم الشك والخفاء .

---

(١) حديث جرير متفق عليه ذكره الإمام النووي في رياض الصالحين برقم ١٩٠٢ وحديث أبي هريرة في الصحيحين قال في شرح المقاصد : وهو مشهور رواه واحد وعشرون من أكابر الصحابة . وذكر الشيخ أبو عبد الله محمد بن علي الحكيم الترمذي رحمه الله في تصنيف له فقال : على صحة حديث الرؤية عدة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم أئمة منهم ابن مسعود ، وابن عمر وابن عباس ، وصهيب وأنس ، وأبو موسى الأشعري وأبو هريرة ، وأبو سعيد الخدري وعمار بن ياسر ، وجابر بن عبد الله ، ومعاذ بن جبل ، وثوبان ، وعمارة بن رويبة الثقفي ، وحذيفة وأبو بكر الصديق ، وزيد بن ثابت ، وجرير ابن عبد الله البجلي ، وأبو أمامة الباهلي ، وبريدة الأسلمي ، وأبو برزة ، وعبد الله بن الحارث فهم واحد وعشرون من مشاهير الصحابة وكبرائهم وعلمائهم نقلوه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولم يختلف العلماء من الصحابة رضي الله عنهم في وقوع رؤية المؤمنين لربهم في الآخرة ، وكذلك من بعدهم من أهل العلم .

قال الإمام مالك رضي الله عنه : لما حجب أعداءه فلم يروه تجلى لأوليائه حتى يروه ، ولو لم ير المؤمنون ربهم يوم القيامة ، لم يعير الكافرون بالحجاب .

قال تعالى : « كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ » .[1]

وذكر الربيع أنه كان ذات يوم عند الشافعي ، فجاء كتاب من الصعيد يسألونه فيه عن قوله عز وجل :

« كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ » .

فكتب : لما حجب قوماً بالسخط دلّ على أن قوماً يرونه بالرضا[2] .

وقال ابن العربي : « إن رؤية الله تعالى جعلت تقوية المعرفة الحاصلة في الدنيا ، فما رآه كمن سمعا » . وقال محمد بن الفضل : « كما حجبهم في الدنيا عن نور توحيده ، حجبهم في الآخرة عن رؤيته » . وقال سيدي ابن عطاء الله : (أمرك في هذه الدار بالنظر في مكوناته ، وسيكشف لك في تلك الدار عن كمال ذاته) .

● بالأبصار : ظاهره أن الرؤية بالحدق فقط ، وهو أحد أقوال ثلاثة . ثانيها : أنها بجميع الوجوه لظاهر قوله تعالى :

« وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ » .

---

(١) المطففين ١٥ .

(٢) الطبقات الكبرى للسبكي جـ ١ ص ٨١ .

ثالثها : أنها بكل جزء من أجزاء البدن ، كما نقل عن أبي يزيد البسطامي رضي الله عنه .

● لكن بلا كيف : لما كان قد يتوهم من إثبات الرؤية بالأبصار أنها تحصل بكيفية من كيفيات الحوادث ، من مقابلة ، وجهة ، وتحيز ، وغير ذلك ، استدرك بقوله : « لكن بلا كيف » ، والمراد بالرؤية بلا كيف خلوها عن الشروط والكيفيات المعتبرة في رؤية الأجسام والأعراض ، وكيف يكون شرط مقابلة المرئي عقلياً لايتخلف . وقد ثبت أنه ﷺ قال : « هَلْ تَرَوْنَ قِبْلَتِي هَاهُنَا ؟ فَوَاللهِ مَا يَخْفَى عَلَيَّ خُشُوعُكُمْ ، وَلا رُكُوعُكُمْ ، إِنِّي لأَرَاكُمْ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِي »[1].

وقال أنسٌ رضيَ اللهُ عنهُ : « صَلَّى بِنَا النَّبِيُّ ﷺ صَلاةً ، ثُمَّ رَقِيَ المِنْبَرَ فقالَ : في الصَّلاةِ وَفي الرُّكُوعِ إِنِّي لأَرَاكُمْ مِنْ وَرائِي كَمَا أَرَاكُمْ »[2].

وعن مجاهد أنه ﷺ كان يبصر في الظلمة كما يبصر في الضوء . والضوء شرط عادي في الرؤية . قال ابن حجر في شرحه على صحيح البخاري بعدما أورد حديث الرسول ﷺ : « لأن الحق عند أهل السنة أن الرؤية لايشترط لها عقلاً عضو مخصوص ، ولا مقابلة ، ولا قرب ،

---

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة . فتح الباري ج ١ ص ٤٣٠ .

(٢) فتح الباري ج ١ ص ٤٣٠ . ولمسلم في رواية « إني لأبصر من ورائي كما أبصر من بين يدي » .

وإنما تلك أمور عادية يجوز حصول الإدراك مع عدمها عقلاً ، ولذلك حكموا بجواز رؤية الله تعالى في الدار الآخرة خلافاً لأهل البدع لوقوفهم مع العادة » .

● ولا انحصار : يعني ولا انحصار للمرئي عند الرائي بحيث يحيط به لاستحالة الحدود والنهايات عليه تعالى . والغرض بهذا الرد على الشبهة النقلية التي أوردها المعتزلة :

وهي قوله تعالى : «لاتُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ » [1] .

والحاصل أنه تعالى يرى من غير تكيف بكيفية من الكيفيات المعتبرة في رؤية الأجسام ، ومن غير إحاطة ، بل مجار العبد في العظمة والجلال حتى لايعرف إسمه ، ولا يشعر بمن حوله من الخلائق ، فإن العقل يعجز هنالك عن الفهم ويتلاشى الكل في جنب عظمته تعالى . ولما كان النظر مضمناً معنى الإنكشاف قال :

(١) الأنعام ١٠٣ .

٥٦ – لِلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بِجَائِزٍ عُلِّقَتْ هَذَا وَلِلْمُخْتَارِ دُنْيَا ثَبَتَتْ

● للمؤمنين : يعني انكشافه تعالى بحاسة البصر انكشافاً تاماً لكل فرد ممن مات محكوماً له باتصافه بالإيمان ، والتصديق الشرعي . فيخرج الكفار والمنافقون ، لأنهم ليسوا من أهل الإكرام والتشريف . وقيل : إنهم يرونه تعالى ثم يحجبون عنه ، لتكون الحجبة حسرة عليهم . وجعل الإمام النووي محل الخلاف في المنافق ، فأما الكافر فلا .

والأقوى أن الرؤية حاصلة للملائكة أيضاً ، ولمؤمني الجن ، فيحصل لهم الرؤية في الموقف مع سائر المؤمنين قطعاً ، وفي الجنة على الراجح ، ولمؤمني الأمم السابقة ، وهو الأظهر ، ومحل الرؤية الجنة بلا خلاف فيراه أهلها في مثل يوم الجمعة والعيد ، ويراه كل يوم خواصهم بكرة وعشياً . فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال :

قال رسولُ الله ﷺ : « إِنَّ أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً لَمَنْ يَنْظُرُ جِنَانَهُ وَأَزْوَاجَهُ وَنَعِيمَهُ وَخَدَمَهُ وَسُرُرَهُ مَسِيرَةَ أَلْفِ سَنَةٍ ، وَأَكْرَمَهُمْ عَلَى اللهِ مَنْ يَنْظُرُ إِلَى وَجْهِهِ

غُدوةً وعشيةً ، ثم قرأ رسول الله ﷺ «وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة» .(١)

وبعضهم لايزال مستمراً في الشهود حتى قال أبو يزيد البسطامي : « إن لله خواصاً من عبــاده ، لو حجبهم في الجنة عن رؤيته ساعة لاستغاثوا من الجنة ونعيمها » . وأما في في عرصات القيامة - كالموقف - فالصحيح وقوعها أيضاً ، لأنه ورد في السنة ما يقتضي ذلك ، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال :

قال رسول الله ﷺ : « هل تضارون في رؤية الشمس بالظهيرة ، ضوء ليس فيه سحاب ؟ قالوا : لا ، قال : وهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ، ضوء ليس فيه سحاب ؟ قالوا : لا ، قال النبي ﷺ : ماتضارون في رؤية الله عز وجل يوم القيامة إلا كما تضارون في رؤية أحدهما . إذا كان يوم القيامة أذن مؤذن : تتبع كل أمة ما كانت تعبد ، فلا يبقى من كان يعبد غير الله من الأصنام والأنصاب إلا يتساقطون في النار حتى

(١) الترمذي رقم ٣٣٢٧ جـ٩ ، والقرطبي ١٩ ص ١٠٧ .

إذا لَمْ يَبْقَ إِلاَّ مَنْ كانَ يَعْبُدُ اللهَ مِنْ بَرٍّ أَوْ فاجِرٍ وَغُبَّراتِ أهلِ الكتابِ . فيُدعى اليهودُ ، فَيُقالُ لَهُمْ : ماكُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ؟ قالوا : كُنَّا نَعْبُدُ عُزَيْراً بنَ اللهِ . فيقالُ لَهُمْ : كَذَبْتُمْ ، ما اتَّخَذَ اللهُ مِنْ صاحِبَةٍ ولا وَلَدٍ فماذا تَبْغُونَ ؟ قالوا : عَطِشْنا رَبَّنا فاسقِنا ، فَيُشارُ : ألا تَرِدُونَ ، فَيُحْشَرونَ إلى النَّارِ ، كأنَّها سَرابٌ ، يَحطِمُ بَعضُها بَعْضاً ، فَيَتَساقطونَ في النَّارِ ، ثم يُدعى النَّصارى فَيُقالُ لهمْ : ماكُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ؟ قالوا : كُنَّا نَعْبُدُ المسيحَ بنَ اللهِ فَيُقالُ لَهمْ كَذَبْتُمْ ، مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ صاحِبَةٍ ولاولدٍ ، فَيُقالُ لَهُم : ماذا تَبْغُونَ ؟ فَكَذَلِكَ مثل الأُولى حتَّى إذا لَمْ يَبْقَ إلاَّ مَنْ كانَ يَعْبُدُ اللهَ مِنْ بَرٍّ أو فاجِرٍ أتاهُم ربُّ العالمِينَ في أدنى صورةٍ مِنَ التي رَأَوْهُ فيها ، فَيُقالُ لَهُم : ماذا تَنْتَظِرونَ ؟! تَتْبَعُ ‹‹كلُّ أُمَّةٍ ماكانَتْ تَعْبُدُ›› ، قالوا : فارَقْنَا النَّاسَ في الدُّنيا على أفْقَرِ ماكُنَّا إليهِم وَلَمْ نُصاحِبْهُمْ ، وَنَحْنُ نَنْتَظِرُ رَبَّنا الذي كُنَّا نَعْبُدُ . فَيَقولُ أنا رَبُّكُمْ ، فَيَقُولُونَ : لانُشْرِكُ

بالله شيئاً « مرتين أو ثلاثة »[1]. فيتجلى لهم تجلياً لائقاً بحال المقام ويقول : أنا ربكم ، فيراه المؤمنون كما يعلمون ، أي على وفق ما يعتقدون فيخرون سجداً إلا المنافق » . والغبرات : البقايا .

● إذ بجائز علقت : كأنه قال حكمنا بجواز الرؤية عقلاً لأن الله تعالى علقها بأمر جائز في نفسه عقلاً ، وهو استقرار الجبل .

● هذا والمختار دنيا ثبتت : أي كما علمت جواز وقوع الرؤية فانتقل عنه إلى الإخبار بوقوعها في الدنيا . وعبر بالمختار مناسبة لاختياره لهذا المقام . وإضافة لما مر في مبحث رؤيته ﷺ لربه نقول : إن السيدة عائشة رضي الله عنها قد نفت وقوعها ، وابن عباس أثبتها ، والمثبت مقدم على النافي . وإن معمر بن راشد قال : ما عائشة عندنا بأعلم من ابن عباس .

واختلف في وقوعها للأولياء على قولين ، للأشعري ، أرجحهما المنع . والحق أنها لم تثبت في الدنيا إلا له ﷺ ، ومن ادعاها غيره في الدنيا يقظة فهو ضال بإطباق المشايخ ، حتى ذهب بعضهم إلى تكفيره .

● وأما رؤيته تعالى مناماً فقد نقل عن القاضي عياض : أنه لا نزاع في وقوعها وصحتها فإن الشيطان لا يتمثل به تعالى ، كما لا يتمثل

---

(١) هذا قول العامة المحجوبين ، أما الخواص العارفون بربهم فلا يجهلونه في حال من الأحوال . أنظر هداية الباري إلى ترتيب أحاديث البخاري ٢ /٢٦٦ .

بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وقال بعضهم لايتمثل بالملائكة ولا بالشمس، ولا بالقمر ، ولا بالنجوم المضيئة ، ولا بالسحاب الذي فيه الغيم . وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال :

قال رسول الله ﷺ : «تَسَمَّوا باسْمي، ولا تَكْتَنُوا بكُنْيَتي، ومَنْ رآني في المَنام فَقَدْ رآني، فإنَّ الشَّيْطانَ لايَتَمَثَّلُ في صُورَتي ، ومَنْ كَذَبَ علَيَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النّارِ[1]» .

وعنه أيضاً قال رسول الله ﷺ :

« ومَنْ رآني في المَنامِ فَسَيَراني في اليَقَظَةِ ، ولا يَتَمَثَّلُ الشَّيْطانُ بي »[2].

وعن أبي سعيد الخدري قال رسول الله ﷺ :

« مَنْ رآني فَقَدْ رأى الحَقَّ، فإنَّ الشَّيْطانَ لايَتَكَوَّنُني »[3]

وحكي أن الإمام أحمد رأى المولى سبحانه في المنام تسعاً وتسعين مرة ، وفي تمام المائة قال : سيدي ومولاي ، ما أقرب ما يتقرب به المتقربون إليك ؟ قال : تلاوة كلامي . والمرئي — إن كان بوجه لايستحيل عليه تعالى — فهو هو تعالى ، وإلا — بأن كان بصورة رجل مثلاً — فليس هو هو تعالى ، بل خلق من خلقه ، ويقال حينئذ : إنه رأى ربه في الجملة

(١ و ٢ و ٣) رواها البخاري وفي هداية الباري ١/١٨٠ و ٢ /٢١٨ .

الحكمة تظهر للمعبرين ، بأن يقولوا : إنها تدل على كذا وكذا . وقيل : هو هو أيضاً ، وكونه بهذا الوجه إنما هو باعتبار ذهن الرائي ، وأما في الحقيقة فليس تعالى كذلك . وعن معاذ بن جبل قال :

احتَبَسَ عنَّا رسولُ اللهِ ذاتَ غداةٍ مِنْ صَلاةِ الصُّبحِ حَتَّى كِدْنا نَتَراءَى عَيْنَ الشَّمْسِ ، فَخَرَجَ سَرِيعاً ، فَثُوِّبَ بِالصَّلاةِ، فصلَّى رسولُ اللهِ ﷺ، وتَجَوَّزَ في صلاتِهِ فَلَمَّا سلَّمَ دَعَا بِصَوْتِهِ فقالَ لَنا على مَصافِّكُمْ كَما أَنْتُمْ، ثُمَّ انفتَلَ إِلَيْنا فقالَ: أَما إِنِّي سأُحَدِّثُكُمْ ما حَبَسَنِي عَنْكُمُ الغَداةَ. إِنِّي قُمْتُ مِنَ اللَّيْلِ فَتَوَضَّأْتُ فَصَلَّيْتُ ما قُدِّرَ لِي، فَنَعِسْتُ في صَلاتِي فاسْتَثْقَلْتُ، فإذا أنَا بربِّي تَبارَكَ وتَعالى في أَحْسَنِ صُورَةٍ فقال يا مُحَمَّدُ قُلْتُ: رَبِّ لَبَّيْكَ. قالَ: فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: لا ادري رب. قالها ثلاثاً، قالَ: فرأيْتُهُ وَضَعَ كَفَّهُ بَيْنَ كَتِفَيَّ، قَدْ وَجَدْتُ بَرْدَ أَنامِلِهِ بَيْنَ ثَدْيَيَّ، فَتَجَلَّى لِي كُلُّ شيءٍ، وَعَرَفْتُ. قالَ: يا مُحَمَّدُ. قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَبِّ. قالَ: فِيْمَ يخْتَصِمُ المَلأُ الأعلى؟ قُلْتُ في الكفَّاراتِ. قالَ ما هُنَّ؟ قُلْتُ: مَشْيُ الأقْدامِ إلى الجَماعاتِ والجلوسُ في المَساجِدِ بَعْدَ الصَّلاةِ،

وإسباغُ الوضوءِ في المكروهاتِ . قالَ : ثُمَّ فيمَ ؟ قال : إطعامُ الطعامِ ، ولينُ الكلامِ ، والصلاةُ بالليلِ والنَّاسُ نيامٌ . قالَ : سَلْ . قلتُ : اللهمَّ إنّي أسألُكَ فِعلَ الخيراتِ وَتركَ المُنكراتِ ، وحُبَّ المساكينِ ، وأنْ تغفِرَ لي وترْحَمني وإذا أردتَ فِتْنَةً في قوْمٍ فتوفَّني غيرَ مفتُونٍ ، وأسألُكَ حُبَّكَ وحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ وحُبَّ عَملٍ يُقرِّبُ إلى حُبِّكَ . قالَ رسولُ اللهِ ﷺ إنَّها حَقٌّ فأدْرُسوها ثم تَعلمُوها [1] » .

قال ابن صدقة : بعد كلام على حديث ابن عباس المرفوع :

« رَأيتُ رَبِّي في صُورةِ شابٍّ ... »

فالحديث إن حمل على رؤية المنام فلا إشكال ، أي فهو كحديث معاذ السالف ، وإن حمل على اليقظة فأجاب عنه ابن الهمام : بأن هذا حجاب الصورة [2] . وختاماً إن بعض الصوفية رأى ربه في منامه على وصفه فقيل له : كيف رأيته ؟ فقال : أنعكس بصري في بصيرتي فصرت كلي بصراً ، فرأيت من ليس كمثله شيء . ولما فرغ من الإلهيات شرع في النبوات فقال :

(١) تفرد به الترمذي وقال : حسن صحيح ٨/ ٣٢٣٣

(٢) انظر كشف الخفاء ١/ ٥٢٦ الحديث رقم ١٤٠٩

٥٧ـ ومنهُ إرسالُ جميعِ الرُّسلِ بلا وجُوبٍ بلْ بمَحضِ الفضلِ.

● ومنه : تقريره أن مذهب أهل السنة والجماعـــة أن من أنواع الجائز العقلي على الله تعالى إرساله لجميع الرسل من لدن آدم أبي البشر إلى خاتمهم وسيدهم محمد ﷺ وعليهم أجمعين ، فإرسالهم جـائز ، وليس بواجب – كما ذهب إليه المعتزلة والفلاسفة – ولا بمستحيل كما ذهب اليه السُّمنية والبراهمة . أما المعتزلة فقد قالوا بالوجوب ، ابتناء على ما أصَّلوه من عند أنفسهم ، وهو أنه يجب على الله تعالى فعل الصلاح والأصلح لعباده فقالوا : إن النظام المؤدي إلى صلاح حال النوع الإنساني على وجه العموم في معاشه ومعاده لايتم إلا ببعثة الرسل ، وكل ماهو كذلك فهو واجب على الله تعالى . وقد تقدم هدم هذه المقدمات إذ أن عنايته سبحانه فينا لالشيء منا ، وأين كنا حين واجهتنا عنايته وقابلتنا رعايته ؟ لم يكن في أزله إخلاص أعمال ، ولا وجود أحوال . بل لم يكن هناك إلا محض الإفضال وعظيم النوال . فجلَّ حكم الأزل أن ينضاف الى العلل . وأما الفلاسفة فبنوا الوجوب على قولهم بالتعليل أو الطبيعة فقالوا : يلزم من وجوده تعالى وجود العالم بالتعليل ، بأن يكون سبحانه علة للعالم ، أو بالطبـع ، ويلزم من وجود العالم وجود من يصلحه . ويرد هذا أنه سبحانه فاعل بالإختيار لابطريق الإجبار . وأما الطائفـة الثانية القائلة بالإستحالة فقد علت قولهـــا : بأن إرسالهم عبث ، لأنه يُستغنى عنهم بالعقل ، بأن يجعل منـاط فعل الشيء تحسين العقل إياه ، ومناط ترك الشيء تقبيح العقل إياه ، والعبث على الله تعالى محال ، فيكون إرسال

الرسل محال . ويرد على هذا : بأنّا لانسلم أنّ إرسالهم عبث ، لأنّ الأحوال إن انحصرت. فيا ذكروا فالبعثة تعضد العقل ، وإن لم تنحصر – وهو الواقع – فإنها تفيد حكم مالا يستطيع العقل الإستقلال به ، فإن مايوافق العقل قد يستقل بمعرفته ، فيعاضده النبي ، ويؤكـده ، بمنزلة الأدلة العقلية على مدلول واحد ، وقد لايستقل به فيدل عليه النبي ويرشده إليه . وما يخالف العقل قد لايكون مـع الجزم فيدفعه النبي أو يرفع عنه الإحتمال . وما لا يدرك حسنه ولا قبحه قد يكون حسناً يجب فعله أو قبيحاً يجب تركه ، هذا مع أن العقول متفاوتة ، فالتفويض إليها مظنة التنازع ، على أن العمدة في باب البعثة هو التكليف ، ومن مُشتبِهيّهم أنه ليس في التكاليف فائدة ، لا للآمر بها لتعاليه عن أن ينتفع بعمل عبده ، ولا للمأمور بها لأنه يتضرر باحتماله مايشق عليه ، وهـذا ظاهر البطلان ، بل إن فيها نفعاً عظيماً للعباد ، وكل واحد منا يتحمل كثيراً من المشاق في سبيل تحصيل منفعة لاتقاس أبداً بما يعود عليه من ثواب عبادة الله عز وجل وطاعته ، على أن الإسلام حينما نظم حياة الفرد والجماعة والأمة نظاما بشكل لايدع مجالاً للريبة في أنه إن طبقت أحكامه فـلا أسعد ولا أرقى من تلك الأمـة على وجـه الأرض ، وأية فـائدة أسمى من هـذه . فقول المصنف : « فـلا وجـوب » نفي لمـذهب المعتزلة والفلاسفة ، ولم يصرح بنفي المـذهب الثاني ، إما من باب الاكتفاء أي كأنه قال : فلا وجوب ولا استحالة ، وإما لكون مذهبهم ظاهر البطلان بإرسال الرسل فعلاً ، فهو مردود بالمشاهدة والعيان وإنما ادعاء الإستحالة مكابرة للحس .

والخلاصة أن إرسالهم جائز ، وأنه واقع منه سبحانه تفضلاً ورحمة لما فيه من الحكم والمصالح الغزيرة ، ومنها معاضدة العقل فيا يمكنه أن يستقل بمعرفته كوجوده سبحانه وعلمه وقدرته .

قال تعالى : « لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ » .

ومنها استفادة الحكم من الأنبياء فيا لا يستقل العقل به مثل مبحث الكلام ورؤيته تعالى ، والمعاد الجسماني . ومنها بيان حال الأفعال التي تحسن تارة وتقبح أخرى من غير اهتداء العقل إلى مواطنها . ومنها تكميل النفوس البشرية بحسب استعداداتهم المختلفة في العلميات والعمليات ، وتبين الأخلاق الفاضلة ، الراجعة إلى الأشخاص ، والسياسات الكاملة العائدة إلى الجماعات . فهم قد دلونا على الحكمة من وجود الأكوان ، وأرشدونا إلى الله تبارك وتعالى ، وبينوا لنا الطريق الموصل إلى رضوانه ، وحذرونا من الطريق الموصول بالنار ، ونظموا لنا الحياة بما يتلاءم مع واقعية العبودية وأصالتها .

● إرسال جميع الرسل : أي من أفراد الجائز العقلي إرسال الله تعالى جميع رسل البشر حتى تقوم الحجة على المكلفين من الثقلين بالبينات ، وتنقطع عنهم سائر التعللات .

قال تعالى : « وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا »[1] .

---

(١) القصص ٤٧ .

وقال: «وما كُنّا مُعذِّبينَ حتّى نبعثَ رسُولاً»[1].

وقال: «رُسُلاً مُبشّرينَ ومُنذرينَ لئلاّ يكُونَ للنّاس على الله حُجّةٌ بعدَ الرُّسُل»[2].

● فلا وجوب: أي إذا علمت أن الإرسال مما يجوز في حقه تعالى فعله وتركه فاعلم: أنه لا وجوب عليه.

● بل بمحض الفضل: أي إرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام إنما هو بخالص الإحسان وهو مما يحسن فعله، ولا يقبح منه تعالى تركه.

ولما كان قد يتوهم من كون الإرسال من الجائز العقلي، أن الإيمان بوقوعه ليس واجباً، استدرك بقوله:

(١) الإسراء ١٥.
(٢) النساء ١٦٥.

٥٨ـ لكنْ بذا إيمانُنا قدْ وَجبا   فَدعْ هوى قومٍ بهمْ قدْ لَعبا

● لكن بذا إيماننا قد وجبا : أي قد وجب إيماننا بوقوع الإرسال. وقد سبق في أول الكتاب بيان من يجب الإيمان بهم تفصيلاً ومن يجب الإيمان بهم إجمالاً ، وأن الأولى عدم حصرهم في عدد .

● فدع هوى قوم : أي إذا عرفت أن إرسال الرسل من الجائز العقلي في حقه تعالى ، وأن الإيمان به واجب ، فدع هوى قوم ، أي اعتقادهم حيث أنكروا بعدما زين لهم الشيطان ذلك .

● بهم قد لعبا : أي قد تلاعب بهم هواهم الذي اتبعوه حتى أوقعهم في البدع والمعاصي أو في الكفر . فإن المعتزلة والحكماء قد أوجبوا الإرسال ، وأحاله الآخرون . والهوى - عند الإطلاق - يصرف إلى الميل إلى خلاف الحق ، وإنما سمي هوى لأنه يهوي بصاحبه في النار

ولما تم الكلام على مايجب في حقه تعالى وما يستحيل وما يجوز ، شرع - هنا - في الكلام على ما يجب في حق الرسل وما يستحيل وما يجوز فقال :

٥٩ـ وَواجِبٌ في حَقِّهِمُ الأمانَهْ وَصِدْقُهُمْ وَضِفْ لَهُ الفَطانَهْ

● وواجب في حقهم : المراد بالوجوب – هنا – عدم قبول الإنفكاك بالنظر للشرع لأن ماذكر من الواجبات سمعي ، نعم ، تصديق المعجزة لهم في دعوى الرسالة وضعي لتنزيلها منزلة الكلام « أي صدق عبدي فيا يبلغ عني » ، ودلالة الكلام وضعية ، فكذا مانزل منزلته ، وقيل : تصديقها عقلي لتنزهه تعالى عن تصديق الكاذب . والمتبادر عود الضمير بقوله « في حقهم » على الرسل ، وقد فسره الشارح بالأنبياء قائلاً : لأن معظم هذه الأحكام لايختص بالرسل ، وإنما يختص بهم وبالأنبياء ، فهم مشتركون بكل الأحكام ماعدا التبليغ ، إذ أنه خاص بالرسل وحدهم . وبعضهم عممه للأنبياء ، لأنه يجب على النبي أن يبلغ أنه نبي ليحترم .

● الأمانة : أي العصمة ، والعلماء فيها عدة تعاريف ، لكنها متقاربة ، وأحسنها : « أن العصمة ملكة نفسانية تمنع صاحبها الفجور » ، فتكون الأمانة على هذا هي حفظ ظواهرهم وبواطنهم عليهم الصلاة والسلام من التلبس بمنهي عنه ، ولو نهي كراهة أو خلاف الأولى ، فأفعالهم دائرة بين الواجب والمندوب ، كيف لا ؟ وفي الأولياء الذين هم أتباعهم من يصير لمقام تصبح فيه حركاته وسكناته طاعة لله تعالى بالنيات ، إذ أن النية تقلب العادة عبادة .

وقد اختلف في وقت وجوب هذه العصمة لهم عليهم الصلاة والسلام ، فذهب بعضهم إلى أنها واجبة لهم من أول الولادة إلى آخر العمر ، وذهب الآخرون إلى أنها تجب لهم في زمن النبوة ، أما قبلها

فهي غير واجبة . والذي عليه المعتمد في هـذا ما قاله العلامة محمد بخيت المطيعي ، من أنهم معصومون قبل النبوة وبعدها ، فلا يصدر منهم ذنب لاستحالة صدور كل ماينفر عنهم قبل النبوة ، وما قاله كذلك في « فواتح الرحموت » .. وأما قبل النبوة فالتحقيق الذي عليه أهل الله من الصوفية الكرام أنهم معصومون أيضاً من الكبائر والصغائر عمـداً ، كيف لا وهم إنما يولدون على الولاية ، ولا يمر عليهم طرفة عين وهم غير مشاهدين لله تعالى ، وولايتهم قوية عن ولاية الأولياء الذين ولايتهم مأخوذة منهم .
وقد عقب الشيخ محمد بخيت على هذا بقوله :

وقد قال تعالى : « اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ » [(1)]

فكان كل رسول مولوداً على الإستعداد التام لأن يكون رسولاً فلذلك كانت ولايته غير مكتسبة برياضات بل فضــل من الله تعالى كرسالته ، بخلاف الأولياء [(2)] وما ورد من النصوص الموهمة خلاف العصمة يؤول على أنه من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين ، ولا يجوز النطق به في غير مورده إلا في مقام البيان . ودليل وجوبها أنهم لو خانوا بفعل محرم أو مكروه أو خلاف الأولى لكنا مأمورين بذلك المحرم أو المكروه أو خلاف الأولى ، لأن الله تعالى قد أمرنا باتباعهم في أقوالهم وأفعالهم من غير تفصيل

قال عز وجل : « قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي » . [(3)]

---

(1) الأنعام ١٢٤
(2) انظر حاشية العلامة المطيعي على نهاية السول في شرح منهاج الأصول ٣/٦٢٠ .
(3) آل عمران ٣١ .

والله تبارك وتعالى لايأمر بمحرّم ولا بمكروه ولا بخلاف الأولى . كذلك كانوا يأمرون بالطاعات وبترك المعاصي ، ولو تركوا الطاعة وفعلوا المعصية لدخلوا تحت قوله تعالى :

« كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مالا تَفْعَلُونَ » .(١)

وقوله تعالى : (أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ) .(٢)

ومعلوم أن هذا في غاية القبح ، وقد أخبر سبحانه عن رسوله شعيب عليه السلام أنه قد برأ نفسه من ذلك فقال :

« وما أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إلى ما أَنْهَاكُمْ عَنْهُ » (٣) .

وقال تعالى أيضاً في صفة إبراهيم وإسحاق ويعقوب :

« إِنَّهُمْ كانوا يُسَارِعُونَ في الخَيْرَاتِ » .(٤)

والألف واللام في صيغة الجمع (الخيرات) تفيد العموم ، فدخل تحت لفظ (الخيرات) فعل كل ماينبغي ، وترك كل مالا ينبغي ، وذلك يدل على أنهم كانوا فاعلين لكل الطـــاعات وتاركين لكل المعاصي وقال تعالى أيضاً :

« وإِنَّهُمْ عِنْدَنا لَمِنَ المُصْطَفَيْنَ الأَخْيارِ » (٥) .

ولفظ (المصطفين) و (الأخيار) يتناول جملة الأفعال والتروك بدليل جواز الإستثناء ، فيقال : فلان من المصطفين الأخيـــار إلا في كذا ، والإستثناء يخرج من الكلام مالولاه لدخل ، فدلت هذه الآية

---

(١) الصف ٢٣ (٢) البقرة ٤٤ (٣) هود ٨٨ (٤) الأنبياء ٩٠ (٥) ص ٤٧

على أنهم كانوا من المصطفين الأخيار في كل الأمور ، وهذا ينافي صدور الذنب عنهم . وقال تعالى في حق موسى عليه السلام :

« إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي » .(١)

وقال في حق غيره :

« وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ، إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ » .(٢)

وما ورد في حق موسى عليه السلام في قوله تعالى :

« فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ » .(٣)

فيحتمل أن يقال : إنه لكفر القبطي كان مستحقاً القتل بيد أنه عليه السلام لم يقصد إلا تخليص الذي من شيعته فتأدى به ذلك إلى القتل من غير قصد . علاوة على ما تقدم نورد قوله تعالى حكاية عن إبليس :

« فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ، إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ » .(٤)

فقد استثنى المخلصين من إغوائه وإضلاله ، وشهد تعالى على إبراهيم وإسحق ويعقوب أنهم من المخلصين فثبت بذلك أن إغواء إبليس ووسوسته لا تصل إليهم ، وهذا يوجب القطع بعدم صدور المعصية عنهم . كذلك قال تعالى في حق إبراهيم : « إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا » .(٥)

(١) الأعراف ١٤٤ (٢) ص ٤٥ (٣) القصص ١٥ (٤) ص ٨٣ (٥) البقرة ١٢٤

والإمام هو الذي يقتدى بـه ، فلو صدر الذنب عن إبراهيم لكان اقتداء الخلق بـه في ذلك الذنب واجباً ، وهو باطل ، وقد ورد أن خزيمة بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه قد شهد على وفق دعوى النبي ﷺ وذلك أنه ﷺ قد اشترى فرساً من سواء بن قيس المحاربي ، فجحده سواء ، فشهد خزيمة للنبي ﷺ فقال له النبي ﷺ :

« ما حَمَلَكَ على الشَّهادة وَلَمْ تَكُنْ مَعَنَا حَاضِراً ؟ قال صَدَّقْتُكَ بِما جِئْتَ به وَعَلِمْتُ أنه لا تَقُولُ إلاّ حَقّاً » ، فقَالَ النبي ﷺ : « مَنْ شَهِدَ لَهُ خُزَيْمَةُ أَوْ عَلَيْهِ ، فَهُوَ حَسْبُهُ » .(١)

ولو كان الذنب جائزاً على الأنبياء لكانت شهادة خزيمة غير جائزة .

● وصدقهم : أي وواجب في حقهم الصدق ، وهو مطابقة خبرهم للواقع ، ولو بحسب اعتقادهم ، ودليل وجوبه أنهم لو لم يصدقوا للزم الكذب في خبره تعالى لتصديقه لهم بالمعجزة النازلة منزلة قوله تعالى :

(صدق عبدي في كل ما يبلغ عني) وتصديق الكاذب كذب وهو محال في حقه تعالى فينتج أن عدم صدقهم محال ، وإذا استحال عدم الصدق وجب الصدق وهو المطلوب .

● وصف له الفطانة : أي وضم لما تقدم – مما يجب لهم عليهم السلام – وجوب الفطانة وهي التفطن والتيقظ لإلزام الخصوم وإبطال دعاويهم ودحض

---

(١) رواه البخاري .

حججهم . ودليل وجوبها أن من لم يكن فطناً - بأن كان مغفلاً - لا تمكنه إقامة الحجة ولا المجادلة ، وهم يتعرضون في دعوتهم - إلى الله عز وجل - لخصوم يجادلونهم ، فلا يمكن دفعهم إلا بهذه الخصلة .

وقد قال الله تعالى : « وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ »[1].

وقال أيضاً : « يَانُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ »[2].

أي خاصمتنا فأطلت ، أو أتيت بأنواعه .

وقال أيضاً : « وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ »[3].

فإن قيل هذه الآيات واردة في بعضهم ، فلا تدل على ثبوتها لجميعهم أجيب : بأنه لما ثبت الكمال لبعضهم ثبت لكلهم ، وإن كانوا أنبياء فقط ، إذ اللائق بمنصب النبوة أن يكون عندهم من الفطانة ما يردون به الخصم على تقدير وقوع جدال معه . نعم الواجب للأنبياء مطلق الفطنة ، وإنما للرسل كمالها ، إذ هم شهود الله على عباده والشاهد لا يكون مغفلاً .

---

(١) سورة الأنعام ٨٣ .

(٢) هود ٣٢ .

(٣) النحل ١٢٥ .

٦٠ ـ وَمِثْلُ ذَا تَبْلِيغُهُمْ لِمَا أَتَوْا وَيَسْتَحِيلُ ضِدُّهَا كَمَا رَوَوْا

● ومثل ذا تبليغهم : أي تبليغهم مـا أمروا بتبليغه مثل الأمـانة والصدق ، والفطانة في الوجوب .

● لما أتوا : أي تبليغهم لما جاؤوا به عن الله تعالى واجب بقيـد أن يكون مما أمروا بتبليغه الخلق ، بخلاف مـا أمروا بكتمانه ، أو ماخيروا فيـه . ودليل وجوب التبليغ أنهم لو كتموا شيئاً ممـا أمروا بتبليغه للخلق لكنا مأمورين بكتمان العلم ، إذ أننا مأمورون بالإقتـداء بهم . وبما أننا غير مأمورين بكتمان العـلم ، بل كاتمه ملعون ، يلزم أنهم لايكتمون .

قَالَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ أُلْجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ »[1] .

وقال أيضاً : « مَنْ كَتَمَ عِلْماً مِمَّا يَنْفَعُ اللهُ بِهِ النَّاسَ فِي أَمْرِ الدِّينِ أَلْجَمَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ »[2] .

وما ذكره الناظم شروط عقلية للنبوة ، أما شروطها الشرعية العادية : فالبشرية ، والحرية ، والذكورة ، وكمال العقـــل ، والذكاء ، وقوة الرأي ولو في الصبا كعيسى ويحيى عليها السلام ، والسلامة عن كل ماينفر من الإتباع حين النبوة . ومنها كونـه أعلم من جميع من بعث إليـهم بأحكام الشريعة المبعوث بها ، أصلية كانت أو فرعية[3] .

(١) رواه أبو داوود والترمذي عن أبي هريرة وحسنه .
(٢) رواه ابن ماجة عن أبي سعيد الخدري .
(٣) انظر شرح عبد السلام على الجوهرة ص ١٨١ .

● ويستحيل ضدها : أي ضد الصفات الأربعة الواجبة . فالخيانة ضد الأمانة ، والكذب ضد الصدق ، والغفلة ضد الفطانة ، وكتمان شيء مما أمروا بتبليغه ضد التبليغ . فهذه الأضداد مستحيلة في حقهم أي غير قابلة الثبوت .

● كما رووا : أي استحالة الخيانة والكذب والغفلة والكتمان ثابتة بالدليل الشرعي لما رواه العلماء من : (كتاب وسنة وإجماع) .

٦١ - وَجَائِزٌ في حَقِّهِمْ كَالأَكْلِ وَكَالجِماعِ لِلنِّسَا في الحِلِّ

● وجائز ... : هذا شروع بما يجوز في حقهم رسلاً وأنبياء، وهو مالا يجب عقلاً ثبوته لهم، ولا نفيه عنهم، ومثّل لما يجوز بالأكل والجماع الحلال للبشير إلى أنه لافرق بين أن يكون الجائز في حقهم من توابع الصحة التي لايستغنى عنها عادة كالأكل، أو التي يستغنى عنها كالجماع للنساء، لكن الجماع مشروط في حال الحل بأن كان بالملك أو بالنكاح، فيجوز لهم الوطء بالملك، ولو للأمة الكتابية، بخلاف المجوسية ونحوها كالوثنية، ويجوز عليهم سائر الأعراض البشرية التي لاتؤدي إلى نقص في مراتبهم العلية كالمرض، ومنه الإغماء إلا أنه قيد بالإغماء غير الطويل، بخلاف الجنون قليله وكثيره لأنه نقص، وبخلاف الجزام والبرص والعمى وغير ذلك من الأمور المنفرة، ولم يثبت أن شعيبا كان ضريراً، وأما ماكان ليعقوب فهو حجاب على العين من تواصل الدموع، ولذلك لما جاءه البشير عاد بصيراً، وما كان بأيوب من البلاء لم يكن منفراً، أما ما اشتهر عنه من الحكايات المنفرة فهي باطلة من فعل اليهود.

وأما السهو فممتنع عليهم في الأخبار البلاغية وغير البلاغية. وجائز عليهم في الأفعال البلاغية وغيرها للتشريع، كالسهو في الصلاة، لكن سهوهم لم يكن ناشئاً عن اشتغالهم بغير ربهم، وفي ذلك قال بعضهم:

قد غاب عن كل شيء سره فسها عما سوى الله فالتعظيم لله

وأما النسيان فهو ممتنع في البلاغيات قبل تبليغها، قولية كانت أو فعلية.

وأما بعد التبليغ فيجوز نسيان ماذكر على أنه من الله تعالى ، أما نسيان الشيطان فمستحيل عليهم ، إذ ليس له عليهم سبيل .

وقول يوشع : « وما أنسانيهُ إلا الشيطانُ » .

تواضع منه أو قبل نبوته وعلمه بجال نفسه ، وإلا فهو رحماني بشهادة :

« ذَلِكَ ماكُنَّا نَبغِ ، فارْتَدَّا عَلى آثارِهما قَصَصاً » .[1]

ووسوسة الشيطان لآدم بتمثيل ظاهري ، والممنوع في حقهم سلطانه على بواطنهم . وبالجملة فيجوز على ظواهرهم مايجوز على البشر مما لا يؤدي إلى نقص ، وأما بواطنهم فمنزهة أبداً متعلقة بربهم . وفي المنن[2] كان معروف الكرخي رضي الله عنه يقول : « لي ثلاثون سنة في حضرة الله ماخرجت فأنا أكلم الله والناس يظنون أني أكلمهم » . فإذا كان هذا حال أحد الأتباع ، فما بالك بالأنبياء ، خصوصاً رئيسهم الأعظم ﷺ.

(١) الكهف ٦٤ .

(٢) كتاب المنن الإمام عبد الوهاب الشعراني .

● وجامع معنى الذي تقررا : لما فصل فيا يجب لله وما يستحيل وما يجوز ، وما يجب للرسل وما يستحيل وما يجوز ، ذكر الكلمة المشرفة التي تتضمن كل ما قرره في السابق ، وهو جميع العقائد الإيمانية مما يرجع إلى الألوهية والنبوة وجوباً وجوازاً واستحالة .

● شهادة الإسلام : أي الشهادتان الدالتـــان على الإسلام الذي هو الإنقياد الظاهري ، أو اللتان هما سبب في الإسلام ، أو اللتان هما الجزء الأعظم من مسمى الإسلام ، بناء على أن الهيأة المركبة من الأركان الخمسة المذكورة فيا رواه عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال :

«سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : بُنِيَ الإِسْلامُ عَلَى خَمسٍ : شَهَادَةِ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ ، وَإِقَامِ الصَّلاةِ ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ، وَحَجِّ الْبَيْتِ ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ» .

رواه البخاري ومسلم .

والجامع لما تقدم من العقائد إنما هو معنى الشهادتين لالفظها ، فالجملة الأولى نفت الألوهية عن غيره تعالى ، وأثبتتها له تعالى ، ويلزم منها استغناء الإله عن كل ماسواه ، وافتقار كل ماعداه إليه ، فحقيقة الإله هو المعبود بحق ، ويلزم منه أنه مستغن عن كل ماسواه . فالمعنى الحقيقي لـ « لا إله إلا الله » : لامعبود بحق في الواقع إلا الله . فإذا علمت ذلك

علمت أن الاستغناء يستلزم وجوب الوجود والقدم والبقاء والمخالفة للحوادث ، والقيام بالنفس ، والتنزه عن النقائص ، ويدخل في التنزه : السمع ، والبصر والكلام ، ولوازمها ، وهي كونه سميعاً بصيراً متكلماً ، إذ لو لم تجب له هذه الصفات لكان محتاجاً إلى المحدث أو المحل ، أو إلى من يدفع عنه النقائص . فهذه إحدى عشرة عقيدة من الواجبات ، وإذا وجبت هذه الصفات استحالت أضدادها . فهذه احدى عشرة عقيدة من المستحيلات . ويستلزم الغنى أيضاً ، نفي وجوب فعل شيء من الممكنات أو تركه ، وإلا لزم افتقاره الى فعل ذلك الشيء أو تركه ليتكمل به . فهذه عقيدة الجائز . فجملة ما استلزمه الإستغناء ثلاث وعشرون عقيدة . وأما افتقار كل ما عداه اليه سبحانه فيستلزم الحياة والقدرة والإرادة والعلم ولوازمها ، وهي كونه حياً قادراً مريداً عالماً . ويستلزم أيضاً الوحدانية . فهذه تسع من العقائد الواجبات . ومتى وجبت هذه الصفات استحالت أضدادها . فهذه تسع من العقائد المستحيلات . فجملة ما استلزمه الإفتقار ثماني عشرة عقيدة ، فإن ضمت للسابقة كان المجموع واحداً وأربعين . الواجب له تعالى منها عشرون ، والمستحيل عليه عشرون ، والجائز له واحدة . فقد اشتملت الجملة الأولى « لا إله إلا الله » على أقسام الحكم العقلي الثلاثة الراجعة له تعالى . وأما الجملة الثانية وهي « محمد رسول الله » ففيها الإقرار برسالته ﷺ ، ويلزم منه تصديقه في كل ما جاء به ، ويندرج فيه وجوب صدق الرسل ، وأمانتهم ، وفطانتهم ، وتبليغهم لما أمروا بتبليغه للخلق . ويندرج فيه أيضاً استحالة الكذب والخيانة والغفلة

والكتان عليهم . وبندوج فيه جواز جميع الأعراض البشرية التي لا تؤدي إلى نقص في مراتبهم العلية .

● فاطرح المرا : إذا علمت أن كلمتي الشهادتين جمعتا جميع ما تقرر من العقائد الإيمانية فاترك الجدال في صحة جمعها . ولعلها لما كانتا بهذا المعنى العظيم جعلها الشارع الحكيم ترجمة عما في القلب من الإيمان ، ولم يقبل من أحد الإيمان إلا بها مع القدرة عليها . وقد نص العلماء على أنه لابد من فهم معناها ولو إجمالاً ، وإلا لم ينتفع الناطق بها . قال بعضهم : الأنفع للذكر بها أن يلاحظ أخذهـا من القرآن ليثاب عليها مطلقاً . واختلف العلماء هل الأفضل المد فيها أو القصر ؟ فالجانحون إلى المد علّلوا باستشعار المتلفظ بها بنفي الألوهية عن كل موجود سواه تعالى ، أما الجانحون للقصر فلئلا تخترم المنية ذاكرها قبل التلفظ بذكر « الله » تعالى .

٦٣ ـ وَلَمْ تَكُنْ نُبُوَّةٌ مُكْتَسَبَهْ وَلَوْ رَقَى فِي الْخَيْرِ أَعْلَى عَقَبَهْ

● ولم تكن نبوة مكتسبة : أي لايكتسب العبد النبوة بمباشرة أسباب مخصوصة ، كملازمة الخلوة والعبادة ، وتناول الحلال ، كما زعمت الفلاسفة . فالذي ذهب إليه المسلمون جميعاً أن النبوة إنما هي خصوصية من الله تعالى ، ولا يبلغ العبد أن يكتسبها ، ويفسرونها : باختصاص العبد لسماع وحي من الله تعالى بحكم شرعي تكليفي ، سواء أمر بتبليغه أم لا ، وهكذا الرسالة ، لكن بشرط أن يؤمر بالتبليغ . ويفسر الفلاسفة النبوة : بأنها صفاء وتجل للنفس يحدث لها من الرياضات ، وبالتخلي عن الأمور الذميمة والتخلق بالأخلاق الحميدة . والقول : بأنها مكتسبة ، من أقوى المسائل التي كفرت بها الفلاسفة ويلزم على قولهم باكتسابها تجويز نبي بعد سيدنا محمد ﷺ ، أو معه ، وذلك مستلزم لتكذيب القرآن والسنة .

فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾.(١)

وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ: « لا نَبِيَّ بَعْدِي ».(٢)

وأجمعت الأمة على إبقائه على ظاهره .

---

(١) الأحزاب ٤٠ .

(٢) قال صلى الله عليه وسلم : « سيكون في أمتي ثلاثون كذابون ، كلهم يزعم أنه نبي ، وأنا خاتم النبيين ، لا نبي بعدي » . أخرجه الترمذي وقال : حديث حسن . برقم ٢٢٢٠ جـ ٦ .

وأما الولاية ففيها طريقتان ، فمنها ما هو مكتسب ، وهو امتثال المأمورات ، واجتناب المنهيات ، وتسمى الولاية العامة . ومنها ما هو غير مكتسب ، وهو العطايا الربانية ، كالعلم اللدني ، وغير ذلك [1] .

● ولو رقى في الخير أعلى عقبة : العقبة في اللغة ، هي الطريق الصاعد في الجبل والمعنى لايكتسب النبوة أحد ، ولو فعل في الخير أشق العبادات. ثم قال :

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « قال رسول الله عليه الصلاة والسلام ، إن الله تعالى قال : من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه . ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه » . رواه البخاري . ففيه دلالة على الجانبين ، الكسبي والوهبي ، فبعدما ذكر مكانة الولي من الله تعالى بين طريقها .

٦٤- بَلْ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ لِمَنْ يَشَاءُ جَلَّ اللهُ واهِبُ المِنَنْ

● بل ذاك فضل الله يؤتيه لمن يشاء: بعدما قرر أن النبوة والرسالة من غير اكتساب قرر - هنا - أنها تكون بفضل الله تعالى. والفضل هو إعطاء الشيء بغير عوض، لا عاجل ولا آجل، لذا لايكون لغيره تعالى فعليه يكون الإصطفاء للنبوة والإختيار للرسالة إنما هو بفضل الله تعالى، كَمَا قَالَ عزَّ وَجلَّ: «يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ».[1]

وَقولُهُ: «اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ».[2]

وَقولُهُ: «وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى».[3]

فهو سبحانه يعلم من كان مستجمعاً لشروط النبوة فيؤتيه إياها.

● جل الله واهب المنن: أي تنزه الله عن أن ينال أحد شيئاً لم يرد إعطاءه إياه، فهو سبحانه واهب المنن، أي واهب العطايا.

(١) غافر ١٥.
(٢) الأنعام ١٢٤.
(٣) طه ١٣.

٦٥ وأفضل الخلق على الإطلاق   نبينا فَمِلْ عن الشقاق

● وأفضل الخلق : أي أفضل المخلوقات على العموم الشامل للعلوية منها والسفلية من البشر والجن والملك في الدنيا والآخرة في سائر خصال الخير وأوصاف الكمال هو نبينا محمد ﷺ . وما ورد من النبي عن تفضيله ﷺ

كقوله : « لا تفضلوني على الأنبياء »[1] .

وقوله : « لا تفضلوني على يونس بن متى » .

وقوله : « لا تخيروني على موسى » .

ونحو ذلك ، فمحمول على تفضيل يؤدي إلى تنقيص غيره من الأنبياء ، أو قاله تأدباً وتواضعاً . وقيل معنى : « لا تفضلوني على يونس بن متى » ، أي لا تعتقدوا أني أقرب إلى الله تعالى من يونس في الحس حيث ناجيته سبحانه فوق السموات السبع ، وهو ناجى ربه في بطن الحوت في قاع البحر ، لتنزهه تعالى عن الجهة والمكان فيستوي في حقه سبحانه من فوق السموات ، ومن في قاع البحار .

---

(١) في الصحيحين عن أبي هريرة قال : استب رجل من المسلمين ورجل من اليهود ، فقال اليهودي في قسم يقسمه : « لا والذي اصطفى موسى على العالمين ، فرفع المسلم يده فلطم بها وجه اليهودي وقال : أي خبيث ، وعلى محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فجاء اليهودي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فاشتكى على المسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تفضلوني على الأنبياء ، فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من أفيق فأجد موسى باطشاً بقائمة العرش فلا أدري : أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور ؟ فلا تفضلوني على الأنبياء . قال ابن كثير في تفسيره (جـ ١ص ٥٣٩) معقباً : « قوله صلى الله عليه وسلم هذا ، من باب الهضم والتواضع ، أو قاله من باب النهي عن التفضيل في مثل هذه الحال التي تحاكموا فيها عند التخاصم والتشاجر ، أو=

وَقَدْ قَالَ صلى الله عليه وسلم : « أَنَا أَكْرَمُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ عَلَى اللهِ وَلَا فَخْرَ » .[1]

أي ولا فخر أعظم من ذلك ، أو ولا أقول ذلك فخراً بل تحدثاً بنعمة الله . وتفضيله هذا إنما هو بتفضيل الله سبحانه له .

● فمل عن الشقاق : أي بعدما عرفت مما تقدم فضله ، إعدل عن المنازعة فيه ، إذ المنازعة خرق للإجماع .

= المقصود عدم التفضيل بمجرد الآراء والعصبية ، أو المعنى أن مقام التفضيل ليس إليكم وإنما هو إلى الله عز وجل . وفي هداية الباري عن أبي هريرة رضي الله عنه : « لا تخيروني على موسى ... الحديث ، إلى أن يقول : فإذا موسى باطش جانب العرش ، فلا أدري : أكان فيمن صعق فأفاق قبلي أو كان ممن استثنى الله ؟ » (ج ٢ ص ٢٨٨) . وفيه أيضاً عن ابن عباس : « ما ينبغي لعبد أن يقول : إني خير من يونس بن متى » ، قال الشارح معلقاً على هذا الحديث : إنما خص سيدنا يونس بالذكر خشية على من سمع قوله تعالى : (ولا تكن كصاحب الحوت) أن يقع في نفسه تنقيصه ، والحط من مرتبته ، فبالغ في ذكر فضله سداً لهذه الذريعة (هداية الباري ج ٢ ص ١٨٤) .

(١) عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا ، وأنا خطيبهم إذا وفدوا ، وأنا مبشرهم إذا أيسوا ، لواء الحمد يومئذ بيدي ، وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر » . رواه الترمذي ج ٩ برقم ٣٦١٤ ورواه مسلم أيضاً . وعن ابن عباس ... قال صلى الله عليه وسلم : « ألا وأنا حبيب الله ولا فخر ، وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر ، وأنا أول شافع وأول مشفع يوم القيامة ولا فخر ، وأنا أول من يحرك حلق الجنة فيفتح الله لي فيدخلنيها ومعي فقراء المؤمنين ولا فخر ، وأنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر (رواه الترمذي برقم ٢٦٢٠ ج ٩) . قال القرطبي في تفسيره (الجزء الثالث ص ٢٦٢) .

. . . . . .

إن المنع من التفضيل إنما هو من جهة النبوة التي هي خصلة واحدة لا تفاضل فيها ، وإنما التفضيل في زيادة الأحوال والخصوص والكرامات والألطاف والمعجزات المتباينات. وأما النبوة نفسها فلا تتفاضل، وإنما تتفاضل بأمور أخر زائدة عليها ، ولذلك منهم رسل وأولوا عزم ، ومنهم من اتخذ خليلا ، ومنهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات . وقد أشار ابن عباس إلى هذا فقال : إن الله فضل محمداً على الأنبياء ، وعلى أهل السماء ، فقالوا : بم يا ابن عباس فضله على أهل السماء ؟ فقال : إن الله تعالى قال : « ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين ». وقال لمحمد صلى الله عليه وسلم : «إنا فتحنا لك فتحاً مبينا ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » .قالوا فما فضله على الأنبياء ؟ قال: قال الله تعالى : «وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ». وقال له صلى الله عليه وسلم : « وما أرسلناك إلا كافة للناس » . فأرسله إلى الجن والإنس . ذكره أبو محمد الدارمي .

● والأنبيا ... : فالأنبياء يتبعون نبينا محمداً ﷺ في الفضل ، فرتبتهم بعده ، وإن تفاوتوا فيا قبله سيدنا إبراهيم فموسى فعيسى فنوح ، وهؤلاء هم أولوا العزم ، صبروا وتحملوا مشاق الدعوة العظيمة ، ويلي أولي العزم بقية الرسل ثم الأنبياء غير الرسل مع تفاوت مراتبهم عند الله تعالى .

● وبعدهم ملائكة ... : وبعد الأنبياء ملائكة الله ذي الفضل . فمرتبتهم تلي مرتبة الأنبياء في الجملة . والذي يلي الأنبياء من الملائكة رؤساؤهم جبريل فميكائيل فإسرافيل فملك الموت ثم بقية الملائكة . وجبريل أفضل الملائكة على المشهور . وذهب القاضي أبو عبد الله الحليمي مع آخرين ـ كالمعتزلة ـ إلى أن الملائكة أفضل من الأنبياء ما خلا نبينا محمداً ﷺ .
قال السعد : ولا قاطع في هذه المقامات . وقال تاج الدين السبكي : ليس تفضيل البشر على الملك مما يجب اعتقاده ، والسلامة في السكوت عن هذه المسألة ، والدخول في التفضيل من غير دليل قاطع دخول في خطر عظيم ، وحكم في مكان لسنا أهلاً للحكم فيه .

واعلم أن الملائكة أجسام لطيفة نورانية ، قادرة على التشكل بأشكال مختلفة ، حسنة ، شأنها الطاعة ، ومسكنها السموات غالباً .

قال تعالى فيهم : « يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لا يَفْتُرُونَ » .(١)
وقال : « لا يَعْصُونَ اللهَ ما أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ » .(٢)

---

(١) الأنبياء ٢٠ .
(٢) التحريم ٦ .

لايوصفون بذكورة ، فمن وصفهم بها فسق ، ولا بأنوثة ، فمن وصفهم بها كفر لمعارضة قوله تعالى :

« وجَعلُوا الملائكةَ الذينَ هُمْ عبادُ الرَّحمنِ إناثاً ، أشَهِدُوا خلقَهُمْ، سَتُكتَبُ شهادَتُهمْ ويُسألُونَ »(١) .

وعن عائشةَ رضيَ اللهُ تعالى عنها قالتْ : قالَ رسولُ الله ﷺ : « خُلقتِ الملائكةُ مِنْ نورٍ، وخُلقَ الجانُّ مِنْ مارجٍ مِنْ نارٍ، وخُلقَ آدمُ مِمَّا وُصفَ لكُمْ »(٢) .

(١) الزخرف ١٩ .

(٢) رواه الإمام مسلم ، وفي رياض الصالحين برقم ١٨٤٣ .

٦٧ ـ هذا وَقَومٌ فَصَّلوا إذ فَضَّلُوا وبعضُ كُلٍّ بعضَهُ قد يَفضُلُ

● هذا : أي إفهم هذا المذكور من تفضيل الأنبياء على الملائكة، وتفضيل الملائكة على بقية البشر، من غير تفصيل كما هو طريقة جمهور الأشاعرة الموجوحة . وإنما قدمها الناظم لأن منظومته على مذهبهم .

● وقوم فصلوا إذ فضلوا ، وهم الماتريدية ، فقالوا : إن الأنبياء أفضل من رؤساء الملائكة ، ورؤساء الملائكة أفضل من عوام البشر ، وليس المراد بالعوام هنا مايشمل الفساق ، وعوام البشر المذكورون أفضل من عوام الملائكة . ويدخل في الرؤساء حملة العرش ، وهم ثمانية يوم القيامة لمزيد الجلال ، وأربعة في الدنيا [١] ، والكروبيون ، وهم حافون بالعرش، لقبوا بذلك لأنهم متصدون للدعاء برفع الكرب عن الأمة . وهذه هي الطريقة الراجحة . وأعلم أن العصمة لا دخل لها في التفضيل فلا ينظر إليها ، لذلك فضل العوام على الملائكة المعصومين ، وإنما ينظر للأكثرية في الثواب على العبادة ، وعوام الخلق أكثر ثواباً لحصول المشقة لهم في عبادتهم ، بخلاف عوام الملائكة ، فإن الطاعة جبليَّة فيهم .

● وبعض كل [٢] : أي بعض الأنبياء كأولي العزم أفضل من بعضهم

(١) ذكر الثعلبي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : حملة العرش اليوم أربعة، فإذا كان يوم القيامة أيدهم الله تعالى بأربعة آخرين فكانوا ثمانية ، وخرجه الماوردي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يحمله اليوم أربعة وهم يوم القيامة ثمانية » .

(٢) قوله : بعضه قد يفضل ، فبعضه مفعول مقدم ليفضل أي : بعض كل قد يفضل بعضه .

الآخر ، وبعض الملائكة كرؤسائهم لأفضل من بعضهم الآخر .

والخلاصة : أن سيدنا محمداً ﷺ أفضل الخلق على الإطلاق ثم سيدنا إبراهيم ، ثم سيدنا موسى ، ثم سيدنا عيسى ، ثم سيدنا نوح ، وهؤلاء هم أولوا العزم ، ثم بقية الرسل ، ثم الأنبياء وهم متفاضلون فيا بينهم عند الله تعالى، ثم جبريل ، ثم ميكائيل ، ثم بقية الرؤساء ، ثم عوام البشر ، كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي ، ثم عوام الملائكة ، وهم متفاضلون فيا بينهم عند الله أيضاً . وقد سبق أنه يمتنع الهجوم فيا لم يرد فيه توقيف فلاتسه عنه .

٦٨ـ بالمُعجِزاتِ أُيِّدُوا تَكَرُّمًا وعِصْمَةَ الْبَارِي لِكُلٍّ حَتِّمَا

● بالمعجزات أيدوا : أي أيدهم الله تعالى بالمعجزات حيث أظهرها على أيديهم تصديقاً لهم في دعوى النبوة والرسالة ، وفيها بلغوه عنه سبحانه ؛ لأنها نازلة منزلة قوله تعالى : « صدق عبدي في كل ما يبلغ عني » .

ولا يشترط في ثبوت النبوة والرسالة عدد من المعجزات بل واحدة تكفي .

● تكرماً : أي كان تأيدهم بالمعجزات تفضلاً وإحساناً من غير إيجاب ولا وجوب ، وفيه رد على من أوجب المعجزة كما أوجب الإرسال . والحق أنه تعالى لايجب عليه شيء لأحد من خلقه .

والمعجزة : ـ لغة ـ مأخوذة من العجز ضد القدرة .

وعرفاً : أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي الذي هو دعوى الرسالة أو النبوة مع عدم المعارضة .

وقال السعد : هي أمر يظهر بخلاف العادة على يد مدعي النبوة عند تحدي المنكرين على وجه يعجز المنكرين عن الإتيان بمثله، فحقيقة الإعجاز إثبات العجز .

قال الشيخ أبو الحسن : هي فعل من الله تعالى ، أو قائمة مقام الفعل يقصد بمثله التصديق .

ومعنى التحدي : طلب المعارضة فيما جعله شاهـداً لدعوته ، وتعجيز المنكرين عن الإتيـان بمثل ما أبداه ، وبالتحدي يحصل ربط الدعوى بالمعجزة ، والمراد بعدم المعارضة ألا يظهر مثله ممن ليس بنبي وأما من نبي آخر فلا امتناع . والمراد بخوارق العادات أمور ممكنة في نفسها ممتنعة في العادة بمعنى أنها لم تجر العادة بوقوعها ، كانقلاب العصا

حية ، فإمكانها ضروري ، وإبداعها ليس أبعد من إبداع خلق الأرض والسماء وما بينها . ووجه دلالة المعجزة على صدق الرسالة أنها – عند التحقيق – بمنزلة صريح التصديق لما جرت العادة به من أن الله تعالى يخلق عقبها العلم الضروري بصدقه . كما إذا قام رجل في مجلس ملك بحضور جماعة ، وادعى أنه رسول هذا الملك إليهم ، فطالبوه بالحجة فقال : هي أن يخالف هذا الملك عادته ، ويقوم عن سريره ثلاث مرات ويقعد . ففعل ، فإنه يكون تصديقاً له ، ومفيداً للعلم الضروري بصدقه من غير ارتياب . واعتبر المحققون في المعجزة سبعة قيود .

الأول : أن تكون قولاً – كالقرآن – أو فعلاً – كنبع الماء من بين أصابعه ﷺ – ، أو تركاً – كعدم إحراق النار لسيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام – . فأما الصفة القديمة – كما إذا قال : آية صدقي أن الله متصف بالقدرة – فليست بمعجزة .

الثاني : أن تكون خارقة للعادة ، والعادة مادرج عليه الناس واستمروا مرة بعد أخرى ، فغير الخارق ليس بمعجزة ، كما إذا قال : آية صدقي طلوع الشمس من المشرق وغروبها من حيث تغرب .

الثالث : أن تكون على يد مدعي النبوة أو الرسالة ، فتخرج الكرامة ، والمعونة ، والإستدراج ، والإهانة من حد المعجزة . فأما الكرامة فهي مايظهره الله تعالى على يد عبد ظاهر الصلاح . وأما المعونة فهي مايظهره الله تعالى على يد العوام تخليصاً لهم من شدة ، وأما الإستدراج فهو مايظهر على يد فاسق خديعة ومكراً به ، وأما الإهانة فهي مايظهر على يد الفاسق تكذيباً له ، كما وقع لمسيلمة الكذّاب ، فإنه تفل في

عين أعور لتبرأ فعميت الصحيحة ، وتفل في بئر لتعذب مياهه فغارت .

الرابـع : أن تكون مقرونة بدعوى النبوة أو الرسـالة حقيقة ، أو حكماً بأن تأخرت بزمن يسير . وبخروج الإرهاص ، وهو ما كان قبل النبوة والرسالة تأسيساً لها ، كإظلال الغمام له ﷺ قبل البعثة ، أو كظهور النور في جبين أبيه عبد الله .

فقـد نقل السهيلي [(١)] وابن سعد في طبقاته [(٢)] والنويري [(٣)] أن أخت ورقة بن نوفل - واسمها رقية - قالت لعبد الله أبي المصطفى ﷺ بعد ما افتدي من الذبح بمائة من الإبل نحرت : لك مثـل الإبل التي نحرت عنك اليوم إن قبلت أن أهب لك نفسي الساعة ، وبعد أن تزوج آمنة أم النبي ﷺ انصرفت عنه رقية وزهدت فيه ، فسألها يوماً : مالك لاتعرضين علي اليوم ماكنت عرضت علي بالأمس ؟ ! فأجابت : فارقك النور الذي كان معك بالأمس ، فليس لي بك اليوم حاجة .

وذكر ابن الأثير أن فاطمة بنت مر - وكانت كاهنـة من خثعم قرأت الكتب ، ومن أجمل النساء وأعفهن - دعت عبد الله يومـاً إلى نكاحها ، فنظر اليها وقال ، أمـا الحرام فالممات دونه ، والحل لاحل فأستبينه ، فكيف بالأمر الذي تبغينه . ثم بعد زواجه بآمنة بنت وهب أعرضت عنه فاطمة وقالت : قد كان ذلك مرة فاليوم لا ، وإني والله ما أنا بصاحبة ريبة ، ولكني رأيت في وجهك نوراً فأردت أن يكون لي ، فأبى الله إلا أن يجعله حيث أراد ، فما صنعت بعدي ؟ فقال لها :

---

(١) ١٠٣/١ (٢) ٥٨/١ (٣) نهاية الأرب ٥٨/١٦ وانظر مجمع الأمثال للميداني ٢٤/٢ والطبري ١٧٤/٢ وابن الأثير ٤/٢ ونهاية الأرب ١٦ /٦١ و ٧٧ .

زوجني أبي آمنة بنت وهب . فأنشدت :

لله ما زهرية سلبت منك الـذي استلبت وما تدري

وقيل كذلك: أن ليلى العدوية عرضت نفسها عليه ثم أعرضت وقالت : مررت بي وبين عينيك غرة بيضاء ، فدعوتك فأبيت عليّ ودخلت على آمنة فذهبت بها .

الخامس : أن تكون موافقـة للدعوى . ربخروج المخالف لها ، كما إذا قال : آية صدقي انفلاق البحر ، فانفلق الجبل .

السـادس : أن لاتكون مكذبة له ، فخرجت المكذبة ، كما إذا قال : آية صدقي نطق هذا الجماد ، فنطق بأنه مفتر كذاب ، أما لو قال : آية صدقي نطق هذا الإنسان الميت وإحياؤه فأحيي ، ونطق بأنه مفتر كذاب فلا يعتبر ، والفرق بينهما أن الجماد لا اختيـار له فاعتبر تكذيبه لأنه أمر إلهي ، والإنسان مختار فلا يعتبر تكذيبه إذ أنـه قد يختار الكفر على الإيمان .

السـابع : أن تتعذر معارضته . فخرج السحر ، ومنه الشعبذة وهي خفة في اليد ، يرى أن لها حقيقة ولا حقيقة لها ، كما يقع للحواة . والسحر ليس من الخوارق ، لأنه معتاد عند تعاطي أسبابه .

ثامنـاً : قد زاد بعضهم هذا الشرط ، وهو أن لاتكون في زمن نقض العادة ، كزمن طلوع الشمس من مغربها ، وخرج أيضاً ما يقع من الدجال ، كأمره للسماء فتمطر ، والأرض فتنبت[1]

(١) عن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال : « ذكر رسول الله صلى الله عليه الدجال ذات غداة ، فخفض فيه ورفع ، حتى ظنناه في طائفة النخل ، فانصرفنا من عند سول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم رحنا إليه فعرف ذلك فينا ، فقال : ماشأنكم ؟ فقلنا : يارسول الله ، ذكرت الدجال غداة فخفضت فيه ورفعت ، حتى ظنناه في =

= طائفة النخل. فقال : غير الدجال أخوفني عليكم ، إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم ، وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه ، والله خليفتي على كل مسلم ، إنه شاب قطط ، عينه طافئة ، كأني أشبهه بعبد العزى بن قطن ، فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف . إنه خارج خلة بين الشام والعراق ، فعاث يميناً وعاث شمالاً ، يا عباد الله فاثبتوا » . . . إلى أن قال : فيأتي على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ، ويستجيبون له ، فيأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت ، فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذرا ، وأسبغه ضروعاً وأمده خواصر » . « ابن قطن جاهلي من خزاعة . والحديث بطوله رواه مسلم وأبوداوود والترمذي وابن ماجه وأحمد والحاكم ».

خفض فيه ورفع أي حقره كقوله: إنه أعور العين ، وإنه أهون على الله من ذلك وإنه لا يقدر على قتل أحد، إلا ذلك الرجل ثم يعجز عنه ، وإنه يضمحل أمره، ويقتل بعد ذلك، ورفع فيه : أي عظمه وفخمه ، كقوله : ليس بين يدي الساعة أعظم من الدجال وما من نبي إلا وقد أنذر أمته الأعور الكذاب . أو خفض فيه : أي خفض من صوته لكثرة ما تكلم بشأنه ، ثم رفع صوته ليبلغ كل أحد . وإنما قال : «غير الدجال أخوفني عليكم » ، حين شاهد استعظام الصحابة لأمر الدجال ، وشدة خوفهم من الإفتتان به وقد بين في حديث من هذا الذي يخاف علينا منه أكثر من الدجال، فقال فيما رواه الإمام أحمد بسند جيد عن أبي ذر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : غير الدجال أخوف على أمتي من الدجال: « الأئمة المضلون » ، أي الدعاة إلى الضلالات ، والأفكار الباطلة . وقد ذكر الحافظ ابن حجر موطن خروج الدجال، فقال في فتح الباري (ج١٣ص ٧٩) وسيكون خروجه من قبل المشرق جزما، ثم جاء في رواية أنه يخرج من خراسان ، وفي أخرى أنه يخرج من أصبهان ، ويخرج أولاً فيدعي الإيمان والصلاح ، ثم يدعي النبوة ثم يدعي الإلهية !! . قال الحافظ في فتح الباري (ج١٣ ص ٩١ - ٩٣) قال الخطابي: فإن قيل : كيف يجوز أن يجري الله الآية على يد الكافر ؟ فإن إحياء الموتى آية

= عظيمة من آيات الأنبياء ، فكيف بنالها الدجال وهو كذاب مفتر يدعي الربوبية ؟ فالجواب : أنه على سبيل الفتنة للعباد ، إذ كان عندهم مايدل على أنه مبطل غير محق في دعواه ، وهو أنه أعور مكتوب على جبهته كافر ، يقرؤه كل مسلم فدعواه داحضة مع وسم الكفر ونقص الذات والقدر ، إذ لو كان إلهاً لأزال ذلك عن وجهه ، وآيات الأنبياء سالمة من المعارضة فلا يشتبهان . ثم نال الحافظ بعد كلام الخطابي ، وفي الدجال دلالة بينة لمن عقل على كذبه ، لأنه ذو أجزاء مؤلفة ، وتأثير الصنعة فيه ظاهر ، مع ظهور الآفة به من عور عينه ، فإذا دعا الناس إلى أنه ربهم فأسوأ حال من يراه من ذو العقول أن يعلم أنه لم يكن ليسوي خلق غيره ويعدله ويحسنه ، ولا يدفع النقص عن نفسه .

وقد قال القاضي عياض : في هذه الأحاديث حجة لأهل السنة في صحة وجود الدجال ، وأنه شخص معين ، يبتلي الله به العباد ويقدره على أشياء كإحياء الميت الذي يقتله ، وظهور الخصب والأنهار ، والجنة والنار ، وإتباع كنوز الأرض له ، وكل ذلك بمشيئة الله تعالى ، ثم يعجزه الله فلا يقدر على قتل ذلك الرجل ولا غيره ، ثم يبطل أمره ويقتله عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام . وقال الشيخ أبو بكر بن العربي : الذي يظهر على يد الدجال من الآيات : من إنزال المطر والخصب على من يصدقه ، والجدب على من يكذبه ، وإتباع كنوز الأرض له ، وما معه من جنة ونار ومياه تجري ، كل ذلك محنة من الله واختبار ليهلك المرتاب وينجو المتيقن ، وذلك كله أمر مخوف ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم : لا فتنة أعظم من فتنة الدجال . وقال القرطبي في تفسيره (جزء ١ ص ٢٩٧) : قال علماؤنا من أظهر الله على يديه – ممن ليس بنبي – كرامات وخوارق العادات ، فليس ذلك دالاً على ولايته ، خلافاً لبعض الصوفية والرافضة . ثم استدل على ما قال : بأنا لا نقطع بهذا الذي جرى الخارق على يديه أن يوافي الله تعالى بالإيمان ، وهو لا يقطع لنفسه بذلك . وقال ابن كثير في تفسيره (ج ١ ص ٧٨) : وقد استدل بعضهم على أن الخارق قد يكون على يد غير الولي ، بل قد يكون على يد الفاجر والكافر أيضاً ، بما ثبت بالأحاديث عن الدجال بما يكون على يديه من الخوارق الكثيرة ، من =

● وعصمة الباري لكل حتا : لما كان الجمهور على وجوب عصمتهم عليهم الصلاة والسلام مما ينافي مقتضى المعجزة ، إذ أنها تقتضي الصدق في دعوى النبوة ، وما يتعلق بها من التبليغ وشرعية الأحكام ، قال : حتم أيها المكلف عصمة الباري لهم ، أي اعتقد أن عصمة الباري لكل واحد من الأنبياء والملائكة واجبة ، فلا تنفك ، ولا تقبل الإنتفاء بحال . وإنما تعرض العصمة — هنا — رغم سبق بحثها لإدخال الملائكة في حكمها والإتصاف بها مع الأنبياء .

والعصمة لغة : مطلق الحفظ ، واصطلاحاً : حفظ الله تعالى للمكلف من الذنب مع استحالة وقوعه ، وبهذا المعنى لايجوز أن تنالها ، أما أن أريد معناها اللغوي فجائز . ومـا جاء عن هاروت وماروت فمن أكاذيب اليهود وافتراءاتهم ، ولم يصح فيه شيء من الأخبار ، وقد قيل إنهما كانا صالحين وسميا ملكين تشبيهاً .

= أنه يأمر السماء أن تمطر فتمطر والأرض أن تنبت فتنبت، وتتبعه كنوز الأرض مثل اليعاسيب، وأنه يقتل ذلك الشاب ثم يحييه إلى غير ذلك من الأمور المهولة . وقال يونس بن عبد الأعلى الصدفي : قلت الشافعي : كان الليث بن سعد يقول : إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء فلا تغتروا به حتى تعرضو أمره على الكتاب والسنة ، فقال الشافعي قصر الليث رحمه الله ، بل إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء ويطير في الهواء فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة .

٦٩ - وَخُصَّ خَيْرُ الْخَلْقِ أَنْ قَدْ تَمَّمَا بِهِ الْجَمِيعَ رَبُّنَا وَعَمَّمَا

وخص : أي وخص الله خير الخلق محمداً ﷺ بأن ختم به جميع الأنبياء.

قَالَ تَعالَى : « وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ » .

ويلزم منه ختم المرسلين ، لأنه لما ختم الأعم دل على ختم الأخص . وأما سيدنا المسيح فنزوله آخر الزمن لايشكل ، لأنه سيحكم بشريعة نبينا ﷺ، ولا يشكل أنه حين نزوله سيحكم برفع الجزية عن أهل الكتاب ، ولا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف [1] وخصائص النبي محمد ﷺ لاتعد ، وقد ذكر المصنف - هنا - المهم منها فقال :

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ويضع الجزية . ويفيض المال حتى لايقبله أحد » . هداية البارى ج ٢ ص ٢٨٠ ، والمراد من وضع الجزية رفعها لا تقريرها، إذ لايقبل من أحد جزية ، فإما الإسلام أو القتل . ويكون حين ينزل مكلفاً بأحكام شريعة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وحكماً من حكام ملته بين أهل ملته بما علمه في السماء قبل نزوله من شريعة الإسلام ، كما في الأثر .

٧٠ - بِعْثَتَهُ فَشَرْعُهُ لَا يُنْسَخُ ... بِغَيْرِهِ حَتَّى الزَّمَانُ يُنْسَخُ

بعثته : أي وخص أيضاً بأن عمم الله بعثته [١] ، فالتعميم للرسالة مقصور عليه ﷺ لابتعداه إلى غيره ، فهو موسل إلى جميع المكلفين من الثقلين إرسال تكليف اتفاقاً ، وأما الملائكة فالأصح أنه أرسل إليهم إرسال تشريف . وما كلف به الإنس تفصيلاً وإجمالاً فقد كلف به الجن كذلك ، ويشمل ذلك يأجوج ومأجوج ، وهم أولاد يافث بن نوح ، وقيل غير ذلك [٢] .

قَالَ تَعَالَىٰ : « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ » .[٣]

وقَالَ أَيْضاً : « وما هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ »[٤].

وقَالَ صَلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « بُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً » .

---

(١) بعثته : مفعول لعمم في عجز البيت السابق ، أي عمم بعثته لجميع الخلائق .

(٢) قال ابن كثير في تفسيره ص (١٠٣) عن يأجوج ومأجوج هم من سلالة آدم كما ثبت في الصحيحين (إن الله تعالى يقول : يا آدم فيقول : لبيك وسعديك ، فيقول ابعث بعث النار ، فيقول : وما بعث النار ؟ فيقول : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار ، وواحد إلى الجنة . فحينئذ يشيب الصغير وتضع كل ذات حمل حملها . فقال - أي الرسول صلى الله عليه وسلم - : إن فيكم أمتين ما كانتا في شيء إلا كثرتاه (يأجوج ومأجوج) .

(٣) سبأ ٢٨ .

(٤) نون ٥٢ .

فتكو عموم بعثته كافر . وقد رد في ذلك على العيسوية ، وهم فرقة يهودية زعمت تخصيص رسالته ﷺ بالعرب .

● فشرعه لاينسخ : إذا علمت أنه خاتم النبيين وأن بعثته عامة فاعلم أن شرعه لاينسخ بغيره لا كلا ولا بعضاً . والشرع - لغة - هو البيان . واصطلاحاً : هو الأحكام الشرعية . والنسخ - لغة - هو الإزالة والنقل . ومنه نسخت الشمس الظل : أي أزالته ، ونسخت الكتاب : أي نقلته ، واصطلاحاً : رفع حكم شرعي بدليل شرعي . والمراد بالرفع : إنقطاع تعلقه بالمكلفين لأن خطاب الله تعالى ، ويستحيل رفعه لأنه قديم بخلاف التعلق فلا يستحيل رفعه لأنه حادث .

● حتى الزمان ينسخ : فشرعه ﷺ مستمر - رغم أنف الكافرين - إلى نسخ الزمان ، أي حتى يزال الزمان ويرفع بحضور يوم القيامة ، لقوله ﷺ :

« لَنْ تَزَالَ هذهِ الأُمَّةُ قائِمَةً على أَمرِ اللهِ - يعني الدينَ الحقَ - لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خالَفَهُمْ حتى يَأْتِيَ أَمرُ اللهِ » .

وفي رواية للترمذي أنه قال :

« لا تزالُ طائفةٌ مِنْ أُمَّتي على الحقِّ ظاهرينَ لا يَضُرُّهُمْ مَنْ يَخذُلُهُمْ حتى يَأْتِيَ أَمرُ اللهِ »[1] .

والمقصود بأمر الله : أي الساعة . فشرعه يبقى حتى قرب الساعة ، لأن المؤمنين يموتون قبلها بريح لينة[2] .

---

(١) الترمذي ج ٧ رقم ٣٢٣٠ .

(٢) روى الإمام مسلم في صحيحه عن النواس بن سمعان حديثاً طويلاً حول الدجال ونزول السيد المسيح ويأجوج ومأجوج ، ثم قال في عجزه بعدما ذكر شيوع الخير في الأرض « فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحاً طيبة فتأخذهم تحت آباطهم فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر فعليهم تقوم الساعة » .

٧١ـ وَنَسْخُهُ لِشَرْعِ غَيْرِهِ وَقَعْ حَتْماً أَذَلَّ اللهُ مَنْ لَهُ مَنَعْ
٧٢ـ وَنَسْخُ بَعْضِ شَرْعِهِ بِالبَعْضِ أَجِزْ وَمَا فِي ذَا لَهُ مِنْ غَضْ

● ونسخه لشرع غيره وقع * حتماً : أي قد وقع بشكل متحتم نسخ شرع نبينا ﷺ لشرع كل نبي غيره ويدل على ذلك قوله تعالى :

« وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ، وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ » [1] .

مع أحاديث كثيرة بلغت جملتها مبلغ التواتر . فالنسخ واقع سماعاً بإجماع المسلمين ، خلافاً لليهود والنصارى الزاعمين أن شرعه ﷺ لم ينسخ شرع أحد من الأنبياء توسلاً للقول بنفي نبوته ، واحتجوا بأن النسخ يلزم منه ظهور مصلحة كانت خافية على الله تعالى . فدحضت بأن المصلحة تختلف بحسب الأزمنة .

● أذل الله من له منع : هذا دعاء على المانعين للنسخ ، أي ألحق الله الذل باليهود والنصارى ومن تبعهما على هذا .

● ونسخ بعض : أي مما ينبغي اعتقاده جواز نسخ بعض الشرع ببعضه الآخر جوازاً وقوعياً ، لوقوعه بالفعل . نعم : معرفة الله تعالى ، وتحريم الكفر لاينسخان [2] . وقد منع بعضهم ـ كأبي موسى الأصفهاني ـ أن ينسخ بعض القرآن بعضه الآخر احتجاجاً بقوله تعالى :

---

(١) آل عمران ٨٥ .
(٢) وكذلك كل ما يتعلق بأمور العقيدة من مسائل ، فهي لا تنسخ .

«لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ»[1].

والصحيح الجواز لأن الضمير فيه - لا يأتيه - إنما يعود لمجموع القرآن، ومجموعه لاينسخ اتفاقاً، فالحاصل أن الكلام في مقامين: مقام جواز ومقام وقوع، فمن حيث الجواز - عقلاً - يجوز نسخ الشريعة كلاً أو بعضاً، وأما من حيث الوقوع فلا يجوز نسخ الجميع جوازاً وقوعاً.

● وما في ذا من غض: أي ليس في تجويز النسخ من نقص له يقتضي امتناعه[2]، ودخل في تجويز النسخ:

أولاً - نسخ الكتاب بالكتاب، كما في قوله تعالى:

«وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِم مَّتَاعاً إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ»[3].

فإنه منسوخ بقوله تعالى:

«الَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً»[4].

---

(١) فصلت ٤٢.

(٢) ما في ذا: أي ليس غض في هذا، فا: نافية لا عمل لها، من غض: من حرف جر زائد وغض إسم مجرور لفظاً مرفوع محلاً مبتدأ، في هذا: متعلقان بخبر المبتدأ.

(٣) البقرة ٢٤١.

(٤) البقرة ٢٣٥.

لتأخره نزولاً وإن تقدم تلاوة .

ثانياً : نسخ السنة بالسنة ، كما في حديث :

« كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيارَةِ القُبُورِ ، فَزُورُوها »(١) .

فإنه نسخ النهي الذي وقع منه ﷺ أولاً بالأمر في هذا الحديث .

ثالثاً : نسخ السنة بالكتاب ، كما في استقبال بيت المقدس الثابت بالسنة ، فإنه نسخ باستقبال الكعبة الثابت بقوله تعالى :

« فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المَسْجِدِ الحَرامِ »(٢) .

رابعاً : نسخ الكتاب بالسنة ، كما في قوله تعالى :

« كُتِبَ عَلَيْكُمْ إذا حَضَرَ أَحَدَكُمُ المَوْتُ إنْ تَرَكَ خَيْراً الوَصِيَّةُ لِلْوالِدَيْنِ والأقْرَبِينَ بالمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى المُتَّقِينَ »(٣) .

فإنه نسخ بحديث :

« لا وَصِيَّةَ لِوارِثٍ »(٤) .

خامساً : نسخ التلاوة والحكم جميعاً ، كما في نحو (عشر رضعات معلومات يحرمن)(٥) ، فإنه كان مما يتلى فنسخ بـ (خمس معلومات يحرمن) .

---

(١) رواه الترمذي برقم ١٠٥٤ ج ٤ وقال حديث حسن صحيح .

(٢) البقرة ١٤٩ .

(٣) البقرة ١٨٠ .

(٤) رواه الترمذي في حديث طويل برقم ٢١٢١ ج ٦ .

(٥) روى الشيخان عن عائشة قالت : كان فيما أنزل عشر رضعات معلومات فنسخن بخمس معلومات . وقال أبو موسى الأشعري : نزلت ثم رفعت . الإتقان ص ٢٢ ج ٢

ثم نسخ هذا الناسخ ـ عندنا تلاوة لاحكماً ، وعند المالكية تلاوة وحكماً .

سادساً : نسخ التلاوة دون الحكم ، كما في نحو :

« الشيخ والشيخة إذا زنيـا فارجموهما البتة ، نكالاً من الله ، والله عزيزٌ حكيم » . [1]

فإنه كان مما يتلى ، فنسخ تلاوة لاحكماً .

سابعاً : نسخ الحكم دون التلاوة كما في آية :

« والَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ » .

المار ذكرها ، والحق أن النسخ لايكون إلا إلى بدل ، كما قاله الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه خلافاً لمن جوزه في البـدل وغيره ، كما في قوله تعالى :

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ على القِتَالِ ، إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مائَتَيْنِ » .

وقولُهُ : « الآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنْكُمْ وعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً ، فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مائَتَيْنِ » [2] .

فهذا نسخ إلى بدل ، وأما الذي إلى غير بدل فكما في قوله تعالى :

---

(١) آية الرجم رويت عن زر بن حبيش . الإتقان ص ٢٥ ج ٢ .

(٢) الأنفال ٦٥ ـ ٦٦ .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ، ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » .(١)

فإن وجوب تقديم الصدقة نسخ بلا بدل ، وقال المانعون : بل إلى بدل بأن بدل وجوب تقديم الصدقة هو جواز التصدق أو استحبابه فلم يقع بلا بدل أصلا .

(١) المجادلة ١٢ .

٧٣ - وَمُعْجِزَاتُهُ كَثِيرَةٌ غُرَرْ مِنْهَا كَلامُ اللهِ مُعْجِزُ الْبَشَرْ

● ومعجزاته : الغرض هنا التنبيه على كثرة معجزاته ﷺ ووضوحها ووصفها بالكثرة المطلقة إيماء بالعجز عن الإحاطة بها . والمعجزة هي تأييد الله تعالى للأنبياء . ومفهومها الأمر الخارق للعادة الظاهر على يده ﷺ ، سواء كانت مقرونة بالتحدي أم لا . ومعجزاته ﷺ واضحات مشهورات . وما كان منها معلوماً بالقطع منقولاً بالتواتر - كالقرآن الكريم - فلا شك في كفر منكره ، وما لم يكن منها كذلك ، فإن اشتهر - كنبع الماء من بين أصابعه ﷺ - فُسِّق منكره ، وإن لم يشتهر وثبت بطريق صحيح أو حسن ، عُزِّرَ منكره . فقد جاء في الصحيحين عن أنس رضي الله عنه أنه قال :

رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَحَانَتْ صَلاةُ الْعَصْرِ وَالْتَمَسَ النَّاسُ الْوَضُوءَ فَلَمْ يَجِدُوهُ ، فَأُتِيَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِوَضُوءٍ فَوَضَعَ يَدَهُ فِي ذَلِكَ الإِنَاءِ فَأَمَرَ النَّاسَ أَنْ يَتَوَضَّئُوا مِنْهُ ، فَرَأَيْتُ الْمَاءَ يَنْبُعُ مِنْ أَصَابِعِهِ وَأَطْرَافِ أَصَابِعِهِ حَتَّى تَوَضَّأَ الْقَوْمُ ».

قال راويه قلنا لأنس : كم كنتم ؟ قال : كنا ثلاثمائة . ونبع الماء كان في غزوة تبوك ، وفي يوم الحديبية ، وفي غزوة بواط ، وفي مواطن كثيرة ، ولم يسمع بمثل هذه المعجزة لغيره ﷺ ، وهذا الماء هو

أشرف المياه . ومن معجزاته انشقاق القمر ففي الصحيحين وغيرهما ، وله طرق شتى بحيث لايتوى في تواتره ، عن ابن مسعود أنه قال :

«بَيْنَما نَحْنُ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذِ انْشَقَّ القَمَرُ فَلْقَتَيْنِ ، فَكَانَتْ فَلْقَةٌ وَرَاءَ الجَبَلِ وَفَلْقَةٌ دُونَهُ ، فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ : اشْهَدُوا » .

وقال كفار قريش : « هذا سحر فابعثوا إلى أهل الآفاق أرأوا مثل هذا أم لا ؟ فاخبر أهل الآفاق بأنهم رأوه منشقاً . فقال كفار قريش : هذا سحر مستمر » . وقد انشق وهو في السماء ، وإن كان قد يسبق إلى الوهم أنه نزل منها إلى الجبل . ومنها تسليم الحجر والشجر عليه ﷺ فقد روى الترمذي وغيره عن علي رضي الله عنه قال :

«كُنْتُ أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي مَكَّةَ فَخَرَجْنَا فِي بَعْضِ نَوَاحِيهَا فَمَا اسْتَقْبَلَهُ شَجَرٌ وَلَا حَجَرٌ إِلَّا قَالَ : السَّلَامُ عَلَيْكَ يَارَسُولَ اللهِ » .

ومنهـــا تسبيح الحصى في كفه ، فقد روى البزار والطبراني في حديث أبي ذر أنه قال :

«كُنَّا جُلُوساً عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَخَذَ كَفّاً مِنْ حَصَى فَسَبَّحْنَ فِي يَدِهِ حَتَّى سَمِعْنَا التَّسْبِيحَ ، ثُمَّ صَبَّهُنَّ فِي يَدِ أَبِي بَكْرٍ فَسَبَّحْنَ ، ثُمَّ فِي يَدِ عُمَرَ فَسَبَّحْنَ ، ثُمَّ فِي

يَدِ صُهْدَانَ فَسَبَّحْنَ ، ثُمَّ صَبَّهُنَّ فِي أَيْدِينَا فَمَا سَبَّحْنَ».

وقد أخرج البخاري من حديث ابن مسعود قال :

«كُنَّا نَأْكُلُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَنَحْنُ نَسْمَعُ تَسْبِيحَ الطَّعَامِ».

وأما حنين الجذع الذي هو ساق النخلة فحديث مشهور متواتر ، فقد أخرجه أهل الصحيح ، ورواه من الصحابة بضعة عشر رجلا ، وقال عنه القاضي عياض إنه مشهور منتشر ، والخبر به متواتر ، وهو أنه :

«كَانَ ﷺ قَبْلَ أَنْ يُصْنَعَ لَهُ الْمِنْبَرُ يَخْطُبُ عِنْدَهُ ، فَلَمَّا صُنِعَ لَهُ الْمِنْبَرُ انْتَقَلَ إِلَيْهِ ، فَسَمِعَ لَهُ كُلُّ مَنْ كَانَ فِي الْمَسْجِدِ حَنِينًا وَصَوْتًا عَظِيمًا حَتَّى كَادَ أَنْ يَنْشَقَّ أَسَفًا عَلَى فِرَاقِهِ ﷺ فَضَمَّهُ إِلَيْهِ ، فَصَارَ يَئِنُّ أَنِينَ الصَّبِيِّ الَّذِي تَضُمُّهُ أُمُّهُ إِلَيْهَا ، فَلَمَّا الْتَزَمَهُ سَكَتَ ، ثُمَّ قَالَ ﷺ : وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ لَمْ أَلْتَزِمْهُ لَمَا زَالَ هَكَذَا حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ حُزْنًا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَأَمَرَ بِهِ فَدُفِنَ تَحْتَ الْمِنْبَرِ[1]».

وكان الحسن إذا حدث بهذا الحديث بكى وقال : يا عباد الله الخشبة تحن إلى رسول الله ﷺ فأنتم أحق أن تشتاقوا إلى لقائه.

(١) انظر الحديث رقم ١٨٢٨ رياض الصالحين .

ومنها رد عين قتادة رضي الله عنه حين سالت على خده ، وذلك :
أنه كان يتقي بوجهه السهام عن رسول الله ﷺ في غزوة أحد ، فأصاب عينه سهم فسالت على خده فأخذها بيده وسعى بها إلى رسول الله ﷺ ، فلما رآها في كفه دمعت عيناه وقال :

« إنْ شِئْتَ صَبَرْتَ وَلَكَ الجَنَّةُ ، وإنْ شِئْتَ رَدَدْتُهَا ، وَدَعَوْتُ اللهَ لَكَ فَلَمْ تَفْقِدْ مِنْهَا شَيْئاً ، فقال : يارَسُولَ الله إنَّ لي إمْرَأَةً أُحِبُّهَا وأَخْشَى إنْ رَأَتْنِي أَنْ تَقْذُرَنِي فَأَخَذَهَا رَسُولُ الله ﷺ وَرَدَّهَا إلى مَوْضِعِهَا وقال : « اللَّهُمَّ اكْسُهُ جَمالاً فكَانَتْ أَحْسَنَ عَيْنَيْهِ وأَحَدَّ نَظَراً ، وكَانَتْ لا تَرْمَدُ إذَا رَمِدَتِ الأُخْرَى » .

وَرَوَى البُخَارِي : «أَنَّ سَلَمَةَ بنَ الحَكَمِ أُصِيبَ يَوْمَ خَيْبَرَ في سَاقِهِ بِضَرْبَةٍ ، فَنَفَثَ فِيهَا رَسُولُ الله ﷺ ثَلاثَ نَفَثَاتٍ فَمَا اشْتَكَاهَا قَطُّ» .

وَذَكَرَ القَاضِي عِيَاضُ في الشِّفَاءِ عَنِ ابْنِ وَهْبٍ : «أَنَّ أَبَا جَهْلٍ قَطَعَ يَوْمَ بَدْرٍ يَدَ مُعَوِّذِ بنِ عَفْراءَ فَجَاءَ يَحْمِلُ يَدَهُ فَنَفَثَ عَلَيْهَا رَسُولُ الله ﷺ وأَلْصَقَهَا فَلَصِقَتْ» .

وروى البيهقي في الدلائل: «أنه ﷺ دعا رجلاً إلى الإسلام، فقال: لا أومن بك حتى تحيي لي ابنتي، فقال ﷺ: أرني قبرها، فأراه إياه، فقال ﷺ: يا فلانة، فقالت: لبيك وسعديك، فقال ﷺ: أتحبين أن ترجعي إلى الدنيا؟ فقالت: لا والله يا رسول الله، إني وجدت الله خيراً لي من أبوي، ووجدت الآخرة خيراً لي من الدنيا».

وروى البخاري ومسلم: «أن جبل أحد رجف فرحاً والرسول ﷺ عليه ومعه أبو بكر وعمر وعثمان، فضربه برجله وقال له: أثبت أحد، فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان».

وعن أبي زيد عمرو بن أخطب الأنصاري رضي الله تعالى عنه قال: صلى بنا رسول الله ﷺ الفجر، وصعد المنبر، فخطبنا حتى حضرت الظهر، فنزل فصلى ثم صعد المنبر فخطب حتى حضرت العصر، ثم نزل فصلى، ثم صعد المنبر حتى غربت الشمس، فأخبرنا بما كان وما هو كائن، فأعلمنا أحفظنا».(١)

● منها كلام الله: قد تقدم أن كلام الله تعالى يطلق على الصفة القديمة، وعلى اللفظ المنزل المتعبد بتلاوته، المتحدى بأقصر سورة منه،

(١) رواه الإمام مسلم، وفي رياض الصالحين برقم ١٨٥٨، ص ٤٥٦ كتاب المنثورات والملح.

كما يُطلق عليها القرآن الكريم ، لكن قد غلب كلام الله في الصفة القديمة ، والقرآن في اللفظ المنزل ، وهو المراد هنا وقد نص عليه بخصوصه لأنه أفضل معجزاته ﷺ وأدومها لبقائه إلى يوم القيامة .

● معجز البشر : أي مصيرهم عاجزين عن معارضته والإتيان بمثله بل كل المخلوقات كذلك إجماعاً ، قال تعالى :

﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[1].

وخص الأنس والجن لأنه يتصور منهما المعارضة ، بخلاف الملائكة لعصمتهم . وخص الناظم البشر وحدهم لأنهم الذين تصدوا لذلك فعلاً .

وقد وقع الخلاف فيما يقع به الإعجاز من أبعاضه ، وفي وجه الإعجاز . والمعتمد أن أقله ، وهو أقصر سورة منه ، أو ثلاث آيات يقع بين الإعجاز وكذا الآية الطويلة معجزة كالثلاثة . وأما الإختلاف في وجه الإعجاز فعلى قولين

الأول : كون الله صرفهم عن الإتيان بمثله مع كونهم قادرين على ذلك ويسمى القول بالصرفة ، وهو ماذهب إليه المعتزلة .

والثاني : وهو ماذهب إليه الجمهور ، أن وجه إعجازه كونه في أعلى طبقات البلاغة والفصاحة مع اشتماله على الإخبار بالمغيبات ودقائق العلوم وأحوال المبدأ والمعاد وغير ذلك مما لايحصى ، وهذا هو الصحيح في وجه الإعجاز[2] .

---

(١) الإسراء ٨٨ .

(٢) إن بلاغة القرآن لا جدال فيها ، حتى لغير فقيه بها ، ولو كان الإعجاز بالصرفة لكان الأنسب ترك بلاغته ، فإنه إذا كان غير بليغ ولم يقدروا على معارضته كان أظهر في خرق العادة به ، (هذا ما ذكره صاحب المسامرة) وشيء آخر هو =

= أن فصحاء العرب إنما كانوا يتعجبون من حسن نظمه وبلاغته وسلاسته وجزالته » ويرقصون رؤوسهم عند سماعه ، وإن أشرافهم مع كمال حذاقتهم في أسرار الكلام وفرط عداوتهم للإسلام لم يجدوا فيه للطعن مجالا بل نسبوه إلى السحر على ما هو دأب المحجوج المبهوت تعجباً من فصاحته وحسن نظمه وبلاغته ، وإن ذكر الاجتماع والاستظهار بين الإنس والجن في مقام التحدي إنما يحسن حينما لا يكون مقدوراً البعض ، ويتوهم كونه مقدوراً للكل فيقصد نفي ذلك، (هذا ما ذكره السعد في شرح المقاصد) وقد قال القرطبي إن إجماع الأمة قبل حدوث المخالف أي القائل بالصرفة أن القرآن هو المعجز .

ووجوه إعجازه عديدة تتكشف لنا على مر الأيام :

* منها : النظم البديع المخالف لكل نظم معهود في لسان العرب وفي غيرها ، فقد روي : أن الوليد بن المغيرة جاء حتى أتى قريشاً فقال : إن الناس يجتمعون غداً في الموسم ، وقد فشى أمر هذا الرجل بالناس ، فهم سائلوكم عنه ، فماذا تردون عليهم؟ فقالوا : مجنون يخنق، فقال: يأتونه فيكلمونه فيجدونه صحيحاً فصيحاً عاقلاً فيكذبونكم. قالوا نقول : هو شاعر ، قال : هم العرب وقد رووا الشعر ، وفيهم الشعراء ، وقوله ليس يشبه الشعر ، فيكذبونكم . قالوا: نقول هو كاهن ، قال: إنهم لقوا الكهان فإذا سمعوا قوله لم يجدوه يشبه الكهنة . ثم انصرف إلى منزله ، فقالوا : صبأ الوليد ، ولئن صبأ لا يبقى أحد إلا صبأ ، فقال لهم ابن أخيه أبو جهل : أنا أكفيكموه . قال: فأتاه محزوناً فقال : مالك يابن أخي ؟ قال : هذه قريش تجمع لك صدقة يتصدقون بها عليك تستعين بها على كبرك وحاجتك، قال : أولست أكثر قريش مالاً ؟ قال : بلى، ولكنهم يزعمون أنك صبأت لتصيب من فضل طعام محمد وأصحابه . قال : والله مايشبعون من الطعام فكيف يكون لهم فضول!؟ ثم أتى قريشاً فقال: أتزعمون أني صبأت ولعمري ما صبأت إنكم قلتم : محمد مجنون وقد ولد بين أظهركم ، لم يغب عنكم ليلة ولا يوماً ، فهل رأيتموه يخنق قط؟ فكيف يكون مجنوناً ؟ وقلتم : شاعر وأنتم شعراء ، فهل منكم أحد يقول ما يقول ؟ وقلتم كاهن ، فهل حدثكم محمد في شيء يكون في غد إلا أن يقول إن شاء الله ؟ قالوا : فكيف نقول يا أبا المغيرة ؟ قال: أقول هو ساحر . فاجتمع رأيهم =

=على ذلك وأن يردوا الناس عنه به، وقد روى محمد بن كعب القرظي قال: حدثت أن عتبة بن ربيعة – وكان سيداً حليماً – قال يوماً: ألا أقوم إلى محمد فأكلمه فأعرض عليه أموراً لعله أن يقبل منها بعضها فنعطيه أيها شاء؟ وذلك حين أسلم حمزة رضي الله عنه ورأوا أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يكثرون، قالوا بلى يا أبا الوليد، فقام إليه – وهو صلى الله عليه وسلم جالس في المسجد وحده – فقال: يا ابن أخي، إنك منا حيث علمت من السطة في العشيرة والمكان في النسب، وإنك أتيت قومك بأمر عظيم فرقت بين جماعتهم وسفهت أحلامهم، وعبت آلهتهم، وكفرت من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك أن تقبل منها بعضها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قل، قال: إن كنت إنما تريد المال بما جئت به من هذا القول، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد شرفاً سودناك حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه، حتى إذا فرغ قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: أوقد فرغت؟ قال: نعم قال: فاسمع مني، قال: قل، قال: (بسم الله الرحمن الرحيم، حم، تنزيل من الرحمن الرحيم، كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون، بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون) . . ثم مضى فيها يقرؤها، فلما سمعها عتبة أنصت له وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليها، حتى انتهى منها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السجدة فسجد، ثم قال له: قد سمعت ما سمعت فأنت وذاك. فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس قالوا: ما وراءك؟ قال: ورائي أني سمعت قولاً والله ما سمعت بمثله قط، وما هو بالشعر، ولا السحر، ولا الكهانة، يا معشر قريش أطيعوني، خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، واعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ، فإن تصبه العرب، فقد كفيتموه بغيركم. وإن يظهر على العرب به فملكه ملككم وكنتم أسعد الناس به، قالوا=

سحرك بلسانه ، قال : هذا رأيي، فاصنعوا ما بدا لكم . وقد جاء في حديث أبي ذر في سبب إسلامه أنه قال : قال لي أخي أنيس : إن لي حاجة إلى مكة فانطلق فراث، فقلت : ماحبسك ؟ قال لقيت رجلاً يقول: إن الله تعالى أرسله . فقلت: فما يقول الناس؟ قال : يقولون شاعر ساحر كاهن . قال أبوذر: وكان أنيس أحد الشعراء، قال: تالله لقد وضعت قوله على أقراء الشعراء فلم يلتئم على لسان أحد ، ولقد سمعت قول الكهنة ، فما هو بقولهم ، والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون .

ويكفي في شهادة هؤلاء دلالة على سمو نظم القرآن .

* ومنها الأسلوب الفذ المخالف لجميع أساليب العرب . وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قد تحدى العرب قاطبة بأن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا عنه وانقطعوا دونه . وقد بقي صلى الله عليه وسلم يطالبهم به مدة عشرين سنة ، مظهراً لهم النكير ، زارياً على أديانهم ، مسفهاً آراءهم وأحلامهم ، حتى نابذوه وناصبوه الحرب ، فهلكت فيه النفوس، وأريقت المهج ، وقطعت الأرحام ، وذهبت الأموال . ولو كان في وسعهم وتحت إقدارهم لم يتكلفوا هذه الأمور الخطيرة ، ولم يكونوا تركوا السهل من القول إلى الوعر من الفعل ، هذا ما لا يفعله عاقل ولا يختاره ذو لب . وقد كان قومه قريش خاصة موصوفين برزانة الأحلام ووفارة العقول والألباب . وقد كان فيهم الخطباء المصاقع والشعراء المفلقون . وقد وصفهم الله تعالى في كتابه بالجدل واللدد فقال سبحانه : « ماضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون » . وقال سبحانه : « لتنذر به قوماً لداً » . فكيف كان يجوز أن يغفلوه ولا يتبلوا الفرصة فيه وأن يضربوا عنه صفحاً ، ولا يحوزوا الظفر فيه لولا عدم القدرة عليه والعجز المانع منه . ومعلوم أن رجلاً عاقلاً لو عطش عطشاً شديداً خاف منه الهلاك

= على نفسه ، وبحضرته ماء معرض للشرب فلم يشربه حتى هلك عطشاً لحكمنا أنه عاجز عن شربه غير قادر عليه . أقول : فكيف يجوز أن يظهر في صميم العرب ، وفي مثل قريش ذوي الأنفس الأبية والهمم العلية ، والأنفة والحمية من يدعي النبوة ، ويخبر أنه مبعوث من الله تعالى إلى الخلق كافة ، وأنه بشير بالجنة ونذير بالنار ، وأنه قد نسخ به كل شريعة تقدمته ، ودين دان به الناس شرقاً وغرباً ، وأنه خاتم النبيين ، وأنه لا نبي بعده ، إلى آخر ما صدع به صلى الله عليه وسلم ثم يقول : وحجتي أن الله تعالى قد أنزل علي كتاباً عربياً مبيناً ، تعرفون ألفاظه وتفهمون معانيه ، إلا أنكم لا تقدرون على أن تأتوا بمثله ولا بعشر سور منه ، ولا بسورة واحدة ، ولو جهدتم جهدكم واجتمع معكم الجن والإنس ، ثم لا تدعوهم نفوسهم إلى أن يعارضوه ويبينوا سرفه في دعواه .

٤* ومنها الجزالة التي لا تصح من مخلوق بحال ، وحسن البيان البالغ ذروة الكمال وتأمل ذلك في سورة : « ق ، والقرآن المجيد » إلى آخرها ، وفي غيرها من السور ، تجد القرآن كله في النهاية من حسن البيان ، فمن ذلك قوله تعالى : « كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم » ، فهذا بيان عجيب يوجب التحذير من الإغترار بالإمهال وقال سبحانه : «إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين »وقال : « إن المتقين في مقام أمين » ، فهذا من أحسن الوعد والوعيد . وقال: « وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال: من يحيي العظام وهي رميم . قل : يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم » ، فهذا أبلغ ما يكون من الحجاج . وقال : « أفنضرب عنكم الذكر صفحاً أن كنتم قوماً مسرفين » ، فهذا أشد ما يكون من التقريع . وقال تعالى : « ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون » ، فهذا أعظم ما يكون من التحسير ، وقال: « ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه » ، وهذا أدل دليل على العدل من حيث لم تكن قبائحهم على طريق الجبر ، وقال تعالى : « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين » ، وهذا أشد ما يكون من التنفير عن الخلة إلا على التقوى . وقال تعالى : « أن تقول نفس ياحسرتا على ما فرطت في جنب الله » ، ففي هذه الآية أشد أنواع التحذير من التفريط ، وقال تعالى : « أفمن يلقى في النار خير أم =

= من يأتي آمنا يوم القيامة » ، وهذا أشد ما يكون في التبعيد . وقال عز وجل : « إعملوا ماشئتم إنه بما تعملون بصير » ، وهذا أشد ما يكون من الوعيد . وقال جل جلاله : « وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل الى مرد من سبيل » ، وهذا أشد ما يكون من التحسير . وقال جل جلاله : « كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون ، أتواصوا به ؟ ؛ بل هم قوم طاغون » ، وهذا أشد ما يكون في التقريع من أجل التمادي في الباطل . وقال أيضا : « يعرف المجرمون بسيام فيؤخذ بالنواصي والأقدام » ، وهذا آلم ما يكون من الأغلال . وقال أيضا : « هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون يطوفون بينها وبين حميم آن » ، أرأيت إلى هذا التقريع ؟! . وقال : « فيها ماتشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون » ، فما أبهاه من ترغيب !. وقال : « ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله ، إذن لذهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض ». وقال : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » ، وهذا أبلغ ما يكون من الحجاج ، وهو الأصل الذي عليه الإعتماد في صحة التوحيد .

* ومنها : التصرف في لسان العرب على وجه لايستقل به عربي ، حتى يقع منهم الإتفاق على إصابته في وضع كل كلمة وحرف موضعه .

* ومنها : الإخبار – من أمي – عن الأمور التي تقدمت في أول الدنيا إلى وقت نزوله ، « وما كان يتلو من قبله من كتاب ولا يخطه بيمينه » ، فعلم أنه لا يصل إلى علم ذلك إلا من تأيد بالوحي .

* ومنها : الوفاء بالوعد ، المدرك بالحس في العيان ، في كل ما وعد الله سبحانه .

* ومنها : الإخبار عن المغيبات في المستقبل التي لا يطلع عليها إلا بالوحي . فمن ذلك ماوعدالله نبيه أنه سيظهر دينه على الأديان كلها. وكان أبو بكر رضي الله عنه إذا أغزى جيشه عرفهم ماوعدهم الله في إظهار دينه ليثقوا بالنصر وليستيقنوا بالنجح وكان عمر يفعل ذلك، فلم يزل الفتح يتوالى شرقاً وغرباً ، براً وبحراً . قال تعالى : « وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ، ويريد=

= الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين »، فكان الأمر كما وعدهم الظفر بإحدى الطائفتين – العير التي كان فيها أبو سفيان، أو الجيش الذين خرجوا يحمونها من قريش – فأظفرهم الله عز وجل بقريش يوم بدر على ما تقدم به الوعد. وقال أيضاً: « الم، غلبت الروم في أدنى الأرض، وهم من بعد غلبهم سيغلبون ». وقال: « فتمنوا الموت إن كنتم صادقين، ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم» وقال: « سيهزم الجمع ويولون الدبر ».

وقال عز وجل: « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون». وقال: «وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه وكف أيدي الناس عنكم ». وقال: « وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها ». وناهيك بقوله تعالى في أول البعثة في أبي لهب: « سيصلى ناراً ذات لهب»، فدل على أنه لن يؤمن، ولقد مات كافراً، فهذه كلها إخبار عن الغيوب لا يقف عليها إلا رب العالمين، أو من أوقفه عليها علام الغيوب، فدل على أنه تعالى قد أوقف رسوله عليها لتكون دلالة على صدقه.

* ومنها: ما تضمنه القرآن من العلوم التي هي قوام الحياة لجميع البشر، في الحلال والحرام، وفي سائر الأحكام الناظمة لجميع شؤون الحياة.

* ومنها: الحكم البالغة التي لم تصدر في كثرتها وشرفها من آدمي.

* ومنها التناسب في جميع ما تضمنه ظاهراً وباطناً، ومن غير اختلاف فيه.

٧٤ـ واجزم بمعراج النبي كما رووا وبرئن لعائشة مما رموا

● واجزم بمعراج النبي كما رووا: أي اعتقد اعتقاداً جازماً بعروج النبي ﷺ وصعوده إلى السموات السبع إلى سدرة المنتهى إلى حيث شاء الله بعد الإسراء به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، حال كون العروج الذي جزمت به مثل الذي رواه أهل الحديث والتفسير والسير. وقد استغنى الناظم بذكر المعراج عن الإسراء لشهرة إطلاق أحد الاسمين على ما يعم مدلوليها، وهو سيره ﷺ ليلا إلى أمكنة مخصوصة على وجه خارق للعادة. والحق أنه كان يقظة روحاً وجسداً خلافاً لمن قصره على المنام. والإسراء ثابت بالكتاب والسنة وإجماع المسلمين، فمن أنكره كفر، وأما المعراج فثابت بالأحاديث المشهورة من المسجد الأقصى إلى السموات السبع، ومنها إلى الجنة، ثم الى المستوى أو العرش وبخبر الواحد، لذا لا يكفر منكره بل يفسق. والتحقيق أنه لم يصل إلى العرش.

● وبرئن لعائشة مما رموا: أي اعتقد وجوباً براءتها مما رماها به المنافقون من الإفك ـ وإن الذي تولى كبره وأشاعه منهم هو عبد الله بن أبي بن سلول ـ لعنه الله ـ وسلول اسم أمه ـ وقد جاءت براءتها في القرآن الكريم، وانعقد عليها إجماع الأمة، ووردت بها الأحاديث الصحيحة، فمن جحدها، أوشك فيها، كفر. قال السهيلي: إن من نسب عائشة رضي الله عنها إلى الفاحشة كان كافراً، لأن ذلك تكذيب للنصوص القرآنية.

٧٥ـ وَصَحْبُهُ خَيْرُ الْقُرُونِ فَاسْتَمِعْ   فَتَابِعِيْ فَتَـــابِعٌ لِمَنْ تَبِعْ

● وصحبه خير القرون : أي فأفضل القرون المتقدمة والمتـــأخرة ـ ماخلا النبيين والرسل ـ أصحابه . وقد ورد في الحديث أنه قال :

« إِنَّ اللَّهَ اخْتَارَ أَصْحَابِي عَلَى العَالَمِينَ سِوَى النَّبِيِّينَ وَالمُرْسَلِينَ » . وقال : « اللَّهَ اللَّهَ في أصحابي لا تَتَّخِذُوهُمْ غَرَضاً مِنْ بَعْدِي ، فَوالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَباً مَابَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ ولا نَصِيفَهُ »[1] .

وان كان شرف الصحبة حاصلا للجميع إلا أنه لايخفى توجيح رتبة من لازمه وقاتل معه وقتل تحت رايته ، على من لم يكن كذلك ومعنى القرن : أهل زمان واحد متقارب اشتركوا في أمر من الأمور المقصودة ، كالصحابة ، فانهم اشتركوا في الصحبة ، وهكذا من بعدهم وإنما سمي قرناً لأنه يقرن أمة بأمة ، وعالماً بعالم . واختلف في ساب الصحابي ، فقال عياض : قال الجمهور يعزر ، وقال بعض المالكية يقتل ، وخص بعض الشافعية ذلك بالشيخين والحسنين ، وقواه السبكي ، فيمن كفر الشيخين ، وفيمن كفر من صرح الرسول ﷺ بإيمانه ، أو بتبشيره بالجنة إذا تواتر الخبر به .

● فتابعي : التابعي من اجتمع بالصحابي اجتماعـــاً متعارفاً ، ولا

(١) رواه الترمذي وقال حديث حسن ٣٨٦٠ ج ٩ .

يشترط طول الاجتماع كما لايشترط في الصحابي مع النبي وإنما يشترط التمييز فيه دون الصحابي ؛ لكنهم اعتمدوا عدم اشتراطه أيضاً .

واختلف الناس في أفضل التابعين ، فأهل المدينة يقولون سعيد بن المسيّب ، وأهل البصرة يقولون الحسن البصري ، وأهل الكوفة يقولون أويس القرني رضي الله عنهم . وقال بعض المتأخرين : الصحيح بل الصواب ماذهب إليه أهل الكوفة ، لما روى مسلم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال :

« سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : «إنَّ خَيرَ التَّابِعِينَ رَجُلٌ يُقَالُ لهُ أُوَيسٌ » .

وأفضل التابعيات حفصة بنت سيرين .

● فتابع لمن تبع : أي تلي رتبة التابعين أتباعهم ، فتابع التابع يأتي في المرتبة بعد التابعي . وأصل هذه الرتب قوله ﷺ :

« خيرُ أُمَّتِي القَرنُ الَّذي بُعِثتُ فِيهِ ، ثمَّ الذينَ يلونَهم ، ثمَّ الذينَ يلونَهمْ ، ثم يَخلُفُ قومٌ يُحِبونَ السَّمَانةَ ، ويَشهَدونَ قَبلَ أنْ يُستَشهَدوا »[(1)].

وقولُه : «خيرُكُم قرني، ثمَّ الذينَ يلونهمْ، ثمَّ الذينَ يلونهمْ، ثمَّ يكونُ بعدَهمْ قومٌ يخونونَ ولا يُؤتمنونَ، ويشهدونَ ولا يُستَشهَدونَ ، ويَنذرُونَ ولا يُوفونَ ، ويظهرُ فيهم السِّمَنُ »[(2)].

---

(١) رواه الإمام مسلم عن أبي هريرة ، وفي شرح الجامع الصغير برقم ٤٠٥٣ج٣.

(٢) رواه البخاري ومسلم عن عمران بن حصين ، وفي شرح الجامع الصغير برقم ١٠٦ : ج ٣ .

ويظهر من هذا أن ما بعد القرون الثلاثة سواء في الفضيلة . وذهب جماعة إلى أن كل قرن أفضل من الذي بعده إلى يوم القيامة ، لحديث :

« ما مِنْ عامٍ إلاَّ الذي بَعْدَهُ شرٌّ منْهُ ، حتَّى تلقوْا ربَّكم »(١).

وعن مرداس الأسلمي قال : قال رسول الله ﷺ :

« يَذْهَبُ الصَّالِحونَ ، الأوَّلُ فالأوَّلُ ، وَ يَبْقَى حُثَالَةٌ كحُثَالَةِ الشَّعيرِ أو التَّمرِ ، لا يُبَالِيهِمُ اللهُ بالَةً »(٢).

لكنه ورد عن أنس رضي الله عنه أنه قال :

قالَ رسولُ اللهِ ﷺ : « مَثَلُ أُمَّتي مَثَلُ المطرِ لا يُدْرَى أَوَّلُهُ خَيْرٌ أو آخِرُهُ »(٣).

والعيان قاض بذلك .

(١) رواه الترمذي عن أنس بن مالك برقم ٢٢٠٧ ج ٦ .

(٢) رواه البخاري ، وفي رياض الصالحين برقم ١٨٢٥ .

(٣) رواه الترمذي برقم ٢٨٧٣ ج ٨ .

٧٦ - وَخَيْرُهُمْ مَنْ وَلِيَ الخِلَافَهْ وَأَمْرُهُمْ فِي الفَضْلِ كَالخِلَافَهْ

● وخيرهم من ولي الخلافة : أي أفضل الصحابة النفر الذي ولي الخلافة العظمى، وهي النيابة عن النبي ﷺ في عموم مصالح المسلمين، وقد قدر مدتها بقوله ﷺ :

«الخِلَافَةُ بَعْدِي فِي أُمَّتِي ثَلَاثُونَ سَنَةً، ثُمَّ مُلْكٌ بَعْدَ ذَلِكَ»(١).
وبقوله : «الخِلَافَةُ بَعْدِي ثَلَاثُونَ ثُمَّ تَصِيرُ مُلْكًا عَضُودًا» .

أي ثلاثون سنة ثم بعدها يصبح ملكـــاً ذا عض وتضييق ، والنفر هم الخلفاء الأربعة ، فلقد تولاها أبو بكر الصديق رضي الله عنه سنتين وثلاثة أشهر وعشرة أيام . وتولاها عمر رضي الله عنه عشرة سنين وستة أشهر وثمانية أيام . وتولاها عثمان رضي الله عنه إحدى عشرة سنة وأحد عشر شهراً وتسعة أيام . وتولاها علي رضي الله عنه وكرّم وجهه أربع سنين وتسعة أشهر وسبعة أيام ، فالمجموع تسعة وعشرون سنة وستـــة أشهر وأربعة أيام ، وبأيام الحسن بن علي رضي الله عنهما تكمل المدة التي قدرها النبي ﷺ ، كذا حرره السيوطي . وإلى هذا التفضيل ذهب الجمهور .

● وأمرهم في الفضل كالخلافة : أي وشأن الخلفاء الأربعة في ترتيبهم في الفضل بمعنى : كثرة الثواب على حسب ترتيبهم في الخلافة عند أهـــل السنة ، فأفضلهم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضي الله عنهم . ويدل على ذلك ماروي عن علي والزبير :

(١) حديث صحيح رواه الترمذي وأحمد وابن حبان، وفي شرح الجامع الصغير برقم ٤١٤٧ ج ٣

قَالَ ﷺ: «خَيْرُ أُمَّتِي بَعْدِي أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ»[1].

وحديثُ ابْنِ عُمَرَ: «كُنَّا نَقُولُ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يَسْمَعُ: خَيْرُ هذِهِ الأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا أَبُو بَكْرٍ ثُمَّ عُمَرُ ثُمَّ عُثْمَانُ ثُمَّ عَلِيٌّ، فَلَمْ يَنْهَنَا»[2].

وقد قال السعد: على هذا وجدنا السلف والخلف، وقال أبو منصور البغدادي من أكابر أئمة الشافعية: أجمع أهل السنة والجماعة على أن أفضل الصحابة أبو بكر فعمر فعثمان فعلي، فبقية العشرة المبشرة بالجنة، فأهل بدر، فباقي أهل أحد، فباقي أهل بيعة الرضوان، فباقي الصحابة رضي الله عنهم. والظاهر أنه لو لم يكن لهم دليل على ذلك لما حكموا به.

(١) في الجامع الصغير برقم ٤٠٥٢ رواه ابن عساكر.

(٢) رواه أبو داوود.

٧٧ - يَليهمُ قومٌ كِرامٌ بَرَرَهْ عِدَّتُهُمْ ستٌّ تمامُ العَشَرَهْ

● يليهم: أي يلي أهل بدر قوم من ذكر ست رجال كرام بررة، فيصبح العدد عشرة، وهم المبشرون بالجنة. وإن كان المبشرون بالجنة كثيرين إلا أنه ذكر العشرة - هنا - لأنهم جمعوا في حديث مشهور فقد روي من حديث عبد الرحمن بن عوف:

أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «أبو بكرٍ في الجَنَّةِ، وَعُمَرُ في الجَنَّةِ، وَعُثمانُ في الجَنَّةِ، وَعَليٌّ في الجَنَّةِ، وَطَلْحَةُ في الجَنَّةِ، والزُّبيرُ في الجَنَّةِ، وَعَبْدُ الرَّحمنِ بنُ عوفٍ في الجَنَّةِ، وسَعْدُ بنُ أبي وَقاصٍ في الجَنَّةِ، وأبو عُبيدةَ بنُ الجَرّاحِ في الجَنَّةِ، وَسعيدُ بنُ زَيْدٍ في الجَنَّةِ» (١).

ووَرَدَ أيضاً: «أنَّ فاطمةَ رَضيَ اللهُ عنها سَيِّدةُ نساءِ أهلِ الجَنَّةِ، والحسَنُ والحُسَيْنُ سَيِّدا شبابِ أهلِ الجَنَّةِ».

(١) حديث العشرة رواه أحمد في مسنده صفحة ١٨٧، ورواه أصحاب السنن وصححه الترمذي من حديث أبي سعيد.

٧٨ - فأهلُ بدرٍ العظيمِ الشانِ   فأهلُ أُحدٍ بيْعةُ الرِّضوانِ

● فأهل بدر : فرتبتهم تلي رتبة الستة من العشرة ، ولا فرق بين من استشهد فيها - وهم أربعة عشر رجلا ، ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار - وبين من لم يستشهد فيها . ومقتضى كلام الناظم أن العشرة أفضل من الملائكة الذين حضروا بدراً ، ويحمل هذا على غير رؤسائهم ، لأن الرؤساء أفضل من عوام البشر كما سلف ذكره . وقد روى ابن ماجة عن رافع بن خديج رضي الله عنه قال :

«جاء جبريلُ أو مَلَكٌ إلى النبيِّ ﷺ فقالَ : ما تعدُّونَ مَنْ شَهِدَ بدراً فيكُمْ ؟ قـالَ : خيارُنا ، قالَ : كذلكَ هُمْ عندَنا خيارُ الملائكةِ»(١).

● العظيم الشان : صفة لبدر ، وغزوات بدر ثلاث . الأولى : لم يقع فيها قتال بل كانت لطلب إنسان أغار على مواشي المدينة .. والوسطى : هي العظمى لحضور الملائكة فيها . والثالثة : قد تواعد لها أبو سفيان - قبل أن يسلم - مع النبي ﷺ ، وتخلف أبو سفيان خوفاً .

● فأهل أحد : فرتبتهم تالية لرتبة أهل غزوة بدر ، والمراد من شهدها من المسلمين سواء استشهد بها - كالسبعين - أم لا .

● بيعة الرضوان : فرتبتهم تلي رتبة أهل غزوة أحد ، وسميت بالرضوان لقوله تعالى :

(١) أخرجه البخاري عن رفاعة بن رافع الزرقي، وفي رياض الصالحين برقم ١٨٢٦

« لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ »[1].

وروى أبو داوود والترمذي وصححه أنه ﷺ قال :

« لا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ مِمَّنْ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ » .

(١) سورة الفتح ١٨ .

● والسابقون فضلهم نصاً عرف : المعنى أن المتقدمين الأولين قد عرف فضلهم - بمعنى كثرة ثوابهم على غيرهم ممن لم يشركهم في هذه الصفة - من نص القرآن الكريم كقوله تعالى :

«لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الفَتْحِ وَقَاتَلَ ، أُولئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا ، وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الحُسْنَى» (١) .

● هذا وفي تعيينهم قد اختلف : أي إفهم هذا ، وقد اختلف في تعيين السابقين من هم ؟ ، فقال أبو موسى الأشعري وغيره : هم من الأكابر الذين صلوا إلى القبلتين ، وهذا هو قول الأكثر ، وهو الأصح . وقال محمد بن كعب القرظي وجماعة : أهل بدر . وقال الشعبي : أهل بيعة الرضوان . وقد علم من كلام الناظم أن التفضيل إنما يكون تارة باعتبار الأفراد وأخرى باعتبار الأصناف ، وقد يكون سابقاً خليفة بدرياً أحدياً رضوانياً ، كالمشايخ الأربعة ، لكن عثمان بدري أجراً ، لابدري حضوراً ، لأنه ﷺ خلفه على ابنته رقية يمرضها ، وقد ماتت في غيبته ﷺ وقال : «لكَ أَجْرُ رَجُلٍ وَسَهْمُهُ» .

ولقب بذي النورين لتزوجه بنتيه ﷺ ، رقية وأم كلثوم .

(١) الحديد ١٠ .

٨٠ـ وأوِّلِ التَّشاجُرَ الَّذي وَرَدْ إنْ خُضْتَ فيهِ واجْتَنِبْ داءَ الحَسَدْ

● وأول التشاجر : إذا ذكر أن خير القرون قرن صحابة رسول الله ﷺ تعرض ـ هنا ـ الجواب عما وقع بينهم من المنازعات الموهمة قدحاً في حقهم ، مع أنهم لايصرون على عمد المعاصي ، وإن لم يكونوا معصومين . وقد وقع تشاجر بين سيدنا علي وسيدنا معاوية رضي الله عنهما ، وافترقت الصحابة فيه ثلاث فرق ، الأولى اجتهدت فظهر لها أن الحق مع علي ، فقاتلت معه ، والثانية اجتهدت فظهر لها أن الحق مع معاوية ، فقاتلت معه ، والثالثة : توقفت . وقد قال العلماء : المصيب بأجرين والمخطىء بأجر ، وقد شهد الله تعالى ورسوله لهم بالعدالة ، وبعرف المكلف ماوقع بينهم إلى محمل حسن ، لتحسين الظن بهم ، فإنهم كانوا مجتهدين فيا حصل . وإن الذين يتدارؤون بخلاف الصحابة بغية تمكين ضلالهم في الأرض ، إن هم إلا قوم فاسدون ، لايشعرون أنهم واختلافهم بوصمة في النار ، والصحابة كلهم في الجنة ، إذ أنهم آمنوا بالحق وحده وإنما حصل اختلافهم في الكيفية التي ينصرونه بها ، وهؤلاء آمنوا بالطاغوت ، وإنما اختلفوا في الكيفية التي يدعمونه بها . ولو قدر المكلف أن يخوض فيا شجر فليأوله ولا ينقص أحداً منهم . على أنه ليس بمأمور أصلاً بالخوض فيا جرى بينهم ، فإنه ليس من الإعتقاد في شيء ، وليس مما ينتفع به في الدين ، بل ربما ضر في اليقين ، فلا يباح الخوض فيه إلا الرد على المتعصبين ، أو للتعليم كتدريس الكتب التي تتناول دواسة الآثار ، أما العوام فلا يجوز لهم الخوض فيه لشدة جهلهم وعدم معرفتهم بالتأويل .

● واجتنب داء الحسد : أي واترك وجوباً ـ فيما إذا قدر لك الحوض فيما شجر بينهم ـ داء الحسد الحامل على الميل مع أحد الطرفين على وجه غير مرضي ، وهو أن يشتمل ذلك الميل على سب وشتم ، فالمراد بالحسد هنا مطلق الإيذاء والسب ، لاتمني زوال النعمة كما هو تعريفه .

وَقَدْ قَالَ ﷺ : « اللهَ اللهَ فِي أَصْحَابِي لا تَتَّخِذُوهُمْ غَرَضاً بَعْدِي . مَنْ آذَاهُمْ فَقَدْ آذَانِي ، وَمَنْ آذَانِي فَقَدْ آذَى اللهَ ، وَمَنْ آذَى اللهَ يُوشِكُ أَنْ يَأْخُذَهُ ، فَاتَّقُوا اللهَ ، ثُمَّ اتَّقُوا اللهَ » .

أي أنشدكم الله ثم أنشدكم الله في حق أصحابي وتعظيمهم ، فلا تتخذوهم كالغرض الذي يرمى إليه بالسهام ، فترموهم بالكلمات التي لاتناسب مقامهم . والإيذاء على الله تعالى محال ، ومعناه هنا تعدي الحدود ، والمخالفة للأحكام. ووشك الأخذ من الله: قرب العذاب .

وفي رواية : « لا تَسُبُّوا أَصْحَابِي ، فَمَنْ سَبَّ أَصْحَابِي فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ، لا يَقْبَلُ اللهُ مِنْهُ صَرْفاً وَلَا عَدْلاً » .

والصرف : الفرض ، والعدل : النفل ، واللعن إنما هو واقع في المستحل أو خارج مخرج المبالغة في الزجر .

٨١ ـ وَمَالِكٌ وَسَائِرُ الأَئِمَّهْ كَذَا أَبُو القَاسِمِ هُدَاةُ الأُمَّهْ

● ومالك : أي أعلم أنه لم يصح في الأئمة الأربعة حديث بالخصوص ، وإنما ورد :

« يُوشِكُ أَنْ تَضْرِبَ أَكْبَادَ الإِبِلِ يَطْلُبُونَ العِلْمَ فَلَا يَجِدُونَ أَحَداً أَعْلَمَ مِنْ عَالِمِ المَدِينَةِ ».

فحمل على الإمام مالك ، إذ كانوا يزدحمون على بابه لطلب العلم ، فلقد أخذ العلم عنه خلق كثير لا يحصون وهم أئمة البلاد .

وورد أيضاً : « وعَالِمُ قُرَيْشٍ يَمْلَأُ طِبَاقَ الأَرْضِ عِلْماً » .

فحمل على الشافعي وقيل هو ابن عباس .

وَوَرَدَ : « لَوْ كَانَ العِلْمُ بِالثُّرَيَّا لَنَالَهُ رِجَالٌ مِنْ فَارِسَ »(١).

فحمل على أبي حنيفة وأصحابه ، وكل من هذه الأحاديث ظني .

● وسائر الأئمة : هم إما : الإمام الشافعي (المتوفى ٢٠٤ هـ في مصر) وأبو حنيفة (٨٠ ـ ١٥٠ هـ) ، وأحمد بن حنبل (المتوفى ٢٤١ هـ) والإمام مالك (المتوفى بالمدينة ١٧٩ هـ) فقط ، أو يدخل معهم الإمام الليث بن سعد ، وسفيان الثوري ، وإسحاق بن راهويه ، ومحمد بن جرير الطبري ، وسفيان بن عيينه ، وعبد الرحمن بن عمر الأوزاعي ،

---

(١) لو كان العلم معلقا بالثريا لتناوله قوم من أبناء فارس رواه أبو نعيم في الحلية ، وفي شرح الجامع الصغير برقم ٧٤٦٤ ج ٥ . وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة نحوه ، وقال فيه الهيثمي : إن رجاله رجال الصحيح ، وفيه راو ثقة . ورواه الشيخان بلفظ : لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال من هؤلاء وأشار لفارس .

وأبو الحسن الأشعري ، وأبو منصور الماتريدي. وسفيان الثوري كان يسمى أمير المؤمنين في الحديث . وابن عيينة كان يقول : إذا كانت نفس المؤمن محبوسة عن مكانها في الجنة بدينه حتى يُقضى عنه ، فكيف بصاحب الغيبة ، فإن الدين يقضى والغيبة لاتقضى . والأوزاعي كان يقول : ليس ساعة من ساعات الدنيا إلا وتعرض على العبد يوم القيامة ، فالساعة التي لايذكر الله فيها تتقطع نفسه عليها حسرات ، فكيف إذا مرت ساعة مع ساعة ، ويوم مع يوم ؟! .

● كذا أبو القاسم : المعنى أن وأبا القاسم محمداً الجنيد ، مثل من ذُكر في الهداية والاستقامة على طريق الحق ، وهو سيد الصوفية علماً وعملاً ، ولعل المصنف رأى شهرته بهذه الكنية فأوردها ، ولو قال : جنيدهم أيضاً هداة الأمة ، لكان أوضح . ومن كلامه : «الطريق إلى الله تعالى مسدود على خلقه إلا على المقتفين آثار الرسول ﷺ» . ومنها : «لو أقبل صادق على الله تعالى ألف ألف سنة ، ثم أعرض عنه لحظة ، لكان مافاته أكثر مما ناله» . ومنها : «وإن بدت ذرة من عين الكرم والجود ألحقت المسيء بالمحسن وبقيت أعمالهم فضلاً لهم» .

● هداة الأمة : أي هداة خير أمة بشهادة قوله تعالى :

«كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ» .(1)

فهم خيار الخيار . والحاصل : أن الإمام مالكاً ونحوه هداتها في الفروع ، والإمام الأشعري ونحوه في العقائد ، والجنيد ونحوه في التصوف . فجزاهم الله عنا خيراً ونفعنا بهم .

(1) آل عمران ١١١ .

● فواجب تقليد : لما لم يكن كل واحد من الناس قادراً على الإجتهاد المطلق ، وكان المذكورون أئمة هذه الأمة ، ذكر أنه واجب على كل من لم يكن فيه أهلية الإجتهاد المطلق - ولو كان مجتهد مذهب ، أو فتوى - تقليد إمام من الأئمة الأربعة في الأحكام الفرعية . وما جزم به الناظم - هنا - هو مذهب الأصوليين وجمهور الفقهاء والمحدثين[1] .

واحتجوا بقوله تعالى :

« فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » [2] .

فأوجب السؤال على من لايعلم ، ويترتب عليه الأخذ بقول العالم وذلك تقليد له وقال بعضهم : « يأخذ فيما يقع له بهذا المذهب تارة ، وبغيره أخرى ، فلا يجب عليه تقليد واحد بعينه » ، بل يجوز أن يصلي الظهر على مذهب مالك ، والعصر على مذهب الشافعي وهكذا » . ومنهم من منع الإنتقال من مذهب الى آخر . ومنهم من قيد بعدم الجمع بين المذهبين على صفة تخالف الإجماع ، كمن تزوج بلا صداق ، ولا ولي ، ولا شهود ، فإنها صورة لا يقول بها أحد . أما من كان فيه أهلية الإجتهاد المطلق فيحرم عليه التقليد فيما يقع له عند الأكثر ، واختاره الآمدي وابن الحاجب

---

(١) ثمة طغمة تنادي باللا مذهبية ابتغاء هدم الفقه الإسلامي الذي شاده هؤلاء الأئمة الجهابذة ، فلينظر في رد خطرها كتاب الدكتور سعيد رمضان البوطي « اللامذهبية » ومقالة الإمام الشيخ زاهد الكوثري : «اللامذهبية قنطرة اللادينية » .

(٢) الانبياء ٧ .

والسبكي لتمكنه من الإجتهاد الذي هو أصل التقليد . وأما التقليد في في العقائد فقد تقدم بحثه .

● حبر منهم : أي تقليد عالم حاذق من الأئمة الأربعة ، ولا يجوز تقليد غيرهم ، ولو كان من أكابر الصحابة لأن مذاهبهم لم تدون ولم تضبط كمذاهب هؤلاء .

● كذا حكى القوم : أي حكى الأصوليون وجمهور الفقهاء والمحدثين ـ «بلفظ يفهم» لوضوحه ـ هذا الحكم الذي هو وجوب تقليد أحد الأئمة الأربعة .

٨٣- وأُثبِتَنْ للأَوْليَا الكَرامَهْ   وَمَنْ نَفَاهَا فَانْبِذَنْ كَلامَهْ

● وأثبتن للأولياء : أي اعتقد جواز وقوع الكرامة ، ووقوعها لهم في الحياة وبعد الممات كما ذهب إليه جمهور أهل السنة ، وليس مذهب من المذاهب الأربعة قال بنفيها بعد الموت بل ظهورها حينئذ أولى ، لأن النفس حينئذ صافية من الأكدار ، فهي كالسيف سل من غمده ، وعلى هذا قيل : « من لم تظهر كرامته بعد موته كما كانت في حياته فليس بصادق » . واستدلوا على الوقوع بما جاء من قصة السيدة مريم رضي الله عنها في قوله تعالى : « كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً . قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا ؟! قَالَتْ : هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ »(١) . فقد كان يجد عندها فاكهة الصيف بالشتاء وبالعكس . وما جاء من قصة أصحاب الكهف حيث دخلوا غاراً فلبثوا فيه بلا طعام ولا شراب ثلاث مائة وتسع سنين نياماً بلا آفة . وما جاء من قصة آصف وزير سيدنا سليمان وقد كان يعرف إسم الله الأعظم فدعا به فأتى الله بعرش بلقيس قبل أن يرتد طرف سليمان إليه ، وما وقع من كرامات الصحابة والتابعين إلى وقتنا . فقد صح أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان له جيش بنهاوند من بلاد العجم وكان سارية رضي الله عنه أميراً عليه ، وكان العدو كامناً في أصل جبل ، ولا يعلم به جيش المسلمين ، فنادى عمر وهو في المدينة على المنبر يخطب الناس يوم الجمعة : ياسارية الجبلَ الجبلَ ،

(١) آل عمران ٣٨ .

فسمعوا صوته بنهاوند[1] ، وأن أسيد بن حضير وعباد بن بشر رضي الله عنهما كانا عند رسول الله ﷺ في حاجة حتى ذهب من الليل ساعة وهي ليلة شديدة الظلمة ، خرجا وبيد كل واحد منهما عصا ، فأضاءت لهما عصا أحدهما ، ومشيا في ضوئها حتى إذا افترقت بهما الطريق أضاءت للآخر عصاه فمشى كل واحد منهما في ضوء عصاه حتى بلغ أهله[2] . وأن خُبَيْباً كان أسيراً بمكة المكرمة عند بني الحارث فكانت تقول بنت الحارث : ما رأيت أسيراً خيراً من خبيب ، لقد رأيته يأكل من قطف عنب وما بمكة يومئذ ثمرة ، وإنه لموثق في الحديد وما كان إلا رزقاً رزقه الله إياه . وأن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه جهز جيشاً فاستعمل عليه العلاء بن الحضرمي ، فأتى القوم الذين يريد غزوهم فوجدهم قد نذروا به وغوروا المياه ، وكان الحر شديداً وقد أجهدهم العطش ودوابهم ، فلما مالت الشمس صلى العلاء بالجيش ركعتين ، ثم مد يده ـ وما يرى في السماء شيء ، يقول راوي الحديث : فوالله ما حط يده حتى بعث الله ريحاً وأنشأ سحاباً فأفرغت حتى ملأت الغدور الشعاب فشربنا وسقينا واستقينا ، ثم أتينا عدونا وقد جاوزوا خليجاً في البحر إلى جزيرة ، فوقف على الخليج وقال ياعلي ياعظيم ياكريم ، ثم قال أجيزوا باسم الله ، قال : فأجزنا ، مايبل الماء حوافر دوابنا إلا يسيراً[3] .

---

(1) قال ابن حجر في الإصابة : هو حديث حسن .

(2) أخرجه الحاكم وصححه البيهقي .

(3) أخرجه البيهقي والطبراني وأبو نعيم عن أنس .

والولي: هو العارف بالله تعالى وصفاته حسب الإمكان، المواظب على الطاعة المجتنب للمعـــاصي، المعرض عن الإنهماك في اللذات والشهوات المباحة، أما أصل التناول فلا مانع منه، لاسيما إذا كان بقصد التقوي على العبادة، وهو لايرتكب معصية بدون توبة إذ أنه ليس معصوماً حتى لاتقع منه معصية بالكلية. وإنما سمي ولياً لأن الله تعالى تولى أمره فلا يكله إلى نفسه، ولا إلى غيره لحظة، ولأنه يتولى عبادة الله تعالى على الدوام من غير تخلل بمعصية، وكلا المعنيين واجب تحققه حتى يكون الولي – عندنا – ولياً في نفس الأمر.

● الكرامة: هي أمر خارق للعادة يظهر على يد عبد ظاهر الصلاح ملتزم بمتابعة النبي ﷺ، مصحوب بصحيح الإعتقاد والعمل الصالح.

● ومن نفاها فانبذن كلامه: أي ومن قال بعدم جوازها فانبذن كلامه، لأنه ما أنكرها إلا لأنه نظر إليها على أنها من فعل العبد، أما لو نظر إليها على أنها من فعل الله تعالى لما تطرق إليـه الإنكار. وإنما تمسك المنكر بأنه لو ظهرت الخوارق من الأولياء لالتبس النبي بغـيره، لأن الخارق إنما هو المعجز، ولو ظهرت لأصبحت كثيرة بكثرتهم فتخرج عن كونها خارقة للعادة، ويرد هذا بأن الفرق بين المعجزة والكرامة قائم بوجود دعوى النبوة في المعجزة، وبأن كثرتها لاتخرجها عن كونها خارقة للعادة لأنه يظل خرقٌ وإن استمر، وسبب كثرتها في الأزمنة المتأخرة إنما هو لضعف يقين المتأخرين.

٨٤ - وَعِنْدَنَا أَنَّ الدُّعَاءَ يَنْفَعُ كَمَا مِنَ القُرْآنِ وَعْداً يُسْمَعُ

● وعندنا أن الدعاء ينفع : الدعاء هو الطلب على سبيل التضرع ، وقيل : رفع الحاجات إلى رافع الدرجات . وعند أهل السنة : الدعاء نافع الأحياء والأموات ، وضار لمن دعوت عليهم ، وهو ينفع في القضاء المبرم والمعلق ، أما القضاء المعلق فلا استحالة في رفع ماعلق رفعه منه على الدعاء ، ولا في نزول ماعلق نزوله منه على الدعاء .

فقد روي أنه ﷺ قال :

«لا يُغْنِي حَذَرٌ مِنْ قَدَرٍ ، والدُّعاءُ يَنْفَعُ مِمَّا نَزَلَ وَمِمَّا لَمْ يَنْزِلْ ، وإنَّ البَلاءَ لَيَنْزِلُ وَيَتَلَقَّاهُ الدُّعاءُ ، فَيَتَعَالَجَانِ إلى يَوْمِ القِيَامَةِ » (١) .

وأما القضاء المبرم فنفعه فيه تنزيل اللطف منه سبحانه وتعالى بالداعي ، وإن لم يرفعه البتة وانقسام القضاء إلى المبرم والمعلق ، إنما هو بحسب اللوح المحفوظ ، أما بحسب العلم فجميع الأشياء مبرمة ، إذ العلم لايتغير البتة ، لكنه لايترك الدعاء اتكالاً على ذلك ، كما لايترك الأكل اتكالاً على إبرام الله الأمر في الشبع . وعند المعتزلة الدعـــاء لاينفع ، ولا يكفرون في هذا لأنهم أولوا الدعاء في قوله تعالى :

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ (٢) .

بالعبادة ، وأولوا الإجابة بالثواب .

(١) رواه الحاكم وصححه .

(٢) المؤمن « غافر » ٦٠ .

● كما من القرآن وعداً يسمع: أي لأجل الذي يسمع دالٌّ من ألفاظ القرآن حال كونه موعوداً به .

قال تعالى : « وإذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ » [1] .

وتخصيص القرآن إنما هو لتواتره لالقصْر الدلالة عليه ، وإلا فالسنة تدل على نفع الدعاء ، وكذا الإجماع وقد دعا ﷺ في مواطن كثيرة . وقد أجمع عليه السلف والخلف . واعلم أن الإجابة تتنوع : فتارة يقع المطلوب على الفور ، وأخرى يتأخر لحكمة ، وتارة تقع الإجابة بغير المطلوب حيث لايكون في المطلوب مصلحة ناجزة ، أو يكون في غير المطلوب الذي وقع ماهو أصلح من المطلوب المدعو به ، على أن الإجابة – على كل الأحوال – مقيدة بالمشيئة

كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ : « فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ » [2] .

فهو مقيد لإطلاق الآيتين السالفتين .

---

(١) سورة البقرة ١٨٦ .

(٢) قال ابن عطاء الله في الحكم « لايكن تأخر أمد العطاء ، مع الإلحاح في الدعاء ، موجبا ليأسك ، فهو ضمن لك الإجابة فيما يختاره لك لا فيما تختاره لنفسك ، وفي الوقت الذي يريد لا في الوقت الذي تريد » . ثم يعلن توحيده الصرف في غلالات أنوار البصيرة بقوله : « لا يشككنك في الوعد عدم وقوع الموعود به ، وإن تعين زمنه ، لئلا يكون ذلك قدحاً في بصيرتك وإخماداً لنور سريرتك » .

٨٥- بِكُلِّ عَبْدٍ حَافِظُونَ وَكُلُوا وَكَاتِبُونَ خِيرَةَ أَنْ يُهْمِلُوا

● بكل عبد حافظون وكلوا : وكّل الله تعالى بكل عبد ملائكة حافظين سوى الملائكة الكاتبين ، فهم يحفظونه من المضار ، فيلازمونه على كل حال بخلاف الكتبة ، فإنهم يفارقونه عند ثلاث مواطن ، عند قضاء الحاجة ، وعند الجماع ، وعند الغسل [1] . ولا يمنع ذلك من كتب ما يصدر من العبد في هذه المواطن ، إذ يجعل الله تعالى أمارة على مابدر منه قولاً كان أو فعلاً أو اعتقاداً ، وبخلاف ملائكة الرحمة فإنهم لايدخلون البيت الذي فيه كلب أو جرس أو صورة [2] . وللجن حافظون كما للإنس . واختلف في عدد الحافظين ومكانهم ، لكنه لما لم يرد نص قاطع في هذا كان الإمساك أولى . وحفظهم للعبد إنما هو من القضاء المعلق أما المبرم فلا بد من إنفاذه ، فإنهم يتنحون عنه حتى ينفذ أمر الله .

قال سبحانه : « لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ ، إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ ، وَإِذا أَرادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ وَما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ والٍ » [3] .

---

(١) عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إياكم والتعري ، فإن معكم من لا يفارقكم إلا عند الغائط ، وحين يفضي الرجل إلى أهله ، فاستحيوهم وأكرموهم » . أخرجه الترمذي برقم ٢٨٠١ جـ ٥ وفي جامع الأصول برقم ٣٦٢٥ جـ ٥ .

(٢) عن أبي طلحة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب أو صورة » . أخرجه الشيخان والترمذي والإمام أحمد ، وفي الجامع الصغير برقم ٩٧٥٨ جـ ٦ . وفي حديث إن الملائكة لاتدخل بيتا فيه جرس .

(٣) الرعد ١٣ .

● وكاتبون خيرة لن يعملوا : تكلم - فه - عن الحافظين ، وهنا يتكلم عن الكاتبين ، وهما ملكان كل منها رقيب وعتيد ، لايتغيران ما دام حياً ، فإذا مات قاما على قبره يسبحان ويهللان ويكبران ويكتبان ثوابه إلى يوم القيامة ، إن كان مؤمناً ، ويلعنانه إن كان كافراً ، وقيل : هم أربعة ، ملكان في اليوم ، وملكان في الليلة ، يؤرخون ما يكتبون من أعمال العباد في الزمان والمكان ، وملك الحسنات من ناحية اليمين والسيئات من ناحية اليسار والكتابة حق يكفر منكرها ، ودليلها قوله تعالى :

«وإنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ، كِرَاماً كَاتِبِينَ ، يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ»[1].

وهي بأدوات لايعلمها إلا الله تعالى حملاً للنصوص على ظواهرها خلافاً لمن أوّل بأن الكتابة كناية عن الحفظ والعلم ، والتفويض في هذا المقام أولى . وقد اعتمد بعضهم أن المباح لايكتب . وهذه الكتابة لاتقع على حاجة دعت إليها ، وإنما فائدتها أن العبد إذا علم بها استحيا وترك المعصية ، والله أعلم . وقد اختلف في مكانها ، والحاصل من الخلاف أنهما لايلزمان محلاً واحداً .

(١) الإنفطار ١٠-١١-١٢ .

٨٦ـ مِنْ أَمرِهِ شَيئاً فَعلْ ولو ذَهِلْ حَتَّى الأنِينَ فِي المَرَضْ كَمَا نُقِلْ

● من أمره شيئاً فعل : أي لن يهمل الملائكة الكاتبون من أمر العبد شيئاً[1] ، والأمر يشمل القول وغيره .

● ولو ذهل : الذهول عن الشيء نسيانه والغفلة عنه فيكتب مافعله العبد ناسياً وإن كان لايؤاخذ به لأنه ليس الغرض من الكتابة المعاقبة ولا الإثابة كما سلف .

● حتى الأنين في المرض كما نقل : أي فيكتبون حتى الأنين الصادر منه في حال المرض ، لذا لاينبغي للمريض أن يقول : أخ ، لأنه إسم من أسماء الشيطان بل عليه أن يقول : « آه » ، لأنه ورد أنه من أسمائه تعالى ، فعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : قال رسول الله ﷺ :

« دَعُوهُ « أي المريض » يَئِنُّ ، فَإنَّ الأَنِينَ إِسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ تَعَالَى يَسْتَرِيحُ إِلَيْهِ العَلِيلُ »[2] .

وقد نقل أئمة الدين وعلماء المسلمين ـ ومن أعظمهم الإمام مالك ـ أن الملائكة تكتب كل شيء حتى الأنين في المرض متمسكين بقوله تعالى :

« مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إلاّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ »[3] .

فلفظة « قول » جاءت نكرة في سياق النفي لذا اقتضت العموم .

---

(١) من أمره : جار ومجرور متعلقان بحال من « شيئاً » ، والأصل لن يهملوا شيئاً من أمره .

(٢) رواه الجلال السيوطي في الجامع الصغير عن الرافعي وحسنه .

(٣) سورة ق ١٩ .

٨٧ـ فَحَاسِبِ النَّفْسَ وَقَلِّ الْأَمَلا   فَرُبَّ مَنْ جَدَّ لِأَمْرٍ وَصَلا

● فحاسب النفس وقل الأملا : أي إذا علمت أن عليك من يحفظ أعمالك ويكتبها فحاسب نفسك كل صباح على جميع ما عملته ليلا ، وكل مساء على جميع ما عملته نهاراً ، فما وجدت من حسنة حمدت الله تعالى عليها ، وما من سيئة استغفرت الله منها . وأقرب من ذلك إلى السلامة أن تحاسبها على كل فعل قبل الإقدام عليه، حتى لا تتلبس به إلا بعد معرفة حكم الله تعالى فيه ، فما وافق الشرع فعلته ، وما خالفه نبذته وراءك ظهرياً ، لأن من حاسب نفسه في الدنيا هان عليه حساب الآخرة ، قال عمر رضي الله تعالى عنه : « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزن عليكم » . وليكن أملك قليلا ، والأمل هو رجاء ما تحبه النفس ، كطول عمر ، وزيادة غنى ، وهو مذموم إلا للعلماء العاملين الورعين ، حيث أملوا بطول عمرهم أن ينفعوا المسلمين فيثابون على نياتهم في ذلك . والأصل فيها ذكر قوله صلى الله عليه وسلم :

« كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ ، وَعُدَّ نَفْسَكَ مِنْ أَهْلِ الْقُبُورِ »(١) .

وقال بعضهم : من قصر أمله قلّ همه وتنور قلبه ورضي بالقليل .

● فرُبّ من جد لأمر وصلا : أي جد في مطلوبك ، لأنه ، رب من اجتهد لتحصيل أمر من أمور الدنيا والآخرة وصل إليه إن قدّر الله تعالى أزلاً وصوله إليه .

---

(١) عن ابن عمر في البخاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «كن في الدنيا كأنك غريب أوعابر سبيل »، وزادالإمام أحمد والترمذي وابن ماجه : « وعد نفسك من أهل القبور » ، وهو في الجامع الصغير برقم ٦٤٢١ ج ٥ .

٨٨ - وَوَاجِبٌ إِيمَانُنَا بِالْمَوْتِ وَيَقْبِضُ الرُّوحَ رَسُولُ الْمَوْتِ

● وواجب إيماننا بالموت : أي يجب تصديقنا بعموم فناء الكل ، خلافاً للدهرية في قولهم : « إن هي إلا أرحام تدفع ، وأرض تبلع » .

وذلك لقوله تعالى : « إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ »[١] .

وقوله : « كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ »[٢] .

ويجب تصديقنا بأن الموت على الوجه المعهود شرعاً من فراغ الآجال المقدرة ، خلافاً للحكماء في قولهم : « إنه بمجرد إختلال نظام الطبيعة » . وذهب الأشعري في تعريفه للموت والحياة إلى أن تقابلهما من تقابل الأضداد . وذهب الأسفرايني والزمخشري إلى أن الموت هو عدم الحياة عما من شأنه أن يكون حياً .

● ويقبض الروح رسول الموت : أي يخرجها من مقرها الملك الموكل بالموت وهو عزرائيل عليه السلام ، ومعناه عبد الجبار ، وهو ملك عظيم هائل المنظر مفزع جداً ، وله أعوان بعدد من يموت ، لكنه يترقى بالمؤمن ويأتيه في صورة حسنة » ، فقد ورد في حديث ابن مسعود وابن عباس :

أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ : « يَا مَلَكَ الْمَوْتِ : أَرِنِي كَيْفَ تَقْبِضُ أَنْفَاسَ الْكُفَّارِ ؟ قَالَ : يَا إِبْرَاهِيمُ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ ، قَالَ : بَلَى ، قَالَ : أَعْرِضْ ، فَأَعْرَضَ

---

(١) الزمر ٣٠

(١) آل عمران ١٨٥ .

ثُمَّ نَظَرَ فإذا هُوَ بِرَجلٍ أسودَ يَدَالُ رأسُهُ السَّماء ، يخرُجُ مِنْ فِيه لَهَبُ النَّارِ ، فَغشيَ على إبراهيمَ ثُمَّ أفاقَ وقد تحوَّلَ مَلَكُ الموتِ في الصُّورةِ الأولى . فقـالَ يا مَلَكَ الموتِ لَوْ لَمْ يَلْقَ الكافرُ منَ البلاءِ والحُزنِ إلاَّ صورَتَكَ هذهِ لكَفَاهُ ، فأرِني كَيْفَ تَقبِضُ أنفاسَ المؤمنينَ ؟ قالَ: أعرِضْ، فأعرَضَ، ثُمَّ التفتَ فإذا بِرَجلٍ شابٍّ أحسَنَ النَّاسِ وَجهاً، وأطيَبِهِمْ ريحاً في ثِيابٍ بِيضٍ ، فقـالَ : يامَلَكَ الموتِ ، لَوْ لَمْ يَرَ المؤمِنُ عِندَ الموتِ مِنْ قُرَّةِ العَينِ والكَرامَةِ إلاَّ صورتَكَ هذهِ لَكانَ يَكْفيه .

والروح جوهر ، وإلا لم تقبض . ومذهب أهل السنة من المتكلمين والمحدثين والفقهاء والصوفية أنها جسم لطيف مشتبك بالبدن كاشتباك الماء بالعود الأخضر ، وبهذا جزم النووي . ومذهب جماعة من الصوفية والمعتزلة أنها ليست بجسم ولا عرض ، بل هي جوهر مجرد متعلق بالبدن التدبير غير داخل فيه ولاخارج عنه .

٨٩ - وَمَيِّتٌ بِعُمْرِهِ مَنْ يُقْتَلُ وَغَيْرُ هذا بَاطِلٌ لا يُقْبَلُ

● وميت بعمره من يقتل : أي كل ذي روح يفعل به مايزهق روحه ، ميت بانقضاء عمره ، وهو مذهب أهل الحق ، فالأجل عندهم واحد ، لايقبل الزيادة ولا النقصان .

قالَ اللهُ تعالى : « فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ »[١] .

وقَالَ تعالى : « ولنْ يُؤَخِّرَ اللهُ نَفسًا إذا جاءَ أجلُها »[٢] .

وقد دلت الأحاديث الشريفة على أن كل هالك يستوفي أجله من غير تقدم عليه ولا تأخر عنه ، فعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« إنَّ رُوحَ القُدُسِ نَفَثَ في رُوعِي أنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ رِزْقَهَا وَأَجَلَهَا ، فاتَّقُوا اللهَ وأَجْمِلُوا في الطَّلَبِ »[٣] .

وماورد في بعض الأحاديث من أن صلة الرحم تزيد في العمر لايرد هنا لأنه خبر آحاد ، أو الزيادة فيه بحسب الخير والبركة .

---

(١) النحل : ٦١

(٢) المنافقون : ١١

(٣) رواه ابن حبان في صحيحه .

فعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ »[1] .

وبالجملة فمختار أهل السنة أن كل مقتول ميت بانقضاء عمره ، وحضور أجله في الوقت الذي علم الله حصول موته فيه أزلاً ، بخلقه تعالى ، من غير مدخلية للقاتل فيه ، إلا الإكتساب ، ولهذا وجب عليه القصاص من حيث إنه اكتسبه فقط .

وعند أهل السنة أنه لو لم يقتل لجاز أن يموت في ذلك الوقت ، أولا يموت فيه . لأنه لا اطلاع لنا على ما في علم الله ، وإنما هذا التجوز ذاتي على فرض عدم قتله ، كما هو ظاهر وإلا فقد بان بقتله أن الله تعالى علم موته في ذلك الوقت ، فلا يتخلف ، فبعد أن قتل نقول : لو لم يقتل لمات قطعاً ، لأنه لو لم يمت للزم التغير في أمر العلم وهو محال ، وقد وافق على هذا أبو الهذيل من المعتزلة .

● وغير هذا باطل لا يقبل : أي غير ما ذكر - من مذاهب المخالفين لأهل السنة - باطل وغير مطابق للواقع ، ولا يقبل عند العقلاء المتمسكين بالحق.

ومنها[2] مذهب الكعبي : وهو أن المقتول له أجلان ، أجل بالقتل ، وأجل بالموت . فلو لم يقتل لعاش إلى أجله بالموت ، ودليله قوله تعالى :

« وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ »[3] .

قال : والعطف يقتضي المغايرة ، وأهل السنة يقولون : المعنى لئن متم من غير سبب ظاهر ، أو قتلتم بأن متم بسبب .

---

(١) متفق عليه ، وقوله ينسأ : معناه يؤخر له في أجله وعمره ، وفي رياض الصالحين برقم ٣١٩ .

(٢) أي من مذاهب المخالفين وهم المعتزلة .

(٣) آل عمران ١٥٨ .

٩٠ - وَفِي فَنَا النَّفْسِ لَدَى النَّفْخِ اخْتُلِفْ
وَاسْتَظْهَرَ السُّبْكِي بَقَاهَا الَّذْ عُرِفْ

● وفي فنا النفس : ذهب العلماء في حكم فناء النفس مذهبين : فطائفة قالت : بذهاب صورة النفس التي هي الروح عند نفخ إسرافيل في الصور النفخة الأولى لظاهر قوله تعالى :

«كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ، وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ»[1] .

وطائفة ذهبت إلى عدم الفناء عند ذلك ، أما قبل النفخة الأولى فلا خلاف في بقائها ، ولو بعد فناء الجسم ، وتكون إما منعمة أو معذبة فعن أبي سعيد رضي الله عنه :

أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : «الْقَبْرُ إِمَّا حُفْرَةٌ مِنْ حُفَرِ النَّارِ ، أَوْ رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ»[2] .

والنفخة الأولى تسمى نفخة الفناء ، إذ لا يبقى عندها حي إلا مات ، إن لم يكن مات قبل ذلك ، وإلا غشي عليه إن كان مات قبل ذلك ، كالأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، إلا من شاء الله كالملائكة الأربعة الرؤساء ، والحور العين ، وموسى عليه الصلاة والسلام لصعقه في الدنيا مرة فجوزي بها .

(١) الرحمن ٢٠ - ٢٦
(٢) رواه الترمذي في حديث طويل بلفظ « إنما القبر » . برقم ٢٤٦٢ ج ٣ .

فجميع الأنبياء بعد الموت تعود إليهم أرواحهم ثم يغشى عليهم عند النفخة الأولى إلا موسى عليه السلام ثم ينفخ الثانيـــة وتسمى نفخة البعث ، فيجمع الله تعالى الأرواح في الصور عند النفخة ، وفيه ثُقب بعددها ، فتخرج منه الأرواح إلى أجسادها فــلا تخطىء روح جسدها . وبين النفختين أربعون عاماً على ما في بعض الطرق :

« عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : « قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ ، قِيلَ : أَرْبَعُونَ يَوْماً ؟ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : أَبَيْتُ ، قالوا : أربعون شهراً ؟ قال : أبيت ، قالوا : أربعون سنة قال : أبيت ، ثُمَّ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءٌ فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ ، وَلَيْسَ مِنَ الْإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَى ، إِلَّا عَظْمٌ وَاحِدٌ ، وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ ، مِنْهُ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .(١)

● واستظهر السبكي : اختار الإمام السبكي في تفسيره من هــذا الإختلاف القول ببقائها الذي عهد سابقاً ، لأنه متفق على بقائها بعد الموت لسؤالها في القــبر وتنعيمها أو تعذيبها فيه ، والأصل في كل باق استمراره حتى يظهر ما يصرف عنه ، فالدليل على بقائها الإستصحاب ، فتكون من المستثنى بقوله تعالى :

« فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّموات وَمَنْ فِي الأرض إلاَّ مَنْ شَاءَ اللهُ » .(٢)

وهو المختار عند أهل الحق وإنما خص المصنف السبكي بالذكر لتبحره في الفنون حتى أحاط بالمعقول منها والمنقول .

(١) رواه البخاري ومسلم .
(٢) الزمر : ٦٨

٩١ ـ عَجْبُ الذَّنْبِ كالرُّوحِ لَكِنْ صَحَّحَا
الْمُزَنِيُّ لِلْبِلَى وَوَضَّحَا

● عجب الذنب كالروح : أي العجب الشبيه بالذنب وهو عظم كالخردلة في آخر سلسلة الظهر في العصعص ، مختص بالإنسان كمغرز الذنب للدابة ، والمشهور أنه لا يفنى إلا وقت النفخ ، لكن صحح الإمام إسماعيل بن يحيى المزني القول بأن عجب الذنب يبلى ويفنى تمسكاً بظاهر قوله تعالى :

« كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ » .

وفناء الكل يستلزم فناء الجزء ، فقد وضّح صحة ما ذهب إليه ، ووافقه ابن قتيبة . والأقوى أنه لا يبلى لما ورد عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال :

« إِنَّ فِي الإِنْسَانِ عَظْماً لا تَأْكُلُهُ الأَرْضُ أَبداً ، مِنْهُ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، قالُوا : أَيُّ عَظْمٍ هُوَ يَارَسُولَ اللهِ ؟ قالَ : عَجْبُ الذَّنَبِ » .(1)

وعن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال :

« يَأْكُلُ التُّرَابُ كُلَّ شَيْءٍ مِنَ الإِنْسَانِ إِلاَّ عَجْبَ ذَنَبِهِ ، قِيلَ : وَمَا هُوَ يَارَسُولَ اللهِ ؟ قالَ : مِثْلُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ ، مِنْهُ تُنْشَؤُونَ »(2)

(1) رواه الإمام مسلم .
(2) رواه الإمام أحمد وابن حبان .

٩٣ـ وكُلُّ شَيءٍ هَالِكٌ قَدْ خَصَّصُوا   عُمُومَهُ فَاطْلُبْ لِمَا قَدْ لَخَّصُوا

● وكل شيء هالك ...: لما كان القول ببقاء الروح ، وعجب الذنب هو الراجح أشار ـ هنا ـ إلى إيراد قد يرد بقوله تعالى :

« كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ » .(١)

فمقتضاه أن كل ماسواه تعالى محكوم عليه بالهلاك ، فقال المصنف : من العلماء من قصر العموم الوارد في الآية على غير الأمور الواردة في الأحاديث كالروح ، وعجب الذنب ، وأجساد الأنبياء ، والشهداء ، والعرش والكرسي ، والجنة والنار ، والحور العين ونحو ذلك ، فالآية من قبيل العام المخصوص ، ومنهم من قال : معنى « هالك » في الآية قابل للهلاك ، كما هو معنى « فان » أيضاً ، لذا لخص العلماء الأمور الواردة فيها بذكر الديمومة .

(١) القصص ٨٨

٩٣ـ ولا تخض في الروح إذ ما وردا نصٌّ من الشارع لكن وُجِدا

● ولا تخض في الروح ...: أي أيها المكلف لاتخض في بيان حقيقة الروح، فالخوض في ذلك مكروه لعدم التوقيف فيه، وكلام الجنيد رحمه الله تعالى يدل على الحرمة حيث قال: «الروح شيء استأثر الله بعلمه فلم يطلع عليه أحداً من خلقه، فلا يجوز لعباده البحث عنها بأكثر من أنها موجودة».

قال تعالى: «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ. قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي».(١)

وفي ذلك إظهار لعجز المرء حيث لم يعلم حقيقة نفسه التي بين جنبيه مع القطع بوجودها، ولم يخرج النبي ﷺ من الدنيا حتى أطلعه الله تعالى على جميع ما أبهم عنه من الروح وغيرها مما يمكن علم البشر به، وليس على جميع معلوماته تعالى وإلا لزم مساواة الحادث بالقديم. وما ذكر من عدم الخوض في الروح هو المختار، فنمسك عن بيان حقيقتها، وبيان مقرها من الجسد، والمشهور عدم تعدد الروح في كل جسد. وصرح العز بن عبد السلام بأن في كل جسد روحين، إحداهما روح اليقظة التي أجرى الله تعالى العادة بأنها إذا كانت في الجسد كان الإنسان مستيقظاً فإذا خرجت منه نام، ورأت تلك الروح المنامات، والأخرى روح الحياة التي أجرى الله تعالى العادة بأنها إذا كانت في الجسد كان حياً، فإذا فارقته مات. وهاتان الروحان في باطن الإنسان لايعرف مقرهما إلا من أطلعه الله على ذلك، وقد كان بعض الأرواح يوم خاطبها الله تعالى قبل تعلقها بالأبدان بقوله:

(١) الإسراء ٨٥

«أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ قَالُوا بَلَى»(١)

ـ مقبلاً على بعض بالوجه ، وبعضها مولياً ظهره لبعض ، وبعضها جاعلاً جنبه لبعض ، فالإقبال بالوجه غاية في المودة ، وعكسه بالظهر والجنب ، وقد جاء في الحديث :

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : «الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ»(٢).

● إذ ما ورد * نص من الشارع : إن ما تقدم من المنع في الخوض مبني على أنه لم يرد دليل عن الله تعالى ببيانها ، وكل ما هو كذلك فالأولى عدم الخوض فيه .

(١) الاعراف ١٧٢

(٢) رواه البخاري ، ورواه مسلم من حديث أبي هريرة .

٩٤ - لِمَالِكٍ هِيَ صُورَةٌ كَالجَسَدِ ۝ فَحَسْبُكَ النَّصُّ بِهَـذَا السَّنَدِ

● لمالك هي صورة : [١] وجد لأهل مذهب مالك من خاض في بيان حقيقة الروح ، وأنها جسم ذو صورة كصورة الجسد في الشكل والهيأة ، وهذا قول عبد الرحيم بن خالد ، وإنما نسب لمالك لاستناده إليه فيه ،

وقال النووي : هو أصح ما قيل فيها على الطريقة المبيحة للخوض ، وهي غير مختارة . وما قاله إمام الحرمين : إنها جسم لطيف شفاف مشتبك بالجسم اشتباك الماء بالعود الأخضر ، فتكون سارية في جميع البدن ، فإذا ما انقطع عضو انشمرت عنه الروح بسرعة لطافتها . هذا في الحياة، أما بعد الموت فأرواح السعداء بأفنية القبور ، على الصحيح ، وأرواح الكفار في سجّين .

● فحسبك النصُّ : إذا علمت النقل عن أهل مذهب مالك بالخوض في حقيقتها فيكفيك النصُّ عنهم ، فلا تخض بأكثر منه . وقد قال مبيح الخوض : إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ :

« قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي » .

تصديقاً لما في كتب اليهود من أن الإمساك عن ذلك من علامات نبوته ، وأدلة رسالته ﷺ [٢]

---

(١) لمالك : الجار والمجرور متعلقان بقوله « وجدا » في عجز البيت السابق .

(٢) أخرج البخاري ومسلم من حديث ابن مسعود أنه لم يؤذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتكلم في الروح ، في سؤال اليهود له عنها ونزول قوله تعالى : « ويسألونك عن الروح » ، وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : قالت قريش لليهود : أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل ، فقالوا : سلوه عن الروح ، =

• • • • •

=فسألوه فنزلت الآية . وذكر ابن كثير في تفسيره (ص ١٧ ج ٤) بعث كفار مكة إلى أهل الكتاب يسألون منهم ما يمتحنون به النبي ، فقالوا لهم : سلوه عن ثلاث تأمركم بهن فإن أخبركم بهم فهو نبي مرسل ، وإلا فرجل متقول فتروا فيه رأيكم ، سلوه عن رجل طواف في الأرض ، وسلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم ؟ فإنهم قد كان لهم حديث عجيب ، وسلوه عن الروح. وقد ذكر السهيلي الخلاف بين العلماء في أن الروح هي النفس أو غيرها ، وقرر أنها ذات لطيفة كالهواء ، سارية في الجسد كسريان المـاء في عروق الشجر ، وقرر أن الروح التي ينفخها الملك في الجنين إنما هي النفس بشرط اتصالهـا بالبدن ، واكتسابها بحسبه صفات مدح أو ذم ، فهي إما نفس مطمئنة أو أمارة بالسوء ، كما أن الماء هو حياة الشجر ثم يكتسب بسبب اختلاطه معهـا إسماً خاصاً ، فإذا اتصل بالعنبة وعصر منها صار ماء مصطاراً أو خمراً ولا يقال له : ماء حينئذ إلا على سبيل المجاز ، كذلك لا يقال النفس روح إلا على هذا النحو وكذلك لا يقال للروح نفس إلا باعتبار ما تؤول إليه . فمحاصل الأمر أن الروح هي أصل النفس ومادتها ، فالنفس مركبة منها ، ومن اتصالها بالبدن فهي هي من وجه لا من كل وجه .

٩٥ـ والعَقْلُ كالرُّوحِ ولكنْ قرَّروا فيهِ خِلافاً فانْظُرَنْ ما فَسَّروا

● والعقل كالروح : أي العقل من حيث الخوض في حقيقته مثل الروح . وطريق الوقف هو المختار فيه لأنه من المغيبات . والعقل ـ لغة ـ المنع ، من عقل البعير إذا منعه . وسمي بذلك لمنعه صاحبه من العدول عن سواء السبيل .

● ولكن قرروا : هذا الإستدراك لامحل له ـ هنا ـ لأن الخلاف وقع في الروح أيضاً .

● فانظرن ما فسروا : أي فانظر التفاسير التي ذكرها القوم في كتبهم . وقد تطابقت أقوال أهل السنة في عرضيته ، فقال بعضهم : إنه العلم ببعض العلوم الضرورية كالعلم بوجوب تحيز الجرم واستحالة عروه عن الحركة والسكون ، وجواز إحراق النار وغير ذلك . وعرفه الشيرازي : بأنه صفة يميز بها بين الحسن والقبيح . وأحسن ماقيل فيه : أنه نور روحاني ، به تدرك النفس العلوم الضرورية والنظرية . وقال بعضهم : إن لله لطيفة ربانية لايعلمها إلا الله تعالى ، فمن حيث تفكرها تسمى عقلاً ، ومن حيث حياة الجسد بها تسمى روحاً ، ومن حيث شهوتها تسمى نفساً ، فالعقل والروح والنفس أسماء لِمُسَمَّىً واحد ، وفي كلام الغزالي : أنه جوهر مجرد . وقد اختلف في محله والصحيح أن محله القلب ، وله نور متصل بالدماغ كما ذهب إليه الإمام الشافعي والإمام مالك رضي الله عنهما وجمهور المتكلمين . وقالت الحكماء وبعض الفقهاء : بأن محله الدماغ لفساده بفساد الدماغ ، وهذا لايدل على ما ذكروه ، لجواز أن تكون سلامة الدماغ شرطاً لاستمراره وإن كان محله القلب .

٩٦ ـ سُؤَالنا ثُمَّ عَذَابُ القبْرِ نَعِيمُــهُ وَاجِبٌ كَبَعْثِ الحَشْرِ

● سؤالنا : أي سؤال منكرونكـير إيانا معاشر أمــة الدعوة ، مؤمنين ومنافقين وكافرين . وإنما سمي الملكان بذلك لأنها يأتيان الميت بصورة منكرة كما ورد في الحديث ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

« إذا قُبِرَ الميِّتُ (أو قال : أحدُكم) أتاه مَلَكان أسودَان أزرَقان ، يقالُ لأحدِهما مُنكَرٌ وللآخر نَكيرٌ ، فيقولان : ماكنتَ تقولُ في هذا الرَّجل ؟ فيقولُ : ما كانَ يقولُ ، هُوَ عبدُ اللهِ ورَسولُهُ ، أشهدُ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ ، وأنَّ مُحمَّداً عبدُهُ ورَسولُهُ . فيقولان : قَدْ كُنّا نَعلَمُ أنَّكَ تَقولُ هذا ، ثُمَّ يُفسَحُ لهُ في قبرِهِ سبعُونَ ذِراعاً في سبْعين ، ثُمَّ يُنوَّرُ لهُ فيهِ ، ثُمَّ يُقالُ لهُ : نَمْ ، فيقولُ أرْجِعُ إلى أهــلِي فأُخبِرُهُم ؟ فيقولان : نَمْ كَنَومةِ العَروسِ الذي لا يُوقظُهُ إلاَّ أحبُّ أهلِهِ إليهِ ، حتَّى يَبعثَهُ اللهُ مِن مَضجعِهِ ذلكَ . وإنْ كانَ مُنافقاً ، قالَ : سَمِعتُ النَّاسَ يَقولونَ قَولاً فقُلتُ مِثلَهُ ، لا أدري ، فيقولان : قدْ كُنّا نَعلمُ أنّكَ تَقولُ ذلكَ . فيُقالُ للأرضِ التئمِي عليهِ ،

فَتَلْتَئِمُ عَلَيْهِ فَتَخْتَلِفُ أَضْلاعُهُ فَلا يَزَالُ فِيهَا مُعَذَّباً حَتَّى يَبْعَثَهُ اللهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ»[1].

وقيل: هما المؤمن الموفق مبشر وبشير، وأما الكافر والمؤمن العاصي فلها منكر ونكير. وسؤالها بعد تمام الدفن وعند انصراف الناس ففي الحديث عن أنس أن رسول ﷺ قال:

«إِنَّ العَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ، وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ، وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ إِذَا انْصَرَفُوا، أَتَاهُ مَلَكَانِ فَيُقْعِدَانِهِ فَيَقُولانِ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ؟ فَأَمَّا المُؤْمِنُ فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، فَيُقَالُ انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ أَبْدَلَكَ اللهُ بِهِ مَقْعَداً مِنَ الجَنَّةِ - قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: فَيَرَاهُمَا جَمِيعاً - وَأَمَّا الكَافِرُ أَوِ المُنَافِقُ فَيَقُولُ: لا أَدْرِي كُنْتُ أَقُولُ مَا يَقُولُ النَّاسُ فِيهِ، فَيُقَالُ لا دَرَيْتَ وَلا تَلَيْتَ، ثُمَّ يُضْرَبُ بِمِطْرَقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ ضَرْبَةً بَيْنَ أُذُنَيْهِ فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ إِلاَّ الثَّقَلَيْنِ»[2].

---

(١) رواه الترمذي وابن حبان في صحيحه.

(٢) رواه البخاري واللفظ له، ومسلم. الثقلين: الإنس والجن.

هذا ما ذهب إليه الجمهور ، وهو ظاهر الأحاديث ، وفيه أقوال بعدد الأيام التي يسأل فيها الميت ، منها أن المؤمن يسأل سبعة أيام والكافر أربعين . ويسألان كل أحد بلسانه على الصحيح . ولا بد من سؤال الميت ، ولو تمزقت أعضاؤه أو أكلته السباع في أجوافها ، إذ لا يبعد أن الله تعالى يعيد له الروح في أعضائه ولو كانت متفرقة لأن قدرته تعالى صالحة لذلك. وإن مات جماعة في وقت واحد بأقاليم مختلفة ، فقد ذهب القرطبي إلى جواز أن الملكين يعظمان فيسألان الجميع بوقت واحد أو أن ملائكة السؤال عديدون ، كما ذهب اليه الحافظ السيوطي ووافقه عليه الحليمي ، والذي يشبه أن يكون أن للسؤال ملائكة كثيرين ، فيبعث إلى كل ميت إثنان منهم والله أعلم . واختلف في كيفية السؤال ، فمنهم من يسأل عن بعض اعتقاداته ومنهم عن كلها . قال ابن عباس : يسألان عن الشهادتين ، وقال عكرمة : يسألان عن الإيمان بمحمد ﷺ وعن التوحيد ، وورد أنهما يقولان : ما تقول في هذا الرجل ؟ فالمرتاب يجيب بلا أدري ، فيشقى أبد الآبدين . وهذا السؤال هو فتنة القبر . وقيل : فتنتها ما ورد من حضور إبليس في زاوية من زوايا القبر مشيراً إلى نفسه وذلك عند قول الملك للميت من ربك ؟! حتى يقول الميت هذا ربي . والأنبياء لا يسألون ، وقيل يسألون عن الوحي وجبريل ، وكذلك الصديقون والشهداء والمرابطون والملازمون لقراءة سورة الملك كل ليلة من حين بلوغ الخبر إليهم ولا يضر الترك مرة بعذر ، وذكر بعضهم سورة السجدة كذلك ، وكذلك من قرأ بمرض موته سورة الإخلاص ،

ومريض البطن ، والميت بالطاعون أو بغيره في زمنه صابراً محتسباً ، والميت ليلة الجمعة أو يومها . والراجح أن غير الأنبياء وشهداء المعركة يسألون سؤالاً خفيفاً . والظاهر كما جزم به الجلال السيوطي وغيره اختصاص السؤال بالمكلفين بخلاف الأطفال وحكمة السؤال - والله أعلم - إظهار ما كتمه العباد في الدنيا من إيمان أو كفر أو طاعة . فالمؤمنون الطائعون يباهي الله بهم الملائكة . وغيرهم يفضحون .

● ثم عذاب القبر : مما يجب اعتقاده عذاب القبر ، وإنما أضيف العذاب للقبر لأنه الغالب ، وإلا فكل ميت أراد الله تعذيبه عذب ، قبر أو لم يقبر ، ولو غرق أو صلب أو التهمته الضواري أو حرق ثم ذرته الرياح ، وتفتت الأعضاء لايمنع من وجود العذاب ومن وقوعه على الروح والبدن جميعاً باتفاق أهل الحق إذ الله جائز أن يخلق الله تعالى في ذرة ما أشد الآلام وأرقى اللذات . فقد ورد أن عثمان بن عفان رضي الله عنه كان إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته ، فسئل عن ذلك ، وقيل له : تذكر الجنة والنار فلا تبكي وتبكي إذا وقفت على قبر ؟ فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« إِنَّ القَبْرَ أَوَّلُ مَنَازِلِ الآخِرَةِ ، فَإِنْ نَجَى مِنْهُ صَاحِبُهُ فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ ، وإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ »[1].

وورد عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

---

(١) رواه الترمذي وحسنه ، والحاكم وصححه .

« لَولا أنْ لا تَدَافَنوا لَدَعَوتُ اللهَ أنْ يُسْمِعَكُمْ عَذابَ القَبْرِ »[1].

وذهب محمد الطبري وعبد الله بن كرّام وطائفة إلى القول بأن المعذب هو البدن فقط ، وذلك بأن يخلق الله فيه إدراكاً به يسمع ويبصر ، ويتألم ويلتذ ، وهذا خلاف الحق . والعـذاب للكافر والمنافق دائم ديمومة البرزخ . وينقطع عن المؤمن العاصي إن خفت جرائمه ، كما يرفع بالدعاء أو الصدقة ، أو غير ذلك ، كما قاله ابن القيم وكل من لا يسأل في القبر لايعذب . وضغطة القبر من عذابه ، وهي التقاء حافتيه التقاء برزخياً يتناسب مع عالم البرزخ ، وما يحكمه من قوانين ، فتضمه الأرض حتى تختلف أضلاعه ولا ينجو من الضمة أحد حتى الصلحاء ، ماخلا الأنبياء وفاطمة بنت أسد ، ومن قرأ سورة الإخلاص في مرض موته .

قالت السيدة عائشة رضي الله عنها : قال رسول الله ﷺ :

« إنَّ لِلقَبْرِ ضَغْطَةً ، وَلَوْ سَلِمَ أوْ نَجا مِنها أحَدٌ لَنَجَا سَعْدُ بنُ مُعاذٍ »[2]

وهو الذي اهتز عرش الرحمن لموته ، فعن جابر رضي الله تعالى عنه : أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قـال : « اهتَزَّ العَرْشُ لِمَوتِ سَعْدِ ابنِ مُعاذٍ »[3].

---

(١) رواه الإمام مسلم في صحيحه .

(٢) رواه الإمام أحمد بإسناد جيد .

(٣) رواه البخاري ، وهو في هداية الباري ج ١ صفحة ٢٥٣ . ورواه مسلم بلفظ اهتز عرش الرحمن لموت سعد . وفي ذلك يقول حسان رضي الله عنه:

وما اهتز عرش الله من أجل هالك سمعنا به إلا لسعد أبي عمرو

وأما المؤمنون الصالحون الذين قدر الله لهم ألا يعذبوا فهم في نعيم القبر. وقد بلغت النصوص في نعيمه مبلغ التواتر. وكما أن العذاب لايختص بالقبر فكذلك النعيم، فهو يشمل كل ميت قدر له، قبر أو لم يقبر، ولا يختص بالمؤمنين من هذه الأمة، ولا بالمكلفين. ومن النعيم توسيع القبر، وفتح طاقة فيه من الجنة، وامتلاؤه بالريحان وجعله روضة من رياض الجنة وتنويره حتى يغدو كالقمر ليلة البدر، وكل هذا بما يتناسب مع عالم البرزخ، وقد ورد أن الله تعالى أوحى إلى موسى: تعلم الخير وعلمه الناس، فإني منور لمعلم العلم ومتعلمه قبورهم، حتى لايستوحشوا لمكانهم.

وعن عمر رضي الله عنه مرفوعاً:

«مَنْ نَوَّرَ فِي مَسَاجِدِ اللهِ نَوَّرَ اللهُ لَهُ فِي قَبْرِهِ».

وكل هذا محمول على حقيقته عند العلماء بما يتناسب مع البرزخ والحاصل أن كلاً من السؤال والعذاب والنعيم واجب سمعاً، فهو في حد ذاته أمر ممكن عقلاً، أخبر به الصادق فأضحى واجباً شرعاً، هذا ماعليه أهل السنة وجمهور المعتزلة ولا ينكره إلا ملحد مطموس البصيرة.

● كيف الحشر: البعث عبارة عن إحياء الموتى وإخراجهم من قبورهم بعد جمع الأجزاء الأصلية وهي التي من شأنها البقاء من أول العمر إلى آخره، ولو قطعت قبل موته بخلاف التي ليس من شأنها ذلك، كالظفر مثلاً. والحشر عبارة عن سوقهم جميعاً إلى الموقف، وهو الموضع الذي يقفون فيه لفصل القضاء، ووزن الأعمال، ومنه إما إلى جنة أو إلى نار، وهو أرض لم يعص الله عليها، فعن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ:

« يُحشَرُ النَّاسُ يومَ القيامَة على أرضٍ بيضاءَ عفراء ، كَقُرْصَةِ النَّقيّ ، لَيْسَ فِيها عَلَمٌ لأحد »[1] .

ولا فرق في الحشر بين من يجازى ومن لايجازى ، كالبهائم والوحوش ، على ما ذهب اليه المحققون ، وصححه النووي . وذهبت طائفة إلى أنه لايحشر إلا من يجازى ، أما السقط – إن لم ينفخ فيه الروح – فكسائر الأجسام التي لاروح فيها ، وأما – إن نفخت فيه – فيحشر ويصير عند دخوله الجنة كأهلها في الجمال والطول . وأول من تنشق عنه الأرض نبينا ﷺ ، فعن ابن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« أنا أوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عنهُ الأرضُ ، ثُمَّ أبو بَكرٍ ، ثُمَّ عُمَرُ ، ثُمَّ آتي أهلَ البَقيعِ فيُحشَرُونَ معي ، ثُمَّ أنتَظِرُ أهلَ مَكَّةَ حتى أُحشَرَ بينَ الحرَمينِ »[2] .

فهو ﷺ أول مبعوث ، وأول وارد المحشر ، وأول من يدخل الجنة وبعده سيدنا نوح ، وورد أن بعده أبا بكر ، وحمل على أنه بعد الأنبياء . ومراتب الناس في الحشر متفاوتة ، فمنهم الراكب وهو المتقي ، ومنهم الماشي وهو قليل العمل ، ومنهم الماشي على وجهه ، وهو الكافر ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

---

(١) رواه البخاري ومسلم . والعفراء هي البيضاء وليس بياضها بالناصع . والنقي هو الخبز الأبيض . والمعلم والعلم ما يجعل علامة للطريق والحدود ، أو هو الأثر .
(٢) رواه الترمذي برقم ٣٦٩٣ ج ٩ .

«يُحشَرُ النَّاسُ يومَ القيامة ثلاثةَ أصنافٍ، صنفاً مُشاةً، وصنفاً رُكباناً، وصنفاً على وُجوهِهم. قيلَ: يارسولَ الله، وكيفَ يمشُونَ على وُجوهِهم؟ قالَ: إنَّ الذي أمشاهم على أقدامِهِم قادرٌ على أنْ يُمشِيَهُم على وُجوهِهِم، أما إنَّهم يتَّقُونَ بوُجُوهِهم كلَّ حدبٍ وشوكٍ»[1]

وعَنْ أنسٍ أنَّ رَجُلاً قالَ: يارسولَ الله، قالَ اللهُ تعالى: «الَّذينَ يُحشَرُونَ على وُجوهِهم إلى جَهنَّمَ»، أيُحشَرُ الكافرُ على وَجهِه؟ قالَ رسُولُ الله ﷺ: أليسَ الذي أمشاهُ على الرِّجلَيْنِ في الدُّنيا قادرٌ على أنْ يُمشيَهُ على وَجهِه؟ قالَ قَتادةُ حِينَ بلَغهُ: بلى وعِزَّةِ ربِّنا»[2].

وهذا هو أول نوع من أنواع الحشر، وثانيها: صرف الناس من الموقف إلى الجنة والنار، وثالثها في الدنيا: وهو إخراج اليهود من جزيرة العرب إلى الشام وهو المذكور في قوله تعالى:

«هو الذي أخرجَ الذين كفروا من أهلِ الكتابِ من ديارِهم لأولِ الحشر»[1].

ورابعها: سوق النار الخارجة من أرض عدن للكفار وغيرهم قرب قيام الساعة إلى المحشر فتبيت معهم حيث باتوا وتقيل حيث قالوا، فتدور الدنيا كلها، وتطير ولها دوي كدوي الرعد القاصف. فعن أنس رضي الله عنه قال:

---

(١) رواه الترمذي وقال حديث حسن.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

قال رسولُ اللهِ ﷺ : « أمَّا أوَّلُ أشراطِ الساعةِ فنارٌ تحشُرُ النَّاسَ مِنَ الشَّرقِ إلى الغربِ »[1] .

وحكمتها الامتحان والإختبار ، فمن علم أنها مرسلة من الله تعالى وانساق معها سلم منها ، ومن لم يكن كذلك أحرقته ، وبعد سوقها لهم إلى المحشر يموتون بالنفخة الأولى بعد مدة .

(١) رواه البخاري ، وفي هداية الباري ص ١٢٩ جزء ١ والمراد بالمغرب بلاد الشام .

٩٧- وقُلْ يُعادُ الجِسْمُ بالتَّحْقيقِ عَنْ عَدَمٍ وقيلَ عَنْ تَفْرِيقِ

● وقل يعاد الجسم : ينبغي اعتقاد أن الله تعالى سيعيد الجسم أعادة محققة لاشك فيها بعد عدم ، وأن الجسم المعاد هو الجسم الأول بعينه ، لامثله ، وليس هذا من قبيل الرأي إنما هو بالدليل ، فالجسم ينعدم بالكلية إلا عجب الذنب ، ثم يعيده الله تعالى كما أوجده أولاً .

قال تعالى : « كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ »[1]

أو يقال : إن الجسم لاتعدم عينه بل يفرق الله أجزاءه بحيث لايبقى فيه جوهران فردان على الاتصال . فقد ورد عن أبي هريرة رضي الله تعالى أنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« إنَّ رجلاً كان قبلَكم رَغَسَهُ اللهُ مالاً (أي أكثر له منـه ، وبارك له فيه) فقال لبنيه لما حُضِرَ[2] : أيَّ أبٍ كنتُ لكم ؟ قالوا : خيرَ أبٍ . قال : فإني لم أعملْ خيراً قطُّ ، فإذا متُّ فأحرقوني ، ثم اسحقوني ، ثم ذَرُّوني في ريحٍ عاصفٍ . ففعلوا . فجمعه الله فقال : ما حَمَلَكَ على هذا ؟! فقال : مخافَتُكَ ، فتلقَّاهُ برحمته »[3] .

(١) أعراف ٢٩

(٢) أي لما حضره الموت .

(٣) رواه البخاري ومسلم .

والصحيح أنه ينعدم بالكلية لذا قدمه المصنف جازماً ، به وحكى القول الثاني بصيغة التضعيف[1] .

---

(١) من دلائل البعث الظاهرة أنك تنظر في نفسك فتجدها مكونة من قطرة ماء ، لم يكن فيها لحم ، ولا دم ، ولا عظم ، ولا جلد ، ولا روح ، ولا شيء من الأعضاء . ثم فرق الله تعالى مجتمعك وأمات محياك وأخفى ظاهرك ، وأضعف قوتك حين دسك في التراب . ثم كذلك يجمع متفرقك كما جمع أول مرة ، ويحيي ميتك كما أحياه أول مرة ، ويظهر خافيك كما أظهره أول مرة ، قال تعالى : « فسيقولون من يعيدنا ؟ قل الذي فطركم أول مرة » ، وقال أيضا : « قال من يحيي العظام وهي رميم ؟ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة » ، وقال : « يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ، لنبين لكم » فبين وأوضح البيان . وقال أيضا : « فلينظر الإنسان مما خلق ؟ خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب ، إنه على رجعه لقادر » وكيف لا يقدر على رجع البنيان وإعادته بعد خرابه من ابتدع بناءه ، قال تعالى « وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه » . ومما يبين دلائل البعث والنشور أن الحبة تدفن في التراب ، وليس لها ورق ولا غصن ، ولا ثمر ، ولا ريح ولا طعم ولا حركة ، فتمكث في التراب ما شاء الله ، فيحييها فالق الحب والنوى ويخرجها من مدفنها ، فتخرج متحركة بعد إذ لم تكن لها حركة ، وتخرج من التراب ولها شعب وأوراق ... ولم يكن لها شيء من ذلك حين دست في التراب ، فكذلك الإنسان ، يدس في التراب وليس له حركة ، ولا فيه روح ولا سمع ولا بصر كالحبة الميتة ، ثم يخرج وفيه روح وحركة وسمع وبصر ، وقد جعله الله تعالى بياناً لعباده ، ودلالة على ميعاده حيث قال : « وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً » و « وأنزلنا من السماء ماء مباركاً ، فأنشأنا به جنات ، كذلك الخروج » ، وقال أيضا : « وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته ، حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات وكذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون » . وقال : « الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت ، فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور » . وقد ورد أنه صلى الله عليه وسلم قال : « فليس من بني آدم خلق ، الا وفي الأرض منه شيء ، ثم يرسل الله ماء من تحت العرش كمني الرجال فتنبت جسمانهم ولحمانهم من ذلك الماء كما تنبت الأرض من الري ، ثم قرأ عبد الله بن عمرو =

= ابن العاص قوله تعالى : « الله الذي يرسل الرياح . . . » الى قوله : « كذلك النشور » ، وتشبيه النازل بالمني من حيث الشكل والصورة ، لا من حيث الحقيقة ، ويقال له : ماء الحياة ، ومطر الحياة . وقد جاء في رواية الإمام مسلم قوله صلى الله وسلم : « ... ثم يرسل الله مطراً كأنه الطل فتنبت منه أجساد الناس » ومن حديث أبي هريرة « .. ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل » . أضف الى كل ما تقدم أنك ترى في الدنيا مظلوماً لم ينتصف من ظالمه . وظالماً لم يعاقب بظلمه ، وعامل خير عاش في جهد وبلاء ، وشدة وأذى ، وعامل شر عاش في نعمة وخصب وراحة ، فلو لم يكن ثمة دار سواها لكان الظالم غير منال بعقاب، والمظلوم غير منصف ، ولم يكن للخير منفعة ولا للشر مضرة . فإذا لم يكن في هذه الدار فلا بد من أن يكون ذلك في دار سواها ، بذلك شهدت العقول ، والملك العدل الغني عن العالمين منزه عن الظلم ، فلا يظلم ولا يجور .

وختاماً إن الذي قدر على أن يخلق الدنيا لقادر على أن يخلق الآخرة فليست إحداهما بأعجب من الأخرى . انتهى (ملخصاً من كتاب للإمام الترمذي رحمه الله) .

٩٨ - مَحْضَيْنِ لَكِنْ ذَا الخِلافُ خُصَّا
بِالأَنْبِيا وَمَنْ عَلَيْهِمْ نُصَّا

● محضين (١) : أي إن الاعادة بعد عدم محض خالص عن شائبة الوجود أو بعد تفريق محض خالص عن شائبة الإتصال في أجزائه .

● لكن ذا الخلاف : إن الخلاف الحاصل في الإعادة سواء بعد العدم أو التفريق لايشمل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فإن الأرض لاتأكل أجسامهم ولا تبليها اتفاقاً ، وكذلك لايشمل من نص الشارع الحكيم على أن الأرض لاتأكل أبدانهم كالشهداء ، والمؤذنين احتساباً (٢) ، والعلماء العاملين ، وحملة القرآن الملازمين لتلاوته العاملين بما فيه ، والمعظمين له بضبط لسانهم وطهارتهم ، وآدابهم ، إلى غير ذلك مما نقل عن الشارع ، فإن المسألة توقيفية ، والشهيد كل مقتول على الحق ولو لم يكن من شهداء المعركة .

(١) محضين : « صفة لعدم وتفريق » في البيت السابق ، أي عود الجسم محقق ، سواء كان عن عدم أو تفريق محضين .
(٢) أي ادخاراً للثواب عند الله لا لأجرة .

٩٩ـ وَفي إعادَةِ العَرَضْ قَوْلانِ ورُجِّحَتْ إعادَةُ الأَعْيانِ

● وفي إعادة العرض : ذهب الأكثرون إلى أن العرض يعاد بعين إعادة الجسم ، ومال إليه الأشعري . ولا فرق بين العرض الذي يطول بقاؤه ، كاللون ، وبين غيره ، كالصوت ، وبين ما هو مقـدور للعبد – كالضرب – وبين غيره ، كالعلم . فما كان من الأعراض الملازمة للذات من بياض وطول ونحوه فإنه يعاد متعلقاً بها ، وما كان من غير ذلك – كالكفر والمعاصي والإيمان والطاعة – فإنه يعاد مصوراً بصور حسية ، فتكون حسنة من الحسنات وقبيحة في السيئات ، هذا هو الظاهر . وهذه الإعادة ليست دفعة واحدة بل هي على التدريج حسبما كانت في الدنيا ، لكنها تمر كلمح البصر ، وربك على كل شيء قدير

قال تعالى : «اليَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ، لا ظُلْمَ اليَوْمَ ، إنَّ اللهَ سَرِيعُ الحِسَابِ»[١] ،

والتفويض في مثل هذه المواطن أفضل . وذهب بعض أصحابنا إلى امتناع إعادة العرض مطلقاً ، فقالوا يوجد الجسم بعرض آخر ، إذ لا ينفـك جسم عن عرض ما ، لكن الراجح إعادة الأعراض بأعيانها وهي التي كانت في الدنيا .

(١) غافر ١٧ .

١٠٠ ـ وَفي الزَّمنْ قَولانِ . والحسَابُ
حَقٌّ ، وَمـا في حَقِّ ارْتِيـابُ

● وفي الزمن قولان : الأرجح أن جميع أزمنة الأجسام ـ التي موت عليها في الدنيا ـ تعاد لتشهد للإنسان وعليه ، بما أوقع فيها من الطاعات والآثام ، لكنها إعادة على التدريج حسبما مرت في الدنيا وإن كانت في الآخرة أسرع . ومال بعضهم إلى امتناع إعادة الأزمان لبطلان اجتماع المتنافيات كالماضي والحال والاستقبال . وهذا مدفوع بأن الإعادة تدريجية .

● والحساب حق : أي ثابت بالكتاب والسنة والإجماع . وهو توقيف الله الناس على أعمالهم خيراً كانت أو شراً ، قولاً كان أو فعلاً ، بعد أخذهم كتبها ، ويشمل الحساب المؤمن والكافر من الإنس والجن ، إلا من استثنى الله تعالى منهم ، ففي الحديث أنه ﷺ قال :

« وَعدَني رَبِّي أَنْ يُدخِلَ الجنَّةَ مِنْ أُمتي سبْعينَ أَلفاً ، لا حِسَابَ علَيْهِمْ ولا عذَابَ ، مَع كلِّ ألفٍ سبعُونَ أَلفاً ، وَثَلاثَ حَثَيَاتٍ مِنْ حَثَيَاتِهِ »(١) .

فمن كان أدنى إلى الرحمة أدخل الجنة بلا حساب ، ومن كان من الكافرين ـ أدنى إلى الغضب ـ أدخل النار بلا حساب ، ثم طائفة ثالثة توقف للمحاسبة ، فقد ورد عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت :

سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ : « مَن نُوقِشَ الحسَابَ عُذِّبَ .

(١) رواه الترمذي برقم ٢٤٣٩ ج ٧ .

فَقُلْتُ : أَلَيْسَ يَقُولُ اللهُ : فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً ، وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً ؟ قال : إِنَّمَا ذَلِكَ الْعَرْضُ ، وَلَيْسَ أَحَدٌ يُحَاسَبُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلاَّ هَلَكَ »(١).

وقد اختلف في المراد من توقيف الله الناس على أعمالهم ، فقيل : هو أن يخلق الله تعالى في قلوبهم علوماً ضرورية بمقادير أعمالهم في الثواب والعقاب ، وهذا قول الفخر . وقيل : إن المراد أن يوقفهم بين يديه سبحانه ، ويؤتيهم كتب أعمالهم ، وفيها سيئاتهم وحسناتهم ، وهذا القول منقول عن ابن عباس ، وفيه قصور ، لأن الحساب غير قاصر على هذا المقدار ، إذ ورد أن الكافر ينكر فتشهد عليه جوارحه .

قال تعالى : « وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ حَتَّى إِذَا مَا جَاؤُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ، وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا ؟! قَالُوا : أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ، وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ »(٢).

وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال :

« كُنَّا عند رسول الله ﷺ ، فضحكَ ، فقال : هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي ٢٤٢٨ .
(٢) فصلت ١٩ - ٢١ .

أضحكُ ؟ قلنا : اللهُ ورسولُهُ أعلمُ . قال : من مخاطبةِ العبدِ ربَّه ، فيقولُ : يارب ، ألمْ تُجرني من الظلمِ ؟ يقولُ : بلى ، فيقول : إني لا أُجيزُ اليوم على نفسي شاهداً إلاَّ منّي ، فيقول : كفى بنفسكَ اليومَ عليكَ حسيباً ، والكرامِ الكاتبين شهوداً . قال : فيُختم على فيه ، ويقولُ لأركانه : انطقي ، فتنطقُ بأعمالِه ، ثم يُخلّى بينه وبينَ الكلامِ ، فيقولُ : بُعداً لكُنَّ وسُحقاً ، فعنكُنَّ كنتُ أناضلُ »[1] .

وورد أن الأرض تشهد كذلك ، فمن أبي هريرة رضي الله عنه قال :

قرأ رسولُ اللهِ ﷺ « يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا » قالَ : أتدرُونَ ما أخبارُها ؟ قالوا : اللهُ ورسولُهُ أعلمُ . قالَ : فإنَّ أخبارَها أنْ تشهدَ على كلِّ عبدٍ أو أمةٍ بما عملَ على ظهرِها ، تقولُ : عملَ كذا وكذا يومَ كذا وكذا ، قالَ : فهذهِ أخبارُها »[2] .

وقيل : المراد به أن يكلمهم في شأن أعمالهم وكيفية مالها من الثواب وما عليها من العقاب فيسمعهم كلامه القديم ، وهذا ماتشهد له الأحاديث الصحيحة . فعن علي بن حاتم قال :

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه الترمذي برقم ٢٤٣١ - ج ٧ .

قالَ رسولُ اللهِ ﷺ : « مامِنكُمْ مِنْ أحدٍ إلاّ سيُكلِّمُهُ ربُّه يومَ القيامَةِ ، وَليْسَ بينَهُ وبينَهُ تَرْجمانٌ ، فَينظُرُ أيْمَنَ مِنْهُ فَلا يَرى شَيئاً إلاّ شَيئاً قدَّمَهُ ، ثمَّ يَنظُرُ أشْأمَ مِنْه فَلا يَرى شَيئاً ، إلاّ شَيئاً قدَّمَهُ ، ثمَّ يَنظُرُ تلْقاءَ وَجهِهِ فَتستَقبِلُهُ النّارُ » . قالَ ﷺ : « مَنِ استطاعَ مِنكُمْ أنْ يَقِيَ وَجهَهُ حرَّ النّارِ — وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرةٍ — فَليَفْعَلْ »[1].

ولا يشغله سبحانه محاسبة أحد عن أحد بل يحاسب الناس جميعاً معاً ، حتى أن كل أحد يرى أنه المحاسب وحده وكيفية الحساب مختلفة ، فمنه اليسير والعسير ، والسر والجهر ، والتوبيخ والفضل والعدل ، وحكمته إظهار تفاوت المراتب في الكمال ، وفضائح أهل النقص ، ففيه ترغيب في الحسنات وزجر عن السيئات . ولا ينبغي الشك فيه لأنه حق ، وما في حق ارتياب ، ورد عن صفوان بن محرز قال : قال رجل لابن عمر : كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى (يريد مناجاة الله تعالى للعبد يوم القيامة) ؟ قال : سمعته يقول :

« يُدني المؤمنُ من ربِّهِ يومَ القيامةِ حتى يضعَ عليه كَنَفَهُ فيقرِّرُهُ بذنوبه فيقول : هل تعرف؟ فيقول : أيْ ربِّ أعرفُ . قال : فإني قد سترتُها عليكَ في الدنيا ، وإني أغفرُها لكَ اليومَ ، فيُعطى صحيفةَ حسناته . وأما الكفارُ والمنافقونَ فينادى بهم على رؤوسِ الخلائقِ : هؤلاء الذين كذبوا على الله »[2].

(1) رواه البخاري ومسلم برقم ٢٤١٧ ج ٢ .

(2) رواه الإمام مسلم ، وفي تفسير القرطبي (١٦٥/٧) .

١٠١ - فالسَّيِّئاتُ عِنْدَهُ بالمِثْلِ والحسَنَاتُ ضُوعِفَتْ بالفَضْلِ

● فالسيئات عنده بالمثل : أي يجازي الله على السيئات بعقاب يليق بها ، إن جازى عليها ، وله أن يعفو عنها إن لم تكن كفراً ، ولا يخلد صاحبه في النار ، والسيئة ما يذم فاعلها عليها شرعاً ، صغيرة كانت أو كبيرة . وسميت سيئة لأن فاعلها يساء عند المقابلة عليها يوم القيامة . والمراد بها التي عملها العبد حقيقة ، أو حكماً بأن طرحت عليه الظلامة اجترحها بعد نفاد حسناته ، فإنه يؤخذ من حسنات الظالم ويعطى المظلوم ، فاذا نفدت حسنات الظالم طرح عليه من سيئات المظلوم ، ثم قذف بالظالم في النار . قال أبو هريرة رضي الله عنه :

قالَ رسولُ اللهِ ﷺ : «هلْ تدْرونَ مَنِ المُفْلِسُ؟ قلنا المُفْلِسُ فينا يا رسُولَ اللهِ مَنْ لا دِرْهَمَ لهُ ولاَ دِينار، ولاَ مَتَاعَ . قالَ : المُفلسُ مِنْ أُمَّتي مَنْ يأتي يوْمَ القيامةِ بِصَلاةٍ وصيامٍ وزكاةٍ ، ويأتي وقدْ شتمَ هذا وقذفَ هذا ، وأكلَ مالَ هذا ، وسفكَ دمَ هذا وضربَ هذا ، فيُعطَى هذا مِنْ حسناتِه وهذا مِنْ حسناتِه ، فإنْ فَنِيَتْ حسناتُهُ قبلَ أنْ يَقضيَ ماعليْهِ أُخِذَ مِنْ خطاياهُمْ فَطُرِحتْ عليهِ ، ثمَّ طُرِحَ في النّارِ»[1].

أما الحسنات فيضاعفها الله تعالى بفضله ، إذ لا يجب عليه ذلك . والحسنة

---

(١) رواه مسلم .

ما يمدح فاعلها عليها شرعاً ، وسميت حسنة لحسن وجه صاحبها عند رؤيتها يوم القيامة ، والمراد الحسنات المقبولة المعمولة للعبد أو ما في حكمها بأن عملها عنه غيره كما إذا تصدق غيره عنه بصدقة . أما الحسنات المأخوذة نظير ظلامة فلا تضاعف . والحسنات المردودة ما خالطها الرياء ، فهذه لاثواب فيها أصلاً . والحسنة التي يهم الإنسان بفعلها ولكنه لايفعلها تكتب حسنة واحدة من غير تضعيف . والتضعيف من خصائص هذه الأمة ، أما غيرها من الأمم فحسنتهم بحسنة واحدة . وأقل مراتب التضعيف عشر مراتب ، وقد تضاعف إلى سبعين ، إلى سبعمائة ، أو أكثر من غير انتهاء إلى حد تقف عنده . وتفاوت هذه المراتب إنما هو تبع لما يقترن بالحسنة من إخلاص ، وحسن نية .

١٠٢- وباجتناب الكبائر تغفر صغائر وجا الوضو يكفر

● وباجتناب الكبائر: الكبائر هي الذنوب العظيمة من حيث المؤاخذة بها، والمراد أن باجتناب الكبائر تكفر الذنوب الصغائر، سواء اجتنبها فلم يقترفها أصلاً، أو تاب منها بعد فعلها، قال تعالى: «إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم»[1].

والسيئات هي الصغائر. وقال ﷺ:

«ما من عبد يصلي الصلوات الخمس، ويصوم رمضان، ويخرج الزكاة، ويجتنب الكبائر السبع، إلا فتحت له أبواب الجنة، ثم قيل له: ادخل بسلام».

قال أبو هريرة: خطبنا رسول الله ﷺ فقال:

«والذي نفسي بيده، ثلاث مرات، ثم أكب، فأكب كل رجل منا يبكي لا ندري ماذا حلف عليه، ثم رفع رأسه وفي وجهه البشرى، وكان أحب إلينا من حمر النعم، فقال: الحديث السالف»[2].

والسبع ليست بقيد بل غيرها من الكبائر مثلها. والمراد بها الموبقات

(١) النساء ٣١.

(٢) رواه النسائي والحاكم في مستدركه وابن حبان.

السبع . عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« اجتنبوا السَّبْعَ الموبقات ، قالوا : يارسول الله وما هنّ ؟ قال : الشِّرْكُ بالله ، والسِّحْرُ ، وقتْلُ النفْسِ التي حرّمَ اللهُ إلا بالحقّ ، وأكلُ الرِّبا ، وأكلُ مالِ اليتيم ، والتَّولّي يومَ الزَّحف ، وقذفُ المُحصَناتِ الغافلاتِ المُؤمِنات »(١) .

وفي حديث عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

« الصَّلواتُ الخمْسُ والجُمعةُ إلى الجُمعةِ ورمضانُ إلى رمضان مُكفِّراتٌ لِما بينَهُنَّ ، إذا اجتُنِبَت الكبائرُ »(٢) .

ولكن ذهب أئمة الكلام إلى أن ترتب التكفير على الاجتناب غير قطعي ، وهو الحق ، بخلاف من قال بأنه قطعي ، كالمعتزلة وجماعة من الفقهاء والمحدثين . وغفران الذنب هو عدم المؤاخذة به إما بستره عن أعين الملائكة مع بقائه في الصحيفة ، وإما بمحوه . وحكى بعضهم : أن الستر هو الصحيح عند المحققين .

● وجا الوضوء يكفر(٣) : وقد جاء في السنة أن الوضوء يكفر الذنوب .

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

« ألا أدُلُّكُم على ما يَمحو اللهُ بِهِ الخطايا ويَرفعُ بِهِ الدَّرجات ؟ قالوا : بَلى يارسول الله . قال : إسباغُ الوُضوءِ على المَكارِه ،

---

(١) رواه البخاري ومسلم ، وفي هداية الباري ص ١٩ جزء ١ .

(٢) رواه مسلم ، وفي رياض الصالحين برقم ١٣٠ .

(٣) حذفت الهمزة من لفظة « جاء » ولفظة « الوضوء » لضرورة الوزن

وكَثْرةُ الخطا إلى المساجدِ ، وانتظارُ الصَّلاةِ بَعْدَ الصَّلاةِ ، فذلكُمُ الرِّباطُ »[1].

وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال :

قال رسولُ اللهِ ﷺ : « مَنْ تَوضَّأ فأحسنَ الوُضوءَ خرجَتْ خطاياهُ ، حتَّى تخرُجَ مِنْ تحتِ أظفارِهِ »[2].

وفي الحديث أيضاً ، عن عثمان أنه ﷺ قال :

« مَنْ توضَّأ نحوَ وُضُوئي هذا ثمَّ صلَّى رَكعتَيْنِ لايُحدِّثُ فيهما نفسَهُ غُفِرَ لهُ ماتقدَّمَ من ذنبِه »[3].

يعني لايحدث نفسه بسوء ، والتكفير غير متوقف على الصلاة لأن ذكرها – هنا – إنما هو للترغيب في سنة الوضوء ليزيد ثوابه ، فعن عثمان رضي الله عنه قال :

« رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ توضَّأ مثلَ وُضوئي هذا ثمَّ قالَ : مَنْ توضَّأ هكذا غُفِرَ لَهُ ماتقدَّمَ مِنْ ذنبِهِ ، وكانَتْ صلاتُه ومَشْيُهُ إلى المسجدِ نافلةً »[4].

---

(١) رواه الإمام مسلم وفي رياض الصالحين برقم ١٣١

(٢) رواه الإمام مسلم ، وفي رياض الصالحين برقم ١٠٢٤ .

(٣) رواه الإمام مسلم . والبخاري وفي هداية الباري ص٢١٢ ج٢ قال الشارح : إنما أراد تحديث النفس بشيء من متعلقات الدنيا .

(٤) رواه الإمام مسلم .

والحاصل أن التكفير غير مقصور على اجتناب الكبائر بل يحصل بالوضوء والصلوات والصوم والحج المبرور . والذنوب كالأمراض ، والطاعات كالأدوية ، فلكل ذنب طاعة تكفره ، كما أن لكل داء دواء ينجع فيه ، كما يدل له حديث

« إنَّ مِنَ الذنوبِ ذنوباً لايكفِّرُها صومٌ ولا صلاةٌ ولا جهادٌ وإنما يُكفِّرُها السَّعيُ على العيالِ » .

فلا يرد أنه إذا كفر الوضوء الصغائر فلا يبقى للصيام وغيره ما يكفر . هذا في الذنوب المتعلقة بحق الله تعالى . أما مايتعلق بحقوق الآدميين فلا بد فيها من المقاصة بأن يؤخذ من حسنات الظالم فتعطى للمظلوم .

لكن ورد عن أنس بن مالك مرفوعاً :

« من تَلَا "قُلْ هُوَ اللهُ أحدٌ" مائةَ ألفِ مرَّةٍ ، فقد اشترى نفسَهُ منَ اللهِ ، ونادى مُنادٍ منْ قِبَلِ اللهِ تعـالى في سَمواتهِ وفي أرضهِ : ألا إنَّ فلاناً عَتيقُ اللهِ ، فمنْ لهُ قِبَلَهُ تَبِعةٌ فليأخذْها منَ اللهِ عزَّ وجلَّ »[1] .

فهذه هي العتاقة الكبرى إذ تشمل الكبائر أيضاً . ومن جملة المكفرات الغزو ، فقد ورد « أن الغزو في البر يكفرها إلا التبعات ، وفي البحر يكفرها حتى التبعات » . فعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ :

« يَغفرُ اللهُ للشَّهيدِ كلَّ شيءٍ إلا الدَّيْنَ »[2] ، وعن أبي قتادة

(١) أخرجه البزار .

(٢) رواه مسلم ، وفي الرياض الصالحين ١٣٠٩ .

أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قامَ فيهمْ فذكرَ أنَّ الجهادَ في سبيلِ اللهِ والإيمانَ باللهِ أفضلُ الأعمالِ . فقامَ رجلٌ فقالَ يارسولَ اللهِ ، أرأيتَ إنْ قُتلتُ في سبيلِ اللهِ تُكفَّرُ عني خطاياي؟ فقالَ رسولُ اللهِ : نعمْ إنْ قُتلتَ في سبيلِ اللهِ وأنتَ صابرٌ محتسبٌ مُقبلٌ غيرُ مُدبرٍ ، ثم قال رسول الله ﷺ : كيف قُلْتَ ؟ قال: أرأيتَ إن قُتِلتُ في سبيل الله أتُكفرُ عني خطاياي؟ فقال رسول ﷺ : نعم وأنت صابرٌ محتسبٌ ، مقبلٌ غيرَ مدبرٍ ، إلاَّ الدَّينَ ، فإنَّ جبريلَ قالَ لي ذلكَ »[1]

وعن عمران بن حصين قال :

« قالَ رسولُ اللهِ ﷺ : مَنْ غزا في سبيلِ اللهِ غزوةً في البحرِ - واللهُ أعلمُ بمَنْ يَغزو في سبيلهِ - فقدْ أدّى إلى اللهِ طاعتَهُ كلَّها ، وطلبَ الجنةَ كلَّ مَطلبٍ ، وهربَ منَ النّارِ كلَّ مَهربٍ »[2] .

(١) رواه الإمام مسلم .
(٢) رواه الطبراني في معاجمه الثلاث .

١٠٣ - واليومُ الآخِرُ ثمَّ هَولُ المَوْقِفِ
حَقٌّ فَخَفِّفْ يارَحِيمُ واسْعِفِ

● واليوم الآخر : إن أول اليوم الآخر من وقت الحشر إلى مالا يتناهى على الصحيح ، وقيل حتى يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار . وإنما سمي آخراً لأنه متصل بآخر أيام الدنيا لا لأنه آخرها ، وسمي يوم القيامة لقيام الناس فيه من قبورهم بين يديْ خالقهم ، ولقيام الحجة لهم أو عليهم . وله أسماء نحو الثلاثمائة . واليوم الآخر حق مثل الهول الحاصل فيه وإن الناس ينالهم من الشدائد في الموقف الشيء الكثير . فطوله ألف سنة ، وقيل : خمسون ألفاً[1] ، ولا تنافي لأن العدد لا مفهوم له ، فيطول على الكفار ، قال الحسن : مقداره خمسين ألف سنة ، لا يأكلون فيها أكلة ولا يشربون فيها شربة حتى إذا انقطعت أعناقهم عطشاً واحترقت أجوافهم جوعاً ، انصرف بهم إلى النار فسقوا من عين آنية ، قد آن حرها ، واشتد لفحها ، فلما بلغ المجهود منهم مالا طاقة لهم به كلم بعضهم بعضاً في طلب من يكرم على مولاه ليشفع في حقهم ، فلم يتعلقوا بنبي إلا دفعهم . ويتوسط على الفساق . ويخفف على الطائعين حتى يكون كصلاة ركعتين ، فقد روى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « يَهُونُ ذَلِكَ على المُؤمِنِ كَتَدَلِّي الشمسِ للغُروبِ إلى أنْ تَغرُبَ »[2] .

(١) قال عبد الله بن عمرو تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية : « يوم يقوم الناس لرب العالمين » ثم قال : « كيف بكم إذا جمعكم الله كما تجمع النبل في الكنانة خمسين ألف سنة لا ينظر إليكم . رواه الطبراني في الكبير .

(٢) أخرجه أبو يعلى .

وروي أيضاً بلفظ :

« إنَّ اللهَ لَيُخَفِّفُ على مَنْ يشاءُ من عبادِه طُولَهُ كَوَقْتِ صَلاةٍ مَفروضةٍ »[1].

وفيه يلجم النـــاس بالعرق الذي هو أنتن من الجيفة فيبلغ آذانهم ويذهب في الأرض سبعين ذراعاً . ففي حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال :

« يَعرَقُ النَّاسُ يومَ القيامةِ حتى يَذهبَ عرَقُهُمْ في الأرضِ سَبعينَ ذراعاً ، ويُلجِمُهُم حتى يَبلُغَ آذانَهُم »[2].

والناس في العرق على قدر أعمالهم ، ففي الحديث :

« تُدنَى الشَّمسُ يومَ القيامةِ مِنَ الخَلْقِ حتى تَكونَ منهُمْ كَمِقْدارِ مِيلٍ فيَكونُ النَّاسُ على قَدْرِ أعمالِهِمْ في العَرَقِ ، فمِنهُمْ مَنْ يَكونُ إلى كَعْبَيْهِ ، ومِنهُمْ مَنْ يَكونُ إلى رُكْبَتَيْهِ ، ومِنهُمْ مَنْ يَكونُ إلى حِقْوَيْهِ ، ومِنهُمْ مَنْ يُلجِمُهُ العَرَقُ إلجاماً ، وأشارَ ﷺ بيَدِهِ إلى فِيهِ »[3].

وفيه سؤال الملائكة لهم عن أعمالهم وتفريطهم فيها :

قال تعالى : ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ ﴾[4].

---

(١) أخرجه البيهقي .

(٢) متفق عليه وفي رياض الصالحين برقم ٤٠٢ .

(٣) رواه مسلم عن المقداد وفي رياض الصالحين برقم ٤٠١ .

(٤) الصافات ٢٤ .

وفيه شهادة الألسنة والأيدي والأرجل والسمع والجلد والأرض والليل والنهار والحفظة . أما الأنبياء والأولياء وسائر الصلحاء فهم عن كل هذا مبعدون .

قال تعالى فيهم : « لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ »[1] .

فهم آمنون من عذاب الله تعالى ، لكنهم يخافون خوف إجلال وإعظام .

● ويجب الإيمان بعلامات اليوم الآخر المتواترة ، فهي حق ثابت كثبوت اليوم الآخر ، وعلاماته الصغرى ، منها ماقد وقع ، ومنها مالم يقع . وأما الكبرى فهي عشر علامات :قال حذيفة بن أسيد الغفاري : « أَطلعَ النبيُّ ﷺ علينا ونحنُ نتذاكرُ ، فقـال : ماتذاكرونَ ؟ قالوا : نذكرُ الساعةَ ، قالَ : إنها لنْ تقومَ حتى تروْا قبلَها عشرَ آياتٍ ، فذكرَ الدُّخانَ[2] .

---

(١) أنبياء ١٠٣ .

(٢) قال الصحابي الجليل عبد الله بن عمر : « يخرج الدخان فيأخذ المؤمن كهيأة الزكام ، ويدخل في مسامع الكافر والمنافق حتى يكون كالرأس الحنيذ . أي كالرأس المشوي على الجمر . رواه ابن جرير في تفسيره . وقد جاء تفسير (الدخان) بهذا المعنى عن عدد من أجلاء الصحابة . رفعه بعضهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كأبي سعيد الخدري ، وأبي مالك الأشعري ، ووقفه بعضهم ولم يرفعه كعلي بن أبي طالب وعبد الله بن عباس . وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره بعد أن ذكر تفسيره مسنداً إلى ابن عباس : وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس رضي الله عنهما حبر الأمة، ترجمان القرآن ، وهذا قول من وافقه من الصحابة والتابعين ، مع الأحاديث المرفوعة من الصحاح والحسان وغيرها مما فيه مقنع ودلالة ظاهرة على أن الدخان من الآيات المنتظرة مع أنه ظاهر القرآن ، قال الله تبارك وتعالى : « فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين » أي بين واضح يراه كل أحد (يغشى الناس) أي يتغشاهم ويعمهم.

والدّجّال[1].

---

(١) - الدجال : فعال من الدجل . وهو التغطية . وسمي دجالاً لأنه يغطي الحق بباطله . ويسمى : المسيح الدجال؛ ومسيح الضلالة ، لأنه ممسوح العين ، أو لأنه يمسح الأرض ، أي يقطعها في المدة القليلة . والدجال المتحدث عنه - هنا - قد تواترت الأحاديث الصحيحة بخروجه ، حتى أصبح خروجه من اليقينيات المقطوع بها وقد جاء في تنبيهات العلامة السفاريني مايلي : التنبيه الثالث : ومما ينبغي لكل عالم أن يبث أحاديث الدجال بين الأولاد والنساء والرجال . وقد قال الإمام ابن ماجه : سمعت الطنافسي يقول : سمعت المحاربي يقول : ينبغي أن يدفع هذا الحديث - أي حديث الدجال - إلى المؤدب حتى يعلمه الصبيان في الكتاب ، وقد ورد أن علامات خروجه نسيان ذكره على المنابر . وقد أخرج الإمام أحمد وابن خزيمة وأبو يعلى والحاكم عن جابر بن عبد الله مرفوعاً : « يخرج الدجال في خفة من الدين ، وإدبار من العلم » وعن ابن عباس موقوفاً قال : أول من يتبعه - أي الدجال - سبعون ألفاً من اليهود عليهم السيجان (جمع ساج وهو الطيلسان الضخم الغليظ) ومعه سحرة اليهود يعملون العجائب ويرونها الناس فيضلونهم بها ، وهو أعور ، ممسوح العين اليمنى يسلطه الله على رجل من هذه الأمة فيقتله ثم يضربه فيحييه، ثم لا يصل إلى قتله ، ولا يسلط على غيره وتكون آية خروجه ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتهاوناً بالدماء . وإذا ضيعوا الحكم ،وأكلوا الربا ، وشيدوا البنيان (أي للتباهي) وشربوا الخمور واتخذوا القيان ، ولبسوا الحرير وأظهروا بزة آل فرعون (أي تكون عليهم هيئة المتكبرين) ونقضوا العهد ، وتفقهوا لغير الدين ، وزينوا المساجد ، وخربوا القلوب ، وقطعوا الأرحام ، وكثرت القراء (أي العلماء الزائفون) وقلت الفقهاء ، وعطلت الحدود ، وتشبه الرجال بالنساء والنساء بالرجال ، وتكافى الرجال بالرجال ، والنساء بالنساء (أي استغنى كل جنس منهم بجنسه فاحشة) بعث الله عليهم الدجال ، فتسلط عليهم حتى ينتقم منهم، وينحاز المؤمنون إلى بيت المقدس. والدجال هذا آخر ثلاثين دجالاً يخرجون قبله . عن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الرسول قال : « ... وانه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي ، وأنا خاتم النبيين ، لا نبي بعدي » رواه أبو داوود والترمذي . وعن سمرة بن جندب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لاتقوم الساعة حتى يخرج ثلاثون كذاباً آخرهم =

ـالأعور الدجال » رواه الإمام أحمد والطبراني . وقد بين سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصاف هـذا الدجال وأحواله وأفعاله ونهايته بأوفى بيان . فقـد روى الصحابي الجليل أبو سعيد الخدري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « إنه ـ أي الدجال ـ يهودي، وإنه لايولدله ولد ، ولا يدخل المدينة ولا مكة » رواه الإمـام مسلم. « وإن عينه اليمنى عوراء جاحظة لا تخفى ، كأنها نخاعة في حـائط مجصص وعينه اليسرى كأنها كوكب دري ، معه من كل لسان ، ومعه صورة الجنة خضراء يجري فيها الماء ، وصورة النـار سوداء » رواه الإمام أحمد . « وبين يديه رجلان ينذران أهل القرى ، كلما خرجـا من قرية دخل أوائله فيها » رواه أبو يعلى والبزار . « وسيكون خروجـه من قبل المشرق جزماً ، وجاء في رواية أنـه يخرج من خراسان » أخرج ذلك الإمام أحمد والحاكم . وأخرج الإمام مسلم في روايته أنه يخرج من أصبهان . ويخرج أولاً فيـدعي الإيمان والصلاح ثم يدعي النبوة ، ثم يدعي الألوهية ، مكتوب بين عينيه كافر ، يدور في جميع أنحاء العالم إلا مكة والمدينة يحرس الملائكة أبوابها ، ولا يستطيع الدجال أن يدخلها ، فيقيم حيث تلتقي السبخة من الظريب الأحمر بعدما تدفعه الملائكة من الحرمين .

ويأخـذ أرض المدينة زلازل تخرج المنافقين منهـا ، ويلتحقون رجالاً ونساء به ، يكون معه نهران يقول لأحدهما ، إنه جنة ، ولثانيهما إنه نار ، فمن أدخل الذي يسميه الجنة فهو النار . ومن أدخل الذي يسميه النار فهو الجنة . ويكون في زمنه يوم كالسنة ويوم كالشهر وآخر كالأسبوع ، ثم سائر أيامه كالأيام العادية. ويكون معه شياطين تكلم الناس. ومن أحواله أنه يأمر السحاب فيمطر ، والأرض فتجدب ، ويبرىء الأكمه والأبرص ، ويأمر كنوز الأرض فتخرج فتتبعـه ، ويقتل شاباً ويقطعه بالسيف نصفين ثم يدعوه فيأتي حيا ضاحكاً ، يكون معه سبعون ألف يهودي كلهم ذو سيف محلى وساج، ويفترق الناس ثلاث فرق : فرقة تتبعـه ، وفرقة تلحق بأرض آبائها ، وفرقة تقاتله على شاطىء الفرات ، ويجتمع المسلمون بقرى الشام فيبعثون إليه طليعة يكون فيها فارس على فرس أشقر أو أبلق فيقتلون ولا يرجع منهم أحد ، وحينما ينظر الدجال إلى المسيح عليه السلام يذوب كما يذوب الملح في الماء وحينئذ ينهزم جميع اليهود .

وَالدَّابَّةِ[1].

وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا[1]. وَنُزُولَ عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ[2].

---

(١) الدابة هي المعنية بقوله تعالى في سورة النمل: « وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون». قال الحافظ ابن كثير في تفسيره: هذه الدابة تخرج في آخر الزمان عند فساد الناس، وتركهم أوامر الله وتبديلهم الدين الحق، فيخرج الله لهم دابة من الأرض فتكلم الناس على ذلك. قال الآلوسي في « روح المعاني »: أي تكلمهم بأنهم لا يتيقنون بآيات الله تعالى الناطقة بمجيء الساعة، ومباديها، أو بجميع آياته التي من جملتها تلك الآيات. وقصارى ما أقول في هذه الدابة أنها دابة عظيمة ذات قوائم ليست من نوع الإنسان أصلاً، يخرجها الله تعالى آخر الزمان من الأرض، وتخرج وفي الناس مؤمن وكافر. عن أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: تخرج الدابة ومعها خاتم سليمان بن داود، وعصى موسى بن عمران عليهما السلام، فتجلو وجه المؤمن — أي تنوره — بالعصا، وتخطم أنف الكافر — أي تجعل عليه علامة — بالخاتم، حتى أن أهل الخوان — أي أهل الحي الذين يجمعهم ما يستقون منه — ليجتمعون فيقول هذا: يامؤمن، ويقول هذا يا كافر. رواه أحمد والترمذي وابن ماجه. ثم قال الآلوسي: وهذا الخبر أقرب الأخبار المذكورة في الدابة للقبول، واختلف في وقت خروجها على قولين أولهما: أنه قبل طلوع الشمس من مغربها، ذكره الإمام القرطبي في تذكرته، والثاني أنه بعد طلوع الشمس من مغربها. قال الحافظ ابن حجر: والحكمة في ذلك — أي في خروجها بعد طلوع الشمس من مغربها — أن عند طلوع الشمس من المغرب يغلق باب التوبة فتخرج الدابة تميز المؤمن من الكافر تكميلاً للمقصود من إغلاق باب التوبة

(١) روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت فرآها الناس آمنوا أجمعون فذلك « حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً »، ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته — أي ناقته — فلا يطعمه، ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه — أي يطينه — فلا يسقي فيه، ولتقومن الساعة وقد رفع أحدكم أكلته إلى فيه فلا يطعمها ».

(٢) عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: « وإن من أهل الكتاب =

= إلا ليؤمنن به قبل موته » قال : خروج عيسى بن مريم . أخرجه الحاكم وصححه وأخرج ابن جرير عنه أنه قال : يعني أنه سيدرك أناس من أهل الكتاب حين يبعث عيسى فيؤمنون به . وقال قتادة فيها : إذا نزل آمنت به الأديان كلها ، ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً أنه قد بلغ رسالة ربه وأقر على نفسه بالعبودية وقال ابن زيد : إذا نزل عيسى عليه السلام فقتل الدجال ، لم يبق يهودي في الأرض إلا آمن به . وقال الحسن البصري في الآية : قبل موت عيسى ، والله إنه الآن لحي عند الله ، ولكن إذا نزل آمنوا به أجمعون ، وسأله رجل مرة عن هذه الآية يقال : قبل موت عيسى ، إن الله رفع إليه عيسى وهو باعثه قبل يوم القيامة مقاماً يؤمن به البر والفاجر . وقال ابن عباس في قوله تعالى « وإنه لعلم للساعة » : خروج عيسى عليه السلام قبل يوم القيامة ، وقال الحسن البصري : نزول عيسى ، وقال قتادة : نزول عيسى عليه السلام علم للساعة ، وناس يقولون : إن القرآن علم للساعة . ورد ابن كثير كون الضمير في « إنه » عائداً على القرآن ، إذ لا ذكر للقرآن في الآية ، وقال : بل الصحيح أن الضمير في « وإنه » عائد على عيسى عليه الصلاة والسلام فإن السياق في ذكره . وينزل عيسى عليه الصلاة والسلام واضعاً يديه على أجنحة ملكين وفي يده حربة يقتل بها الدجال ، فلا يجد كافر ريح نفسه إلا ويموت ، ويبلغ نفسه إلى ما يبلغ طرفه ، وينزل في الشام ، في الجانب الشرقي من دمشق ، عند المنارة البيضاء ، عند صلاة الفجر وتكون جماعة من المسلمين بقودهم المهدي مجتمعة لقتال الدجال ، وعددهم حينئذ يبلغ إلى ثمانمائة رجل وأربعمائة امرأة ، كلهم يسوي الصفوف عندما ينزل عيسى عليه السلام ويؤمهم الإمام المهدي إلا أنه يدعو عيسى عليه السلام لإمامة الصلاة بالناس فيأبى ، وحينما يريد الإمام المهدي أن يتخلف يضع عيسى عليه السلام يده على ظهره ولا يرضى إلا أن يكون المهدي إماماً ، ثم يصلي المهدي بهم ويمكث عيسى عليه الصلاة والسلام في الدنيا بعد نزوله أربعين سنة ويتزوج بامرأة من قوم شعيب ، فيولد له بعد نزوله أولاد . ويكسر الصليب ويستأصل عبادته ولا يبقى في الدنيا من النصرانية شيء . ويقتل الخنازير ، ويفتح باب المسجد بعد الفراغ من الصلاة فيرى وراءه الدجال وقوماً من اليهود فيقاتلهم ويقتل الدجال في أرض فلسطين عند باب لد ، ثم =

= يكون بعد نزوله جميع الناس مسلمين ، ويقتل ما بقي من اليهود حتى لا يجد يهودي ملجأ فتشهد الحجارة والأشجار على أن وراءها يهودياً ، وتدرس حينئذ جميع المذاهب سوى الإسلام ، ولا يبقى حكم الجهاد ، إذ لا يبقى أحد من الكفار ؛ ومن أجل ذلك لا يبقى حكم الجزية ، ويعم عليه السلام الناس بالمال حتى لا يبقى على وجه الأرض من يقبل الصدقات . ويحج أو يعتمر ، أو يؤدي كلا النسكين ويسافر إلى روضة سيد الأنبياء صلى الله عليه وسلم ، ويرد على سلامه سيد الأنبياء صلى الله عليه وسلم . ومذهبه الذي يدعو إليه الناس : عمله بالقرآن والسنة ، وحثه الناس عليها . ويخرج الحقد والضغينة من أفئدة الناس ، وتنزل بركات دينية ودنيوية حتى يكون الزمان في زمانه الواحدة منه فتكفي جماعة من الناس ، ويكفي لبن الناقة الواحدة جماعة من الناس ، وتنزع الحمة من كل ذي حمة حتى يدخل الوليد يده في فم الحية فلا تضره ، ويكون الذئب مع الغنم كأنه كلبها . وقبيل وفاته عليه السلام يأمر بأن يستخلفوا بعده رجلاً من بني تميم « اسمه المقعد » . ثم يتوفاه الله تعالى ويدفن في روضة النبي صلى الله عليه وسلم بجانب أبي بكر وعمر . وقد قال الشيخ الإمام محمد الزاهد الكوثري رحمه الله في كتابه « نظرة عابرة في مزاعم من ينكر نزول عيسى عليه السلام قبل الآخرة » (ص ٣٦) : بعد أن استوفى تفسير الآيات الدالة على نزول عيسى عليه السلام (فظهر مما سبق أن نصوص القرآن الكريم وحدها تحتم القول برفع عيسى حياً ، وبنزوله في آخر الزمان ، حيث لا اعتداد باحتمالات خيالية لم تنشأ من دليل ، كيف والأحاديث قد تواترت في ذلك ، واستمرت الأمة خلفاً عن سلف على الأخذ بها ، وتدوين موجبها في كتب الاعتقاد من أقدم العصور إلى اليوم فاذا بعد الحق إلا الضلال ؟ وقال في صفحة (٤٩) : وأما تواتر أحاديث المهدي والدجال والمسيح فليس بموضع ريبة عند أهل العلم بالحديث . وتشكك بعض المتكلمين في تواتر بعضها ـ مع اعترافهم بوجوب اعتقاد أن أشراط الساعة كلها حق ـ فن قلة خبرتهم بالحديث . وقد نقل العلامة أبو عبد الله الأبي في شرحه على صحيح مسلم (٢٦٥/١) قول الإمام الفقيه أبي الوليد بن رشد : « ... ولا بد من نزول عيسى عليه السلام لتواتر الأحاديث بذلك . وفي العتبية » . كان أبو هريرة يلقى الفتى الشاب فيقول : يا ابن أخي إنك عسى أن=

ويأجوجَ ومأجوجَ[1] .

= تلقى عيسى بن مريم فأقرئه مني السلام . ونقل الإمام أبو حيان في تفسيره « البحر المحيط » في سورة آل عمران قول الإمام المفسر بن عطية القرطبي : وأجمعت الأمة على ما تضمنه الحديث المتواتر من أن عيسى في السماء حي ، وأنه ينزل في آخر الزمان فيقتل الخنزير ويكسر الصليب ، ويقتل الدجال ، ويفيض العدل ، وتظهر به ملة محمد صلى الله عليه وسلم ، ويحج البيت ويعتمر ، اهـ) .

(١) كل واحد من هذين اللفظين : « يأجوج ومأجوج » اسم لقبيلة من الناس ، وما يقال في خلقتهم وصفاتهم مما يخيل إلى سامعه أنهم ليسوا من طبيعة البشر ، ولا على خلقة الناس ، كذب لا أصل له . قال الحافظ بن كثير في تفسيره : هم من سلالة آدم عليه السلام كما ثبت في الصحيحين . وما يذكر في الأثر عن وهب بن منبه في أشكالهم وصفاتهم وآذانهم وطولهم وقصر بعضهم ففيه غرابة ونكارة . وقد اتفقت كلمة القرآن الكريم والحديث الشريف على كثرتهم وشدة إفسادهم كما هو صريح الحديث من أنه صلى الله عليه وسلم قال : « ... ويبعث الله يأجوج ومأجوج ، وهم من كل حدب ينسلون ، فيمر أوائلهم على بحيرة طبريا فيشربون ما فيها ، ويمر آخرهم فيقولون : لقد كان بهذه مرة ماء . ويحصر نبي الله عيسى عليه السلام وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيراً من مائة دينار لأحدكم اليوم ، فيرغب نبي الله عيسى عليه السلام وأصحابه إلى الله تعالى ، فيرسل الله عليهم النغف في رقابهم ، فيصبحون فرسى كموت نفس واحدة ثم يهبط نبي الله عيسى عليه السلام وأصحابه إلى الأرض ، فلا يجدون فيه موضع شبر إلا ملأه زهمهم ونتنهم . فيرغب نبي الله عيسى عليه السلام وأصحابه إلى الله ، فيرسل الله طيراً كأعناق البخت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله ثم يرسل الله مطراً لا يكن منه بيت مدر ولا وبر ، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلفة » رواه الإمام مسلم من حديث طويل . والنغف : دود يكون في أنوف الإبل والغنم . وفرسى : أي موتى . وفي الكلمتين : النغف وفرسى إشارة إلى أن الله سبحانه يهلكهم في أدنى ساعة بأهون شيء ، وهو النغف ، فيفرسهم فرس السبع فريسته بعد أن طارت نعرة - أي كبرياء - البغي في رؤوسهم . والزلفة : المرآة في صفائها ونظافتها . وروى الإمام أحمد من حديث أبي سعيد الخدري قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم : تفتح يأجوج ومأجوج ، فيخرجون على الناس كما قال الله عز وجل (وهم من كل حدب ينسلون) فيغشون الناس وينحاز المسلمون =

وثلاثةُ خُسوفٍ : خَسفٌ بالمَشرِقِ ، وخَسفٌ بالمَغرِبِ ، وخَسفٌ بجزيرةِ العرَبِ . وآخِرُ ذلكَ نارٌ تَخرُجُ منَ اليَمَنِ، تَطرُدُ الناسَ إلى مَحشَرِهِم »[(١)] .

منهم إلى مدائنهم وحصونهم ، ويضمون إليهم مواشيهم . ويشربون مياه الأرض حتى أن بعضهم ليمر بالنهر فيشربون ما فيه حتى يتركوه يبساً حتى أن من بعدهم ليمر بذلك النهر فيقول : « قد كان ههنا مرة ماء ... » ، وقد أفصح القرآن الكريم عن هذا أيضاً فقال تعالى : « حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولاً . قالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض » . قال الحافظ ابن كثير في تفسيره : وقال السدي في قوله تعالى « وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض » ذاك حين يخرجون على الناس . وهـذا كله قبل يوم القيامة وبعد الدجال ، كما سيأتي بيانه عند قوله تعالى : « حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون ، واقترب الوعد الحق » وعند هذه الآية قال : وهذه صفتهم في حال خروجهم كأن السامع مشاهد لذلك ولا ينبئك مثل خبير . رأى ابن عباس صبياناً ينزو – يثب – بعضهم على بعض يلعبون ، فقال : هكذا يخرج يأجوج ومأجوج .

(١) الحديث بطوله رواه الإمام مسلم والترمذي وأبو داود . وأما قوله صلى الله عليه وسلم : نار تخرج من اليمن فهي النار التي تسوقُ الناس إلى مكان حشرهم ، وهو أرض الشام . وروى الترمذي والإمام أحمد عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ستخرج نار من حضرموت قبل يوم القيامة تحشر الناس قلنا : يارسول الله ، فما تأمرنا ؟ قال عليكم بالشام . وروى البخاري عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أول أشراط الساعة نار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب . وقال الحافظ ابن حجر في الجمع بين أخبار هـذه النار . إن ابتداء خروجها من قعر عدن ، فإذا ما خرجت

● ومنها رفع القرآن من المصاحف والصدور وخراب الكعبة بعد موت عيسى على يد الحبشة ، ورجوع أهل الأرض كلهم كفاراً . والحاصل أن العلامات الكبرى متتابعة ، فما أن تظهر واحدة حتى تتبعها بقية العلامات الأخر ، وقد ورد عن عبد الله بن عمرو رفعه :

« الآياتُ ــ أي العلامات الكبرى لقيام الساعة ــ خرزاتٌ منظوماتٌ في سلكٍ ، إذا انقطعَ السِّلكُ تَبِـعَ بعضُها بعضاً »[1].

= انتشرت في الأرض كلها . والمقصود بقوله : تحشر الناس من المشرق إلى المغرب إنما هو إرادة تعميم الحشر لا خصوص المشرق والمغرب . وروى البخاري في صحيحه والإمام مسلم عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : يحشر الناس ــ أي إلى الشام قبل قيام الساعة وهم أحياء ــ على ثلاث طرائق ــ أي على ثلاث أحوال ــ راغبين وراهبين ، واثنان على بعير ، وثلاثة على بعير ، وأربعة على بعير ، وعشرة على بعير ــ أي أنهم يتعاقبون على ركوب البعير الواحد ، فيركب بعضهم ويمشي بعضهم ــ وتحشر بقيتهم النار ، تقيل معهم حيث قالوا وتبيت معهم حيث باتوا وتصبح معهم حيث أصبحوا ، وتمسي معهم حيث أمسوا ــ أي تلازمهم كل الملازمة إلى أن يصلوا إلى مكان الحشر ــ . عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ينزل عيسى بن مريم فيقتل الدجال ، ويمكث أربعين عاماً يعمل فيهم بكتاب الله وسنتي ، يموت فيستخلفون بأمر عيسى رجلاً من تميم يقال له « المقعد » فإذا مات المقعد لم يأت على الناس ثلاث سنين حتى يرفع القرآن من صدور الرجال ومصاحفهم » . أخرجه الشيخ ابن حبان في كتاب الفتن والسيوطي في الحاوي .

(١) أخرجه الإمام أحمد ونعيم بن حماد . وقال الطيبي ، ونقله عنه الحافظ بن حجر في فتح الباري : وقد جاءت العلامات العشر هنا معطوفاً بينها بالواو لمطلق الجمع ولا تفيد أنها ستقع بالترتيب المذكور هنا .

١٠٤- وَوَاجِبٌ أَخْذُ العِبَادِ الصُّحُفَا كَمَا مِنَ القُرْآنِ نَصًّا عُرِفَا

● ووأجب أخذ العباد الصُّحُفَا : إن أخذ الصحف واجب لوروده بالكتاب والسنة ولانعقاد الإجماع عليه ، فمن أنكره كفر ، والصحف هي الكتب التي كتبت فيها الملائكة مافعله العباد في الدنيا ، ولكل مكلف صحيفة واحدة يوم القيامة ، وإن كانت متعددة في الدنيا كما يدل عليه حديث :-

« مامِنْ مُؤْمِنٍ إلاَّ وَلَهُ كُلَّ يَوْمٍ صَحِيفَةٌ ، فإذا طُوِيَتْ وليسَ فيها استِغفارٌ ، طُوِيَتْ وهِيَ سَوْدَاءُ مُظْلِمَةٌ ، وإذا طُوِيَتْ وفيها اسْتِغفارٌ ، طُوِيَتْ ولَها نُورٌ يَتَلأْلأُ » .

فقيل : تنسخ كلها في صحيفة واحدة . وظواهر الآيات والأحاديث شاهدة بعمومه لجميع الأمم ماخلا الأنبياء والملائكة والداخلين إلى الجنة بغير حساب ، ورئيسهم أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه ، كما أنه لا ميزان لهم كذلك ، لأن الميزان فرع من الحساب . وورد أن كل أحد يدعى فيعطى كتابه ، وورد أن الريح تطير الصحف من خزانة تحت العرش فلا تخطىء صحيفة عنق صاحبها ، فحمل هذا على تعلق الصحف بالأعناق بالريح ، والخبر الثاني على أن الملائكة تنادي كل واحد وصحيفته في عنقه ، فتنزع الصحيفة منه ثم تعطيه إياها في يده . فالمؤمن المطيع يأخذها بيمينه ، والكافر بشماله من وراء ظهره ، والمؤمن من الفاسق – جزم الماوردي – بأنه يأخذ صحيفته بيمينه ، وقال : هو المشهور ، ثم قال بالوقف ، وأنه لاطائل بأنه يأخذه بشماله . وأول من يعطى كتابه بيمينه ، مطلقاً عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وبعده أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد . وأول آخذ له بشماله أخوه الأسود بن عبد الأسد

لأنه أول المبادرين النبي ﷺ الحرب يوم بدر . وروى أنه يمد يده ليأخذه بيمينه فيجذبه الملك فيخلع يده ، فيأخذه بشماله من وراء ظهره.

وقد جاء أخذ الصحف منصوصاً عليه في قوله تعالى :

« فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ، إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ، فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ، فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ، قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ، كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ، وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ : يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ، وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ »(1).

فالأول جازم بالبقاء ، فرح بالإعطاء والثاني مبلس متحسر . وظاهر كلامهم أن القراءة حقيقة ، وهو الراجح . وقيل : مجاز عن علم كل أحد بما له وما عليه ، لكن من الآخذين من لم يقرأ كتابه ذهولاً ودهشة لما فيه من قبائح ، والمؤمن يأتيه كتابه أبيض بكتابة بيضاء ، فيأخذه بيمينه فيقرؤه فيبيض وجهه ، والكافر يأتيه أسود فيسود وجهه بعد قراءته .

(1) الحاقة : ١٩ وما بعدها .

١٠٥- وَمِثْلُ هذا الوَزْنِ وَالمِيزَانُ فَتُوزَنُ الكُتْبُ أَوِ الأَعْيَانُ

● ومثل هـذا الوزن : أي وزن أفعال العباد والميزان مما يجب اعتقاده ، كأخذ العباد الصحف . قال حذيفة رضي الله تعالى عنه : صاحب الموازين يوم القيامة جبريل عليه السلام يقول الله تعالى :

«ياجبريل زن بينهم ، فرد من بعض على بعض»(١).

والميزان : هو ميزان واحد على الراجح له قصبة وعمود وكفتان ، كل منها أوسع من أطباق السموات والأرض ، وجبريل آخذ بعموده ناظر إلى لسانه وميكائيل أمين عليه ، ومحله بعد الحساب . وقيل لكل عامل موازين يوزن بكل منها صنف من عمله . ودليل الوزن والميزان سمعي : قال تعالى : «والوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الحَقُّ»(٢) ، ولقوله تعالى : «وَنَضَعُ المَوَازِينَ القِسْطَ لِيَوْمِ القِيَامَةِ»(٣) وقوله تعالى : «فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ ، وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ»(٤).

والجمع في قوله الموازين إنما هو للتعظيم على المشهور من أنه ميزان واحد لجميع الأمم ، ولجميع الأعمال . واختلف بالمراد من الثقل والخفة ، فقيل : على صورته في الدنيا ، وقيل : على عكس صورته في الدنيا

(١) انظر تفسير القرطبي ١٦٧/٧ .
(٢) الأعراف : ٨ .
(٣) الأنبياء : ٤٧ .
(٤) الأعراف : ٨ .

فالثقيل يصعد والخفيف ينزل . وقد بلغت أحاديثه مبلغ التواتر ، فيجب الإيمان به ، ونمسك عن تعيين حقيقته ، وقد ورد عن السيدة عائشة رضي الله عنها أنها قالت :

« ذَكَرْتُ النَّارَ فَبَكَيْتُ ، فقال رسول الله ﷺ : ما يُبْكِيكِ؟ قُلتُ : ذَكَرْتُ النَّارَ فَبَكَيْتُ . فَهَلْ تَذْكُرُونَ أَهْلِيكُم يَوْمَ القيامة ؟ فقال : أَمَّا في ثلاثة مَوَاطِنَ فلا يَذْكُرُ أَحَدٌ أحداً ، عند الميزان ، حتى يَعْلَمَ أَيَخِفُّ مِيزَانُهُ أَمْ يَثْقُلُ ، وعند تطاير الصُّحُفِ ، حتى يعلمَ أينَ يَقَعُ كِتَابُهُ ، في يمينه ، أم في شماله ، أَمْ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ، وعند الصراط ، إذا وُضِعَ بَيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنَّمَ ، حافتاه كلاليبُ كثيرة وحَسَكٌ كثيرٌ ، يَحْبِسُ اللهُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ من خَلْقِهِ ، حتى يَعْلَمَ أَيَنْجُو أَمْ لا »[1]

ولا مانع من وزن سيئات الكفار ليجازوا عليها بالعقاب . قال ابن عباس رضي الله عنهما : توزن الحسنات والسيئات في ميزان ، له لسان وكفتان . فأما المؤمن فيؤتى بعمله في أحسن صورة ، فيوضع في كفة الميزان ، فتثقل حسناته على سيئاته ، فذلك قوله تعالى :

« فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ »[2]

---

(١) رواه الحاكم وقال : صحيح على شرط البخاري ومسلم لولا إرسال فيه بين الحسن وعائشة .

(٢) الأعراف : ٨

ويؤتى بعمل الكافر في أقبح صورة ، فيوضع في كفة الميزان ، فيخف وزنه حتى يقع في النار[1] .

وأما قوله تعالى : « فلا نُقيمُ لهُمْ يَوْمَ القيامةِ وَزْناً »[2]

فمعناه : فلا نقيم لهم وزناً نافعاً . قال عبيد بن عمير : يؤتى يوم القيامة بالرجل العظيم الطويل الأكول الشروب ، فلا يزن عند الله جناح بعوضة ، وعقب القرطبي على هذا بقوله إن هذا لايقال من جهة الرأي وقد ثبت معناه موقوعاً في صحيحي البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال :

« إنهُ ليأتي الرَّجلُ العظيمُ السَّمينُ يومَ القيامةِ لا يَزِنُ عِندَ اللهِ جناحَ بَعوضةٍ ، إقرؤا إنْ شئتُمْ : فلا نُقيمُ لهُمْ يومَ القيامةِ وَزْناً »[3] .

وقد يرد أن وزن أعمال المؤمنين ظاهر لتقابل الحسنات والسيئات ، أما وزن سيئات الكفار فغير ظاهر ، لانعدام الحسنات المقابلة للسيئات. فيجاب : بأنه قد يكون منهم صلة رحم ومواساة ، ونحوها من الأعمال التي لاتتوقف صحتها على نية فتجعل هذه الأمور - إن صدرت منهم - في مقابلة سيئاتهم ، ماخلا الكفر . أما الكفر فلا فائدة في وزنه ، لأن عذابه دائم ، وقد ورد في كلام القرطبي مايدل على أنه يوزن حيث قال: فتجمع له هذه الأمور وتوضع في ميزان الكافر فيرجح الكفر بها .

(١) انظر تفسير القرطبي ١٦٦/٧ .
(٢) الكهف : ١٠٥ .
(٣) تفسير القرطبي ٦٦/١١ .

● فتوزن الكتب : اختلف العلماء في الموزون فذهب جمهور المفسرين ، الى أن الموزون هي الكتب المشتملة على أعمال العباد بناء على أن الحسنات مميزة بكتاب ، والسيئات بآخر ، وقد قال ابن عمر : توزن صحائف أعمال العباد ، ويشهد له حديث البطاقة وهو ما روي عن عبد الله ابن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال :

« إنَّ اللهَ تعالى يَستخلِصُ رجُلاً منْ أُمّتي على رُؤوسِ الخلائقِ يومَ القيامةِ فيَنشرُ عليهِ تسعةً وتسعينَ سِجلاً كلُّ سِجلٍّ منها مدُّ البصرِ ، ثمَّ يقولُ : أَتُنْكِرُ منْ هذا شيئاً ؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الحافظونَ ؟ فيقول : لا يارَبِّ فيقول : أَفَلَكَ عُذرٌ ؟ قال : لا يارَبِّ . فيقولُ اللهُ تعالى : بَلى إنَّ لكَ عِندنا حسنةً ، فإنَّهُ لا ظُلمَ عليكَ اليومَ ، فتُخرَجُ بطاقةٌ فيها : « أشهدُ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ وأشهدُ أنَّ محمّداً عبدُهُ ورسولُهُ » فيقولُ : إحضَرْ وَزْنَكَ . فيقولُ : يارَبِّ ماهذهِ البطاقةُ معَ هذهِ السِّجلاتِ ؟! فقالَ : فإنَّكَ لا تُظلمُ ، فتُوضَعُ السِّجلاتُ في كِفَّةٍ ، والبطاقةُ في كِفَّةٍ ، فطاشَتِ السِّجلاتُ وثقُلَتِ البطاقةُ ، فلا يَثقُلُ معَ اسمِ اللهِ شيءٌ »[1] .

(١) رواه الترمذي وقال : حديث حسن غريب ، وابن حبان في صحيحه ، والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم .

وهذا ليس لكل عبد بل لعبد أراد الله به خيراً . وذهب بعضهم إلى أن الموزون أعيان الأعمال ، فتصور الأعمال الصالحة بصورة حسنة نورانية، ثم تطرح في كفة النور ، وهي اليمنى ، فتثقل بفضل الله سبحانه . وتصور الأعمال السيئة بصورة قبيحة ظلمانية ، ثم تطرح في كفة الظلمة ، وهي الشمال ، فتخف . وهذا في المؤمن . أما الكافر فتخف حسناته وتثقل سيئاته بعدل الله سبحانه وتعالى . وقيل : قد يوزن الشخص نفسه ، لأنه ورد أن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه كان يصعد نخلة فضحك الصحابة من حمش ساقه (أي دقتها) فقال لهم ﷺ :

« تَضْحَكُونَ مِنْ سَاقٍ تُوزَنُ بِعَمَلِ أَهْلِ الأَرْضِ »[1]

فدل هذا على أن الأشخاص توزن . وفائدة الوزن جعله علامة لأهل السعادة والشقاوة ، وتعريف العباد بما لهم وعليهم من الخير والشر وإقامة الحجة عليهم .

---

(١) ذكره الغزنوي ، وفي تفسير القرطبي ٦٧/١١ .

١٠٦ـ كذا الصراطُ، فالعبادُ مختلفْ مرورُهم، فسالمٌ ومُنْتلِفْ

● كذا الصراط : الصراط في وجوب الإيمان به ، لورود الدليل السمعي ، مثل أخذ العباد الصحف ومثل الوزن والميزان . ومعناه ـ لغة ـ الطريق الواضح ، لأنه يصرط المارة أي يبتلعهم ، وشرعـاً : هو جسر ممدود على متن جهنم يرده الأولون والآخرون حتى الكفار . إلا أن الحليمي ذهب إلى أنهم لايرون ، ويجوز أنه قصد بالكفار الذين لايرون من تلقي بهم الملائكة في النار من الموقف . وكل من يمر ساكت إلا الأنبياء يقولون :

« اللّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ » .

كما في الصحيح فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، قال رسول الله ﷺ :

« يمرُّ النّاسُ على جسْرِ جَهنَّمَ وعليــهِ حَسَكٌ وكلاَليبُ وخطَّاطيفُ ، تختَطفُ النّاسَ يَميناً وشمالاً ، وعلى جنْبَتَيْه ملائكةٌ يقولونَ : اللّهمَّ سَلِّمْ ، اللّهمَّ سَلِّمْ ، فمِنَ النّاسِ مَنْ يمرُّ مِثْلَ البَرقِ ، ومنهُمْ مَنْ يَمرُّ كالرِّيحِ ، ومنهُمْ مَنْ يمرُّ كالفرَسِ المُجرى ، ومنهُمْ مَنْ يَسعى سَعْياً ، ومنهُمْ مَنْ يَمشي مَشْياً ، ومنهمْ مَنْ يَحبو حَبْواً ، ومنهُمْ مَنْ يَزحفُ زَحْفاً . فأمّا أهلُ النّارِ الذينَ هُمْ أهلُها فلا يموتونَ ولاَ يَحْيَوْنَ ، وأمّا

ناسٌ فيؤخذون بذنوبٍ وخطايا فيحترقون، فيكونون فحماً، ثم يؤذن في الشفاعة..»[1].

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«يضرب الصراط بين ظهراني جهنم، فأكون أول من يجيز بأمته من الرسل، ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل، ودعوى الرسل يومئذ: اللهم سلِّم، اللهم سلِّم، وفي جهنم كلاليب مثل شوك السعدان. هل رأيتم شوك السعدان؟ قالوا: نعم يارسول الله. قال: فإنها مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا الله تعالى، يختطف الناس بأعمالهم، فمنهم من يوبق بعمله، ومنهم من يخردل ثم ينجو..»[2].

وفي بعض الروايات «أنه أدق من الشعرة وأحد من السيف»[3] وهو المشهور. ونازع في ذلك العز بن عبد السلام والشيخ القرافي، وغيرهما كالبدر الزركشي. قالوا: على فرض صحة ذلك فهو محمول على غير ظاهره، بأن يؤول: بأنه كناية عن شدة المشقة، وحينئذ فلا ينافي ما ورد في الأحاديث الدالة على قيام الملائكة على جنبيه، وكون الكلاليب فيه. وزاد القرافي: والصحيح أنه عريض، وفيه طريقان يمنى ويسرى، فأهل السعادة يسلك بهم ذات اليمين، وأهل الشقاوة يسلك

(١) متفق عليه مع اختلاف ببعض الألفاظ.

(٢و٣) متفق عليه وهو حديث طويل.

جهم ذات الشمال ، وفيه طاقات ، كل طاقة تنفذ إلى طبقة من طبقات جهنم . وقال بعضهم : إنه يدق ويتسع بحسب ضيق النور وانتشاره . فعرض صراط كل أحد بقدر انتشار نوره فإن نور كل إنسان لا يتعداه إلى غيره . ومن هنا كان دقيقاً في حق قوم ، عريضاً في حق آخرين . وطوله ثلاثة آلاف سنة ، ألف صعود ، وألف هبوط ، وألف استواء .

وفي كلام الشيخ محي الدين بن عربي ما يفيد عدم التعويل على ظاهر هذه الآلاف ، مع أن مآله الامتداد للعلو حتى يوصل للجنة ، فإنها عالية جداً . وأفاد الشعراني : أنه لا يوصل لها حقيقة بل يوصل لمرجها الذي فيه الدرج الموصل لها ، قال : ويوضع لهم – ثمة – مائدة ، ويقوم أحدهم فيتناول بما تدلى هناك من ثمار الجنة . وقد ورد به الكتاب والسنة :

قالَ تعالى : « فَاسْتَبِقُوا الصِّرَاطَ »(١). قالَ ﷺ : « يَجْمَعُ اللهُ النَّاسَ... إلى أَنْ قالَ : فيأتُونَ مُحمَّداً ، فيقُومُ ويُؤذَنُ لهُ ، وتُرْسَلُ معهُ الأمانةُ والرَّحِمُ فيقُومانِ على جَنْبَتَيِ الصِّراطِ ، يَميناً وشِمالاً . فيمرُّ أوَّلُكُمْ كالبرقِ ، ثمَّ كمَرِّ الرِّيحِ ثمَّ كمَرِّ الطَّيرِ ، وأشَدِّ الرِّجالِ تجري بهِمْ أعمالُهُمْ ، ونبيُّكُمْ ﷺ قائمٌ على الصِّراطِ يقولُ : ربِّ سلِّمْ سلِّمْ حتى تَعْجَزَ أعمالُ العِبادِ ، حتى يَجِيءَ الرَّجلُ فلا يستَطيعُ السَّيرَ إلا زاحِفاً ، قالَ : وفي حافَّتَيِ الصِّراطِ كلاليبُ مُعلَّقةٌ مأمورةٌ تأخُذُ

(١) يس : ٦٦ .

مَنْ أُمِرَتْ بِهِ فَمَخْدُوشٌ نَاجٍ ، وَمُكَدْوَشٌ في النَّارِ » . قال راوي الحديث : « والذي نَفْسُ أَبي هُرَيرةَ بِيَدِهِ ، إنَّ قَعْرَ جَهنَّمَ لَسَبْعُونَ خَرِيفاً »[1].

وجبريل في أول الصراط ، وميكائيل في وسطه يسألان الناس عن عمرهم ، فيم أفنوه ؟ وعن شبابهم فيم أبلوه ؟ وعن علمهم ماذا عملوا به . وقد كان عبد الله بن رواحة واضعاً رأسه في حجر امرأته فبكى فبكت امرأته ، فقال : ما يبكيك ؟ قالت رأيتك تبكي فبكيت ، قال : إني ذكرت قول الله تعالى :

« وإنْ منكمْ إلاَّ واردُها » ، ولا أدري أنجو منها أم لا ؟[2] . وعن أنس رضي الله عنه قال : سألتُ رسولَ اللهِ ﷺ أنْ يشفعَ لي يومَ القيامة فقال : أنا فاعلٌ إنْ شاءَ اللهُ تعالى . قلتُ : فأين أطلبُكَ ؟ قال : أوَّلُ ما تطلبُني على الصِّراطِ ، قلتُ : فإنْ لم أَلْقَكَ على الصِّراطِ ؟ قالَ : فاطلبْني عندَ الميزانِ . قلتُ : فإنْ لمْ أَلْقَكَ عندَ الميزانِ ؟ قالَ : فاطلبْني عندَ الحوضِ ، فإني لا أُخطىءُ هذه الثلاثةَ مواطنَ »[3].

(١) رواه مسلم عن حذيفة وأبي هريرة .
(٢) رواه الحاكم عن قيس وقال : صحيح على شرطهما .
(٣) رواه الترمذي وقال حديث حسن غريب ، والبيهقي .

وتفاوتهم في المرور إنما هو بحسب تفاوتهم في الإعراض عن حرمات الله تعالى ، فمن كان منهم أسرع إعراضاً عما حرم الله كان أسرع مروراً في ذلك اليوم . وإنما الحكمة من المرور على الصراط ، ظهور النجاة من النار وتحسر الكفار ، بفوز المؤمنين بعد اشتراكهم في المرور .

١٠٧- والعَرْشُ والكُرْسيُّ ثُمَّ القَلَمْ والكاتِبونَ اللوحُ كلٌّ حِكَمْ

● والعرش : هو جسم عظيم نوراني علوي . والأولى الإمساك عن القطع بتعيين حقيقته ، لعدم العلم بها [(١)] . فهو مما يجب الإيمان بوجوده لوروده بالدليل السمعي قال تعالى : « وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ » .

● والكرسي : وهو جسم عظيم نوراني تحت العرش ملتصق به فوق السماء السابعة ، بينه وبينها مسيرة خمسمائة عام كما نقل عن ابن عباس ، والأولى أن نمسك عن الجزم بتعيين حقيقته لعدم العلم بها . وهو غير العرش ، خلافاً للحسن البصري .

قال تعالى : « وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ » .

● ثم القلم : هو جسم عظيم نوراني خلقـــه الله ، وأمره بكتب ما كان وما يكون إلى يوم القيامة . والأولى أن نمسك عن الجزم بتعيين حقيقته .

● والكاتبون : أقسام ثلاثة ، كاتبون على العباد أعمالهم في الدنيا . وكاتبون من اللوح المحفوظ ما في صحف الملائكة الموكلين بالتصرف في العالم كل عام . وكاتبون من صحف الملائكة كتاباً يوضع تحت العرش .

● اللوح : ليس اللوح معمولاً الملائكة الكاتبين ، كما قد يتوهم . بل القلم يكتب فيه بمجرد القدرة ، وهو جسم نوراني ، كتب فيه القلم

---

(١) قال الراغب الأصفهاني في مفرداته ص ٣٢٩ ، العرش ما لا يعلمه البشر على الحقيقة إلا بالاسم ، وليس كما تذهب إليه أوهام العامة . فإنه لو كان كذلك لكان حاملاً له ، تعالى الله عن ذلك ، لا محمولاً ، والله تعالى يقول : « إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده » .

بإذن الله تعالى ما كان وما يكون إلى يوم القيامة . وهو يكتب فيه الآن ، على التحقيق من أنه يقبل المحو والتغيير . وغمك عن الجزم بحقيقته .

● كل حكم : لكل واحد من المذكورين حكمٌ يعلمها الله تعالى ، وإن قصرت عقولنا عن الوقوف عليها ، والحكمة هي الأمر الصائب ، وهو سر العقل ، وفائدته المترتب عليه .

١٠٨ - لا لاحتياج وبها الإيمانُ يَجِبُ عليكَ أيُّها الإنسانُ

● لا لاحتياج : أي لم يخلق الله تعالى الأمور المسرودة لحاجة ، كيف وهو الغني عن العالمين غنى مطلقاً لا يحدثه شيء . فلم يخلق العرش للارتقاء ، ولا الكرسي للجلوس ، ولا القلم لاستحضار ماغاب عن علمه ، إذ لا يغيب عن علمه سبحانه وتعالى شيء ، وقد كان سبحانه ولم يكن عرش ولا كرسي ، فقد ورد :

« كَانَ اللهُ وَلَا شَيْءَ مَعَهُ » (١)

ولم يخلق الكاتبين ولا اللوح لضبط ما يخاف نسيانه .

● وبها الإيمان يجب : فهذه المذكورات يجب على المكلف أن يؤمن بها كغيرها من كل ماثبت بصحيح الأحاديث ، كالحجب ، والأنوار . فالإيمان بها واجب شرعي . غير أن الحجاب هو ما يعتري الإنسان من كدورات نتيجة إقباله على الدنيا عن غير طريق الشرع (٢) .

---

(١) رواه ابن حبان والحاكم وابن أبي شيبة عن بريدة ، وفي رواية « ولا شيء غيره » وفي رواية «ولم يكن شيء قبله » . ورواه احمد والبخاري والترمذي وغيرهم عن عمران بن حصين قال : يا رسول الله أخبرنا عن أول هذا الأمر كيف كان ، قال : « كان الله قبل كل شيء ، وكان عرشه على الماء ، وكتب في اللوح المحفوظ ذكر كل شيء ، وخلق السموات والأرض .. »

(٢) قال سيدي ابن عطاء الله : الحق ليس بمحجوب وإنما المحجوب أنت عن النظر إليه ، إذ لو حجبه شيء لستره ما حجبه ، ولو كان له ساتر لكان لوجوده حاصر ، وكل حاصر لشيء فهو له قاهر (وهو القاهر فوق عباده) .

١٠٩ـ والنَّارُ حقٌ أُوجِدتْ كالجنَّهْ فلا تَمِلْ لِجَاحِدٍ ذي جِنَّهْ

● والنار حق أوجدت : النار التي هي دار العذاب ثابتة بالكتاب والسنة ، واتفاق علماء الأمة . أوجدها الله تعالى فيا مضى كالجنة التي هي دار الثواب . فالنار حق كالجنة ، وهما موجودتان الآن ، لا كما زعمه أبو هاشم وعبد الجبار من المعتزلة من أنهما توجدان يوم القيامة . والدليل قصة آدم وحواء على ما جاء به القرآن الكريم والسنة الشريفة وانعقد عليه الإجماع قبل ظهور المخالف . ولا حاجة تدفع إلى تأويل الجنة الواردة في القرآن الكريم ببستان على ربوة ، والإخراج منها هو إنزال إلى بطن الوادي . فهذا التأويل إلحاد في الدين . ولم يرد نص صريح في تعيين مكانهما ، كما في شرح المقاصد . إلا أن الكثيرين على أن الجنة فوق السموات السبع وتحت العرش ، وأن النار تحت الأرضين السبع . والحق تفويض علم ذلك الى اللطيف الخبير .

وروي أنَّ طِبَاقَ النَّارِ سَبْعٌ ، أَعْلاهَا جَهنَّمُ ـ وَهِيَ لِمَنْ يُعذَّبُ على قَدْرِ ذَنْبِه مِنَ المُؤمِنينَ ، وتَصِيرُ خَرَاباً بِخُرُوجِهِمْ مِنْهَا ـ وتَحْتَها لَظَى لِلْيَهُودِ ثمَّ الحُطَمَةُ لِلنَّصَارى ، ثمَّ السَّعِيرُ لِلصَّابِئِينَ ، ثمَّ سَقَرُ لِلْمَجُوسِ ، ثمَّ الجَحِيمُ لِعَبَدَةِ الأَصْنَامِ ، ثمَّ الهَاوِيَةُ لِلْمُنَافِقِينَ . «والنَّارُ أُوقِدَ عَلَيْهَا أَلْفُ سَنَةٍ حَتَّى ابْيَضَّتْ ، ثم أَلْفَ سَنَةٍ حتى احْمَرَّتْ ، ثم أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى اسْوَدَّتْ فَهِيَ سَوْدَاءُ مُظْلِمَةٌ كاللَّيْلِ المُظْلِمِ»[1] .

(١) رواه الترمذي عن أبي هريرة برقم ٢٥٩٤ ج ٧ وقال الحديث موقوف عليه .

وحرها هواء محرق ، ولا جمر لها سوى بني آدم والأحجار المؤلهة من دون الله ، قال تعالى :

« يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أنفُسَكُمْ وَأهلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهـــا النَّاسُ والحِجارةُ »[1]

واختلف في الجنة هل هي سبع جنات متجاورات ، أو أربع ، أو جنة واحدة ؟ فذهب ابن عباس إلى أنها سبع ، أفضلها وأوسطها الفردوس وهي أعلاها ، والمجاورة لاتنافي العلو ، وفوقها عرش الرحمن ، ومنها تتفجر أنهار الجنة ، ويليها في الأفضلية « عدن » ثم « الخلد » ثم « النعيم » ثم « المأوى » ثم « دار السلام » ثم « دار الجلال » . وكلها متصلة بمقام الوسيلة لتنعيم أهل الجنة بمشاهدته ﷺ لظهوره لهم منها ، لأنها تشرف على أهل الجنة ، كما أن الشمس تشرق على أهل الدنيا . ورجح جماعة أنها أربع لقوله تعالى :

« ولِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ »[2] ثم قال « ومِنْ دُونِهِما جَنَّتانِ »[3]

فالأوليان جنة النعيم وجنة المأوى ، والأخريان جنة عدن وجنة الفردوس .

وذهب الجمهور إلى أنها واحدة ، وهذه الأسماء كلها جارية عليها لتحقق معانيها فيها ، إذ إنه يصدق على الجميع جنة عدن ، فالعدن الإقامة . وجنة المأوى ، لأنها مأوى المؤمنين . وجنة الخلد ، ودار السلام لأن جميعها الخلود والسلامة من كل خوف وحزن . وجنة النعيم ، لأنها كلها مشحونة بأصنافه . قال رسول الله ﷺ :

(١) التحريم : ٦ .
(٢) الرحمن : ٤٦
(٣) الرحمن : ٦٢

«إنَّ أهلَ الجنَّةِ ليتراءَوْنَ الغُرَفَ في الجنَّةِ كما تَرَاءَوْنَ الكَوْكَبَ في السَّماءِ»[(١)]

«إنَّ أهلَ الجنَّةِ ليتراءَوْنَ أهلَ الغُرَفِ مِنْ فوقِهِمْ كما تَرَاءَوْنَ الكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الغَابِرَ في الأُفُقِ من المشرقِ، أو المَغْرِبِ لتفاضُلِ ما بينَهُمْ». قالوا: يارسولَ اللهِ، تلكَ منازلُ الأنبياءِ لا يَبْلُغُها غيرُهُمْ؟ قالَ: «بَلَى، والذي نفسي بيدِهِ، رجالٌ آمَنُوا باللهِ وصدَّقوا المُرْسَلِينَ»[(٢)].

● فلا تقل الجاحد: أي لا تُصغ لقول منكرهما لكفره - كالفلاسفة - أو منكر لوجودهما فيما مضى لبدعته - كأبي هاشم وعبد الجبار من المعتزلة - لأن إنكارهما لايكاد يصدر عن ذي عقل، إذ يؤدي إلى إحالة ما علم من الدين بالضرورة.

---

(١) متفق عليه من حديث سهل بن سعد. وفي رياض الصالحين برقم ١٨٨٧

(٢) متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري. وفي رياض الصالحين برقم ١٨٨٤ الباب الثاني والسبعون بعد الثلاثمائة في بيان ما أعد الله تعالى للمؤمنين في الجنة.

١١٠- دارًا خُلودٍ للسَّعيدِ والشَّقِي ۞ مُعَــذَّبٍ مُنَعَّمٍ مَهْما بَقِي

• دارا خلود : أي إن الجنة والنار داراً بقاء مؤبد . وقد كفر الجهمية القائلين بفنائهما وفناء أهلها ، لمخالفتهم الكتاب والسنة . فالجنة دار خلود للسعيد منعم فيها ، وهو من مات على الإسلام . والنار دار خلود الشقي معذب فيها ، وهو من مات على الكفر . أما عصاة المؤمنين فدار خلودهم الجنة ، إذ أنهم لايلبثون في النار – إن دخلوهــا – إلا مدة ، لايدوم فيها عذابهم ، إذ أنه يلقى عليهم الموت بعد الدخول بمدة ما يعلم إلا الله مقدارها ، فلا يحيون حتى يخرجوا منها . والمراد بموتهم فقدان الإحساس بألم العذاب فحسب . وإن اختار بعضهم الموت الحقيقي .

عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ :

«أما أهلُ النَّارِ الذين هم أهلُها فإنَّهم لا يموتونَ فيها ، ولا يَحْيَوْنَ. ولكن ناسٌ أصابتْهُمُ النارُ بذُنوبِهِم (أو قال : بخطاياهم) فأماتَهُم إماتةً حتى إذا كانوا فحماً أُذنَ بالشفاعة . فجيءَ بهم ضَبائِرَ ضبائِرَ ، فبثوا على أنهار الجنــة ، ثم قيل : يا أهلَ الجنة أفيضوا عليهم . فينبتون نبات الجنة تكون في حميل السيل».

فقال رجل من القوم : كأن رسول الله ﷺ قد كان بالبادية »[1] وينبغي ألا يغتر بهذا ، إذ يكفي أنهم لايدخلون الجنة مع الداخلين ، بله عذاب القبر . ويدخل في الشقي الكافر الجاهل والمعـاند ، ومن بالغ في النظر فلم يصل إلى الحق وترك التقليد الواجب عليه . وأولاد المشركين في

(١) أخرجه الإمام مسلم في باب إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار (ص ٩٥) .

الجنة على الصحيح ، ولا فرق في السعادة والشقاوة بين إنسي وجني . كما أن الخلود لازم السعيد والشقي . وأما قوله تعالى :

«وما نُؤَخِّرُهُ إلاَّ لِأَجلٍ مَعْدُودٍ ، يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إلا بإذنه فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ . فأمَّا الذينَ شَقُوا فَفي النَّارِ ، لَهُمْ فيها زَفيرٌ وَشَهِيقٌ ، خالدينَ فيها مَادَامَتِ السَّمٰواتُ والأرضُ إلاَّ ما شاءَ رَبُّكَ . إنَّ ربَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُريدُ»(١)

فالمراد هنا بالسموات والأرض سقف النار وأرضها ، وسقف الجنة وأرضها ، لا السماء والأرض في الدنيا ، لتبدلها . ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال : «إذَا صَارَ أَهْلُ الجَنَّةِ إلى الجَنَّةِ ، وَأَهْلُ النَّارِ إلى النَّارِ ،

---

(١) هود الآية ١٠٤ وما بعدها . قال الدكتور سعيد رمضان في كتابه «كبرى اليقينيات الكونية عند هذه الآية» إن الاستثناء إنما هو من قوله : «شقوا» و «سعدوا» أي : جميع الأشقياء خالدون في النار إلا من شاء الله منهم ألا يخلد فيها ، وهم العصاة من أهل الإيمان والتوحيد ، كما دلت على ذلك الأدلة الكثيرة الأخرى . وجميع أهل السعادة خالدون في الجنة إلا ما شاء الله منهم أن يعذب في النار إلى أمد قبل ذلك ، وهم أولئك الذين غمرت حياتهم بالمعاصي والأوزار من المؤمنين ، ولم تكتب لهم الشفاعة أولاً . وإنما لم يأت الاستثناء بصيغة إلا من شاء الله ، لأن المراد من المستثنى منه العدد المجرد ، وذلك كقوله تعالى «فانكحوا ما طاب لكم من النساء» فقد عبر عن النساء «بما» لملاحظة العدد .

جيءَ بالموتِ حتى يُجعلَ بينَ الجنةِ والنارِ . ثمَّ يُذبحُ ثمَّ يُنادي مُنادٍ : يا أهلَ الجنةِ لا موتَ ، يا أهلَ النارِ لا موتَ. فيزدادُ أهلُ الجنةِ فرحاً إلى فرحِهِم . ويزدادُ أهلُ النارِ حُزناً إلى حُزنِهِم » رُويَ عن ابنِ عُمر[1]

والعذاب أنواع هائلة ، منها الزمهرير والحيات والعقارب ، وأشدها الحجاب عن الله سبحانه . روى عن ابن عباس أنه قال : قال رسول الله ﷺ:

« لوْ أنَّ قطرةً منَ الزقّومِ قُطِرَتْ في بحارِ الدُّنيا لأفسدَتْ على أهلِ الدُّنيا معايشَهُمْ ، فكيفَ مَنْ يكونُ طعامُهُ ذلكَ »[2].

وعن النعمان بن بشير أنه قال : قال رسول الله ﷺ:

« إنَّ أدنى أهلِ النّارِ عذاباً يومَ القيامةِ ينتعلُ بنعلَيْنِ منْ نارٍ يغلي دِماغُهُ مِنْ حرارةِ نعليْهِ »[3].

---

(١) رواه الشيخان . والحديث ينطوي على أبلغ الأساليب المؤكدة لمعنى الخلود في كل من الجنة والنار . وقد قال الإمام الأعظم أبو حنيفة في كتاب الوصيه : والجنة والنار حق وهما مخلوقتان ، ولا فناء لها ، ولا لأهلها ، لقوله تعالى في حق أهل الجنه : « اعدت للمتقين » وفي حق أهل النار : « أعدت للكافرين ». خلقها الله للثواب والعقاب .

(٢) رواه الترمذي وقال حسن صحيح ، وابن ماجه .

(٣) متفق عليه .

وفي النعيم أنواع أعلاها رؤية وجه الله تعالى الكريم[1] . وما نقل من أن أهل النار يلتذون بالعذاب حتى لو ألقوا في الجنة لتألموا ، مدسوس على القوم ، كيف ؟ وقد قال تعالى :

« فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَاباً » .

---

(١) قال الإمام الغزالي في الإحياء : حول التنعم برؤية الله تعالى : فإذا ارتفع الحجاب بالموت بقيت النفس ملوثة بكدورات الدنيا ، ولن ترتحل نفس عن هذا العالم إلا ويصحبها غبرة وكدورة ما ، لذلك قال تعالى : « وإن منكم إلا واردها » وإنما يكون العرض على النار بقدر الحاجة إلى التزكية ، وأقلها لحظة ، وأقصاها في حق المؤمنين سبعة آلاف سنة . لأنه من النفوس ما تراكم عليها الخبث والصدأ فصارت كالمرآة التي فسد جوهرها فلا تقبل التصقيل ، وهؤلاء هم المحجوبون أبد الآباد ، ومنها ما لم ينته إلى حد الران والطبع ، ولم تخرج عن قبول التزكية والتصقيل فهذه تعرض على النار عرضاً يقمع منها الخبث الذي تدنست به . فإذا أكمل الله تطهيرها وتزكيتها ووقع الفراغ عن جملة ما وعد به الشرع من الحساب والعرض ، وغيره ، ووافى استحقاق الجنة ، فعند ذلك يتجلى الحق سبحانه . والمعرفة الحاصلة في الدنيا بعينها هي التي تستكمل فتبلغ كمال الكشف والوضوح ، وتنقلب مشاهدة ، ولا يكون بين المشاهدة في الآخرة ، والمعرفة في الدنيا ، اختلاف إلا من حيث زيادة الكشف والوضوح . لذلك لم تكن المشاهدة في الآخرة بإثبات صورة وجهة لله سبحانه ، لأن معرفته في الدنيا ليست بإثبات صورة وجهة ، ولهذا لا يفوز بدرجة النظر والرؤية إلا العارفون في الدنيا ، إذ المعرفة هي البذر الذي ينقلب في الآخرة مشاهدة ، ومن لا نواة في أرضه كيف يحصل له نخل . ولما كانت المعرفة في الدنيا على درجات كان التجلي في الآخرة على درجات متفاوتة أيضاً . ولا يوصل إلى المعرفة بعد انقطاع شواغل الدنيا عن القلب إلا بالفكر الصافي ، والذكر الدائم ، والجد البالغ في الطلب ، والنظر المستمر في الله تعالى وصفاته وفي الملكوت وسائر المخلوقات . « باختصار » .

● فائدة : الناس في الموقف على حالتهم التي ماتوا عليها . ثم يدخل المؤمنون الجنة جرداً مرداً أبناء ثلاث وثلاثين سنة ، طول كل واحد منهم ستون ذراعاً ، وعرضه سبعة أذرع ، ثم لا يزيدون ولا ينقصون .

قال رسول الله ﷺ :

« إذا دَخلَ أهلُ الجنة الجَنةَ يُنادي مُنادٍ : إنَّ لكُمْ أنْ تَحيَوْا فَلا تَموتوا أبداً ، وإنَّ لَكُمْ أنْ تَصحُّوا فلا تَسقَموا أبداً ، وإنَّ لكُمْ أنْ تَشِبُّوا فَلا تَهرَموا أبداً ، وإنَّ لَكُمْ أنْ تَنعَموا فلا تَبأسوا أبداً »[1].

وقال ﷺ : « أوَّلُ زُمرةٍ يَدخُلونَ الجَنةَ على صُورةِ القَمرِ لَيلةَ البَدرِ ، ثمَّ الذينَ يَلونَهُم على أشدِّ كَوكَبٍ دُرّيٍّ في الإضاءَةِ ، لا يَبولونَ ، ولا يَتغَوَّطونَ ، ولا يَتفُلونَ ولا يَمتَخِطونَ ، أمشاطُهُمُ الذَّهبُ وَرَشحُهُمُ المِسكُ ، ومَجامِرُهُمُ الأُلوَّةُ ، عودُ الطيب ، أزواجُهُمُ الحُورُ العينُ على خَلقِ رَجُلٍ واحدٍ على صُورةِ أبيهِمْ آدَمَ ، سِتُّونَ ذِراعاً في السَّماءِ »[2].

أما أجسام الكفرة فمختلفة المقادير . حتى ورد أن ضرس الكافر في النار

---

(١) رواه الإمام مسلم عن أبي سعيد وأبي هريرة .

(٢) عن أبي هريرة متفق عليه .

مثل أحد وفخذه مثل ورقان ـ وهما جبلان في المدينة ـ ليتحملوا العذاب الأليم . قال ﷺ :

« ضِرْسُ الكافرِ في النّارِ مِثْلُ أُحدٍ ، وغِلَظُ جلدِه مَسيرةُ ثلاثٍ »[1] وقال أيضاً : ... وَعرضُ جلدِه سَبعونَ ذراعاً ، وَعَضُدُهُ مثل البَيضاء ، وفخذه مثل وَرْقان ، ومقعدُه منَ النّارِ ما بيني وبين الرَّبذة[2] وقـــال : ما بين منكبيْ الكافرِ مسيرة ثلاثةِ أيام

---

(١) رواه الإمام مسلم وفي « الترغيب والترهيب » ٤/٤٨٣ برقم ٧٠ . قال الإمام الغزالي رحمه الله في الإحياء : إياك أن تنكر شيئاً من عجائب يوم القيامة ، لمخالفته قياس ما في الدنيا . فإنك لو لم تكن قد شاهدت عجائب الدنيا ، ثم عرضت عليك قبل المشاهدة ، لكنت أشد إنكاراً لها . وفي طبع الآدمي إنكار كل ما لم يأنس به ، ولو لم يشاهد الإنسان الحية ، وهي تمشي على بطنها كالبرق الخاطف لأنكر تصور المشي على غير رجل . والمشي بالرجل أيضاً مستبعد عند من لم يشاهد ذلك . ولو لم يشاهد الإنسان توالد الحيوان ، وقيل له إن له صانعاً يصنع من النطفة القذرة مثل هذا الآدمي المصور ، العاقل ، المتكلم ، المتصرف ... لاشتد نفور باطنه عن التصديق به . ففي خلق الآدمي مع كثرة عجائبه ، واختلاف تركيب أعضائه أعاجيب تزيد على الأعاجيب في بعثه وإعادته ، فكيف ينكر ذلك من قدرة الله تعالى وحكمته من يشاهد ذلك في صنعته وقدرته ؟ فإن كان في إيمانك ضعف فقوه بالنظر في النشأة الأولى ، قال تعالى : « أيحسب الإنسان أن يترك سدى ، ألم يك نطفة من مني يمنى ، ثم كان علقة فخلق فسوى ، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى . أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى » . بلى إن الله على كل شيء قدير . اهـ .

(٢) رواه أحمد بإسناد جيد .

الراكب المسرع[1]، وقال: .. وفخذه مثل البيضاء، ومقعده من النار كما بين قديد ومكة، وكثافة جسده اثنان وسبعون ذراعاً بذراع الجبار[2].

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.
(٢) رواه الإمام مسلم وأحمد.

١١١- إيمانُنا بحوضِ خيرِ الرُّسلِ حَتْمٌ كَما قَدْ جاءَنا في النَّقْلِ

● إيماننا بحوض : أي يجب إيماننا بالحوض الذي يعطاه أفضل المرسلين في الآخرة لكن لايكفر من أنكره . بل يفسق . وقد نفته المعتزلة . وهو جسم مخصوص كبير متسع الجوانب ، يكون على الأرض المبدلة وهي الأرض البيضاء كالفضة . من شرب منه لايظمأ أبداً ترده هذه الأمة . قال رسول الله ﷺ :

« حَوْضِي مَسِيرَةُ شَهرٍ ، مـاؤُهُ أَبيَضُ مِنَ اللَّبَنِ وَرِيحُهُ أَطيبُ مِنَ المِسكِ ، وكِيزانُهُ كَنُجُومِ السَّماءِ مَنْ شَرِبَ مِنْهُ لا يَظمأُ أبداً »(١) .

وورد أن لكل نبي حوضاً ترده أمته . وتخصيص حوض نبينا ﷺ إنما لوروده بالأحاديث البالغة مبلغ التواتر ، بخلاف غيره لوروده بالآحاد . ففي الصحيح من حديث أبي ذر قال :

« قلتُ يارَسولَ اللهِ ما آنِيَةُ الحَوْضِ ؟ قال : والَّذي نَفْسُ مُحمَّدٍ بِيَدِهِ لآنِيَتُهُ أَكْثَرُ مِنْ عَدَدِ نُجومِ السَّماءِ وكواكِبِها في اللَّيلَةِ المُظْلِمَةِ المُصْحِيَةِ ، مَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظمأ ، يَشْخُبُ فيهِ مِيزابانِ مِنَ الجَنَّةِ ، عَرضُهُ مِثْلُ طُولِه ، ما بَيْنَ عُمَانَ وأَيْلَةَ ،

(١) رواه البخاري ومسلم .

ماؤهُ أشدُّ بياضاً منَ اللّبنِ ، وأحلى منَ العسَلِ »[1] .

وعن ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

« إنّي لبعُقْرِ حوضي أذودُ النّاسَ لأهلِ اليمَنِ أضربُ بعصايَ حتّى يرْفضَّ عليهِمْ ، فسُئِلَ عنْ عَرضهِ ؟ فقالَ : منْ مَقامي إلى عُمانَ ، وسُئِلَ عنْ شرابِهِ ، فقالَ : أشدُّ بياضاً منَ اللّبنِ وأحلى منَ العسَلِ يَغتُّ فيهِ ميزابانِ يُمدّانِهِ منَ الجنّةِ أحدُهما منْ ذَهبٍ والآخرُ منْ ورِقٍ »[2] .

وما جاء من روايات تعين غير هذا فإنما تعود إلى أنه سبحانه تفضل على الرسول ﷺ باتساعه شيئاً فشيئاً ، فأخبر أولاً بالمسافة القصيرة ثم بالطويلة . وقد ورد أن حوضه ﷺ أعرض الأحواض ، فعن سمرة قال : قال رسول الله ﷺ :

« إنّ لكلّ نبيٍّ حوضاً ، وإنّهمْ يَتباهَوْنَ أيُّهمْ أكثرُ وارداً . وإنّي أرجو أنْ أكونَ أكثرَهُمْ وارِداً »[3] .

والحوض لون كل شراب الجنة ، وطعم كل ثمارها . وقد بين ﷺ

---

(١) قال ملا علي القاري : حديث الحوض رواه من الصحابة بضع وثلاثون وكاد أن يكون متواتراً وقال الدكتور البوطي : الأحاديث الواردة في شأن الحوض ووصفه كثيرة جداً زادت عن حد التواتر .

(٢) رواه مسلم ، وعقر الحوض : مؤخره . وأذود الناس : أدفعهم لِيرِد أهل اليمن . يرفض : يسيل . يغت : يجري جرياناً له صوت ، ويقال : غت الشارب الماء جرعاً بعد جرع .

(٣) رواه الترمذي وحسنه .

في أول الوراد إليه وفيمن يطرد عنه . فعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال :

« حوضي كما بينَ عدنَ وعُمانَ . أبْرَدُ منَ الثلْجِ وأحلى منَ العَسَلِ وأطيَبُ ريحاً منَ المِسكِ ... إلى أن قال : أوَّلُ النَّاسِ عَلَيْـهِ وُرُوداً صعاليكُ المُهاجِرينَ . قال قائلٌ : مَنْ هُمْ يارسولَ اللهِ ؟ قالَ : الشَّعِثَةُ رُؤوسُهُم، الشَّحِبَةُ وُجُوهُهمْ الدَّنِسَةُ ثِيابُهمْ ، لا تُفتَّحُ لهمُ السُّدَدُ ، ولا يَنكِحُونَ المُتنعِّماتِ ، الَّذينَ يُعطُونَ كلَّ الَّذي عليهمْ ولاَ يأخذونَ كلَّ الَّذي لَهُمْ »[1] .

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال :

« بينا أنا قائمٌ على الحوضِ،إذا زُمرةٌ حتى إذاعرفْتُهمْ خرجَ رَجلٌ من بيني وبينِهم فقال : هلُمَّ ، فقلتُ : إلى أينَ ؟ قال : إلى النَّارِ واللهِ ، فقلتُ : ما شأنُهمْ ؟ فقالَ إنَّهمْ ارتدُّوا على أدبارِهمْ القَهقَرى ، ثمَّ إذا زُمرةٌ أخرى حتَّى إذا عرفْتُهمْ خرجَ رجلٌ منْ بيني وبينِهم ، فقالَ لهمْ هلُمَّ ، قلتُ : إلى أينَ ؟ قالَ : إلى النَّارِ واللهِ . قلتُ : ما شأنُهمْ ؟ قالَ : إنَّهمْ ارتدُّوا على

(١) رواه الإمام أحمد بإسناد حسن . والسدد هي الأبواب .

أَدْبارِهِمْ ، فَلا أَراهُ يَخْلُصُ مِنْهُمْ إِلاَّ مِثْلُ هَمَلِ النَّعَمِ ».(١)

وقالَ أيضاً : تَرِدُ عَلَيَّ أُمَّتِي الْحَوْضَ ، وأَنا أَذُودُ النَّاسَ عَنْهُ كَما يَذُودُ الرَّجُلُ إِبِلَ الرَّجُلِ عَنْ إِبِلِه . قالوا : يا نَبِيَّ اللهِ ، تَعْرِفُنا ؟ قالَ : نَعَمْ ، لَكُمْ سِيما لَيْسَتْ لِأَحَدٍ غَيْرِكُمْ ، تَرِدُونَ عَلَيَّ غُرّاً مُحَجَّلِينَ مِنْ آثارِ الْوُضوءِ ، وَلَيُصَدَّنَّ عَنِّي طائفةٌ مِنْكُمْ فَلا يَصِلُونَ . فَأَقُولُ : يارَبِّ ، هؤلاءِ مِنْ أَصْحابِي ، فَيُجِيبُنِي مَلَكٌ فيقولُ : وهَلْ تَدْرِي ما أَحْدَثُوا بَعْدَكَ ؟ ».(٢)

وذهب الجمهور إلى أنه قبل الصراط ، وصححه بعضهم ، لأن الناس يخرجون من قبورهم عطاشاً فيردون الحوض للشرب منه ، وعلى كل فإن الجهل بكونه قبل الصراط أو بعده لا يضر .

---

(١) رواه البخاري ومسلم . وهمل النعم : ضوالها ، ومعناه أن الناجي قليل كضالة النعم بالنسبة إلى جملتها .

(٢) رواه مسلم عن أبي هريرة .

١١٣- يَنَالُ شُرْبًا مِنْهُ أَقْوَامٌ وَفَوْا بِعَهْدِهِمْ وَقُلْ يُذَادُ مَنْ طَغَوْا

● ينال شرباً : المراد بالأقوام الذين يتعاطون الشرب من الحوض الذكور والإناث . ويختلف الحال في الشرب ، فشارب دفعاً للظمأ وشارب للتلذذ ، ومنهم يشرب لتعجيل المسرة . وأطفال المسلمين حول الحوض وعليهم أقبيه الديباج ، ومناديل من نور وبأيديهم أباريق الفضة وأقداح الذهب يسقون آباءهم وأمهاتهم إلا من سخط في قدمهم فلا يؤذن لهم بسقياه .

● وفوا بعهدهم : والوفاء بالعهد هو القيام بحق الميثاق المأخوذ حين أخرج الله تعالى من ظهر آدم ذريته ، وأشهدهم على أنفسهم .

« أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ؟ قَالُوا بَلَى »[١] .

وأول من قال : « بلى هو الرسول صلى الله عليه وسلم » وكل أمة ترد حوض نبيها إن وفت بالعهد ، غير أن الظالمين لأنفسهم ، بأن غيروا وبدلوا العهد ، يطردون عن الحوض فيشمل الطرد كل مرتد ، ومحدث في الدين ، ومخالف الجماعة - كالخوارج ، والروافض ، والمعتزلة على اختلاف فرقهم - وكل ظالم جائر ، وكل معلن الكبائر مستخف بالمعاصي ، وكل مبتدع . بيد أن المبدل لدينه بالردة خالد في نار جهنم أبد الآبدين ودهر الداهرين . والمبدل لدينه بالمعاصي ففي مشيئة الله ، إما أن يعذبه وإما أن يغفر له . والذي عليه المحققون أن الكفار إنما يطردون طرد حرمان ، فلا يذوقونه أبداً ، والعصاة إنما يطردون طرد عقوبة ثم يشربون منه قبل دخولهم النار على الصحيح .

(١) الأعراف : ١٧٢ .

١١٣- وواجبٌ شفاعةُ المُشفَّعِ محمدٍ مقدَّماً لا تُمنع

وواجب شفاعة : أي وواجب سمعاً عند أهل الحق شفاعة الذي تقبل شفاعته . والشفاعة ـ لغة : الوسيلة والطلب ، وعرفاً : سؤال الخير من الغير للغير . وشفاعة الله سبحانه وتعالى عبارة عن عفوه ، فإنه تعالى يشفع فيمن قال : « لا إله إلا الله » ، مثبتاً رسالة الرسول الذي أرسل إليه ولم يعمل خيراً قط» ، فيتفضل الله تعالى عليه بعدم دخول النار بلا شفاعة أحد ، والمقصود بالمشفع محمد بن عبد الله ﷺ ، فهو المقدم على غيره من الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين ، فهو الذي يفتح باب الشفاعة لغيره ، فعن أنس رضي الله تعالى عنه قال:

حدثني رسولُ اللهِ ﷺ « إني لقائمٌ أنتظرُ أمتي تعبُرُ ، إذ جاءَ عيسى عليه السلامُ . قال : فقالَ : هـذه الأنبياءُ قد جاءَتْكَ يا محمدُ يسألونَ ، أو قالَ : يجتمعونَ إليكَ يدعونَ اللهَ أنْ يُفرِّقَ بَيْنَ جَمعِ الأممِ إلى حيثُ يشاءُ لِعظمِ ما هُم فيه ، فالخلقُ مُلجَمُونَ في العرَقِ ، فأمّا المؤمنُ فهُوَ عليهِ كالزُّكْمَةِ ، وأما الكافرُ فيتغشّاهُ الموتُ ، قالَ ياعيسى : انتظرْ حتى أرجعَ إليكَ . قالَ : وذهبَ نبيُّ اللهِ ﷺ فقامَ تحتَ العرشِ فلقيَ ما لَمْ يَلْقَ ملَكٌ مصطفى ولا نبيٌّ مُرسَلٌ ، فأوحى اللهُ إلى جبريلَ عليهِ السّلامُ أنْ اذهبْ

إلى محمد فقل له ارفعْ رأسكَ ، سَلْ تُعطَه ، واشفعْ تُشفَّعْ ، قالَ فشفعتُ في أُمتي أن أُخرجَ مِنْ كلِّ تسعةٍ وتسعينَ إنساناً واحداً ، قالَ فما زلتُ أترَدَّدُ على رَبِّي فلا أقومُ فيهِ مقاماً إلاّ شفعتُ حتى أعطاني اللهُ مِنْ ذلكَ أنْ قالَ : أدخِلْ مِنْ أُمتكَ مِنْ خلقِ اللهِ مَنْ شهدَ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ يوماً واحداً مُخلصاً ، وماتَ على ذلكَ»(١).

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

«كلُّ نبيٍّ سألَ سُؤالاً . أوْ قال : لِكلِّ نبيٍّ دعوةٌ قد دَعاها لأُمتِهِ ، وإنّي اختبأتُ دَعوتي شَفاعةً لأُمتي»(٢) .

وهذه هي الشفاعة العظمى المختصة به قطعاً ، وهي أول المقام المحمود المذكور في قوله تعالى :

«عَسى أنْ يَبعثَكَ ربُّكَ مَقاماً مَحموداً»(٣) .

أي يحمدك فيه الأولون والآخرون . وآخره استقرار أهل الجنة وأهل النار في النار . روى أبو سعيد رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

«أنا سيدُ وَلدِ آدمَ يومَ القيامةِ ولا فخرَ ، وبيدي لواءُ

---

(١) رواه الإمام أحمد ورواته محتج بهم في الصحيح .

(٢) رواه البخاري ومسلم .

(٣) الإسراء ٧٩ .

الحمدِ ، ولا فخرَ ، وما منْ نبي آدمَ يومئذٍ فمنْ سِواهُ إلاَّ تحتَ لوائي ، وأنا أولُ منْ تنشقُّ عنهُ الأرضُ ولا فخرَ . قال : فيفزعُ النَّاسُ ثلاثَ فزعاتٍ ، فيأتونَ آدمَ . فذكَرَ الحديثَ إلى أنْ قالَ : فيأتوني فأنطلقُ معهمْ ، قالَ ابنُ جدعانَ : قال أنسٌ : فكأنِّي أنظرُ إلى رسُولِ اللهِ ﷺ ، قالَ : فآخذُ بحلْقةِ بابِ الجنَّةِ فأُقعقعُها ، فيقالُ : منْ هذا ؟ فيُقالُ : محمَّدٌ ، فيفتحونَ لي ويُرحِّبُونَ فيقولونَ : مرحباً ، فأخِرُّ ساجداً ، فيلهمني اللهُ منَ الثَّناءِ والحمْدِ ، فيُقالُ لي : إرفعْ رأسَكَ ، سَلْ تُعطَهُ واشفعْ تُشفَّعْ ، وقلْ يُسمَعْ لقولِكَ ، وهوَ المقامُ المحمودُ الَّذي قالَ اللهُ تعالى . الآيةَ»(1).

وله ﷺ شفاعات أخرى منها شفاعته في إدخال قوم الجنة بغير حساب ففي حديث طويل ، قال ﷺ :

«أُمتي ياربِّ ، أُمتي ياربِّ ، فيقالُ : يا محمَّدُ أدخلْ منْ أُمتكَ منْ لا حسابَ عليهمْ منَ البابِ الأيمنِ منْ أبوابِ الجنَّـةِ وهمْ شركاءُ النَّاسِ فيما سوى ذلكَ منَ الأبوابِ ، ثمَّ قالَ : والَّذي نفسي بيدهِ إنَّ ما بينَ المصراعينِ منْ مصاريعِ الجنةِ

(1) رواه الترمذي وقال حديث حسن.

كما بَيْنَ مَكّةَ وهجر ، أو كما بين مكّةَ وبُصرى»[1].

ومنها شفاعته في عدم دخول قوم النار بعد أن استحقوها ، وفي إخراج الموحدين من النار ، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ :

«يَدْخُلُ مِنْ أَهلِ هذهِ القِبلَةِ النّارَ مَنْ لا يُحصي عددهم إلاّ اللهُ بما عصوا اللهَ واجترؤوا على معصيتهِ وخالفوا طاعتَهُ فيُؤذَنُ لي في الشفاعةِ ، فأثني على اللهِ ساجداً ، كما أُثني عليه قائماً ، فيُقالُ لي : إرفعْ رأسَكَ وسَلْ تُعطَهْ واشفعْ تُشفَّعْ»[2] !

ومنها شفاعته في زيادة الدرجات لأهل الجنة وغيرها كما ذكره السيوطي .

والمعتزلة ذهبوا إلى إنكار الشفاعة فيمن استحق النار أن لا يدخلها ، وفيمن دخلها أن يخرج منها ، وإنما يثبتون الشفاعة العظمى وزيادة الدرجات .

وحجتهم حديث : «لا تنال شفاعتي أهل الكبائر من أمتي» .

وهو موضوع باتفاق ، وبتقدير صحته يحمل على من ارتد منهم ، وقد ورد عن أنس أنه قال : قال رسول الله ﷺ :

«شَفاعتي لأهلِ الكبائرِ مِنْ أُمّتي»[3] .

---

(1) رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة .

(2) رواه الطبراني بإسناد حسن في الكبير والصغير .

(3) رواه أبو داوود والبزار والطبراني وابن حبان في صحيحه . والبيهقي من حديث جابر .

١١٤ـ وَغَيْرُهُ مِنْ مُرْتَضَى الأَخْيَارِ
يَشْفَعُ كَمَا قَدْ جَاءَ فِي الأَخْبَارِ

● وغيره من مرتضى : أي غير النبي صلى الله عليه وسلم ممن ارتضاه الله من الأخيار ـ كالأنبياء والمرسلين ، والملائكة والصحابة والشهداء ، والعلماء العاملين ، والأولياء ـ يشفع في أرباب الكبائر على قدر مقامه عند الله تعالى قال أبو أمامة رضي الله تعالى عنه :

«سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ : لَيَدْخُلَنَّ الجَنَّةَ بشفاعةِ رَجُلٍ لَيسَ بِنَبيٍّ مِثْلُ الحيَّيْنِ ، رَبيعةَ ومُضَرَ . فقالَ رَجُلٌ : يا رسولَ اللهِ ، أوَ ما رَبيعةُ ومُضَرُ ؟قالَ : إنَّما أقولُ ما أقولُ»(١).

وعن أنس رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

«إنَّ الرَّجلَ لَيَشْفَعُ للرَّجُلَيْنِ والثَّلاثةِ» .

وشفاعة الملائكة على الترتيب : وأولهم سيدنا جبريل وآخرهم التسعة عشر التي على النار وشفاعة غيره صلى الله عليه ثابتة بالنص ، مجمع عليها من أهل السنة ، ولا يشفع أحد ممن ذكر إلا بعد انتهاء مدة المؤاخذة ، فتكون الشفاعة على هذا إظهاراً لمزية الشافع على غيره ، على أنه لولا الشفاعة لجوزنا البقاء وعدمه بحسب الظاهر لنا .

(١) رواه أحمد بإسناد جيد عن أنس رواه البزار ورواته رواة الصحيح

١١٥ - إذ جاءَ غُفرانٌ غَيرِ الكُفرِ
فَـلا نُكفِّرْ مُؤمِنـاً بالوِزْرِ

● إذ جاء غفران غير الكفر : هذا تعليل الشفاعة . فيجوز - عقلا وسمعاً - غفران غير الكفر من الذنوب بلا شفاعة ، فبالشفاعة من باب أولى . وأما غفران الكفر ، فهو - وإن جاز عقلا - ممتنع شرعاً . والحكمة في غفران الذنوب - دون الكفر - أنها لا تنفك عن خوف عقاب ، ورجاء عفو ورحمة ، بخلاف الكفر . فمرتكب الذنوب مسلم يعتقد نقص نفسه ، فيخاف ويرجو ، ومعتقد الكفر لا يعتقد نقص نفسه ، فلا يخاف عقاباً ، ولا يرجو عفواً ورحمة وثواباً .

ولا يخفى أن هذا التعليل قاصر على الشفاعة في الذنوب . وإنما الشفاعة تشمل الشفاعة في فصل القضاء ، وفي غفران الذنوب .

● فلا نكفر مؤمناً بالوزر : فلا نكفر نحن معاشر أهل السنة أحداً من المؤمنين بارتكاب الذنب صغيراً كان أو كبيراً ، عالماً كان مرتكبه أو جاهلا إلا أن يكون الذنب من المكفرات ، كإنكار علمه تعالى بالجزئيات ، وإلا أن يكون مرتكبه مستحلا له ، وهو معلوم من الدين بالضرورة ، كالزنا . وذهبت الخوارج إلى تكفير مرتكب الذنوب ، وجعلوها جميعها كبائر ولا يكلفون بمذهبهم هذا ، مع أن تكفير المؤمن كفر ، لأنه كان بتأويل واجتهاد . وذهب المعتزلة إلى أن مرتكب الكبيرة في منزلة بين المنزلتين . فمرتكبها - عند الخوارج - مخلد في النار ، ويعذب عذاب الكفار . وعند المعتزلة مخلد في النار ويعذب عذاب الكفار .

١١٦ ـ وَمَنْ يَمُتْ وَلَمْ يَتُبْ مِنْ ذَنْبِهِ
فَـــأَمْرُهُ مُفَوَّضٌ لِرَبِّـــهِ

● ومن يمت ولم يتب ... : أي من يمت بعد أن ارتكب ذنباً من الكبائر غير المكفرة ، بلا استحلال ، والحال أنه لم يتب من ذنبه ، فأمره مفوض وموكول إلى ربه تعالى . فلا نقطع بالعفو عنه لئلا تكون الذنوب في حكم المباحة ، ولا بالعقوبة ، لأنه تعالى يجوز عليه أن يغفر ماعدا الكفر . وعلى تقدير العذاب فإنا نقطع له بعدم الخلود فيه ، هذا هو مذهب أهل الحق . وقد استدلوا له بالآيات والأحاديث الدالة على أن المؤمنين يدخلون الجنة البتة ، كقوله تعالى :

«فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ» .

وقوله ﷺ :

«مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ ، حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ النَّارَ»(١) .

ومن دخل الجنة لا يخرج منها قال تعالى :

«لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ ، وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ»(٢) .

(١) رواه مسلم والترمذي عن أبي هريرة .
(٢) الحجر ٤٨ .

١١٧ - وَوَاجِبٌ تَعْذِيبُ بَعْضِ ارْتَكَبْ
كَبِيرَةً ثُمَّ الخُلُودُ مُجْتَنَبْ

● وواجب تعذيب بعض : إن تعذيب بعض غير معين - من عصاة هذه الأمة ، ارتكبوا الكبيرة ، من غير تأويل ويعذرون به ، وماتوا بلا توبة - ثابت وواقع شرعاً ، بخلاف من ارتكب صغيرة أو كبيرة بتأويل ، كما يقع من البغاة المتأولين ، أو ارتكبها من غير تأويل لكنه مات بعد التوبة . والمقصود هنا أمة الإجابة . والمراد ببعض طائفة ، ولو واحداً من كل صنف من أصناف العصاة ، كالزناة ، وقتلة الأنفس ، وشاربي الخمر . فلا بد من نفوذ الوعيد في طائفة من كل صنف ، أقلها واحد . وهذه المسألة على طريقة الماتريدية ، من أنه لا يجوز تخلف الوعيد . وذهب الأشاعرة إلى جواز تخلفه ، لأنه على تقدير المشيئة ، فإن شاء عذب ، وإن شاء غفر . نعم ، قد ورد تعذيب بعض الموحدين ، والشفاعة فيهم ، لكن لا يعم الأنواع كلها . والحاصل : أن الناس قسمان مؤمن وكافر - فالكافر مخلد - إجماعاً - في النار . والمؤمن قسمان ، طائع وعاص ، فالطائع - إجماعاً - في الجنة ، والعاصي على قسمين ، تائب وغير تائب فالتائب - إجماعاً - في الجنة ، وغير التائب متروك للمشيئة ، وعلى تقدير عذابه لا يخلد في النار .

١١٨- وصف شهيد الحرب بالحياة ورزقه من مشتهى الجنات

● وصف شهيد الحرب ... : أي اعتقد وجوباً اتصاف شهيد الحرب بالحياة الكاملة ، وإن كانت كيفيتها غير معلومة لنا ، وقد ورد أنه ﷺ قال :

« ما يجدُ الشهيدُ مِنْ مَسِّ القتلِ إلاّ كما يجدُ أحدُكُم مِنْ مَسِّ القَرْصَةِ »[١].

والأنبياء - وإن كانوا جميعهم أحياء حياة برزخية - أكمل حياة من الشهداء ، والشهداء أكمل حياة من بقية الأموات ، وهي حياة حقيقية ثابتة للروح والذات جميعاً . فالروح متصلة بالأجسام اتصالاً قوياً وإن كان مقرها حواصل الطيور الخضر الرائعة في رياض الجنة ، قال رسول الله ﷺ :

« إنَّ أرْوَاحَ الشُّهَدَاءِ في طَيْرٍ خُضْرٍ تَعلَّقُ مِنْ ثَمَرِ الجَنَّةِ ، أوْ شَجَرِ الجَنَّةِ »[١].

وعلى كل فهي أمور خارقة للعادة فلا يقاس عليها غيرها ، ويجب اعتقاد أن الله تعالى يرزق شهيد الحرب من محبوب نعيم الجنات ، إلا أنه يتناولون الأكل والشرب للتلذذ ، لا الإحتياج ، قال الله تعالى :

---

(١) رواه الترمذي عن أبي هريرة وقال حسن صحيح ، وابن حبان في صحيحه .

(١) رواه الترمذي عن كعب بن مالك وقال حسن صحيح .

«وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً ، بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ»[1] .

وليس هناك ضرر من كون أرواحهم في حواصل الطيور ، لأن أجوافها شفافة لاتحجبها أو أن الطيور كناية عن سرعة قطع المسافة البعيدة[2]

والشهداء ثلاثة : شهيد الدنيا والآخرة ، وهو من قاتل لإعلاء كلمة الله تعالى وهو المقصود هنا ، وشهيد الدنيا فقط ، وهو الذي قاتل لأجل غنيمة ، فليس له الثواب الكامل وإن جرت عليه أحكام الشهداء في الدنيا ، وشهيد الآخرة فقط كالمطعون والمبطون ونحوهما ، فهو كالأول في الثواب ، لكنه دونه في الحياة والرزق ولا تجري عليه أحكام الشهداء في الدنيا ، فيغسل ويصلى عليه ، قال رسول الله ﷺ :

«القَتْلَى ثَلَاثَةٌ ، رَجُلٌ مُؤْمِنٌ جَاهَدَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ ، حَتَّى إِذَا لَقِيَ العَدُوَّ وَقَاتَلَهُمْ حَتَّى يُقْتَلَ ، فَذَلِكَ

---

(١) آل عمران ٦٩ .

(٢) عن عبد الله بن جعفر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هنيئاً لك ياعبدالله أبوك يطير مع الملائكة في السماء » رواه الطبراني بإسناد حسن . وعن سالم بن أبي الجعد قال : أريهم (أي أمراء غزوة مؤتة) النبي صلى الله عليه وسلم في النوم ، فرأى جعفراً ملكاً ذا جناحين مضرجين بالدماء وزيداً مقابله ، رواه الطبراني وهو مرسل جيد الإسناد . قال الحافظ : كان جعفر قد ذهبت يداه في سبيل الله يوم مؤتة فأبدله الله بهما جناحين ، فمن أجل ذلك سمي جعفراً الطيار . وقال السهيلي : إن الجناحين عبارة عن صفة ملكية ، وقوة روحانية أعطيها جعفر ، يقتدر بها على الطيران ، لا أنهما جناحان كجناحي الطائر ، كما قد يسبق للوهم . لأن الصورة الآدمية أشرف الصور . ا هـ . السيرة الدحلانية الجزء ٢ ص ٢٧٨ .

الشَّهِيدُ المُمْتَحَنُ ، فِي جَنَّةِ اللهِ ، تَحْتَ عَرْشِهِ ، لا يَفْضُلُهُ النَّبِيُّونَ إلاَّ بِفَضْلِ دَرَجَةِ النُّبُوَّةِ . ورَجُلٌ فَرَقَ على نَفْسِهِ مِنَ الذُّنُوبِ والخَطَايَا جَاهَدَ بِنَفْسِهِ ومَالِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ ، حَتَّى إذا لَقِيَ العَدُوَّ قَاتَلَ حَتَّى يُقْتَلَ ، فَتِلْكَ مُمَصْمِصَةٌ تَحْتَ ذُنُوبِهِ وخَطَايَاهُ ، إنَّ السَّيْفَ مَحَّاءٌ لِلْخَطَايَا وأُدْخِلَ مِنْ أيِّ أبوابِ الجنةِ شاءَ فإنَّ لَهَا ثَمَانِيَةَ أبوابٍ ، ولِجَهَنَّمَ سَبْعَةُ أبوابٍ ، وبعضُها أفْضَلُ مِنْ بَعْضٍ ، ورَجُلٌ مُنَافِقٌ جَاهَدَ بِنَفْسِهِ ومَالِهِ حَتَّى إذا لَقِيَ العَدُوَّ وقَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ حَتَّى يُقْتَلَ فذلكَ في النَّارِ ، إنَّ السَّيْفَ لا يَمْحُو النِّفَاقَ »[1]

ووردت أحاديث في أصناف الشهداء منها ما رواه أبو هريرة قال :

قال رسول الله ﷺ :

« ما تَعُدُّونَ الشُّهَدَاءَ فِيكُمْ ؟ قالوا : يارَسُولَ اللهِ مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَهُوَ شَهِيدٌ . قَالَ : إنَّ شُهَدَاءَ أُمَّتِي إذاً لَقَلِيلٌ . قالوا : فَمَنْ يارَسُولَ اللهِ ؟ قالَ : مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَهُوَ شَهِيدٌ ، ومَنْ ماتَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَهُوَ شَهِيدٌ ، ومَنْ ماتَ فِي

(١) رواه أحمد باسناد جيد عن عتبة بن عبد السلمي ، وابن حبان في صحيحه ، واللفظ له . وإنما قاتل المنافق في سبيل الله على مايبدو للناس ، وباطنه نفـاق . المصمصة : المحصة . والممتحن : المشروح صدره .

الطّاعون فهُوَ شهيدٌ ، ومَنْ ماتَ منَ البطْنِ فهُوَ شهيدٌ ، والغريقُ شهيدٌ »[1] .

وقال أيضاً :

« الشُّهداءُ خمْسَةٌ ، المَطْعُونُ ، والمبطونُ ، والغَريقُ ، وصاحِبُ الهَدْمِ ، والشَّهيدُ في سَبيلِ اللهِ »[2] .

وعن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال :

« خَمسٌ مَنْ قُبِضَ في شيْءٍ منْهُنَّ فهُوَ شَهيدٌ : المَقْتُولُ في سَبيلِ اللهِ شَهيدٌ ، والغَريقُ في سَبيلِ اللهِ شَهيدٌ ، والمَبْطونُ في سَبيلِ اللهِ شَهيدٌ ، والمطعُونُ في سَبيلِ اللهِ شَهيدٌ ، والنُّفَساءُ في سَبيلِ اللهِ شَهيدٌ »[3] .

وعن أبي هريرة قال :

جاءَ رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقالَ : يا رَسُولَ اللهِ ، أرأيتَ إنْ جاءَ رَجلٌ يُريدُ أَخْذَ مالي ؟ قالَ : فَلا تُعطِه مالَكَ . قالَ : أَرأيتَ إنْ قاتَلَني؟ قالَ : قاتِلْهُ . قالَ : أرأيت إنْ

(١) المقصود بمن مات في سبيل الله من يكون مع الجيش في الميدان لكنه يموت بلا نزال . رواه مسلم .
(٢) رواه مالك والبخاري ومسلم
(٣) رواه النسائي

قَتَلَنِي ؟ قالَ : فأنْتَ شَهِيدٌ . قالَ : أَرَأَيْتَ إنْ قَتَلْتُهُ ؟ قالَ : هُوَ في النَّارِ »[1] .

وإنما سمي الشهيد شهيداً لشهادة الله وملائكته له بالجنة والرضا عنه ، روى البخاري عن أنس قال : أنزل في الذين قتلوا ببئر معونة قرآن قرأناه ، ثم نسخ بعد « بلغوا قومنا أنا قد لقينا ربنا ، فرضي عنا ، ورضينا عنه » . ولأن روحه شهدت دار السلام بخلاف غيره ، فإنه لايشهدها إلا يوم القيامة . وقد قال النسفي : بأن أرواح المسلمين - إن دخلت الجنة الآن ، كما دلت عليه الأحاديث - لاتكون كالشهيد في الحياة والرزق بل لاتأكل فيها ولا تتمتع .

(١) رواه مسلم والنسائي

١١٩ـ وَالرِّزْقُ عِنْدَ القَوْمِ مَا بِهِ انْتُفِعْ
وَقِيلَ: لا، بَلْ مَا مُلِكْ، وَمَا اتُّبِعْ

● والرزق عند القوم ما به انتفع: أي الشيء المرزوق ـ عند أهل السنة ـ هو ما ساقه الله إلى المخلوقات فانتفع به بالفعل.

وقوله تعالى: «وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ»[1].

يدل على أن غير المنتفع به بالفعل رزق، إلا إذا كان الرزق فيه بمعنى الإعطاء، أي: ومما أعطيناهم ينفقون فالمراد ما هيء لكونه رزقاً.

ودخل في الرزق على هذا التعريف رزق الإنسان والدواب وغيرها، وشمل المأكول وغيره مما انتفع به. وخرج مالم ينتفع به بالفعل، فمن ملك شيئاً ولم ينتفع به بالفعل فليس ذلك الشيء رزقاً. وبهذا يظهر قول أكابر أهل السنة: إن كل أحد يستوفي رزقه، وإنه لا يأكل أحد رزق غيره، ولا يأكل غيره رزقه. وفي الخبر:

«إنَّ رُوحَ القُدُسِ نَفَثَ في رُوعِي: لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حتى تَسْتَكْمِلَ رِزْقَها، فاتَّقُوا اللهَ وأَجْمِلوا في الطَّلَبِ، ولا يَحْمِلَنَّ أَحَدَكُمْ اسْتِبطاءُ الرِّزْقِ أنْ يَطْلُبَهُ بِمَعْصِيَةِ اللهِ فإنَّ اللهَ تعالى لا يُنالُ ما عِنْدَهُ إلا بطاعَتِه»[2].

---

(١) البقرة ٣
(٢) رواه ابن حبان في صحيحه عن ابن مسعود مرفوعاً.

والرزق رزقان ، ظاهر أي مادي ، كالأقوات للأبدان ، وباطن أي معنوي ، كالعلوم والمعارف للقلوب[1] .

● وقيل لا ... : ذهب جماعة من المعتزلة إلى أن الرزق هو ما ملك، لا ما انتفع به ، فلا يعتبر الإنتفاع ، وإنما تعتبر المملوكية ، ويلزم على هذا أنه لا يستوفي أحد رزقه ، وأنه قد يأكل رزق غيره ، ويأكل غيره رزقه . لهذا لم يتبع أئمتنا هذا القول لفساده . لأن الله تعالى مالك لجميع الأشياء ، ولا يسمى ملكه رزقاً اتفاقاً ، وإلا لكان مرزوقاً ، ولأنه يخرج رزق الدواب والعبيد والإماء عند بعض الأئمة - كالشافعي - فإنه يقول : لاملك للعبيد والإماء أصلاً .

(١) إن الرزق المادي يستجلب بمباشرة الأسباب ، ولا تمحق بركته أو يمسكه الله تعالى الا ابتلاء ، ليظهر به الصابرون؟ أو عقاباً بما يقترف من المعاصي والسيئات ، قال تعالى : «ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس» . وظهور الفساد في البر إنما هو القحط بما اجترحته أيدي الناس من الذنوب، كما قاله بعض المفسرين . وقد قال المناوي في فيض القدير عند قوله صلى الله عليه وسلم : «طوبى لعيش بعد المسيح ، يؤذن للسماء في القطر ، ويؤذن للأرض في النبات ، حتى لو بذرت حبك على الصفا لنبت ، وحتى يمر الرجل على الأسد فلا يضره ، ويطأ على الحية فلا تضره ، ولا تشاح ولا تحاسد ، ولا تباغض» . قال : ومقصود الحديث أن النقص في الأموال والثمرات ووقوع التحاسد والتباغض إنما هو من شؤم الذنوب والمعاصي . فاذا طهرت الأرض من ذلك أخرجت بركتها وعادت كما كانت ، حتى أن العصابة ليأكلون الرمانة ويستظلون بقحفها، ويكون العنقود من العنب وقر بعير ، فالأرض إذا طهرت ظهرت فيها آثار البركة التي محقتها الذنوب . ذكره ابن القيم . اهـ . وأما الرزق المعنوي فيكون هبة من الله تعالى وله جانب كسبي ، وهو التعرض لرحمات الله سبحانه « إن لربكم في أيام دهركم لنفحات ، ألا فتعرضوا لها» . وبتفريغ القلب عما سوى الله باغراقه في الحضور مع الله تعالى، وبمداومة التوبة ، والاقلاع عن الشهوات ، وبتصفيته من الأخلاق المذمومة فاذا ماتم هذا توالت عليه سحائب الرحمة . قال ابن عطاء الله : كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة في مرآته ؟ أم كيف يرحل الى الله وهو مكبل بشهواته ؟ أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته ؟ أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الاسرار وهو لم يتب من هفواته ؟ » .

١٢٠- فَيَرْزُقُ اللَّهُ الْحَلَالَ فَاعْلَمَا ۞ وَيَرْزُقُ الْمَكْرُوهَ وَالْمُحَرَّمَا

● فيرزق الله الحلال : الحلال هو ما كان مباحاً بنص ، أو إجماع أو قياس جلي . ولا ينبغي اليوم أن يسأل عن أصل الشيء ، لأن الحلال ماجهل أصله ، والأصول قد فسدت واستحكم فسادها فأخذ الشيء على ظاهر الشرع أولى من السؤال عن شيء يتبين تحريمه . قال القزويني : ومن قال إن الحلال ليس بموجود فقد طعن في الشريعة وهو أحق حصل له ذلك من جهله ، فإن الله تعالى لم يكلف الخلق عين الحلال في علمه تعالى بل كلفهم أن يصيبوا الحلال في اعتقادهم وظنهم . والمكروه مانهي عنه نهياً غير أكيد . والمحرم مانهي عنه نهياً أكيداً . وتفصيل هذا في كتب الفقه . وقد ذهبت المعتزلة إلى أن الله تعالى لايرزق الحرام ، قال الشيخ كمال الدين : إن أراد المعتزلة بهذا ، الأدب اللفظي فلا بأس به ، وإن أرادوا غير ذلك فهم مخطئون بإجماع . والمراد بالأدب اللفظي : أنه لاينسب لله سبحانه إلا الخير وإن كان الكل منه .

١٢١ـ في الاكتساب والتوكل اختلف والراجح التفصيل حسبما عرف

● اختلف العلماء في أفضلية الاكتساب والتوكل . فرجح قوم الاكتساب ، وهو مباشرة الأسباب بالاختيار ـ كالبيع والشراء ـ لأجل الربح ، ومثله تعاطي الدواء لأجل الصحة ونحو ذلك ، ووجهوه لما فيه من كف النفس عن التطلع لما في أيدي الناس ، ومنعها عن الخضوع لهم والتذلل بين أيديهم ، مع حيازة منصب التوسعة على عباد الله ومواساة المحتاجين وصلة الأرحام بتوفيق الله تعالى . ورجح قوم التوكل ، وهو الاعتماد على الله تعالى ، وقطع النظر عن الأسباب مع التمكن منها وإنما وجهوه لما فيه من ترك مايشغل عن الله تعالى والاتصاف بالرغبة إليه سبحانه ، والوثوق بما عنده ، مع حيازة مقام السلامة من فتنة المال والمحاسبة عليه . فمن معقل بن يسار رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

«يقولُ ربُّكُم : يا ابنَ آدمَ تفرَّغْ لِعبادتي أملأْ قلبَكَ غنىً ، وأملأْ يدَكَ رزقاً ، يا ابنَ آدمَ لا تُباعِدْ مِنِّي أملأْ قلبَكَ فقراً ، وأملأْ يدَكَ شُغلاً»(١) .

وقد أخرج القضاعي : من انقطع إلى الله كفاه الله كل مؤنة ورزقه من حيث لايحتسب ، ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله إليها . وقال سليمان

(١) رواه الحاكم وقال : صحيح . وانظره في الترغيب والترهيب ٤/٩١٧ .

الخواص : لو أن رجلاً توكل على الله بصدق النية لاحتاج اليه الأمراء ومن دونهم ، وكيف يحتاج هو إلى أحد ومولاه هو الغني الحميد .
وقد سبق ترجيح تفضيل الغني الشاكر على الفقير الصابر .

● والراجح التفصيل : أي إن الراجح من المذهبين التفصيل في القول ، مما عرف من الإحياء للغزالي ، والرسالة القشيرية للقشيري ، وحاصله : أنهما يختلفان باختلاف أحوال الناس ؛ فمن صبر على ضيق معيشته ، بحيث لايتسخط ، ولا يتطلع لسؤال أحد فالتوكل في حقه أرجح ، لما فيه من مجاهدة النفس على ترك شهواتها ولذاتها ، والصبر على شدتها . ومن لم يكن كذلك فالأرجح في حقه الاكتساب حذراً من التسخط وعدم الصبر بل ربما وجب في حقه الاكتساب . وهذا كله يتمشى على أن التوكل ينافي الكسب كما هو طريقة أبي جعفر الطبري ومن وافقه . وإنما الجمهور على أنه لاتنافي بين الكسب والتوكل ، فقد يكون متوكلا وهو مكتسب . إذ التوكل هو الثقة بالله سبحانه وتعالى والإعتماد عليه ، والاعتقاد بأن الأمر كله منه واليه وهذا محله القلب . أما مباشرة الأسباب فمحلها الجوارح ، لذا لا تنافي بين عمل القلب والجوارح واجتماعها ممكن ، وقد ورد عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه :

أَنَّ رجلاً قال : يَا رَسولَ الله ، أَعْقِلُهَا وأَتَوَكَّلُ ، أو أُطْلِقُهَا وأَتَوَكَّلُ ؟ (يُشِيرُ إلى نَاقَتِهِ) فقال رسول الله ﷺ : « اعْقِلْهَا وتوكَّلْ »(١) .

وفيه جمع بين الأخذ بالأسباب ونفي التأثير عنها بالتوكل على الله تعالى .

(١) رواه الترمذي وتفرد به (٢٥١٩/٧) .

١٢٢ـ وعندنا الشيءُ هو الموجودُ ، وثابتٌ في الخارج الموجودُ

وعندنا الشيء هو الموجود : أي عندنا معاشر أهل الحق ، أشاعرة وغيرهم الشيء هو الموجود . فباعتبار تميزه في الخارج عما عداه يسمى شيئاً ، وباعتبار تحققه - في الخارج - يسمى موجوداً . فكل شيء موجود . والشيئية هي تميزه في الخارج عما عداه ، والوجود هو تقرره - في الخارج - بحيث تصح رؤيته ، أما المعدوم فليس بشيء سواء كان ممكناً أو ممتنعاً ، خلافاً للمعتزلة . فالمعدوم عندهم شيء ، لأن الأشياء - قبل وجودها - ثابتة في نفسها ، إلا أنها مستترة كاستتار الثوب في الصندوق . لذلك يقولون : إن الحقائق ليست بجعل جاعل ، فالقدرة ما تعلقت بها إلا لإخراجها من الاستتار إلى الظهور ، وأهل السنة يقولون إنها بجعل جاعل ، تعلقت القدرة بوجودها لعدم ثبوتها قبل ذلك .

وثابت في الخارج : أى إن الحقائق التي نتعقلها ، ونطلق عليها الأسماء - كسمى الإنسان والأرض والسماء - ثابتة في الواقع ، وهذا رد على السوفسطائية الزاعمين أن حقائق الاشياء إنما هي خيالات لاثبوت لها في الواقع . وقد أتى أحدهم على بغلة إلى الإمام أبي حنيفة يناظره . فأمر الإمام رحمه الله بعض تلامذته أن يذهب بالبغلة ويسترها . فلما خرج السوفسطائي ولم يجدها طلبها ، فقال له الإمام : أنت تزعم أنه لم يكن لبغلتك حقيقة فلم تطلبها ؟ فتاب على يديه ورد إليه بغلته .

● وجود شيء عينه .. : ذهب الإمام الفخر الرازي إلى أن وجود الشيء ليس عين حقيقته وفسره بأنه الحال الثابتة للذات مادامت الذات، وهذه الحال غير معللة بعلة ، كما في « العلم » - مثلاً - فإنها معللة بقيام العلم بالذات . وذهب الأشعري ، ومن تبعه ، إلى أن وجود شيء من الموجودات هو عين حقيقته . وأبقى بعضهم عبارة الأشعري على ظاهرها وجعل في عـد الوجود صفة تسامحاً . وأول العبـارة بعض المحققين - كالسعد - بأن المراد : أن وجود الشيء ليس زائداً في الخـارج بحيث يرى كالقدرة والإرادة ، فلا ينافي أنه أمر اعتباري ، وهو ثبوت الشيء ، وهذا هو التحقيق ، وإن كان ظاهر عبارة المصنف يفيد أن الوجود عين الموجود حقيقة ، كما هو ظاهر عبارة الأشعري .

والمقصود بالجوهر مالا يتجزأ ، لا قطعاً ، ولا كسراً ، ولا وهماً ، ولا فرضاً مطابقاً للواقع ، وإلا فقد يفرض العقل المحال . فكل جوهر حادث ، لأنه مسبوق بالعدم وجميع الأجسام متركبة من الجواهر ، فهي حادثة أيضاً ، والعالم بجميع أجزائه حادث ، هذا هو مذهب المسلمين . وقالت الفلاسفة : جميع الأجسام متركبة من الهيولى ، أي المادة الأولية ، ومن الصورة . وهم منكرون للجوهر الفرد ، وإنما المقصود هنا الحكم عليه بالوجود والحدوث .

١٢٤ـ ثُمَّ الذُّنوبُ عِنْدَنا قِسْمانِ صَغِيرةٌ كَبِيرةٌ فالثَّاني

● ثم الذنوب : عند جمهور أهل السنة قسمان ، صغائر وكبائر ، خلافاً للمرجئة حيث جعلوها كلها صغائر ولا تضر مرتكبها مادام على الإسلام ، وخلافاً للخوارج حيث ذهبوا إلى أنها كلها كبائر وكل كبيرة كفر . وخلافاً لمن ذهب إلى أنها كلها كبائر نظراً لعظمة من عُصي بها ، ولكن لا يكفر مرتكبها إلا بما هو كفر منها ، كسجود لصنم ، أو رمي مصحف في قاذورة أو قول عن الجور بأنه عدل . وليست الكبائر منحصرة في عدد وهي كل ذنب كبر كبراً يصح معه أن يطلق عليه اسم الكبيرة . ولها أمارات ، منها إيجاب الحد ، والإبعاد عليها بالعقاب ، ووصف فاعلها بالفسق ، واللعن ، وأكبرها الشرك بالله تعالى . ثم قتل النفس المحرم قتلها . وأما الزنا واللواطة وعقوق الوالدين والسحر والقذف والفرار من الزحف وأكل الربا فمن الكبائر ، إلا أنه تختلف أمورها باختلاف الأحوال والمفاسد المترتبة عليه ، فيقال لكل منها هي من أكبر الكبائر . وكذلك الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم بل قال الشيخ الجويني : إن من تعمد الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم يكفر كفراً يخرجه من الملة ، وتبعه على ذلك طائفة .

وكل ما خرج عن حد الكبيرة وضابطها فهو صغيرة . والإصرار هو معاودة الذنب مع نية العودة إليه عند الفعل ، فان عاوده من غير نية العود لم يكن إصراراً على الأصح ، والتهاون هو الاستخفاف وعدم المبالاة والفرح والافتخار بها ، وصدورها من عالم يقتدى به فيها .

٥٢١ ـ منهُ المَتَابُ واجبٌ في الحالِ ولا انتقاضَ إنْ يَعُدْ للحالِ

● منه المتاب واجب :[1] ، أي الكبائر واجب على موتكبها أن يتوب منها فوراً حال تلبسه بها فتأخيرها ذنب واحد ولو تراخى . نعم يتفاوت باعتبار طول الزمان وقصره خلافاً للمعتزلة القائلين بتعدد الذنب بتعدد الزمان ، حتى لو أخرها لحظة بعد لحظة ، فالذنب بأربعة ذنوب . الذنب الأول ، وتأخير توبته في اللحظة الأولى ، وتأخير التوبة من هذين في الثانية . وعبارة النووي : واتفقوا على أن التوبة من جميع المعاصي واجبة على الفور ولا يجوز تأخيرها ، سواء كانت المعصية صغيرة أو كبيرة . والتوبة ـ لغة ـ مطلق الرجوع ، وشرعاً ما استجمع أركاناً ثلاثة : الإقلاع من الذنب ، والندم على فعلها خوفاً من الله تعالى ، والعزم على أن لا يعود إلى مثلها أبداً ، فلا تصح توبة من لم يعزم . هذا إن لم تتعلق المعصية بالآدمي ، فإن تعلقت به فلها شرط رابع ، وهو : رد الظلامة إلى صاحبها ، أو تحصيل البراءة منه ، تفصيلاً ـ عندنا معاشر الشافعية ـ أو إجمالاً ـ عند المالكية ـ وفيه فسحة . فإن لم يقدر ـ بأن كان مستغرق الذمم ـ فالمطلوب منه الإخلاص وكثرة التضرع إلى الله تعالى . لعله يرضي عنه خصماءه يوم القيامة . وقد شروط لصحة التوبة تتعلق بالوقت ، منها صدورها قبل الغرغرة ، وقبل

(١) المتاب : مبتدأ . وواجب : خبر . والمبتدأ والخبر يقعان خبراً للمبتدأ في آخر البيت السالف ، وهو قوله « فالثاني » . أي : فالثاني المتاب منه واجب .

طلوع الشمس من مغربها . ولا فرق عند الأشاعرة بين الكافر والمؤمن العاصي وعند الماتريدية تصح من المؤمن العاصي فحسب . ووجوب التوبة عيني (أي يجب على كل مكلف) ، ودليله سمعي فقد وردت آيات كريمة كثيرة وأحاديث شريفة تحض على التوبة وتأمر بها .

● ولا انتقاض : أي لا تنقض التوبة الشرعية إن عاد التائب للحال التي كان عليها من التلبس بالذنب ، فلا يعود ذنبه الذي تاب منه بعوده إلى مثله ، خلافاً للمعتزلة حيث قالوا : بانتقاض التوبة بعوده للذنب ، لأن من شروطها ـ عندهم ـ ألا يعاود الذنب بعد التوبة .

وعند الصوفية : معاودة الذنب بعد التوبة أقبح من سبعين ذنباً بلا توبة .

١٣٦ـ لكِنْ يُجَدِّدُ تَوْبَةً لِمَا اقْتَرَفْ
وَفِي القَبُولِ رَأْيُهُمْ قَدِ اخْتَلَفْ

● لكن يجدد توبة : أي لكن يجب على المعاود تجديد التوبة للذنب المرتكب ثانية ، فلا يضره إلا الإصرار على المعاصي ، بخلاف ما إذا كان كلما وقع في معصية تاب منها . قال تعالى :

« إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ »[1] .

وهم الذين كلما أذنبوا تابوا . واختلف العلماء في قبول توبة غير الكافر ، فقال أبو الحسن الأشعري : إنها تقبل قطعاً ، بدليل قطعي ، كما في قوله تعالى :

« وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ »[2] .

وما الدعاء بقبولها إلا لعدم الوثوق بشروطها . وقال إمام الحرمين والقاضي : إنها تقبل ظناً ، بدليل ظني ، لكنه قريب من القطعي إذ يحتمل قوله تعالى :

« وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ »

أنه يقبلها إن شاء . وأما توبة الكافر فمقبولة قطعاً بدليل قطعي اتفاقاً لقوله تعالى :

« قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ »[3]

(١) البقرة ٢٢٢
(٢) الشورى ٢٥
(٣) الأنفال ٣٨

وذهب إمام الحرمين إلى وجوب ندم الكافر على ما مضى مع إعلان إسلامه ، وذهب غيره إلى كفاية إعلان الإسلام لأنه بالإيمان يمحى الكفر .

ثم شرع فيما يسمى بالكليات الست ، إن جعل العِرْض مستقلاً عن النسب . وسميت بالكليات لما يتفرع عليها من أحكام ، ولوجوبها في كل ملة .

ولاعبرة بكون الخمر مثلاً كان جائزاً في صدر الإسلام ثم حرم ، لأن الأمر منوط بما استقر عليه الأمر ، لا بما ابتدىء به .

١٢٧ـ وَحِفْظُ دِينٍ ثُمَّ نَفْسٍ مَالٍ نَسَبْ
وَمِثْلُهَا عَقْلٌ وَعِرْضٌ قَدْ وَجَبْ

● وحفظ دين : إن آكد هذه الأمور هو حفظ الدين ، لأن حفظ غيره وسيلة لحفظه . ثم النفس ، لأن قتل النفس يلي الكفر . ثم النسب ، وهو الإرتباط بين الوالد وولده . ثم العقل ، وقدم النسب عليه لأن الزنا أشد تحريماً من شرب الخمر . ثم المال ، وفي مرتبته العرض ، إن لم يؤد الطعن فيه إلى قطع النسب فإن أدى إلى ذلك ـ كأن قذف زوجته في الزنا ، ونفى ولدها عنه ـ فهو في مرتبة النسب ، والعرض هو موضع المدح والذم من الإنسان وهو وصف اعتباري ، تقويه الأفعال الجيدة ، وتزري به الأفعال القبيحة ، وإنما قدم المال لأن العقوبة على أخذ المال سرقة أو قطعاً للطريق ـ أعظم من العقوبة المترتبة على الخوض في الأعراض كما في القذف .

والدين : هو ما شرعه الله تعالى لعباده من الأحكام ، وحفظه صيانته عن الكفر ، وانتهاك حرمة المحرمات ووجوب الواجبات ، بأن يفعل المحرمات غير مبال بحرمتها ويترك الواجبات غير مبال بوجوبها . ولحفظه شرع قتال الكفار الحربيين وغيرهم ، كالمرتدين . ولحفظ النفس العاقلة شرع القصاص . ولحفظ المال شرع حد السرقة ، وحد قطع الطريق . ولحفظ النسب شرع حد الزنى . ولحفظ العقل شرع حد شرب الخمر والدِّية بمن أذهبه جناية . ولحفظ العرض شرع حد القذف لمن قذف عفيفاً ، والتعزير لمن قذف غير عفيف . وقد وجب حفظ جميع ماذكر مع ملاحظة الآكد منها .

١٢٨ ـ وَمَنْ لِمَعْلُومٍ ضَرُورَةً جَحَدْ
مِنْ دِينِنَا يُقْتَلُ كُفْراً لَيْسَ حَدْ

● ومن لمعلوم:[١] ومن جحد أمراً معلوماً من أدلة ديننا يشبه الضرورة[٢] بحيث يعرفه خواص المسلمين وعوامهم، وهو ما ثبت بالقرآن الكريم، وكان قطعي الدلالة، أو بالسنة المشهورة المتواترة كذلك، وليس فيه شبهة، أو بإجماع جميع الصحابة المتواتر إجماعاً قطعياً، قولياً غير سكوتي. ـ كوجوب الصلاة والصوم، وحرمة الزنا، وشرب الخمر، يقتل لأجل كفره ـ لأن جحده مستلزم لتكذيب النبي صلى الله عليه وسلم، وليس قتله حداً وكفارة لذنبه كما في سائر الحدود فإنها كفارات الذنوب.

(١) من، اسم موصول بمعنى الذي في محل رفع مبتدأ. وصلته جملة جحد وخبره جملة يقتل. والجار والمجرور في قوله لمعلوم متعلقان بالفعل جحد. والتقدير: ومن جحد لمعلوم ضرورة يقتل.

(٢) الضرورة: معناها البداهة.

١٢٩ ـ وِمثْلُ هذَا مَنْ نَفَى لِمُجْمَعِ
أوْ استَبَاحَ كالزِّنَا فَلْتَسْمَعِ

● ومثل هذا من نفى : أي وأما من نفى حكماً مجمعاً عليه إجماعاً قطعياً فحكمه مثل حكم من جحد أمراً معلوماً من الدين بالضرورة ، والإجماع ـ هنا ـ هو ما اتفق المعتبرون على كونه إجماعاً ، بخلاف الإجماع السكوتي ، فإنه ظني . لا قطعي . فظاهر النظم أن من نفى مجمعاً عليه يكفر ، وإن لم يكن معلوماً من الدين بالضرورة ، كاستحقاق بنت الإبن السدس مع بنت الصلب ، وهو ضعيف وإن جزم به الناظم . والراجح أنه لا يكفر من نفى المجمع عليه إلا إذا كان معلوماً من الدين بالضرورة ، وإلا إذا اعتقد إباحة محرم مجمع عليه ، معلوم من الدين بالضرورة ولو صغيرة ، سواء كان تحريمه لعينه ـ كالزنا وشرب الخمر ، أو لعارض . وقد ذهب بعض الماتريدية إلى أن من اعتقد حل محرم لعارض لا يكفر ، ولا يخفى أنه يلزم من استباحة المحرم المجمع عليه المعلوم من الدين بالضرورة نفي مجمع عليه ، فهو داخل فيما قبله ، وإنما ذكره زيادة في الإيضاح

١٣٠ ـ وَوَاجِبٌ نَصْبُ إِمَامٍ عَدْلِ
بِالشَّرْعِ فَاعْلَمْ لَا بِحُكْمِ الْعَقْلِ

● وواجب ...: إن نصب إمام عادل واجب على الأمة عند عدم النص من الله تعالى أو رسوله على معين ، أو عند عدم الاستخلاف من الإمام السابق . والنص من الله تعالى كقوله :

« يادَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ »[1] .

والاستخلاف كما وقع من أبي بكر في استخلاف عمر رضي الله عنهما . ولا فرق ـ عند أهل السنة وأكثر المعتزلة ـ في وجوب نصب الإمام بين زمن الفتنة وغيره . والمراد بالعدل عدل الشهادة ، ولا يتحقق إلا بشروط خمسة : الإسلام ، والبلوغ والعقل والحرية ، وعدم الفسق [2] فالكافر

---

(١) ص ٢٦

(٢) قال القرطبي في تفسيره (جـ ١ ص ١٧٠) : شرائط الإمام أحد عشر شرطاً :
أولاً : أن يكون من صميم قريش (وقد اختلف في هذا الشرط) .
ثانياً وأن يكون ممن يصلح أن يكون قاضياً مجتهداً ، لا يحتاج الى غيره في الاستفتاء في الحوادث (وهذا متفق عليه) .
ثالثاً : وأن يكون ذا خبرة ورأي حصيف بأمر الحرب وتدبير الجيوش وحماية البيضة وردع الأمة ، والانتقام من الظالم .
رابعاً : وأن يكون لا تلحقه رقة في إقامة الحدود ، ولا فزع من ضرب الرقاب (والدليل على هذا كله إجماع الصحابة) .
خامساً : وأن يكون حراً .
سادساً : مسلماً .
سابعاً : ذكراً (وأجمعوا على أن المرأة لا يجوز أن تكون إماماً) .
ثامناً : وأن يكون سليم الأعضاء .
تاسعاً : بالغاً .
عاشراً : عاقلاً (ولا خلاف في ذلك) .
أحد عشر : وأن يكون عدلاً (ولا خلاف بين الأمة أنه لا يجوز أن تعتقد الإمامة لفاسق . ويجب أن يكون من أفضلهم علماً) اهـ . باختصار .

لا يراعي مصلحة المسلمين ، والصبي والمجنون لا يليان أمر نفسيهما فكيف يليان أمر غيرهما . والرقيق مشغول بخدمة سيده ، ومستحقر في أعين الناس ، فلا يهاب ولا يمتثل أمره . والفاسق لا يوثق به في أمر أو نهي . ويكفي العدل الظاهر لأنه ما كلفنا به . أما العدالة الباطنية فلا تشترط .

ووجوب نصب الإمام إنما تحقق بالشرع عند أهل السنة (١) ، لا بالعقل ، كما ذهب إليه بعض المعتزلة كالجاحظ وغيره . ومن الوجوه الدالة على وجوبه شرعاً أن الشارع أمر بإقامة الحدود وسد الثغور وتجهيز الجيوش ،

---

(١) في تعريف الإمامة قال الشيخ عبد السلام: متى أطلقت الإمامة انصرفت للخلافة وهي رياسة عامة في أمور الدين والدنيا ، نيابة عن النبي صلى الله عليه وسلم وعرفها صاحب كتاب المواقف : بأنها خلافة الرسول صلى الله عليه وسلم في إقامة الدين وحفظ حوزة الملة ، بحيث يجب اتباعه . وعرفها صاحب كتاب المقاصد : بأنها رياسة عامة في الدين والدنيا خلافة عن النبي صلى الله عليه وسلم وقال الشيخ عبد السلام : انما يخاطب بوجوب نصب الإمام جميع الأمة من ابتداء موته صلى الله عليه وسلم الى قيام الساعة . فاذا قام به أهل الحل والعقد سقط عن غيرهم ، لا فرق في ذلك بين زمن الفتنة وغيره . هذا مذهب أهل السنة وأكثر المعتزلة اهـ. وقال صاحب كتاب المسامرة : ونصب الإمام بعد انقراض زمن النبوة واجب على الأمة — عندنا — مطلقاً ، سمعا لا عقلاً . وقال الشيخ زين الدين قاسم في تعليقه على كتاب المسامرة : هـذا قول جمهور أهل السنة وأكثر المعتزلة . وقال القرطبي : عند تفسيره قوله تعالى : وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة » ولا خلاف في وجوب نصب الإمام بين الأمة ولا بين الأئمة ، إلا ماروي عن الأصم (من كبار المعتزلة واسمه أبو بكر) حيث كان عن الشريعة أصم . وقال الإمام فخر الدين الرازي في كتابه « المحصل » وأما الذين أوجبوها سمعاً فقط فهم جمهور أصحابنا وأكثر المعتزلة ، وأما الذين لم يقولوا بوجوبها فهم الخوارج والأصم . وقد ذكر العلامة ملا علي القاري إجماع الأمة على الوجوب بقوله : فقد أجمعوا على وجوب نصب الإمام .

وذلك لا يتم إلا بإمام يرجعون إليه في أمورهم (١) ، وقد اجتمعت الصحابة عليه بعد انتقال الرسول ﷺ حتى جعلوه أهم الواجبات ، واشتغلوا به عن دفنه ﷺ لأنه توفي يوم الإثنين عند الزوال ، ودفن ﷺ في آخر ليلة الأربعاء . وقد قال أبو بكر رضي الله تعالى عنه ولا بدا لهذا الأمر ممن يقوم به فانظروا وهاتوا آراءكم ، رحمهم الله تعالى فقالوا من كل جانب من المسجد : صدقت صدقت ، ولم يقل أحد منهم لا حاجة بنا إلى الإمام . واجتمع المهاجرون في شأن الخلافة . فقال لأبي بكر : انطلق بنا إلى إخواننا الأنصار ندخلهم معنا في أمر الخلافة . فقال الانصار :

(١) قال العلامة نصير الدين الطوسي في كتابه « تلخيص المحصل » والأولى أن يعتمد على قوله تعالى « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم » وقوله صلى الله عليه وسلم : « من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية » وذهب شارح كتاب العقائد في استدلاله على الوجوب بقوله صلى الله عليه وسلم « من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية » رواه أحمد والطبراني من حديث معاوية رضي الله عنه ، وقوله صلى الله عليه وسلم « من خلع يداً من طاعة الله لقي الله يوم القيامة ولا حجة له ، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية » رواه الامام مسلم عن معاوية رضي الله عنه . ولأن الأمة قد جعلوها أهم المهات بعد وفاته صلى الله عليه وسلم على مافي الصحيحين من حديث سقيفة بني ساعدة ، وكذا بعد موت كل إمــام . ولأن كثيراً من الواجبات الشرعية يتوقف عليه . فإن قيل : فعلام ماذكرتم من أن مدة الخلافة ثلاثون سنه يكون الزمان بعد الخلفاء الراشدين خالياً من الإمام ، فتعصي الأمة كلها ، وتكون ميتتهم جاهلية . قلنا : لو سلم ، فلعل دور الخلافة ينقضي دون دور الإمامة ، على أن المقصود اندثار دور الخلافة الكاملة . وقال العلامة على القاري في شرحه على الفقه الأكبر : ومذهب أهل السنة وعامة المعتزلة أنه يجب على الخلق سمعاً لقوله صلى الله عليه وسلم « من مات بغير إمام مات ميتة جاهلية » رواه مسلم عن ابن عمر . ولأن الصحابة جعلوه أم المهات حتى قدموه =

منا أمير ومنكم أمير فقال عمر : من ثبت له مثل هذه الفضائل التي لأبي بكر ؟ وقال الله تعالى :

« إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ ، إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا »[1] .

فأثبت بذلك صحبته ومعية كمعية نبيه ﷺ بقوله :

« إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا »

على دفنه صلى الله عليه وسلم ، ولأن المسلمين لا بد لهم من إمام يقوم بتنفيذ أحكامهم ، وإقامة حدودهم ، وسد ثغورهم ، ولتجهيز جيوشهم ، وأخذ صدقاتهم وإقامة الجمع والأعياد ... ونحو ذلك من الواجبات الشرعية التي لا يتولاها آحاد الأمة . وقال القرطبي في تفسيره (ج ١ ص ٢٦٤) عند قوله تعالى « وإذ قال ربك للملائكة » هذه الآية أصل في نصب إمام وخليفة ، يسمع له ويطاع ، لتجتمع به الكلمة ، وتنفذ الأحكام ... ثم قال : ودليلنا هذه الآية وقوله تعالى « ياداوود إنا جعلناك خليفة في الأرض » وقوله « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض » أي يجعل منهم خلفاء ، إلى غير ذلك من الآي ، وأجمعت الأمة على تقديم الصديق بعد اختلاف وقع بين المهاجرين والأنصار في سقيفة بني ساعدة في التعيين ، فلو كان فرض الإمامة غير واجب لا في قريش ولا في غيرهم ، لما ساغت المناظرة والمحاورة عليها إذ قال الأنصار : منا أمير ومنكم أمير . فدفعهم أبو بكر وعمر والمهاجرون عن ذلك بقولهم : إن العرب لا تدين إلا لهذا الحي من قريش . ثم إن الصديق لما حضرته الوفاة عهد إلى عمر في الإمامة ، ولم يقل له أحد : هذا أمر غير واجب علينا ، ولا عليك ، فدل على وجوبها ، وأنها ركن من أركان الدين الذي به قوام المسلمين .

(١) التوبة ٤٠ .

ثم مد يده فبايع أبا بكر وبايعه الناس (١) . ثم أمرهم بجهاز رسول الله ﷺ فاختلفوا : هل يجرد من ثيابه أم يغسل فيها ؟ فألقى الله تعالى عليهم النوم ، ثم سمعوا من ناحية البيت قائلاً يقول لا تغسلوه فإنه طاهر . فقال العباس : لا نترك سنة لصوت لا ندري ما هو ، فغشيهم النعاس ،

---

(١) قال ملا علي القاري : ثم الإمامة تثبت عند أهل السنة والجماعة ، إما باختيار أهل الحل والعقد من العلماء وأصحاب العدل والرأي كما ثبتت إمامة أبي بكر ، وإما بتنصيص الامام وتعيينه ، كما ثبتت إمامة عمر ؛ لا تخلاف أبي بكر إياه . وعزى إلى الحسن البصري أنه قال : نص على إمامة أبي بكر نصاً خفياً ، وهو تقديمه صلى الله عليه وسلم إياه في إمامة الصلاة اهـ . وقد ورد في صحيح البخاري عن عائشة أنها قالت للرسول صلى الله عليه وسلم حين قال : مروا أبا بكر فليصل بالناس ، إن أبا بكر رجل أسيف ـ كثير الأسف وهو الحزن ـ وإنه إن يقم مقامك لا يسمع الناس . فقال : مروا أبا بكر فليصل بالناس . وفي رواية أخرى : أنها قالت لحفصة : قولي له يأمر عمر . فأبى حتى غضب وقال : أنتن صواحب يوسف ، مروا أبا بكر فليصل بالناس » والحديث في مسلم بنحوه . وروى الترمذي عن عائشة قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا ينبغي لقوم فيهم أبو بكر أن يؤمهم غيره » . وفي صحيح مسلم وغيره من حديث عائشة ترفعه قال صلى الله عليه وسلم : إئتوني بدواة وقرطاس أكتب لأبي بكر كتابا لا يختلف عليه اثنان ، ثم قال : يأبى الله والمسلمون إلا أبا بكر . وهو في البخاري من حديثها بمعناه ، وفي البخاري ومسلم عن بن عمر أنه صلى الله عليه وسلم قال : « أريت كأني أنزع بدلو بكرة على قليب . فجاء أبو بكر فنزع ذنوباً أو ذنوبين ـ الذنوب هو الدلو إذا كانت مملوءة ـ نزعاً ضعيفاً . والله يغفر له ثم جاء عمر فاستقى ، فاستحالت غرباً ـ أي دلواً عظيماً ـ فلم أر عبقرياً ـ العبقري هو الرجل القوي الشديد ـ من الناس يفري فريه « أي يعمل عمله » حتى روى الناس ، وضربوا بعطن ، والعطن الموضع الذي تناخ فيه الإبل إذا رويت . بل إن هناك ظواهر تدل بأوضح من هذا على أنه صلى الله عليه وسلم علم بإعلام الله تعالى

. . . .

ن الخلافة من بعده إنما هي لأبي بكر رضي الله عنه فقد أخرج البخاري
جبير بن مطعم أن امرأة أتته صلى الله عليه وسلم فأمرها أن ترجع إليه ،
ت أرأيت إن جئت ولم أجدك – كأنها تقول : الموت – قال صلى الله عليه
م : إن لم تجديني فأتي أبا بكر . » وقد قال أبو الحسن الأشعري « يكفي الواحد
العلماء المشهورين ، من أهل الرأي ، فإذا بايع انعقدت أي الإمامة ، فقد
عمر لأبي عبيدة : ابسط يدك أبايعك . فقال : أتقول لي هذا وأبو بكر
ضر فبايع أبا بكر ، ولم يتوقف أبو بكر إلى انتشار الأخبار في الأقطار
ينكر عليه . وبايع عبد الرحمن عثمان وتبعه أهل الشورى . قال أبو
سن : وإنما يكتفي بالواحد بشرط كونه عقد البيعة منه بمشهد شهود ،
ع الإنكار إن وقع ، بأن ينكر العاقد وقوعه، أو ينكر إنسان آخر انعقاده.
ى هذا قالوا : لايجوز نصب إمامين في عصر واحد لأنه يؤدي إلى منازعات
اصمات مفضية إلى اختلاف أمر الدين والدنيا ، كما يشاهد في زمننا هذا .
ـ صلى الله عليه وسلم « إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما » رواه الامام مسلم عن
سعيد الخدري ، وقال الامام الغزالي : فان اجتمع عدد من الموصوفين بهذه الصفات
امام من انعقدت له البيعة من أكثر الخلق ، . والمخالف باغ يجب رده إلى الإنقياد الى
ـ . وقال ابن الهمام : وكلام غير الغزالي من أهل السنة ، اعتبار السبق ، والثاني يجب
ـه إليه . اهـ . قال ابن حزم « اتفق جميع أهل السنة وجميع المرجئة وجميع الشيعة
يع الخوارج على وجوب الإمامة ، وان الأمة واجب عليها الانقياد لإمام عادل ،
فيهم أحكام الله ويسوسهم بأحكام الشريعة التي أتى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم
النجدات من الخوارج ، فإنهم قالوا : لايلزم الناس فرض الإمام ، وانما عليهم أن
اطوا الحق بينهم . قال ابن حزم : وهذه فرقة ما ترى بقي منهم أحـد . وقولها
ط .. وقال أيضاً : ثم اتفق من ذكرنا ممن يرى فرض الإمامـة : على أنه لايجوز
ن إمامين في وقت واحد في العالم ، ولا يجوز إلا إمام واحد ، إلا محمداً السجستاني وأبا
باح السمرقندي وأصحابهما .. واحتج هؤلاء بقول الأنصار ، أو من قال منهم يوم
قيفة للمهاجرين « منا أمير ومنكم أمير .. ولا حجة لهم فيه .. لأنهم أرادوا أن يلي=

وسمعوا قائلاً يقول غسلوه ، وعليه ثيابه ، فإن ذلك إبليس ، وأنا الخضر [1] ، فغسله علي رضي الله عنه وعليه قميصه ، والعباس وابنه الفضل

= وال منهم فاذا مات ولي من المهاجرين آخر وهكذا أبداً ، ولم يريدوا أن يكون إمامان في وقت » . وقال : « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نص على وجوب الإمامة ، وأنه لايحل بقاء ليلة دون بيعة .. ثم بين ابن حزم أنه متى استجمع الإمام للشروط ، وبويع أضحى واجب الطاعة ، فقال فيــه : فهو الإمام الواجبه طاعته ما قادنا بكتاب الله تعالى وبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أمر الكتاب باتباعها ، فإن زاغ عن شيء منها منع من ذلك وأقيم عليه الحد . فان لم يؤمن أذاه إلا بخلعه خلع ، وولي غيره منهم اهـ . وعن عبد الله بن عمر قال « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فنزلنا منزلاً ، فنا من يصلح خباءه ، ومنا من ينتضل ، ومنا من هو في جشرة إذ نادى منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم : الصلاة جامعة . فاجتمعنا الى الرسول صلى الله وسلم فقال « إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم ، وينذرهم شر ما يعلمه لهم . وان امتكم هذه جعل عافيتها في أولها ، وسيصيب آخرها بلاء وامور تنكرونهـــا ، وستجيء فتن يرقق بعضها بعضاً ، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن : « هذه مهلكتي ثم تنكشف . وتجيء الفتنة فيقول المؤمن هذه هذه . فن أحب أن يزحزح عن النار ، ويدخل الجنة ، فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ، وليأت الى الناس الذي يحب أن يؤتى اليه . ومن بايع إماماً فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه ان استطاع ، فان جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر » رواه الامام مسلم . ينتضل « يسابق بالرمي بالنبل . الجشر الدواب ترعى وتبيت مكانها . يرقق بعضها ، أي يصير بعضها بعضاً رقيقاً أي خفيفاً لعظم ما بعده ، أو يسوق بعضهـــا الى بعض بتحسينها وتسويلها ، أو يشبه بعضها بعضا .

(١) جاء في سيرة عمر بن عبدالعزيز لابن الجوزي ، ومناقب الأبرار لابن خميس ، والكامل لابن الأثير ، وكتاب سيرة عمر ابن عبد العزيز على ما رواه الإمام مالك بن أنس وأصحابه تأليف عبدالله بن عبد الحكم المتوفى سنة ٢١٤هـ (ص ٣٢/ تحت عنوان بشارة الخضر لعمر بالخلافة) قال « وخرج ذات ليلة - أي عمر - على مركب له يسير وحده ، وتبعه مزاحم . فتقدم عمر وتأخر مزاحم ، فنظر مزاحم فاذا هو برجل يساير عمر (وعهده به وحده) وقد وضع ذلك الرجل يده على عاتق عمر . قال مزاحم « فقلت في نفسي » من هذا ؟ ان هذا =

يعينانه ، وقثم وأسامة وشقران مولى المصطفى يصبون الماء ، وأعينهم معصوبة وكفن في ثلاثة أثواب بيض قطن ، ولم يكن في كفنه قميص ولا عمامة ، وصلوا عليه فرادى ، يدخل جماعة ويخرج جماعة . واختلفوا في الموضع الذي يدفن فيه صلى الله عليه وسلم ، فقال أبو بكر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« لا يُدفَنُ نبيٌّ إلاَّ حيثُ قُبِضَ » .

فدفن في بيت عائشة رضي الله عنها .

=لذو دالة عليه ، فحركت للحوق به فأدركته فاذا هو وحده ، لا أرى معه أحداً غيره . فقلت له « رأيت معك رجلاً آنفاً ، قد وضع يده على عاتقك ، وهو يسايرك ، فقلت في نفسي » من هذا ؟ إن هذا لذو دالة عليك ، فلحقتكما فلم أر أحداً غيرك . قال عمر « أوقد رأيته يامزاحم ؟ قال نعم . قال إني لأحسبك رجلاً صالحاً ، ذلك يامزاحم الخضر ، أعلمني أني سألي هذا الأمر وأعان عليه .

١٣١- فَلَيْسَ رُكْناً يُعْتَقَدُ فِي الدِّينْ   وَلَا تَزِغْ عَنْ أَمْرِهِ المُبِينْ

● فليس ركناً : لئن كان نصب الإمام واجباً فإن طريقة اختياره ليست بواجبة ، وما هي ركن من الأركان التي يجب اعتقادها . إذ أن ثمة طرقاً ثلاثة سلكت في اختياره أولها : النص ، وقال به الحنابلة وجماعة من أصحاب الحديث والحسن البصري، وطائفة من الخوارج . وذلك لأن النبي صلى الله عليه وسلم نص على أبي بكر إشارة ، وأبا بكر نص على عمر ، فإما أن ينص المستخلف على واحد معين كما فعله الصديق - وهذا هو الطريق الثاني - وإما أن ينص على جماعة ، كما فعل عمر . ويكون التخيير إليهم في تعيين واحد منهم كما فعل الصحابة رضي الله عنهم في تعيين عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه والثالث : هو إجماع أهل الحل والعقد ، وذلك لأن جماعة في مصر ما إذا ماتت لهم إمام ولم يستخلف ، فأقام أهل ذلك المصر الذي هو حضرة الإمام وموضعه إماماً لأنفسهم اجتمعوا عليه ورضوه ، فإن كل من خلفهم وأمامهم من المسلمين في الآفاق يلزمهم الدخول في طاعة ذلك الإمام ، إذا لم يكن الامام معلناً بالفسق والفساد . ولا يسع أحد التخلف وعلى كل لا نزاع في أن مباحث الامامة التي يعلم الفروع لرجوعها إلى القيام بالإمامة ، ونصب الإمام الموصوف المخصوص من فروض الكفاية ، ولا خفاء في أن ذلك من الأحكام العملية دون الاعتقادية . وإنما ذكرت هنا للتنبيه على أنها من المسائل التي يتميز بها أهل السنة عن المعتزلة والشيعة وسائر المبتدعة .

● ولا تزغ عن أمره : أي لا تخرج عن امتثال أمره ونهيه الواضح

الجاري على قوانين الشرع ولا عن أمر خلفائه ونوابه ، لأن طاعته واجبة على جميع الرعايا بالظاهر والباطن لقوله تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ »[1] .

ولقوله ﷺ :

« مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ ، وَمَنْ أَطَاعَ أَمِيرِي فَقَدْ أَطَاعَنِي ، وَمَنْ عَصَى أَمِيرِي فَقَدْ عَصَانِي »[2] .

لكن لا يطاع في الحرام والمكروه ، فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال :

« عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ إِلَّا أَنْ يُؤْمَرَ بِمَعْصِيَةٍ . فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ »[3] .

أما المباح فإن كان فيه مصلحة عامة المسلمين وجبت طاعته فيه ، وإلا فلا يطاع . فلو نادى بعدم شرب الدخان - مثلاً - وجبت عليهم طاعته لأن في إبطاله مصلحة عامة إذ في تعاطيه خسة لذوي الهيئات ووجوه الناس ، خصوصاً إذا كان في الأماكن العامة .

---

(١) النساء ٥٩ .

(٢) رواه البخاري عن أبي هريرة .

(٣) متفق عليه من حديث ابن عمر .

١٣٢ - إلاّ بكُفرٍ فانْبِذَنْ عَهْدَهُ فاللهُ يَكْفِينا أذاهُ وَحْدَهُ

● إلا بكفر فانبذن : أي إلا إذا أمر الامام بكفر فعندها أطرحن بيعته جبراً ، فإن لم تقدر فسراً ، فعن أم المؤمنين أم سلمة رضي الله تعالى عنها عن النبي ﷺ أنه قال :

« إنَّهُ يُستعمَلُ عليكُم أمراءُ ، فتَعرِفُونَ وتُنكِرونَ . فَمَنْ كَرِهَ فقَدْ بَرِئَ ، ومَنْ أنْكَرَ فقَدْ سَلِمَ ، ولكِنْ مَنْ رَضِيَ وتَابَعَ ! . قالوا : يارسُولَ اللهِ ، ألاَ نُقاتِلُهُمْ ؟ قالَ : لا ، ما أقامُوا فيكُمُ الصَّلاةَ »[1] .

واعلم أنك إذا طرحت بيعته ، فالله تعالى وحده يكفينا أذى ذلك الامام الآمر بالكفر ، إذ هو الذي ناصيته بقدرته .

---

(١) رواه الإمام مسلم . فمن كره فقد برىء « أي من كره بقلبه ، ولم يستطع إنكاراً بيد ولا لسان فقد بريء من الإثم وأدى وظيفته . ومن أنكر فقد سلم » أي من أنكر بحسب طاقته فقد سلم من هذه المعصية . ومن رضي وتابع أي رضي بفعلهم وتابعهم فهو العاصي . قال القرطبي في تفسيره (ج ١ ص ٢٧١) « إذا نصب الامام ثم فسق بعد انبرام العقد قال الجمهور « انه تنفسخ إمامته ، وينخلع بالفسق الظاهر المعلوم، لأنه قد ثبت أن الامام إنما يقام لإقامة الحدود واستيفاء الحقوق ، وحفظ الأموال .. الى غير ذلك ، وما فيه من فسق يقعده عن هذا . على أنه لايجوز ابتداء أن يعقد لفاسق لأجل أنه يؤدي إلى إبطال ما أقيم له . وقال آخرون « لا ينخلع إلا بالكفر ، أو بترك الصلاة أو ترك شيء من الشريعة ، لقوله صلى الله عليه وسلم في حديث عبادة بن الصامت قال « بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة ، في العسر واليسر والمنشط والمكره ، وعلى أثرة علينا ، وعلى أن لاننازع الأمر أهله ، إلا أن تروا كفراً =

• • • • •

=بواحاً عندكم من الله فيه برهان ، وعلى أن نقول بالحق أينا كنا ، لانخاف في الله لومة لائم » متفق عليه والكفر البواح هو الكفر الظاهر الذي لايحتمل التأويل . والأثرة هي الانفراد بالشيء عمن له فيه حق . والمنشط والمكره « السهل والصعب » وقال الإمام الشافعي « ان الامام ينعزل بالفسق والجور ، وكذا كل قاض وأمير . وقال الشيخ عبد الوهاب الشعراني : وفي كتب أصحاب امامنا الشافعي يشترط أن يكون الامام بالغاً ، عاقلاً ، مسلماً، عدلاً، حراً، ذكراً ، مجتهداً ، شجاعاً ، ذا رأي وكفاية، قرشياً، سميعاً بصيراً ، ناطقاً، سليم الأعضاء من نقص يمنع استيفاء الحركة وسرعة النهوض . وقال الشيخ محي الدين « وعندي ان الحاكم إذا جار أو فسق انعزل فيا فسق فيه خاصة لأنه لم يحكم بما أمره الله أن يحكم به . وقال شاه ولي الله الدهلوي : « وبالجملة فاذا كفر الخليفة بإنكار ضروري من ضروريات الدين حل قتاله ، بل وجب . وإلا ، لا ، وذلك لأنه حينئذ « أي عند كفره » فاتت مصلحة نصبه ، بل يخاف مفسدته على القوم ، فصار قتاله من الجهاد في سبيل الله . (ص ٧٣٩ كتاب حجة الله البالغة) .

١٣٣- بِغَيْرِ هذا لا يُبَاحُ صَرْفُهُ وَلَيْسَ يُعْزَلُ إنْ أُزِيلَ وَصْفُهُ

● بغير هذا لا يباح : أي بغير هذا الكفر لا يجوز خلعه ، لا جهراً ولا سراً . وإذا ارتكب المعاصي من غير استحلال لها لا يخلع . كذلك إن ابتدأ مستكملا لشروط الامامة ثم أزيل وصفه السابق – وهو العدالة – بطرو الفسق فإنه لا يعزل عند الله تعالى، وإن استحق العزل خلافاً لطائفة ذهبوا إلى أنه يعزل .

١٣٤ـ وأْمُرْ بِعُرْفٍ واجْتَنِبْ نَمِيمَةً وغِيبَةً وخَصْلَةً ذَمِيمَةً

● وأمر بعرف : لما فرغ من الامامة أعقبها بما يتوقف القيام به عليها غالباً ، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . فقال : وأمر بعرف وانْهَ عن منكر وجوباً كفائياً . ولمّا ترك ذكر النهي عن المنكر لاستلزام الأمر بالمعروف له . والعرف لغة : المعروف ، وهو إسم جامع لكل ماعرف من طاعة الله تعالى ، والتقرب إليه ، والإحسان إلى الناس وكل ماندب إليه الشرع . أو هو ماعرف الشرع ، وهو الواجب والمندوب . والمنكر ضده ، وهو مـا أنكره الشرع ، وهو الحرام والمكروه . فيندب الأمر بالمندوب ، والنهي عن المكروه . ويجب الأمر بالواجب والنهي عن الحرام . فإن قام به بعض الأمة سقط عن البـاقي . وهو فوري إجماعاً . ولا يختص وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمن لايرتكب مثله بل من رأى منكراً وهو يرتكب مثله فعليه أن ينهى عنه . والدليل على الوجوب الكتاب والسنة والإجماع . قال الله تعالى:

« وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ »[1].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول:

« مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَراً فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ ، فَإِنْ لَمْ

(١) آل عمران ١٠٤ .

يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ »[٢].

والمراد بالإيمان – هنا – الأعمال كما قال تعالى :

«وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ »[٣]

أي صلاتكم . ومعنى ضعف الإنكار بالقلب دلالته على غرابة الإسلام وعدم انتظامه . فمراتب الإنكار ثلاث ، أقواها التغيير باليد ، وأضعفها الإنكار بالقلب بأن يكرهه بقلبه ولا يرضى به . وقد أجمع المسلمون الصدر الأول وما بعده على وجوب الأمر بالمعروف ، وكانوا يتواصون بذلك ويوبخون تاركه مع الاقتدار عليه . وأما قوله تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ، لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ »[٤]

فالمعنى إذا فعلتم ما كلفتم به ومنه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لايضركم فعل غيركم المعصية . فالآية دالة على وجوب الأمر بالمعروف لا كما يفهمه بعض القاصرين . وقد قال ابن مسعود : إن من أكبر الذنوب عند الله أن يقال للعبد اتق الله فيقول عليك بنفسك .

(٢) رواه الإمام مسلم

(٣) البقرة : ١٤٣

(٤) المائدة : ١٠٥

وفي الحديث : «مَنْ قِيلَ لَهُ : اتّقِ اللهَ ، فَغَضِبَ ، وَقَفَ يَوْمَ القِيامَةِ لَمْ يَدِقْ مَلَكُ إلاّ مَرَّ بِهِ وقالَ : أنتَ الَّذي قِيلَ لَكَ اتّقِ اللهَ فَغَضِبْتَ» عَلى جِهَةِ التَّوْبيخِ والتَّقْريعِ .

واعلم أن لوجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شروطاً: أحدها أن يكون المتولي لذلك عالماً بما يأمر به وينهى عنه ، فالجاهل بالحكم لايحل له الأمر ولا النهي . فليس للعوام أمر ولا نهي فيما يجهلونه . وأما الذي استوى في معرفته العام والخاص ففيه العالم وغيره الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وثانيها : أن يأمن أن يؤدي انكاره إلى منكر أكبر منه ، كأن ينهى عن شرب الخمر فيؤدي نهيه عنه إلى قتل النفس ، أو نحوه فعدم هذين الشرطين يوجب التحريم . وثالثها : أن يغلب على ظنه أن أمره بالمعروف مؤثر في تحصيله ، وأن نهيه عن المنكر مزيل له . وعدم هذا الشرط يسقط الوجوب ، ويبقى الجواز إذا قطع بعدم الإفادة ، والندب إذا شك فيها وقال أكثر العلماء كالشافعية لايشترط هذا الشرط لأن الذي عليه هو الأمر والنهي وليس عليه قبولهما ، قال تعالى: «ما عَلى الرَّسُولِ إلاّ البَلاغُ»(1)

وقال أيضاً : «وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرى تَنْفَعُ المُؤْمِنينَ»(2)

قال الإمام النووي : قال العلماء : ولا يسقط عن المكلف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لكونه لايفيد في ظنه . بل يجب عليه فعله .

(1) المائدة : ٩٩

(2) الذاريات : ٥٥

● واجتنب نميمة : أي انفر منها وتباعد عنها ، واجتنابها واجب عيني وحقيقتها : نقل كلام الناس بعضهم إلى بعض على وجه الإفساد بينهم . قال الإمام الغزالي : وليست النميمة مختصة بذلك . بل حدها : كشف ما يكره كشفه ، سواء كان الكشف بالقول ، أو الكتابة أو الرمز ، أو نحوه ، وسواء كان المنقول من الأعمال أو من الأحوال ، وسواء كان عيباً أو غيره . قال النووي : فحقيقتها إفشاء السر وهتك الستر عما يكره كشفه قال : وكل مَنْ حُمِلت إليه نميمة لزمه ستة أمور : أن لايصدقه ، لأن النمّام فاسق ، والفاسق مردود . وأن ينهاه عن ذلك وينصحه . وأن يبغضه ، لأنه بغيض عند الله تعالى ، ويجب بغض مَنْ أبغضه الله . وأن لايظن بالمنقول عنه السوء ، لأن الله تعالى قال:

« اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ . إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ »[1].

وأن لايحمله ما حكي له على التجسس لأن الله تعالى قال :

« ولا تَجَسَّسُوا »[2].

وأن لايحكي نميمة عنه ، فيقول : فلان حكى لي كذا . وقد قال ﷺ :

« لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ نَمَّامٌ »[3].

والمراد بعدم الدخول عدمه مع السابقين ، لاعدمه مطلقاً ، إلا إن غُفر له . وكل ذلك مالم تدع الحاجة إليها وإلا جازت ، لأنها حينئذ ليست بنميمة ، بل نصيحة . كما إذا أخبرك شخص بأن فلاناً يريد البطش بمالك

(١ و ٢) الحجرات : ١٢

(٣) متفق عليه من حديث حذيفة .

أو بأهلك مثلاً لتكون على حذر فليس ذلك بحرام ، لما فيه من دفع المفاسد . وقد يكون بعضه واجباً ، كما إذا تيقن وقوع ذلك لو لم يجهر بهذا الخبر . وقد يكون بعضه مستحباً ، كما إذا شك في ذلك ، ذكره النووي .

● وغيبة : أي واجتنب غيبة . والأمر فيه للوجوب العيني .

والغيبة : هي ذكرك أخاك بما يكره ولو بما فيه . فلو ذكرته بحضوره سمي بهتاناً ، وإن ذكرته بما ليس فيه فقد زاد إثم الكذب . عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

« أتدرُونَ ما الغِيبةُ ؟ قالوا : اللهُ ورسولُهُ أعلَمُ . قالَ : ذكرُكَ أخاكَ بما يكرَهُ . قيلَ : أفرأيتَ إنْ كانَ في أخي ما أقولُ ؟ قالَ : إنْ كانَ فيهِ ما تقولُ فقدِ اغتبتَهُ ، وإنْ لمْ يكنْ فيهِ ما تقولُ فقدْ بهتَّهُ »[1] .

ومن الضلال قول بعض العامة : ليس هذا غيبة وإنما هو إخبار بالواقع . وربما جر ذلك إلى الكفر بالاستحلال ، والعياذ بالله . وليست الغيبة مختصة بالذكر فقط . بل ضابطها : كل ما أفهمت به غيرك نقصان مسلم . عن عائشة رضي الله عنها قالت :

قلتُ للنبي ﷺ : حسبُكَ منْ صفيةَ كذا وكذا (قال بعضُ الرُّواة : تعني قصيرة) قال : « لقدْ قلتِ كلمةً لوْ مزجتْ بماءِ البحرِ لمزجتهُ »[2] .

---

(١) رواه الإمام مسلم .

(٢) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح . ومزجته : خالطته مخالطة تتغير بها طعمه أو ريحه لشدة نتنها وقبحها .

وهذا الحديث من أبلغ الزواجر عن الغيبة . ومن الغيبة قول المصنفين قال فلان كذا ، وهو غلط أو خطأ ، إلا إن أريد بذلك بيان الغلط ، أو الخطأ لئلا يقلد . فذلك نصيحة لاغيبة . والغيبة محرمة بالقلب كحرمتها باللسان بالنسبة لمن لم يشاهد ، أما من شاهد فعذر في الاعتقاد ، إلا أنه ينبغي عليه أن يذهب إلى أنه تاب . عن ابن مسعود رضي الله عنه : أنه أتي برجل فقيل له : هذا فلان تقطر لحيته خمراً . فقال إنا قد نهينا عن التجسس ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به . وقال جمع : لاغيبة في الكافر الحربي . وحكم الغيبة التحريم بالإجماع . وفي كتاب الله تعالى :

«أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ»(١)

وفي هذه الآية تنفير شديد لاشتمالها على خمسة أمور هي : كونه لحماً ، وميتاً ، ونيئاً ، ومن آدمي ، وأخ . وكما يحرم على المغتاب ذكر الغيبة يحرم على السامع سماعها وإقرارها فيجب على كل من سمع إنساناً يذكر غيبة محرمة أن ينهاه إن لم يخف ضرراً ظاهراً . عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال :

«مَنْ رَدَّ عَنْ أَخِيهِ رَدَّ اللهُ عَنْ وَجْهِهِ النَّارَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(٢).

فان لم يستطع النهي باليد ، ولا باللسان ، فارق المجلس . فإن قال المنكر بلسانه للمغتاب : اسكت ، وهو يشتهي بقلبه استمراره ، فذلك نفاق ، كما قاله الغزالي . فلا بد من كراهته بقلبه . ومن غيبة المتفقهين

---

(١) الحجرات : ١٢

(٢) رواه الترمذي وقال حديث حسن .

والمتعبدين أنه يقال لأحدهم : كيف حال فلان ؟ فيقول : الله يصلحنا ، أو نسأل الله العافية ، وما أشبه ذلك مما يفهم منه تنقيصه . وكل ذلك غيبة محرمة . واعلم أن العلماء ذكروا أن الغيبة تباح في أحوال لخاصة للمصلحة ، بل ربما وجبت . وهذه الاحوال هي أولا : التظلم : كأن يقول المظلوم لمن له ولاية أو قدرة على إنصافه على ظالمه : فلان ظلمني بكذا . ثانياً : الاستعانة على تغيير المنكر ، كأن يقول لمن يرجو قدرته على إزالة المنكر : فلان يعمل كذا فأعني على منعه . بشرط أن يكون قصده التوصل إلى إزالة المنكر . فإن لم يقصد ذلك كان حراماً. ثالثاً : الاستفتاء ، كأن يقول للمفتي ظلمني أخي أو فلان من الناس ، فهل له ذلك ؟ وما طريقي إلى الخلاص منه ؟ والأحوط والأفضل : أن يقول ما تقول في رجل كان من أمره كذا ؟ . رابعاً : التحذير وذلك من وجوه ، منها جرح المجروحين من الرواة والشهود ، وذلـك جائز بإجماع المسلمين بل واجب للحاجة . ومنها المشاورة في مصاهرة أو مشاركة أو معاملة ، أو إيداع أو مجاورة ، وتذكر المساوىء بنية النصيحة ، ومنها إذا رأى متفقها يتردد إلى مبتدع أو فاسق يأخذ عنه العلم ، فعليه نصيحته ، ببيان حاله ، بشرط قصد النصيحة . خامساً : أن يكون مجاهراً بفسقه ، أو بدعته ، كالمجاهر بشرب الخمر ومصادرة الناس ، وأخذ المكس ، وجباية الأموال ظلماً ، وتولي الأمور الباطلة . فيجوز ذكره بما يجاهر به ، ويحرم بغيره من العيوب . سادساً : التعريف ، كـأن يقول فلان الأعمش ، أو الأصم ، أو الأعمى ، فيمن كان معروفاً بذلك . بشرط أن يكون بنية التعريف ، وإلا كان بنيته حرم .

والتوبة تنفع في الغيبة من حيث الإقدام عليها ، وأما من حيث الوقوع في حرمة "من" هي له فلا بد فيها مع التوبة من الاستعفاء ، إذا بلغت صاحبها . وإن لم تبلغه فيكفي الاستغفار له ، وإن بلغته بعد ذلك بلغته بمحوة . وما يساعد على ترك الغيبة شهود أن ضررها عائد على النفس ، فقد ورد : أنه تؤخذ حسنات المغتاب لمن اغتابه وتطرح عليه سيئاته . وعن ابن المبارك : لو كنت مغتاباً لاغتبت والدي لأنه أحق بحسناتي . فالعاقل من اشتغل بعيوب نفسه . فإن قال لا أعلم لي عيباً فهذا أعظم عيب .

● وخصلة ذميمة : أي واجتنب كل خصلة ذميمة شرعاً . وسيذكر المصنف – فيا يأتي – أنواعاً من الخصل الذميمة كالعجب والحسد اهتماماً بعيوب النفس . لأن بقاء عيوبها مع إصلاح الظاهر إنما هو بمثابة لبس ثياب حسنة على جسد ملطخ بالقاذورات . ومن الخصل الذميمة : الظلم والبغي والغش ، كأن يخلط الرديء بالجيد ، والكذب لغير مصلحة شرعية . (ويجب الكذب لانقاذ مسلم أو لإصلاح ذات بين) . ومنها عقوق الوالدين، وترك الصلاة ، ومنع الزكاة ، والمداهنة إن كان فيها إفساد الدين ، كأن يشكر ظالماً على ظلمه ، أو مبطلاً على باطله . أما إذا توقف عليها دفع محرم فتجب ، وتكره إن كانت وسيلة لمكروه ، وإن خلت عن كل ذلك أبيحت اه . وقد قيل : المداهنة هي بذل الدين لأجل الدنيا ، وأما بذل الدنيا لأجل الدين فتسمى مداراة ، وهي محموده .

● كالعجب : يبين هنا بعض الخصال الذميمة التي نوّه بوجوب اجتنابها . والعجب : هو رؤية العبادة واستعظامها ، كما يعجب العابد بعبادته ، والعالم بعلمه ، فهذا حرام غير مفسد الطاعة . والرياء حرام غير مفسد للطاعة ، خلافاً لمن قال بأنه يفسدها . فإن الذي صرح به بعض المحققين أنه محبط للثواب فقط مع وقوع العمل صحيحاً . وإنما حرم العجب لأنه سوء أدب مع الله تعالى إذ لاينبغي للعبد أن يستعظم مايتقرب به لسيده ، بل يستصغره بالنسبة لعظمة سيده ، لا سيما عظمته سبحانه وتعالى :

« وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ »(١)

أي ماعظموه حق عظمته . ومما يعين على دفع العجب أن الصادق المصدوق أخبر بأنه مهلك ، فعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « ثَلاثٌ مُهْلِكَاتٌ ، شُحٌّ مُطَاعٌ ، وَهَوىً مُتَّبَعٌ ، وإِعْجابُ المَرْءِ بِنَفْسِهِ »(٢).

فإذا أرادت نفسك العجب فقل : عوضك الله في العمل خيراً ، ولا معنى للعجب بما لم يعلم أقبل أم لم يقبل ؟ . على أنه حيث يشهد أن كل شيء من الله تعالى لايبقى له شيء يعجب به .

---

(١) الأنعام : ٩١

(٢) رواه البزار والطبراني والبيهقي في الشعب من حديث أنس بسند ضعيف .

● والكبر : هو بطر الحق وغمص الخلق أو غمط الخلق ، قال ﷺ :

« لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كانَ في قَلْبِهِ مِثْقالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرٍ ، ولا يَدْخُلُ النَّارَ مَنْ كانَ في قَلْبِهِ مِثْقالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إيمانٍ »(١).

وقال أبو هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ :

« يَقُولُ اللهُ تعالى: الْكِبْرِياءُ رِدائي والْعَظَمَةُ إزاري فَمَنْ نازَعَني واحِداً مِنْهُما أَلْقَيْتُهُ في جَهَنَّمَ ولا أُبالي »(٢).

والمراد بعدم دخول الجنة عدمه مع السابقين ، أو عدمه نهائياً إن استحل . وقيل لأول متكبر:

(فَما يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيها ، فَاخْرُجْ فَإِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ)(٣) .

ولا يدخل في الكبر التجمل بالملابس وغيرها ، إذ أنه مندوب في الصلوات والجماعات ونحوها ، وفي حق المرأة لزوجها ، وفي حق العلماء لتعظيم العلم في نفوس الناس ، ويكون واجباً في حق ولاة الأمور وغيرهم إذا توقف عليه تنفيذ الواجب ، فإن الهيئة المزرية لاتصلح معها مصالح العامة في العصور المتأخرة ، لما طبعت عليه النفوس الآن من التعظيم بالصور ويكون حراماً إذا كان وسيلة لمحرم ، ومكروهاً إذا كان وسيلة لمكروه ،

(١) رواه مسلم من حديث ابن مسعود
(٢) رواه مسلم وأبو داوود وابن ماجه
(٣) الأعراف : ١٣

ومباحاً إذا خلا عن هذه الأسباب . قال العلماء بطر الحق : رده على قائله ، أي عدم قبوله منه . وغمص الناس ، احتقارهم والتهاون بهم . وله دواء عقلي وشرعي وعادي . أما العقلي فبأن يعلم أن التأثير لله ، وأنه لايملك لنفسه ، ولا لغيره نفعاً ولا ضراً فلا ينبغي لعاقل أن يتكبر ، فإنه قد استوى القوي والضعيف والرفيع والوضيع في الذل الذاتي .

وقد قيل لسيد الكائنات :

« لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ »[1].

وأما الشرعي فهو الوعيد الوارد فيه . وأما العادي فبأن ينظر لأصله ومآله وتقلباته ، فإن أصله نطفة قذرة أصلها من دم ، وأقام مدة وسط القاذورات ، ثم هو الآن محشو بها ، ومآله جيفة منتنة ، فمن تأمل صفات نفسه عرف مقداره . والمتواضع من عرف الحق ورأى جميع ما معه من فضل الله تعالى ، ولا يحقر شيئاً في مملكة سيده . ومحل كون الكبر حراماً إذا كان على عباد الله الصالحين وأئمة المسلمين ، وهو حينئذ من الكبائر ، ومن أعظم الذنوب القلبية . وأما إذا كان على أعداء الله تعالى فهو مطلوب شرعاً ، والمراد به احتقارهم لأجل كفرهم ومعصيتهم .

● وداء الحسد : وهو تمني زوال نعمة غيره سواء تمناها لنفسه ، أو لا . بخلاف ما إذا تمنى مثل نعمة غيره فإنه غبطة محمودة في الخير ،

وقال صلى الله عليه وسلم :

« لا حَسَدَ إلاّ في اثْنَتَيْنِ ، رَجُلٌ آتاهُ اللهُ مالاً ، فَهُوَ يُنْفِقُ

---

(١) آل عمران ١٢٨ .

منهُ آناءَ اللَّيلِ وآناءَ النهارِ ، ورجلٌ آتاهُ اللهُ القرآنَ فهوَ يقومُ بهِ آناءَ اللَّيلِ وآناءَ النَّهارِ »(١) .

ودليل تحريمه الكتاب والسنة والإجماع

قال تعالى : « ومِنْ شرِّ حاسدٍ إذا حسدَ » .

وقال صلى الله عليه وسلم

« إيَّاكمْ والحسدَ ، فإنَّ الحسدَ يأكلُ الحسناتِ كما تأكلُ النَّارُ الحطبَ ، أو قال العشبَ »(٢) .

ودواء الحسد النظر للوعيد مع أنه إساءة أدب مع الله تعالى كأنه لا يسلم له حكمه .

● وكالمراء : هو لغة الاستخراج . يقال : مارى فلان فلاناً ، إذا استخرج ماعنده ، وعرفاً : منازعة غيره فيا يدعي صوابه . ومحل كونه مذموماً إذا كان لتحقير غيرك ، وإظهار مزيتك عليه . وقد ورد في الحديث :

« هلكَ المتنطِّعونَ ـ ثلاثاً ـ . أي المتعمِّقونَ في البحثِ . وورد أيضاً : « سيكونُ في أمَّتي أقوامٌ يُغلِّقونَ فقهاءَهُمْ بعُضَلِ المسائلِ أولئكَ شرارُ أمَّتي »(٣) .

وأما إذا كان المراء لإحقاق حق ، وإبطال باطل فممدوح شرعاً ، ولو من ولد لوالده ، فيكون عقوقاً محموداً .

(١) رواه البخاري ومسلم .
(٢) رواه أبو داوود .
(٣) أخرجه الطبراني عن ثوبان .

● والجدل : وهو دفع الشخص خصمه عن إفساد قوله بحجـــة ، قاصداً به تصحيح كلامه . وعليه فالفرق بينه وبين المراء: أن الجدال يكون من قبل صاحب القول ، يدفع عن قوله الإفساد ، والمراء يكون من قبل الخصم . وإذا حققت النظر وجدتها بمعنى واحد ،وحينئذ تقول في تعريفها : مقابلة الحجة بالحجة . ومحل حرمته إذا كان لإفساد قول غيره ، بخلاف ما إذا كان لإحقاق حق أو إبطال باطل . قال الإمام الشافعي : ما ذاكرت أحداً وقصدت إفحامه ، وإنما أذاكره لإظهار الحق من حيث هو حق .

● فاعتمد : يشير المصنف ــ هنا ــ إلى انقضاء فن العقائد . فيقول : فاعتمد على ماذكرته قبل ، لأنه مذهب أهل السنة والجماعة .

١٣٦ـ وكُنْ كما كانَ خيارُ الخلقِ حليفَ حِلْمٍ تابعاً للحقِّ

● وكن كما كان... : هذا من باب التخلص من التخلية المنوه عنها باجتنب ، إلى التحلية بالفضائل المشار إليها بقوله : وكن . وقد ذكر المصنف شيئاً من فن التصوف ومنه مباحث النميمة وما بها من المهلكات ، فبي تصوف . وقد عرفوه : بأنه علم بأصول يعرف بها إصلاح القلب وسائر الحواس . وفائدته : صلاح أحوال الإنسان لما فيه من الحث على تصفية الاعتقاد ، وكمال الأعمال بالسداد . قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى : هو تجريد القلب لله تعالى ، واحتقار ماسواه ، يعني تخليص القلب لله تعالى ، واعتقاد أن ماسواه لا ينفع ولا يضر ، فلا يعول إلا على الله، وليس المراد به الإزدراء والتنقيص . والحق أن التصوف ثمرة جميع علوم الشريعة ، وليس قواعد مخصوصة مدونة . قال سهل بن عبد الله : الصوفي من صفى من الكدر وامتلأ من العبر وانقطع إلى الله عن البشر وتساوى عنده الذهب والمدر .

● خيار الخلق : أي كن متصفاً بأخلاق مثل الأخلاق التي كان عليها خيار الخلق . وخيار الخلق هو الرسول صلى الله عليه وسلم . لأنه جمع ما تفرق في غيره من الخصال الحميدة ، فهو الخيار المطلق . والأولى أن يراد بالخيار كل من ثبتت له الخيرية ، ولو بالنسبة لمن دونه ، فيشمل الرسول صلى الله عليه وسلم والأنبياء والعلماء والشهداء والأولياء ، والزهاد ، والعباد ، وإذا كانت المجاهدة على يد شيخ من العارفين ـ وهو من بدت عليه علائم الورع والزهد والتواضع والتمسك بالشرع والحض عليه ، والحرص

على خدمة المؤمنين - كانت أنفع . وقد قيل : حال رجل في ألف رجل أنفع من وعظ ألف رجل في رجل . فينبغي لزوم شيخ عارف مستقيم على الكتاب والسنة بأن يزنه قبل الأخذ عنه ، فإن وجده على الكتاب والسنة لازمه وتأدب معه ، فعساه يكتسب من حاله مايكون به صفاء باطنه ، والله يتولى الهداية .

● حليف حلم : الحليف بمعنى الحالف والملازم . والحلم بمعنى تحمل مشاق عباد الله بحيث لايستفزك الشيطان ، ولا الهوى ، ولا يحركك الغضب إلا في إنكار المنكرات ، فليس الشجاع بالصرعة ، إنما الشجاع من يملك نفسه عند الغضب ، فكن حليف حلم ، وخص الحلم مع دخوله في عموم ماكان عليه خيار الخلق اهتماماً به ، ولأنه وصف جامع لأوصاف الخير ، لكن الحلم فيا يغضب الله تعالى مذموم .

● تابعاً للحق : المراد بالحق - هنا - الله تعالى ، لأن الحق من أسمائه . ويحتمل أن يكون المراد بالحق الأحكام الحقة . ولا يخفى عليك - أيها الموفق - أنك لاتكون تابعاً للحق إلا إذا كنت متمسكاً به ، ممتثلا لأوامره ، مجتنباً لنواهيه ، عارضاً جميع أقوالك وأفعالك واعتقاداتك على الشريعة الغراء .

١٣٧ ـ فَكُلُّ خَيْرٍ فِي اتِّبَاعِ مَنْ سَلَفْ
وَكُلُّ شَرٍّ فِي ابْتِـدَاعِ مَنْ خَلَفْ

● فكل خير في اتباع من سلف : لما أمر في قوله : وكن كما كان ... علل هنا بأن كل خير إنما هو في اتباع من تقدم من الصالحين الأبرار ، خصوصاً الأئمة الأربعة المجتهدين الذين انعقد الإجماع على امتناع الخروج عن مذاهبهم في الإفتاء والحكم . فكن كما كان خيار الخلق ولا تكن كما كان شرارهم ، لأن كل شر في ابتـداع من خلف . وهم من تأخر من الخلف السوء الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات . واعلم أن البدعة إنما تعتريها الأحكام الخمسة . فتارة تكون واجبة ، كضبط المصاحف وتدوين الشريعة ، وتارة تكون محرمة كالمكوس وسائر المحدثات المنافية للقواعد الشرعية والعقائد الفاسدة الزائغة التي ابتدعها أناس ملئوا حقداً وضغناً على الإسلام وأهله وتارة تكون مندوبة ، كصلاة التراويح جماعة ، لذا قال سيدنا عمر رضي الله عنه في التراويح عندما جمع الناس عليها : نعمة البدعة هذه ، رواه البخاري .

وتارة تكون مكروهة ، كزخرفة المساجد وتزويق المصاحف . وتارة تكون مباحة ، كاتخاذ المناخل للدقيق ، وإنما كانت مباحة لأن لين العيش وإصلاحه من المباحات فوسائله مباحة .

١٣٨- وكلُّ هَدْيٍ للنَّبيِّ قَدْ رَجَحْ فَمَا أُبِيحَ افْعَلْ وَدَعْ مَا لَمْ يُبَحْ

١٣٩- فَتَابِعِ الصَّالِحَ مِمَّنْ سَلَفَا وَجَانِبِ البِدْعَةَ مِمَّنْ خَلَفَا

● وكل هدي : أي وكل هدي منسوب للنبي ﷺ قد رجح على ما لم ينسب له ﷺ من الأقوال والأفعال والاعتقاد ، فأفضل الأحوال أحواله ﷺ التي لم تنسخ ، بخلاف ما نسخ كقيام الليل كله ، وليس المقصود بها مجرد بيان الجواز ، كوضوئه ﷺ مرة مرة ، ولا ما قام الدليل على اختصاصه به ﷺ .

● فما أبيح أفعل : أي فما لم ينه عنه – ولو تنزيهاً – أفعله .

فالمراد بما أبيح الواجب والمندوب والمباح . والمباح هو ما استوى طرفاه ، أي فعله وتركه . أما مالم يبح فعله – وهو المنهي عنه – بأن كان محرماً ، أو مكروهاً ، أو خلاف الأولى ، فدعه ولا تلتفت اليه .

● فتابع الصالح : أي فتابع في عقائدك وأقوالك وأفعالك ، الفريق الصالح من سلف . قال عليه الصلاة والسلام :

« أوصيكُم بتقوى اللهِ عز وجلّ ، والسمعِ والطاعةِ وإنْ تأمّرَ عليكمْ عبدٌ فإنه من يعشْ منكمْ فسيَرى اختلافاً كثيراً ، فعليكمْ بسُنّتي وسُنّةِ الخلفاءِ الراشدينَ المهديينَ عَضُّوا عليها بالنواجذِ ، وإياكُم ومُحْدَثاتِ الأمورِ فإنّ كلَّ بدعة ضَلالةٌ »[1].

والصالح هو من قام بحقوق الله تعالى وحقوق العباد ، ويطلق على النبي كما يطلق على الولي إلا أن الصلاح في الأنبياء أكمل ، ومهما بلغ الولي في رتبة الصلاح فإنه لن يبلغ أولى مراتب النبوة .

(١) رواه أبو داوود والترمذي وقال : حسن صحيح .

● وجانب البدعة : أي واترك البدعة المذمومة بمن جاء بعد خواص الصحابة وعلمائهم . وقد علمت أن البدعة تعتريها الأحكام الخمسة . والحاصل أن كل ماوافق الكتاب والسنة أو الإجماع والقياس فهو سنة ، وما خرج عن ذلك فهو بدعة مذمومة .

١٤٠- هذا وأرجو اللهَ في الإخلاصِ مِنَ الرِّياءِ ثمَّ في الخلاصِ

١٤١- مِنَ الرَّجيمِ ثمَّ نفسي والهوى فمَنْ يَمِلْ لهؤلاءِ قد غوى

● هذا وأرجو الله[1]: أي افهم هذا ، أو هـذا المذكور لك في المنظومة إنما هو مذهب أهل السنة . وقد أتى بهذا للانتقال من الأمر بمتابعة السلف ومجانبة البدعة بمن خلف إلى غوض آخر ، وهو - هنا - رجاء الإخلاص . والرجاء هو تعلق القلب بمرغوب فيه مع الأخذ في الأسباب . قال ابن الجوزي : مثل الراجي مع الإصرار على المعصية كمثل من رجا حصاداً ، وما زرع ، أو ولداً وما تزوج ، قال الشاعر :

ما بال دينك ترضى أن تدنسه ... وثوبك - الدهر - مغسول من الدنس

ترجو النجاة ، ولم تسلك طريقتها ... إن السفينة لاتجري على اليبس

وقد رجا الناظم الله تعالى بأن يهبه الإخلاص في عمله ، والإخلاص : هو قصد الله وحده بالعبادة ، وهو سبب الخلاص من أهوال يوم القيامة ، وواجب عيني على كل مكلف في جميع الطاعات ، قال تعالى :

« وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ »[2] ، وقال تعالى : « لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا ، وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ »[3] .

ومما يعين على الإخلاص استحضار أن ماسوى الله تعالى لاشيء بيده ، وأن كل شيء إنما هو بيد الله عز وجل . والصادق في إخلاصه لايحب

(١) هذا « إما مفعول لفعل محذوف تقديره « افهم » . أو مبتدأ وخبره محذوف ، وتقديره هذا المذكور لك مذهب أهل السنة .

(٢) البينة : ٥

(٣) الحج : ٣٧

اطلاع الناس على حسن عمله ، ولا يكره أن يطلع الشياطين على سيئه ، ولا يبالي بخروج قدره من قلوب الخلق .

● من الرياء : أي بدل الرياء ، والمعنى : وارجو الله في الإخلاص بدل الرياء[1] . والرياء هو أن يعمل العبد القربة ليراه الناس . وأما التسميع فهو أن يعمل العمل وحده ثم يخبر به الناس لأجل تعظيمهم له أو لجلب خير منهم . وكل من الرياء والتسميع محبط للثواب مع صحة العمل ، خلافاً لما نص عليه السادة المالكية من أنه مبطل للعبادة . وقول الحسن : ومن أعطى غيره شيئاً حياء منه ، له فيه أجر . وقول ابن سيرين من تبع جنازة حياء من أهلها فلا أجر . وكل من هذين القولين محمول على ما إذا قصد جبر خاطر من أعطاه ، وخاطر أهل الجنازة ، لله تعالى ، وإلا فهو رياء . قال تعالى :

« فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ، الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ، الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ »[2] .

والرياء قسمان : جلي وخفي ، فالأول : أن يفعل الطاعة بحضرة الناس ليس غير ، فإن خلا بنفسه لايفعل شيئاً . والثاني : أن يفعلها مطلقاً حضر الناس ، أو لا ، لكنه يفرح عند حضورهم . قال الفضيل بن عياض : العمل لأجل الناس شرك ، وترك العمل لأجل الناس رياء ، والإخلاص أن يعافيك الله منها . فمن عزم على عبادة فتركها خوف الناس فهو مراء ، إلا أن يتركها ليفعلها في الخلوة فهو مستحب .

(١) من : ليست للتعدية ، وإنما هي بمعنى بدل .
(٢) الماعون من ٣ الى ٧ .

● ثم في الخلاص ... : أي وأرجو الله في الخلاص من الوقوع في كيد الشيطان الرجيم وحبائله . ومن مكايد نفسي التي هي أشد ، وفي الهوى .

قال الله تعالى :

« إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا »[1] .

أي فأعلنوا عداوته ومخالفته في عقائدكم وأقوالكم وأفعالكم ، وكونوا منه على حذر في جميع الأحوال . والمراد بالنفس – هنا النفس الأمارة – وهي التي تأمر بالسوء ولا تأمر بالخير إلا نادراً ، بخلاف اللوامة ، وهي التي تغلب صاحبها ثم ترجع عليه باللوم على ما وقع منه ، لكونها أذعنت للحق بسبب المجاهدة، وبخلاف الملهمة، وهي التي ألهمت فجورها وتقواها بسبب المجاهدة ، والمطمئنة، وهي التي اطمأنت إلى مكارم الأخلاق، والراضية، وهي التي رضيت بالله تعالى رباً من غير منازعة باطنية بسبب المجاهدة،والمرضية ، وهي التي تجلى الله تعالى عليها بالرضى والعفو عما مضى ، والكاملة ، وهي التي صارت الكمالات لها طبعاً وسجية ، ومع ذلك تترقى في الكمال . ثم بعد كمال النفس لايجوز للشخص أن يتصدى للإرشاد إلا بإذن صريح . والهوى : هو ميل النفس إلى مرغوبها ولو كان فيه هلاكها ، وإذا ما أطلق انصرف الميل الى خلاف الحق ، وقد يستعمل في الميل للحق ، وذلك إذا قيد وإنما سمي هوى لأنه يهوي بصاحبه في النار .

● فمن يمل ... : أي فمن يمل للشيطان أو النفس أو الهوى فقد غوى ، فهذه الثلاثة التي هي منشأ كل فتنة ، من ملكته ، وغلبت عليه ، فقد فارق الرشد ، وخرج عن الاستقامة

(١) فاطر ٦ .

١٤٢ـ هذا وأرجو الله أن يمنحنا عند السؤال مطلقاً حجتنا

● هذا وأرجو الله ... : أي هذا مطلوبي ، أو أسأل هذا ، وإنما أتى بلفظ : هذا للتخلص من بحث إلى غيره . فهو يرجو الله تعالى رجاء متجدداً بتجدد الأحوال والأزمنة والأمكنة أن يمنحنا ـ نحن معاشر المسلمين ، أو أهل العلم ، أو الناظم ويكون تعبيره بضمير العظمة لإظهار سبب العظمة ، وهو تأهيل الله تعالى إياه لطلب الدعاء ، أو لطلب العلم ، تحدثاً بالنعمة ، وهذا لاينافي أنه متذلل متخاضع لمولاه ـ الحجة عند ورود السؤال علينا ، سواء كان السؤال في الدنيا أو في عالم القبر أو في عالم يوم القيامة ، كما يفهم من قوله .

● عند السؤال مطلقاً : والحجة إن كانت لسؤال في الدنيا فمعناها : امنحنا ما نحتج به على جواب ذلك السؤال احتجاجاً صحيحاً شرعياً بحيث لامطعن فيه ، ولا امتناع من قبوله . وإن كانت لسؤال في الآخرة ، فمعناها : امنحنا نفس الجواب النافع لنا ، لأنه لم يرد أن الملائكة يطلبون من الميت بعد جوابه على سؤالهم إياه دليلاً يثبت به الجواب ، بل متى وفقه الله تعالى وأجابهم انصرفوا عنه ، وقالوا له : نم نومة العروس . وقال بعض العارفين : من ألطف منح الله تعالى الحجة للإنسان عند السؤال قوله عز وجل:

« يأيها الإنسان ما غرك بربك الكريم »(١) .

فإنه ألهمه الحجة بأن يقول : غرني كرمك يارب .

(١) الانفطار : ٦

١٤٣- ثُمَّ الصَّلاةُ والسَّلامُ الدَّائِمُ عَلَى نَبِيٍّ دَأْبُهُ المَرَاحِمُ
١٤٤- مُحَمَّدٍ وآلِهِ وعِتْرَتِهْ وتابِعٍ لِنَهْجِهِ مِنْ أُمَّتِهْ

● ثم الصلاة والسلام : تقدمت مباحث الصلاة والسلام . وإنما قدم المؤلف الصلاة والسلام وختم بها رجاء لقبول مابينهما ، لأن الصلاة مقبولة لا مردودة ، والله تعالى أكرم من أن يقبل صلاتين ويرد مابينهما ، ولا ينبغي لمن أوردهما في آخر عمله أن يقصد بها الإعلام بالتمام ، فإن فعل وقع في الكراهة ، مثل قول بعضهم : الله أعلم ، عند التمام ، إن قصد به الإعلام ، وإنما ينبغي به التفويض إلى علم الله عز وجل .

● الدائم، على نبي : يحتمل السلام الدائم ، أو الصلاة الدائمة مع السلام الدائم على نبي عادته المستمرة الرحمة للعالمين ، ففيه تلميح لقوله تعالى «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ»(١).

● محمد : ترك الناظم وصفه صلى الله عليه وسلم بالسيادة لضرورة النظم ، إذ يستحب وصفه بها أدباً ، كما قال الجلال المحلي .

● وآله وعترته : تقدم الكلام على الآل ، والعترة هم أهل البيت .

● وتابع لنهجه : أي كل متبع لطريقته ولو في الإيمان فقط ، فيدخل العصاة ، والقصد بها التعميم في الدعاء لأنه أفضل .

● من أمته : المقصود – هنا – أمة الإجابة ، والسيد المسيح عليه الصلاة والسلام يعتبر بعد نزوله من أمته ، لأنه يتبع شرعه صلى الله عليه وسلم . • تم شرح الجوهرة ، والحمد لله رب العالمين .

(١) الأنبياء : ١٠٧

● **ترجمة اللقاني توفي ١٠٤١ هـ ١٦٣١ م**

هو إبراهيم بن إبراهيم بن حسن اللقاني ، أبو الامـداد ، برهان الدين : فاضل متصوف مصري مالكي ، نسبته إلى « لقانة » من البحيرة بمصر توفي بقرب العقبة عائداً من الحج ، له كتب منها « جوهرة التوحيد » منظومة في العقـائد ، وهي هذه التي عكفنا على شرحهـا ، و « بهجـة المحافل » في التعريف برواة الشمائل ، و « حاشية على مختصر خليـل » فقه ، و « نشر المآثر فيمن أدركتهم مـن علماء القرن العاشر » تراجم لـم يتمـه ، و « قضاء الوطر » حاشية على العسقلاني في مصطلح الحديث .

● **ترجمة الباجوري ولد ١١٩٨ وتوفي ١٢٧٧ هـ[1] أي ١٧٨٤ ــ ١٨٦٠م**

هو إبراهيم بن محمد بن أحمد الباجوري : شيخ الجامع الأزهر ، من فقهاء الشافعية ، نسبة إلى « الباجور » (من قرى المنوفية ، بمصر) ولد ونشأ فيها ، وتعلم في الأزهر ، وكتب حواشي كثيرة ، منها « حاشية على مختصر السنوسي » في المنطق ، و « التحفة الخيرية » حاشية على الشنشورية في الفرائض ، و « تحفة المريد على جوهرة التوحيد » وهذه التي اعتمدناها في شرحنـا للجوهرة ، و « تحقيق المقـام » حاشية عـلى كفاية العوام للغفناني في علم الكلام ، و « حاشية على أم البراهين والعقائد للسنوسي » توحيـد ، و « المواهب اللدنية » حاشية على شمائل الترمذي ، وله « فتح الخبير اللطيف » في الصرف ، و « الدرر الحسان » فيما يحصل به الإسلام والإيمان ، و « تحفة البشر على ابن حجر » وغير ذلك ، تقلد ــ رحمه الله ــ مشيخة الأزهر سنة ١٢٦٣ هـ ، واستمر إلى أن توفي بالقاهرة .

---

(١) ورد في كتاب « هدية العارفين » وفي « إيضاح المكنون » أيضا ان وفاته كانت عام ١٢٧٦ هـ .

متن الجوهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

			صفحة
١	— الحمدُ للهِ على صِلاتهِ	ثم سلامُ اللهِ مع صَلاتهِ	١٣
٢	— على نبيٍ جاءَ بالتوحيدِ	وقدْ خلاَ الدينُ عن التوحيدِ	١٧
٣	— فأرشدَ الخلقَ لدينِ الحقْ	بسيفهِ وهديهِ للحقْ	٢٣
٤	— محمدِ العاقبْ لرسلِ ربهِ	وآلهِ وصحبهِ وحزبهِ	٢٦
٥	— وبعدُ فالعلمُ بأصلِ الدينِ	محتمٌ يحتاجُ للتبيينِ	٣١
٦	لكنْ منَ التطويلِ كلتِ الهممْ	فصارَ فيهِ الاختصارُ ملتزمْ	٣٩
٧	— وهذه أرجوزةٌ لقبتُها	جوهرة التوحيدِ قدْ هذبتُها	٤٠
٨	— واللهَ أرجو في القَبولِ نافعاً	بها مريداً للثوابِ طامعاً	٤٠
٩	— فكل منْ كلِّفَ شرعاً وجبا	عليه أن يعرفَ ما قدْ وجبا	٤٣
١٠	— للهِ والجائزَ والممتنعا	ومثلُ ذا لرسلهِ فاستمعا	٤٣
١١	— إذْ كلُّ منْ قلدَ في التوحيدِ	إيمانُه لم يخلُ من ترديدِ	٥٤
١٢	— ففيهِ بعضُ القومِ يحكي الخلفا	وبعضُهم حقَّق فيه الكشفا	٥٥

صفحة

صفحة

فهرس مباحث الكتاب

الموضوع	رقم البيت

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الذال

حرف الراء

حرف الياء